جون لوكاريه

سمكري خيّاط جُندي جاسوس

ترجمة: يزن الحاج





سمكري خيّاط

جُندي جاسوس

في أجواء الحرب الباردة تدور أحداث هذه الرواية التي تكرّرت طبعاتها، وتحوّلت إلى فيلم سينما، وتتناول الصراع بين المخابرات البريطانية والمخابرات الروسية في أوروبا.

بحبكة متقنة من أستاذ كبير في هذا النوع من الرواية يقدّم جون لو كارّيه صورة لتلك المرحلة التي عاشها شخصيًا قبل أن يصبح أحد أبرز كتّاب رواية التشويق التي تجعل القارىء مركّزًا بكل أحاسيسه لمتابعة الخيوط التي ينسجها ببراعة وشغف.

جون لو كارّيه، روائيّ بريطانيّ، عمل لسنوات في الاستخبارات البريطانيّة، حيث كتب ثلاث روايات قبل أن يترك عمله ويتفرّغ للكتابة. صنّفته صحيفة التايمز ك كأحد أفضل 50 كاتبًا بريطانيًا منذ العام 1945.

يُنظَر إلى رواية سمكريّ خيّاط جنديّ جاسوس، كأفضل روايات لو كاريه، بل تعتبر من بين أفضل الروايات البريطانيّة في النصف الثاني من القرن العشرين على الإطلاق.

يُعتبر جون لوكارّيه أستاذًا في فن رواية الجاسوسية، فالتدفّق المستمر للانفعالات والمشاعر يرفعه فوق معظم الروائيين الآخرين.

"فايننشل تايمز"

تصميم الغلاف نجاح طاهر




ISBN 978-977-6483-45-3



جون لو كاريه

سمكريّ خيّاط

جندي جاسوس

ترجمة يزن الحاج

الكتاب: سمكريّ خيّاط جندي جاسوس/ رواية
المؤلف: جون لو كاريه
ترجمة: يزن الحاج
عدد الصفحات: 416 صفحة
الترقيم الدولي: 978-977-6483-45-3
رقم الناشر: 2015/17532
الطبعة الأولى: 2015

هذه ترجمة مرخّصة لكتاب:
Tinker, Tailor, Soldier, Spy
تأليف: *John le Carré*

الناشر:



منشورات الرمل - مصر
مصر: القاهرة-وسط البلد -19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا)-الدور 8-شقة 82
هاتف: 0020223921332
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer. com

توزيع دار التنوير
بيروت - القاهرة - تونس

جون لو كاريه

سمكريّ خيّاط جندي جاسوس

ترجمة يزن الحاج



المؤلف، جون لو كاريه (1931):

الاسم الأدبيّ لديفيد جون مور كورنوِل. روائيّ بريطانيّ، أصدر حتى الآن 21 رواية، وعددًا من الكتب الأخرى. دَرَس في جامعتي برن وأوكسفورد، وتخرّج بشهادة في اللغات الحديثة. عمل لسنوات في الاستخبارات البريطانيّة، حيث كتب ثلاث روايات قبل أن يترك عمله ويتفرّغ للكتابة. صنّفته صحيفة التايمز على أنّه أحد أفضل 50 كاتبًا بريطانيًا منذ العام 1945. نال الكثير من التكريمات وشهادات الدكتوراه الفخريّة كان آخرها ميداليّة غوته (2011)، وشهادة دكتوراه فخرية من جامعة أوكسفورد (2012). رواية **سمكريّ خيّاط جنديّ جاسوس**، هي الجزء الأول من «ثلاثيّة كارلا» (1974-1979) [**سمكريّ خيّاط جندي جاسوس، التلميذ المشرِّف، جماعة سمايلي**]، ويعتبرها كثيرون أفضل روايات لو كاريه، فيما اعتبرها آخرون من بين أفضل الروايات البريطانيّة في النصف الثاني من القرن العشرين على الإطلاق.

المترجم، يزن الحاج (1985):

كاتب ومترجم سوريّ. أصدر مجموعة قصصيّة، **شبابيك** (2011)، وترجم عددًا من الكتب عن الإنكليزيّة، صدر منها عن دار التنوير: آلان باديو وسلافوي جيجك، **الفلسفة في الحاضر** (2013)، وإيزايا برلين، **الحرّية:خمس مقالات عن الحرّية** (2015).

إلى جيمس بينِتْ ودَسْتي رودز

في ذكراهما

القسم الأول

1

في الحقيقة، لو لم يسقط العجوز ميجور دوفر ميتًا في سباقات تاونتن، لم يكن جِمْ ليأتي إلى مدرسة ثيرزغود على الإطلاق. وُظّف في منتصف الفصل الدراسيّ من دون إجراء مقابلة. وكانت نهاية أيار/ مايو بالرغم من أنّ أحدًا لم يعرف ذلك من الطقس، عندما تمّ توظيفه عبر إحدى الوكالات المُراوغة المتخصّصة في المدرّسين البُدلاء للمدارس الإعداديّة، لمتابعة المهمّة التدريسيّة للعجوز دوفر إلى حين إيجاد بديلٍ مناسب. «لغويّ» قال ثيرزغود في غرفة استراحة المدرّسين، «إجراءٌ موقّت»، ورفع غرّته بحركةٍ دفاعيّة. «بريدو». أعطى التهجئة «P–R–I–D» – لم تكن الفرنسيّة من اختصاص ثيرزغود لذا استعان بقُصاصة الورق – «E–A–U–X»، الاسم الأول جيمس. أعتقد بأنّه سيؤدّي غرضنا على نحو مثالي حتى تموز/ يوليو». لم يُلاقِ الكادر أدنى صعوبة في قراءة الإشارات. كان جِمْ بريدو أبيض فقيرًا في المجتمع التدريسيّ. كان ينتمي إلى الجماعة البائسة ذاتها كالراحلة السيدة لفداي التي كانت تمتلك معطفًا فارسيًا من صوف الحَمَل وتضطلع بمهمّة اللاهوت الابتدائيّ إلى حين قبض الرواتب، أو الراحل السيد مالتبي، عازف البيانو الذي تمّ استدعاؤه من تدريب الجوقة

لمساعدة الشرطة في تحقيقاتهم، وكان الجميع يعلم بأنّه يساعدهم إلى اليوم، إذ لا يزال صندوق سيارة مالتبي قابعًا في المخزن ينتظر التعليمات. كان عدة أشخاص من الكادر، مارجوريبانكس خصوصًا، راغبين بفتح ذلك الصندوق. قالوا إنّه يحوي كنوزًا مفقودة شهيرة: الصورة ذات الإطار الفضيّ الخاصة بأبراهيميان تعود لأمّه اللبنانيّة، مثلًا؛ سكّين الجيش السويسريّ الخاصة ببست-إنغرام وساعة ماترون. ولكنّ ثيرزغود أدار وجهه الصارم بحزم أمام توسّلاتهم. خمس سنوات فحسب مرّتْ منذ أن ورث المدرسة من والده، ولكنّهم كانوا قد علّموه أساسًا أنّ من الأفضل ترك أشياء مُقفَلًا عليها.

وصل جِمْ بريدو يوم جمعةٍ في أثناء عاصفة مَطَريّة. كان المطر يهطل كدخان بندقيّة مصنوعة من الأخشاب البنيّة لهضاب الكوانتوكس، ثم يجري عبر حقول الكريكت الخاوية إلى الحجر الرمليّ للواجهات المتفتّتة. وصل بعد الغداء مباشرة، يقود سيارة ألفيس حمراء قديمة ويجرّ مقطورة مستعملة كانت زرقاء في ما مضى. كانت بداية الظهيرة في مدرسة ثيرزغود وقتًا هادئًا، هدنةً موجزةً في القتال الدائر كلَّ يومٍ دراسيّ. يتم إرسال الأولاد إلى الاستراحة في سكنهم، في حين يجلسُ الكادر التدريسيّ في غرفة الاستراحة لشرب القهوة وقراءة الجرائد أو تصحيح أوراق الأولاد. يقرأ ثيرزغود روايةً لأمه. من المدرسة بأسرها، إذًا، وحده الصغير بِلْ روتش شاهد وصول جم، حيث رأى البخار المتصاعد من غطاء محرّك الألفيس وهي تئزّ على الطريق نزولًا على الموقف المنقَّط. مسّاحتا الزجاج الأماميّ تصفقان بأقصى سرعتهما، والمقطورة ترتعش في برك الأمطار خلف السيارة.

كان روتش ولدًا جديدًا آنذاك، درجاته ضعيفة في المدرسة، إنْ لم تكن متدنّية بالأحرى. كانت ثيرزغود مدرِّسته الإعداديّة الثانية خلال فصلين دراسيَّيْن. كان طفلًا بدينًا مصابًا بالربو، يقضي فترات طويلة من استراحته مستندًا بركبتيه إلى طرف سريره، يحدّق عبر النافذة. وكانت

أمه تعيش في البانيو إجمالًا؛ فيما كان ثمة اتّفاق على أنّ والده هو الأكثر ثراء في المدرسة، وهو تمييز كلّف الولد غاليًا. قادمًا من منزل مُدمَّر، كان روتش مراقِبًا بطبْعِهِ أيضًا. بحسب مراقبة روتش، لم يتوقف جِمْ عند أبنية المدرسة بل تابع عبر المنحدر إلى فناء الإسطبل. كان يعرف مخطّط المكان أساسًا. وقرّر روتش، من ثمّ، أنّه كان يجب أن يقوم باستطلاع أو خرائط مدروسة. حتى عندما وصل إلى الفناء لم يتوقّف، بل تابع قيادته إلى الأمام على العشب الرطب، مندفعًا بسرعة للحفاظ على الزخم. ثمّ عبرَ الأكَمة إلى المنحدر قُدُمًا ليختفي عن الأنظار. كان روتش يتوقّع متشكّكًا أنّ المقطورة ستُطوى كمطواة جيب عند الحافّة، ولكنّ جِمْ جذبها بسرعة، لتكتفي برفع نهايتها وتتلاشى كأرنب عملاق في الجُحر.

كان المنحدر جزءًا من فولكلور ثيرزغود. يقع في بقعة من الأرض اليباب بين البستان، ومخزن الفاكهة، وفناء الإسطبل. عند النظر إليه، لم يكن أكثر من منخفَض في الأرض، مُغطًّى بالعشب، مع أكمات في الجانب الشماليّ، كلٌّ منها بارتفاع ولدٍ تقريبًا ومغطّاة بأجمات مُعَنْقَدة تصبح إسفنجية في الصيف. هذه الأكمات هي التي تمنح المنحدر ميزته الخاصة كملعب، وسُمعته أيضًا التي تتنوّع بحسب خيالِ كلّ جيلٍ جديدٍ من الأولاد. إنّها بقايا منجم فضة مفتوح، يقول جيلٌ، ويحفر بحماس بحثًا عن الثروة. إنّها حصنٌ رومانيّ-بريطانيّ، يقول جيلٌ آخر، ويشنّون معارك بالعصيّ وصواريخ من الصلصال. بالنسبة إلى آخرين، المنحدر حفرة متخلّفة عن قنبلة من أيام الحرب، والأكمات أجسادٌ دُفنت إثر الانفجار. الحقيقة أقلّ إمتاعًا. منذ ست سنوات، قبل فترة ليست طويلة من هروبه المفاجئ مع عاملة استقبال من فندق كاسِلْ، كان والد ثيرزغود قد فكّر ببناء حوض سباحة، وأقنع الأولاد بحفر حفرة كبيرة ذات نهايتين إحداهما عميقة والأخرى ضحلة. ولكنّ المال الذي توفّر لم يكن كافيًا لتمويل المشروع، لذا تبدّد في مخطّطات أخرى، مثل بروجكتور جديد لصفّ الفنون، وخطةٍ لزراعة الفطر في

أقبية المدرسة. بل وحتى، كما يقول الأشخاص الأكثر قسوة، لتجهيز عشّ لعاشقَيْ علاقة الحب المُحرَّمة عندما تمكّنا أخيرًا من السفر إلى ألمانيا، البلد الأصليّ للسيدة.

كان جِمْ جاهلًا بهذه التداعيات. وتبقى الحقيقة أنّه اختار، بمحض مصادفة، ركنَ أكاديميّة ثيرزغود المُشبَع بمزايا خارقة للطبيعة، على حد علم روتش.

انتظر روتش عند النافذة ولكنّه لم يرَ شيئًا آخر. كانت الألفيس والمقطورة في الأرض الميتة. ولو لم تكن ثمة آثار عجلات حمراء رطبة على العشب، كان سيتساءل ما إذا كان الأمر مجرد حلم. ولكنّ الآثار كانت حقيقيّة، لذا، حين قُرِع جرس انتهاء الاستراحة، انتعل حذاءه الولينغستن، ومشى بخطى ثقيلة تحت المطر إلى قمة المنحدر ونظر إلى الأسفل ليرى جِمْ مرتديًا معطفًا عسكريًا وقبّعة غريبة، عريضة الحواف كقبّعة سافاري ولكنّها مغطّاة بوبر، تجعَّد أحد جانبيها لتبدو كقبّعة قرصان خليعة، ينحدر منها الماء كمزراب.

كانت الألفيس في فناء الإسطبل؛ لم يعرف روتش كيف استطاع جِمْ إخراجها من المنحدر، ولكنّ المقطورة كانت في الأسفل، في ما يُفترَض أن تكون النهاية العميقة، مستندةً إلى منصّات من قرميد كان قد قاسى آثار الطقس، وكان جِمْ يجلس على الحافّة يشرب من كوبٍ بلاستيكيّ أخضر، ويفرك كتفه اليمنى كما لو أنّه ارتطم بشيءٍ ما، فيما كان المطر ينزل من قبّعته. ثم ارتفعت القبّعة ليجد روتش نفسه يحدّق في وجهٍ أحمر شديد القسوة، بل ويصبح أشدّ قسوةً بفعل ظلّ الحافّة، وشاربٍ بنيٍّ استحال إلى أشواك مغسولة بالمطر. كان باقي وجهه متصالبًا بتشقّقات متثلّمة شديدة العمق والالتواء بحيث خَلُص روتش، في اندفاعةٍ أخرى من اندفاعاته العبقريّة الخياليّة، إلى أنّ جِمْ كان يتضوّر جوعًا في مكان استوائيّ، ثم استعاد شبَعَه مجددًا منذئذٍ. لا تزال ذراعه اليسرى ممدودة عبر صدره، وكتفه اليمنى منتصبة أمام عنقه. ولكنّ جسده المضطرب بكامله تيبّس،

مثل حيوان تجمّد على خلفيّته أيل، فكّر روتش في نزوة مفعمة بالأمل، أمرٌ نبيل.

«من أنت بحق الجحيم؟»، سأل صوتٌ بنبرة عسكريّة صارمة.

«أنا روتش، سيّدي. أنا ولد جديد، سيّدي».

للحظةٍ أطول، تأمّل الوجهُ القرميديُّ لروتش عبر ظلّ القبّعة. ثمّ، لارتياحه الشديد، تحوّلت قسمات الوجه إلى تكشيرةٍ ذئبيّة، فيما اليد اليسرى لا تزال على الكتف اليمنى تتابع تدليكها البطيء مع تمكّنه، في الوقت ذاته، من جرعةٍ كبيرةٍ من الكأس البلاستيكية.

«ولد جديد، ها؟»، كرّر جِمْ موجّهًا كلامه للكأس محافظًا على تكشيرته. «حسنًا، هذا تحوّل غير متوقّع في الكتاب، كما أقول».

نهض جم، وأدار ظهره المنحني نحو روتش، وانشغل في ما بدا وكأنّه فحصٌ تفصيليٌّ لقوائم الكارافان الأربع، فحصٌ شديد الدقّة بحيث استلزم هزّ النوابض، وإمالةً شديدةً للمقدّمة المغطّاة على نحو غريب، ووضع عدة أحجار طوب في زوايا ونقاط مختلفة. في تلك الأثناء، كان مطر الربيع يهطل على كلّ شيء: معطفه، وقبّعته، وسطح الكارافان القديم. وانتبه روتش إلى أنّ كتف جِمْ اليمنى لم تتحرّك أبدًا، طوال هذا الوقت، بل بقيت ملتصقةً بعنقه كصخرةٍ تحت معطفٍ مطريّ. ولذا تساءل ما إذا كان جِمْ أحدب عملاقًا أو ما إذا كان جميع الحدبان يتألّمون مثل جم. كما لاحظ أمرًا سيدّخره في ذاكرته عمومًا بأنّ البشر ذوي الظهور المعطوبة يمشون بخطى واسعة، وكأنّ الأمر له علاقة ما بالتوازن.

«ولد جديد، ها؟ حسنًا، أنا لست ولدًا جديدًا»، تابع جِمْ بنبرةٍ أكثر ودًّا، وهو يسحب إحدى قوائم الكارافان. «أنا ولد عجوز. عجوز مثل ريب فان ونكل لو أردت أن تعرف. بل أكبر سنًا. هل لديك أصدقاء؟».

«لا يا سيّدي»، ردّ روتش ببساطة، بتلك النبرة الكسولة التي يستخدمها التلاميذ دومًا لقول «لا»، تاركين الاستجابة الإيجابيّة لتساؤلاتهم. لم

يُجب جِمْ أبدًا على أيّة حال، فأحسّ روتش فجأةً بشعورٍ غريبٍ من القرب، والأمل. ثم أردف:

«اسمي الآخر هو بِلْ، عمّدوني باسم بِلْ ولكنّ السيّد ثيرزغود يناديني وليم».

«بِلْ، ها. الفاتورة غير المدفوعة.[1] هل ناداك أحدٌ من قبل بهذا اللقب؟».

«لا يا سيّدي».

«اسم جيد بكل الأحوال».

«نعم يا سيّدي».

«عرفت الكثير ممّن اسمهم بِلْ. وكانوا جيّدين كلّهم».

بهذا، كان التعارف قد تمّ بمعنى ما. لم يقم جِمْ بطرد روتش لذا بقي روتش على المنحدر ناظرًا إلى الأسفل عبر نظارته التي بقّعها المطر. انتبه بأسف إلى أنّ أحجار الطوب قد أزيحت عن السور. كانت عدة أحجار قد تزحزحت أساسًا، ولا بدّ أنّ جِمْ زحزحها على نحو أكبر أيضًا. بدا رائعًا، بالنسبة إلى روتش، أن يكون أيّ وافد جديد إلى ثيرزغود شديد الثقة بنفسه بحيث يزحزح معالم نسيج المدرسة لغاياته الخاصة، وأحس بشعور أكبر من الروعة لأنّ جِمْ كان له سَبْق تشغيل صنبور المياه، إذ كان الصنبور محور قانون خاص في المدرسة: كان مجرّد لمسه يؤدّي إلى عقوبة الضرب.

«هيه يا بل. أيمكن أن يكون لديك كلّة الآن مثلًا؟»

«ماذا يا سيّدي؟»، سأل روتش وهو يبحث في جيوبه باضطراب.

«كلّة يا بنيّ. كلّة زجاجيّة مستديرة، كرة صغيرة. هل توقّف الصبيان عن لعب الكلل؟ كنّا نلعبها حين كنت في المدرسة».

---

(1) يشير جِمْ هنا إلى المعنى الحرفيّ لاسم الصبيّ (Bill = الفاتورة) [المترجم]

لم يكن بحوزة روتش أيّ كلة، ولكن كان أبراهاميان يمتلك مجموعة كاملة جاءته من بيروت. كان الأمر سيستغرق خمسين ثانية تقريبًا مع روتش كي ينطلق إلى المدرسة، يحذّر زملاءه من تفتيش مفاجئ، ثم يعود لاهثًا إلى المنحدر. هنا تردّد، إذ كان يعتبر أنّ المنحدر تحت تصرف جِمْ ويحتاج روتش إلى إذن كي ينزل منه. ولكن كان جِمْ قد اختفى في الكارافان، لذا، وبعد انتظار لحظة، تسلل روتش نزولًا عند الضفة وأخذ الكلة من المدخل. لم يلمحه جِمْ مباشرةً. كان يشرب من الكأس ويحدّق عبر النافذة في السُّحُب السوداء وهي تتحرّك هنا وهناك فوق الكوانتوكس. انتبه روتش إلى أن حركة الارتشاف هذه صعبة حقًا، إذ كان جِمْ عاجزًا عن البلع بسهولة وهو يقف منتصبًا، حيث كان عليه إمالة صندوق السيّارة الملويّ إلى الخلف لتحقيق الزاوية المناسبة. في هذه الأثناء، كان المطر يهطل بغزارة مجددًا، صافقًا الكارافان كالحصى.

«سيّدي»، قال روتش. ولكنّ جِمْ لم يتحرّك.

«مشاكل الألفيس تبرز فجأةً فعلًا»، قال جِمْ أخيرًا، بحيث كان يوجّه حديثه للنافذة أكثر مما لزائره. «تقود سيّارتك مع مقطورتها على الخط الأبيض، ها؟ فتعرقل أيّ أحد فجأة». ثم شرب من كأسه مميلًا الصندوق مجددًا.

«أجل يا سيّدي»، قال روتش متفاجئًا بأنّ جِمْ يفترض بأنّه سائق.

كان جِمْ قد خلع قبّعته. شعره الرمليّ كان شديد القصر، وظهرَت بقعٌ بدت ناتجة عن سوء استعمال مقصّ الحلاقة. كانت تلك البقع في جانب واحد بمعظمها، بحيث خمّن روتش أنّ جِمْ قصّ شعره بنفسه مستخدمًا ذراعه السليمة، ما تسبّب بزيادة الاختلاف بين جانب وآخر.

«أحضرت لك كلّة»، قال روتش.

«أحسنت. شكرًا يا بنيّ». وبعد أن أخذ الكلّة، قلّبها في كفّه المتغضّنة الصلبّة، فعرف روتش مباشرةً أنّه كان شديد المهارة في كل الأشياء؛ وأنّه

من أولئك الرجال الذين يعيشون مقيمين علاقات طيّبة مع الأدوات والأغراض عمومًا. «ليست مستوية، هل انتبهت يا بل؟»، قال وهو يركّز على الكلّة. «مائلةٌ قليلًا. مثلي. انتبه»، واستدار إلى النافذة الأكبر. خيطٌ من خرز الألمنيوم كان ينسدل عبر الأرضيّة لقياس الكثافة. واضعًا الكلّة بينها، وقف جِمْ ليراقبها وهي تتدحرج إلى نهاية الخيط وتقع على الأرض.

«نعم، إنها مائلة قليلًا»، كرّر. «منخفسة في المقدّمة. لا يجب أن يكون لدينا هذا، أليس كذلك؟ هيه، هيه، أين هربتِ أيّتها البهيمة الصغيرة؟».

لم يكن الكارافان مكانًا مألوفًا، كما لاحظ روتش وهو مطأطئًا لاستعادة الكلّة. ربما كانت ملكًا لأحد، بالرغم من كونها نظيفةً للغاية. سرير، كرسيّ مطبخ، موقد سفينة متحرك، أسطوانة غاز. ليس هناك ولو حتى صورة واحدة لزوجته، فكّر روتش الذي لم يكن قد التقى بأيّ عازب من قبل، باستثناء السيّد ثيرزغود. كانت الأغراض الشخصيّة الوحيدة التي بوسعه رؤيتها موضوعةً في سلّة مشبّكة معلّقة بالباب، وأدوات خياطة مخزَّنة بجانب السرير ودُشّ منزليّ الصنع مكوّن من علبة بسكويت صفيحيّة مثقوبة، وملحومةٍ بقوّة إلى السقف. وعلى الطاولة زجاجة فيها سائل عديم اللون، جِنّ أو فودكا، إذ كان هذان ما يشربهما والده حينما كان روتش يذهب إلى شقّته في نهايات الأسبوع أيام الإجازات.

«شرق-غرب تبدو جيّدة، ولكنّ شمال-جنوب مائلة قليلًا بلا شك»، قال جِمْ متفحّصًا حافّة النافذة الأخرى. «ما الذي تبرَعُ فيه يا بل؟».

ردّ روتش بغباء: «لا أعرف يا سيّدي»،

«لا بدّ أن تكون بارعًا في أمر ما، هذا حال الجميع. ماذا عن كرة القدم؟ هل أنت جيّد في كرة القدم يا بِلْ؟».

«لا يا سيّدي».

«هل أنت منشّة ذباب إذًا؟»، سأل جِمْ بلا مبالاة، وقد انحنى بزمجرةٍ

قصيرة على السرير وأخذ رشفة من الكأس. «لا تبدو منشّة ذباب بالطبع»، أضاف بهدوء: «بالرغم من أنك وحيد».

«لا أعرف»، كرر روتش وتحرّك نصف خطوةٍ باتّجاه الباب المفتوح.

أخذ رشفةً طويلةً أخرى: «ما الأمر المفضّل لديك إذًا؟ لا بدّ وأنّك بارع في أمر ما، كما هم الجميع. المفضّل بالنسبة إليّ هو البط والعلاجيم. بصحّتك».

كان هذا الآن سؤالًا مزعجًا لروتش إذ كان يشغله معظم ساعات نهاره. في الحقيقة، كان قد بدأ يشكّ مؤخرًا في ما إذا كانت لديه أيّة غاية للعيش في هذه الأرض. كان يعتبر نفسه غير ملائم للعمل أو اللعب؛ إذ حتّى الروتين اليوميّ في المدرسة، كترتيب سريره وثيابه، كان يبدو عملًا خارج استطاعته. كما كان يفتقر إلى الوَرَع كما أخبرته السيّدة ثيرزغود وهي تقرص وجهه بقوّة في الكنيسة. كان يلوم نفسه كثيرًا بسبب هذه التقصيرات، ولكنّ أشدّ ما يلوم نفسه عليه كان نهاية زواج والديه. فقد كان يتوجّب عليه أن يتّخذ خطوات لمنع ذلك من الحدوث. بل كان يتساءل ما إذا كان مسؤولًا على نحو أكثر مباشرةً، كأن يكون شريرًا أو مثيرًا للشّقاق أو كسولًا بشدّة بحيث كانت صفاته السيّئة تلك هي التي تسبّبت بإحداث الشّرخ. في مدرسته السابقة، كان يحاول تفسير هذا عبر الصراخ واختلاق أعراض شلل دماغيّ كانت عمّته مصابةً به. تشاور والداه، كما كانا يفعلان بطريقتهما العاقلة، وغيّرا مدرسته. لذا تسبّب هذا السؤال العفويّ، الموجّه إليه في كارافان ضيّق من كائنٍ قطع نصف طريقه على الأقل نحو الرب، شخص منعزل كهذا، يدفعه فجأةً إلى شفير الكارثة. أحسّ بالحرارة تغزو وجهه، وشاهد الغبش المتسلّل إلى نظّارته، وبدأ الكارافان يستحيل إلى بحرٍ من الأسى. لم يعلم روتش ما إذا كان جِمْ قد لاحظ هذا، إذ إنّه أدار ظهره المحني، وتحرّك باتّجاه الطاولة معينًا نفسه برشفات من كأسه وهو يقذف بعض العبارات.

«أنت مراقِبٌ جيدٌ على أية حال، سأخبرك بهذا لوجه الله يا بنيّ. نحن

المنعزلين غالبًا ما نكون هكذا، لا أحد للاعتماد عليه، ماذا؟ لم يلاحظني أحد سواك. وساعدني حقًا هناك، حيث كنتُ أركن سيّارتي عند الأفق. ظننت أنّك بعبع. أفضل مراقب في الوحدة هو بل روتش، أراهن على ذلك. طالما أنّه يضع نظارته. ها؟»

وافق روتش بامتنان: «نعم، أنا كذلك».

«حسنًا، ابقَ هنا وراقب إذًا»، أمره جم، معتمرًا قبّعة السافاري مجددًا، «وسأخرج لضبط القوائم. هل ستفعل ذلك؟».

«نعم يا سيّدي».

«أين الكلّة اللعينة؟».

«هنا يا سيّدي».

«نبّهني حين تتحرّك. شمال، جنوب، أينما تحرّكت. فهمت؟».

«نعم سيّدي».

«هل تعرف جهة الشمال؟».

«ذاك الاتّجاه»، قال روتش فورًا وحرّك ذراعه عشوائيًا.

«صحيح. المهم، نبّهني حين تتحرّك»، كرّر جِمْ واختفى في المطر. بعد لحظة أحسّ روتش بأنّ الأرض تهتزّ تحت قدميه وسمع زمجرةً أخرى ربما كانت بفعل الألم أو الغضب، حينما كان جِمْ يصارع دعامةً غير مضبوطة.

خلال فصل الصيف ذاته، كان الأولاد قد أعطوا جِمْ اسم دلع. حاولوا عدّة مرات قبل أن يحسّوا بالرضا. جرّبوا تروبر [الفارس] الذي كان يتناغم مع الجانب العسكريّ فيه، وسبابه المتواتر غير المؤذي، وجولاته المنعزلة في الكوانتوكس. بكل الأحوال، لم يدم اسم تروبر، لذا جرّبوا بايريت

[القرصان] وغولاش [نوع من الطعام] لفترة. غولاش بسبب محبّته للأكل اللاذع، وروائح الكاري والبصل والبابريكا التي تهبّ عليهم في نفثات دافئة حينما كانوا يقطعون المنحدر في طريقهم إلى إيفنسونغ. وغولاش بسبب فرنسيّته المتقنة التي كان يُعتقَد دومًا بأنّها ذات سمة عاطفيّة. كان سبايكلي ذو الخمس باءات يشبّهها بالشعرة لدقّتها: «سمعت السؤال يا بيرغيه. ما الذي ينظر إليه إميل؟» - تلويحةٌ متشنّجةٌ لليد اليمنى - «لا تنظر إليّ كالمشدوه يا بنيّ، لست بعبعًا؛ إنْ لم تشكِّلْ جملة واضحةَ واحدةً بالفرنسيّة قريبًا، سأضرب رأسك بالباب، أيّها الأحمق البهيم».

ولكنّ هذه التهديدات الرهيبة لم تُنفَّذ أبـدًا، لا بالإنكليزيّة ولا بالفرنسيّة. بل كانت تزيد، على نحوٍ محبَّب، من هالة اللطف التي سرعان ما كانت تحفّه، لطفٌ لا يكون ممكنًا إلا لدى الرجال الكبار في أعين الأولاد.

ولكنْ اسم غولاش لم يُرضِهم مع ذلك. إذ افتقر إلى لمحة القوّة الكامنة فيه. حيث لم يأخذ بالاعتبار السّمات الإنكليزيّة الشغوفة لدى جم، والتي كانت الأمر الوحيد الذي يعوّل عليه لتمضية الوقت.

لم يكن يتوجّب على الأحمق سبايكلي سوى أن يجازف بنطق تعليقٍ مُحِطٍّ من قَدْر الملَكيّة، وأن يعدّد محاسن بلدٍ أجنبيٍّ، من الأفضل ألا يكون حارًا، ليندفع جِمْ وقد تلوّن وجهه بحدّة كي يقضي ثلاث دقائق رائعة في شرح ميزة أن تكون مولودًا كإنكليزيّ. كان يعلم أنّهم يغيظونه ولكنْ كان يعجز عن ضبط نفسه. غالبًا ما كان يختم حديثه الوطنيّ بتكشيرةٍ كئيبة، وغمغماتٍ عن سمك الرنكة الأحمر والعلامات الحمراء أيضًا، والوجوه الحمراء حين يُضطر بعض الناس للقيام بعمل إضافيّ يُضيّع متعة كرة القدم. ولكنّ إنكلترا كانت عشقه؛ لم يكن هناك شيءٌ قادرًا على منافستها.

«صدح مرةً: «إنها المكان الأفضل في العالم اللعين بأسره!، أتعلمون السبب؟ هل تعلم السبب يا أحمق؟».

لم يكن سبايكلي يعرف، لذا أمسك جِمْ بقطعة طبشور ورسم كرةً أرضيّة. إلى الغرب، أميركا، قال، المليئة بحمقى جشعين يشوّهون سمعة إرثهم. وكرة إلى الشرق، روسيا-الصين، لم يميّز بينهما: ثياب عمّال، ومعسكرات اعتقال، وتقدّمٌ طويلٌ لعين من دون وجهة. في الوسط ...

أخيرًا، اتّفقوا على اسم رينو.

من جهة كان تنويعًا على اسم بريدو، ومن جهة أخرى إشارة إلى شغفه بالعيش خارج الجدران وإدمانه على التمارين الجسديّة التي لاحظوها باستمرار. أثناء وقوفهم في طابور الحمّام الصباحيّ كانوا يرون رينو ماشيًا في كومب لين وحقيبته على ظهره المنحني راجعًا من نزهته الصباحيّة. وحين يهجعون إلى أسرّتهم كان بوسعهم رؤية ظلّه الوحيد عبر سقف المهجع المطل على الملعب، حيث كان رينو يهاجم الجدار الإسمنتيّ بلا توقّف. وأحيانًا، في الأمسيات الدافئة، كان بإمكانهم مراقبته من نوافذ مهجعهم وهو يلعب الغولف بعصًا حديديّة مرعبة، ويذرع حقول اللعب، غالبًا بعد أن يكون قد انتهى معهم من قراءة أحد كتب المغامرات الإنكليزيّة حصرًا: بيغلز، أو بيرسي وسترمان، أو جفري فارنول، منتقًى عشوائيًا من المكتبة الرثّة. مع كلّ ضربة، كانوا ينتظرون الزمجرة التي سيطلقها وهو ينفّذ ضربته الخلفيّة، ونادرًا ما كان يخيّب أملهم. كانوا يحافظون على سجلّهم شديد الدقّة. في لعبة الكريكت الخاصة بكادر المدرسة سجّل خمسًا وسبعين نقطة قبل أن يطرد نفسه بعد أن قذف كرةً عمدًا إلى سبايكلي الواقف عند ضلع المربّع. «التقطها يا أحمق، التقطها، هيّا. أحسنت يا سبايكي، ولدٌ طيّب، هذا ما خُلقت من أجله».

كما كان يتميّز، بالرغم من ميله إلى التسامح، بتقدير عقلانيّ للعقل الإجراميّ. ثمة أمثلة عديدة بشأن هذا، ولكنّ المثال الأهم حدث قبل عدة أيام من نهاية الفصل، عندما اكتشف سبايكلي في سلة مهملات جِمْ نسخةً من أسئلة امتحان اليوم التالي، وأعارها إلى مرشّحين انتقاهم مقابل خمسة

بنسات لكلٍّ منهم. دفع عدة أولاد الشّلن المطلوب وقضوا ليلةً مؤرّقة وهم يحفظون الإجابات مستعينين بمصباح يدويّ في مهاجعهم. ولكن حين بدأ الامتحان أعطاهم جِمْ أسئلة مختلفةً كليًا.

«بوسعكم النظر إلى هذه الورقة مجّانًا»، صاح وهو يجلس. ومع فتحه جريدة ديلي تلغراف بهدوء، كان يسلّم نفسه للمداولات الأخيرة للبعبع حيث فهموا أنّ هذا التوصيف يعني تقريبًا كلّ مَنْ لديه أفكار مثقّفة، حتى لو كان يكتب في سبيل الملكة.

وأخيرًا كانت حادثة البومة، والتي كان لها حيّزٌ منفصلٌ في رأيهم عنه لأنّها تضمنت موتًا، وهو ظاهرةٌ يستجيب الأطفال لها بطرُق متعدّدة. مع استمرار الجو القارس، أحضر جِمْ دلوًا من الفحم إلى صفّه، وأحرقه ذات أربعاء في الموقد، وجلس مديرًا ظهره للدفء وهو يلقّنهم إملاءً. سقط بعض السّخام بدايةً ولكنّه تجاهله، ثم سقطت البومة، بومة بالغة كانت تضع عشّها في الأعلى، بلا شك، لعِدّة فصول شتاء وصيف طويلة من إدارة دوفر، وقد اختنقت الآن بفعل الدخان فخرجت دائخةً سوداء وهي تضرب بجناحيها هربًا من الاختناق في المدخنة. سقطت على الفحم ثمّ انهارت إثر قفزةٍ على الأرضيّة الخشبيّة مهتاجةً مضطربة، ثم أقعت كرسولٍ من الشيطان، هامدةً وإنْ كانت لا تزال تتنفّس، فاردةً جناحيها، محدّقةً بالأولاد عبر السّخام الأسود الذي يغلّف عينيها. خاف الجميع؛ حتى سبايكلي، كان بطلًا ولكنْ خائفًا. باستثناء جِمْ الذي طوى الوحش خلال ثانية وخرج به من الباب من دون أن ينطق بكلمة. لم يسمعوا شيئًا، بالرغم من أنّهم كانوا يسترقون السمع، إلى أن سمعوا صوت انهمار مياه من الممر حيث بدا من الواضح بأنّ جِمْ يغسل يديه. «إنه يتبوّل»، قال سبايكلي، ما استدعى ضحكًا مضطربًا من الجميع. ولكن حين خرجوا من الصف اكتشفوا أنّ البومة لا تزال مطويّةً، ميتةً بهدوء وتنتظر دفنها على قمة أحد المرتفعات بالقرب من المنحدر. كان عنقها، على حدّ قول الأولاد الأكثر شجاعةً، مقصومًا. وحده حارس الطرائد، كما صرّح

سوديلي الذي يعرف أحدهم، من يعرف كيف يقتل البومة على نحو صحيح.

عند من تبقّى من جماعة ثيرزغود، كانت الآراء بشأن جِمْ أقل إجماعًا. انتهى ذِكْر طيف السيّد مالبي عازف البيانو تمامًا. اعتبره ماترون، متّفقًا مع بل روتش، بطلًا بحاجة إلى العناية: كان تدبّر أموره بظهرٍ كهذا بمثابة معجزة. قال مارجوريبانكس إنّه ضحيّة دهس حافلة حين كان مخمورًا. بلا شك. كان مارجوريبانكس أيضًا هو من انتبه إلى القميص في مباراة الكريكت التي أخرج جِمْ منها نفسه. لم يكن مارجوريبانكس لاعب كريكت ولكنّه جاء للمشاهدة برفقة ثيرزغود. «هل تعلم أنّ ذلك القميص أصليّ»، صاح بخفّة: «أم هل تظنّ بأنّه سرقه؟».

«لينارد، هذا لا يجوز»، وبّخه ثيرزغود ناكزًا خاصرتَيْ كلبه اللابرادور. «عضّه يا غيني، عضّ الرجل الشرير».

مع وصوله إلى مكتبه، كان ضحك ثيرزغود قد خفّ، وأصبح عصبيًا للغاية. كان بمقدوره التعامل مع خرّيجين زائفين من أوكسفورد، كما كان قد خبر خبراء في الكلاسيكيّات لا يتقنون اليونانيّة أو قساوسة لا إيمان عندهم. كان أناس كهؤلاء، حين تتم مواجهتم ببرهان خداعهم، ينهارون ويبكون ويغادرون، أو يبقون شرط أن يتقاضوا نصف الراتب. ولكنْ أن يكون المقصودون أناسًا ذوي إنجاز فعليّ، فأولئك صنفٌ لم يقابله من قبل، ولكنّه كان يعلم سلفًا بأنّه لا يحبّهم. بعد مراجعة روزنامة الجامعة، اتّصل بالوكالة، بالسيّد سترول من وكالة سترول وميدلي.

«ما الذي تريد معرفته بالتحديد؟»، سأل سترول بنبرة مخيفة.

«لا شيء بالتحديد». كانت أم ثيرزغود تخيط بحيث بدت غير منصتة. «بشكل أساسيّ، إذا طلب المرء سيرةً ذاتيّةً فهو يحبّ أن تكون مكتملة. لا يحب المرء الفراغات. خاصة إذا كان هذا المرء هو من يدفع الرواتب».

عندئذٍ وجد ثيرزغود نفسه يتساءل فعلًا عمّا إذا كان قد أيقظ السيّد سترول من نومٍ عميق، وقد عاد إليه الآن.

«رجلٌ شديد الوطنيّة»، نطق السيّد سترول أخيرًا.

«لم أوظّفه بسبب وطنيّته».

«كان في السجن»، تابع السيد سترول هامسًا، كما لو كان يتحدّث عبر سحب كثيفة من دخان السجائر. «أقعده المرض. إنه عموده الفقريّ».

«هكذا إذًا. ولكن أفترض بأنّه لم يدخل المشفى في السنوات الخمس والعشرين الماضية». ثم همهم لوالدته وكفّه على السمّاعة «تمام؟» ثم خطر له مجددًا بأنّ السيد سترول عاود النوم.

«سيكون عندك حتى نهاية الفصل فقط. إن لم يعجبك، اطرده. لقد طلبتَ موقّتًا، وحصلتَ على موقّت. طلبتَ مدرّسًا براتب زهيد، وقد حصلتَ عليه». رد السيد سترول.

«هذا ما قد يحصل»، قال ثيرزغود مراوغًا. «ولكنّني دفعت لكم رسمًا بقيمة عشرين جنيهًا، لقد تعامل والدي معكم سنين طويلة، ويجب أن تُتاح لي ضمانات أكيدة. لقد قلتم هنا – هل أقرأ لك؟ - قلتم هنا قبل إصابته، كان قد سافر للقاءات خارجيّة لأغراض تجاريّة واستشرافيّة. هذا بالكاد يبدو توصيفًا واضحًا لمهنةٍ استغرقت عمرًا كاملًا. أليس كذلك؟».

وهي تخيط أومأت أمه برأسها. «إنه ليس كذلك»، علّقت بصوت مرتفع.

«هذه نقطتي الأولى. دعني أتابع قليلًا...».

«ليس كثيرًا يا عزيزي»،حذّرته أمّه.

«عرفت بأنّه كان في أوكسفورد عام ثمانية وثلاثين. لم لمْ يتابع دراسته؟ ما الذي حدث؟».

«أتذكّر فترة انقطاعٍ حدثت آنذاك»، ردّ السيد سترول بعد صمت آخر. «ولكن أتوقّع بأنّك كنتَ صغيرًا جدًا على تذكّر هذا».

«لا يُعقل أن يكون في السجن طوال هذا الوقت»، قالت أمه بعد برهة صمت طويلة، من دون أن ترفع عينيها.

«كان في مكان ما»، قال ثيرزغود نكدًا، محدّقًا عبر الحدائق التي جرفتها الرياح باتّجاه المنحدر.

خلال جميع الإجازات الصيفيّة، في تنقّله باضطراب من منزل إلى آخر، احتضانًا ورفضًا، كان بل روتش قلقًا بشأن جم، ما إذا كان ظهره يؤلمه، كيف يتدبّر أمر النقود وليس ثمة أحد ليعلّمه ويراتب نصف فصل فقط؛ والأسوأ من كل هذا، ما إذا سيكون موجودًا مع بداية الفصل القادم، إذ كان لدى بل شعورٌ لا يستطيع وصفه بأنّ جِمْ عاش حياةً فيها الكثير من المجازفات على هذه الأرض بحيث قد يسقط في الخواء في أيّة لحظة؛ إذ اعتقد بأنّ جم، مثله، يفتقر إلى جاذبيّة طبيعيّة تبقيه متماسكًا. استعاد ظروف لقائهما الأول، بخاصة سؤال جِمْ بشأن الصداقة، وكان يحفّه رعب هائل بأنّه قد خيّب أمل جم، كما خيّب أمل والديه في الحب، بسبب التباين الكبير بين عمرَيهما بشكل أساسيّ. وبأنّ جِمْ قد رحل، بسبب هذا، باحثًا عن رفيق في مكان آخر، مفتّشًا المدارس الأخرى بعينيه الشاحبتَين. كما تخيّل بأنّ جم، مثله أيضًا، كان قد عاش علاقة ارتباط حميمة خيّبت أمله، ويتوق إلى تعويضها. ولكن هنا اصطدم تأمّل بل روتش بنهاية مسدودة: لم يكنّ لديه أدنى فكرة عن الكيفيّة التي يحب فيها البالغون بعضهم بعضًا.

كان ثمة قدرٌ ضئيلٌ يمكن له فعله بحيث يكون أمرًا عمليًا. راجع كتابًا طبيًا وسأل أمه عن الحدبان وحاول، من دون أن يجرؤ، سرقة زجاجة فودكا من أبيه، بحيث يأخذها إلى ثيرزغود كإغراء. وحين أوصله سائق أمه أخيرًا إلى الدرج الكريه، لم يتوقّف ليلقي الوداع، بل ركض بأقصى سرعته

نحو قمة المنحدر، ولسعادته الفائقة كان كارافان جِمْ في مكانه القديم في الأسفل، متسّخ أكثر من قبل، مع رقعة أرض نضرة بجانبه، افترض بأنها لزراعة خضار الشتاء. وكان جِمْ جالسًا على درج الكارافان مكشّرًا بابتسامته نحوه، حينما سمع بل قادمًا جهّز ابتسامة ترحيبه لتكون جاهزة قبل أن يظهر عند الحافّة.

في ذلك الفصل، ابتكر جِمْ اسمًا لروتش. تجاهل بل وسمّاه جامبو. لم يقل سبب هذا، ولم يكن روتش، كما هو معتاد في حالات التعميد، في موقع يتيح له الاعتراض. بالمقابل، نصّب روتش نفسه وصيًا على جم؛ وصيًا على العرش، هكذا اعتبر المنصب؛ تعويضًا عن صديق جِمْ الراحل، أيًا يكن هذا الصديق.

2

بخلاف جِمْ بريدو، لم يكن السيد جورج سمايلي مهيّأً على نحو طبيعيّ للإسراع في المطر، أو حتّى في عتمة الليل. في الحقيقة، ربما كان سمايلي يمثّل المرحلة الأخيرة من النمط الذي يمثّله بل روتش النموذج الأمثل. ضئيلٌ، ومكتنز، وحين كان في أبهى مراحل منتصف عمره، كان يبدو أحد خانعي لندن الذين لم يرثوا الأرض. كانت ساقاه قصيرتين، ومشيه أبعد ما يكون عن الرشاقة، يرتدي ثيابًا باهظة الثمن، لا تلائم جسده، ودائمًا ما تكون رطبة. كان معطفه، الذي يعطيه مظهر أرمل، من نمط الحياكة السوداء الفضفاضة تلك المصمَّمة لحفظ الرطوبة. إمّا أنّ كمّي المعطف شديدتا الطول، أو أنّ ذراعيه شديدتا القصر، إذ حينما كان يرتدي المعطف المطريّ، مثل روتش، كان طرفا الكمّين يخفيان أصابعه. ولأسباب متعلّقة بأناقة فارغة، لم يكن يعتمر قبّعة، جازمًا عن حقّ بأنّ القبّعات تُظهره مضحكًا. «مثل قشرة بيض»،ألمحت زوجته الجميلة في لحظةٍ لم تكن بعيدةً عن المناسبة الأخيرة التي تركته فيها، وغالبًا ما كان يتحمّل انتقاداتها. ولذا، تجمّع المطر في قطرات كبيرة على العدسات السميكة لنظّارته، مرغمًا إياه على تكرار إخفاض رأسه أو إرجاعه وهو يقطع الرصيف الذي يحفّ القناطر المسودّة لمحطة فكتوريا. كان يتّجه غربًا، إلى حَرَم تشيلسي حيث يقيم. كانت خطواته مضطربةً لسبب غير مفهوم، ولو حدث

وظهر جِنْ بريدو من الظلال مطالبًا بمعرفة ما إذا كان لديه أصدقاء، فعلى الأرجح أنّه سيجيب بأنّه يفضّل إيقاف تاكسي.

«رودي، يا له من متبجّح»، غمغم لنفسه ثم هطل مطرٌ منعش على وجنتيه الكبيرتين، وانزلق إلى قميصه المخضَّل، «لمَ لمْ أكتفي بالنهوض والمغادرة؟».

بحزن، استعاد سمايلي مجددًا أسباب بؤسه الحاليّ، وختم بهدوء لا ينفصل عن الجانب المتواضع من طبيعته بأنّ تلك الأسباب كانت مسؤوليّته.

كان يومًا مرهقًا منذ بدايته. استيقظ متأخرًا بعد سهرٍ طويل في الليلة السابقة، وهي عادةٌ لازمته منذ تقاعده العام الماضي. مكتشفًا بأنّ القهوة قد نفدت لديه، انتظر في طابور محل البقالة إلى أن نفد صبره أيضًا، ثم قرّر بغطرسة اللجوء إلى إدارته الشخصيّة للأمور. إشعار البنك الذي وصله مع بريد الصباح أظهر أنّ زوجته حصلت على حصّة الأسد من راتبه التقاعديّ الشهريّ: حسنًا، سيبيع شيئًا ما. كانت استجابةً لا عقلانيّة لأنّه أنهى عمله باحترام، وكان بنك المدينة المسؤول عن راتبه التقاعديّ يقوم بدفع الراتب بانتظام. لفَّ نسخةً قديمةً من صحيفة غريملشاوزن، وهي كنزٌ متواضع يعود إلى أيامه في أوكسفورد، ومضى بهدوء إلى مكتبة هيوود هل في شارع كيرزن حيث كان يعقد صفقات وديّة مع صاحب المكتبة. زادت حدّة نزقه في الطريق فحجز موعدًا من كابينة الهاتف العموميّ مع محاميه هذه الظهيرة.

«جورج، كيف بوسعك أن تكون بهذه السوقيّة؟ لا يمكن لأحد أن يطلّق آن. أرسل لها ازهارًا وتعال إلى الغداء».

أبهجته هذه النصيحة فأكمل طريقه إلى هيوود هل بقلبٍ سعيد ليجد نفسه فجأة بين ذراعي رودي مارتنديل الخارج من محل ترمبر بعد أن انتهى من موعد قص شعره الأسبوعي.

لم يكن ثمة علاقة وثيقة بين مارتنديل وسمايلي مهنيًا أو اجتماعيًا. كان مارتنديل يعمل في الجانب الدسم من مكتب الخارجيّة حيث كان عمله قائمًا على تناول الغداء مع وجهاء زائرين، وهي ميزة لم يكن ثمة أحد آخر يتمتّع بها في عمله. كان أعزب حرًا بناصية شعر شيباء وحساسيّة لا يتمتّع بها سوى الرجال البدناء. وكان مولعًا بالأزرار والبدلات الفاتحة، ويدّعي، على أسس واهية، وجود معرفة حميمة مع أصحاب الغرف الخلفيّة في الحكومة البريطانيّة. منذ عدة سنوات، وقبل حلّه، حثَّ حزبًا عمّاليًا في الحكومة البريطانيّة على التنسيق مع الاستخبارات. في الحرب، وبسبب امتلاكه مقدرةً حسابيّة خاصة، كان يعمل على هوامش العالم السريّ؛ بل وعمل مرةً، إذ لم يتعب من تكرار ذلك، مع جون لاندزبري في عمليّة تشفير خاصة بالسيرك ذات دقّةٍ ضئيلة. ولكنّ الحرب، كما كان سمايلي يذكّر نفسه دومًا، كانت منذ ثلاثين عامًا.

«مرحبًا رودي، سررت برؤيتك». قال سمايلي.

كان مارتنديل يتحدّث بلهجة عليَّة القوم الواثقة، من النمط الذي تسبّب، في المهمّات الخارجيّة، بدفع سمايلي أكثر من مرة كي ينهي إقامته في الفندق ويهرع إلى التخفّي.

«صديقي العزيز، المايسترو بذاته! أخبروني أنّك حُبست مع راهبَيْ كنيسة سانت غيلين أو كنيسة أخرى، منكبًا على المخطوطاتّ. اعترف لي حالًا. أودّ معرفة كلّ ما كنت تفعله، بأدق التفاصيل. هل أنت بخير؟ هل لا تزال تحب إنكلترا؟ كيف هي آن اللذيذة؟» تحديقته الصارمة كانت تذرع الشارع بجانبيه قبل أن تلتفت إلى مجلّد غريملشاوزن المغلّف تحت ذراع سمايلي. «أراهن بجنيه مقابل بنس بأنّ هذا هديّة لها. أخبروني بأنّك تغنّجها بشدة». ثم تحوّل صوته إلى غمغمة هامسة: «أرى أنّك لم تعد تعمل. لا تقل إنّ هذا تخفٍّ يا جورج، تخفٍّ؟»، تحرك لسانه الحاد على الحوافّ الرطبة لفمه الصغير، قبل أن يختفي بين طيّاته كأفعى.

إذًا، وبغباء، اشترى سمايلي هربه عبر الموافقة على تناول العشاء هذا المساء في نادٍ في ساحة مانشستر كانا من روّاده، ولكن أصبح سمايلي يتجنّبه وكأنّه الطاعون لأسباب ليس أقلّها أنّ رودي مارتنديل أحد أعضائه. عندما حلّ المساء كان لا يزال متخمًا بالغداء في البرج الأبيض حيث قرر محاميه، وهو رجل يطلق العنان لنفسه بشدّة، بأنّ وجبةً ثقيلةً هي الحل الوحيد لإخراج سمايلي من فتوره. كان مارتنديل، وإنْ عبر طريق آخر، قد وصل إلى الخاتمة المتخمة ذاتها، وخلال أربع ساعات طويلة من الطعام كان سمايلي يودّ لو أنّهما لم يتقاذفا الأسماء كما لو كانت أسماء لاعبي كرة قدم منسيّين. جيبيدي الذي كان مدرّب سمايلي القديم: «رجل كهذا خسارة كبيرة، فليرحمه الرب»، تمتم مارتنديل الذي، على حد علم سمايلي، لم ير جيبيدي يومًا. «ويا له من موهبة في اللعبة، ها؟ أحد العظماء الحقيقيّين، كما أقول دومًا». ثم فيلدنغ، القروسطيّ الفرنسيّ خرّيج كيمبردج: «أوه، يا لحسّ الفكاهة الرائع الذي يمتلكه. ذهن حاد، حاد!» ثم سبارك من مدرسة اللغات الشرقيّة، وأخيرًا ستيد-أسبري، وهو الذي أسّس هذا النادي ذاته كي يهرب من مملّين مثل رودي مارتنديل.

«أعرف أخاه المسكين، كما تعلم. نصف عقل مع عضلات مضاعفة، ليرحمه الرب. ذهب الدماغ بأكمله في الاتّجاه الآخر».

كان سمايلي، محفوفًا بضباب المشروب، ينصت إلى هذا الهراء، قائلًا «نعم» و«لا» و«يا للأسف» و«لا لم يجدوه أبدًا»، ومرةً، وحياؤه الدائم يغمره، «أوه، أنت تبالغ في إطرائي»، ثمّ بحتميّة حزينة وصل مارتنديل إلى آخر التطورات: تغيُّر السلطة، وانسحاب سمايلي من الخدمة.

وعلى نحو متوقَّع، بدأ بالأيام الأخيرة لكونترول: «رئيسك القديم يا جورج، ليرحمه الرب، كان الشخص الوحيد الذي أبقى اسمه سريًا. ليس عنك بالطبع، إذ لم يكن يخفي أيّ أسرار عنك يا جورج، أليس كذلك؟ مقرّبان كاللصوص، كان كونترول وسمايلي، كما يقال، حتى النهاية».

«مكمّلان لبعضهما بعضًا».

«لا تجامل يا جورج. أنا موظف قديم، لا تنسَ. كنتما، أنت وكونترول، هكذا تمامًا». وشبك الكفّان الممتلئتان. «ولهذا طُردتما، لا تخدعني، ولهذا حصل بل هايدن على وظيفتك. ولهذا هو حامل فنجان بيرسي أليلاين، وليس أنت».

«كما تشاء يا رودي».

«أجل. بل وأقول أكثر من ذلك. أكثر بكثير».

عندما دنا مارتنديل أكثر ، تنشّق سمايلي عبق أحد أكثر ابتكارات ترامبر روعةً.

«أقول شيئًا آخر: لم يمت كونترول على الإطلاق. لقد رآه البعض». أخرَسَ احتجاجات سمايلي بإيماءة عصبيّة وأضاف: «دعني أُنهِ كلامي. رآه ويلي أندريوارثا بعينيه في مطار جوبيرغ في غرفة الانتظار. ليس شبحًا. إنه لحمٌ ودم. كان ويلي في البار يشتري صودا بسبب الحرارة - لم ترَ ويلي مؤخّرًا، لقد أصبح كالبالون - واستدار ليجد كونترول بجانبه يرتدي ثيابًا تجعله يبدو كبويريٍّ[1] شنيع. وحالما رأى ويلي لاذ بالفرار. ما رأيك؟ إذًا نحن نعلم الآن. لم يمت كونترول أبدًا. أزاحه بيرسي أليلاين وعُصبته الثلاثيّة، فرحل إلى جنوب أفريقيا، ليرحمه الرب. حسنًا، ليس بوسعك لومه، أليس كذلك؟ لا يمكنك لوم إنسان على رغبته بشيءٍ من السلام في نهاية حياته. لا يمكننا ذلك».

فظاعَةُ هذا الحديث الذي كان يصل إلى سمايلي عبر جدارٍ سميك من الإرهاق النفسيّ، أفقدته النطق للحظة.

«هذا سخيف! هذه أسخف قصة سمعتها في حياتي! كونترول ميت. توفّي بسكتة قلبيّة بعد فترة طويلة من المرض. كما أنّه كان يكره جنوب أفريقيا. كان يكره كلّ الأمكنة باستثناء سورّي، والسيرك، وملعب لورد للكريكت. حقًا يا رودي، لا يجب أن تروي قصصًا كهذه». كان سيضيف:

(1) البويريّ Boer: الجنوب أفريقيّ من أصلٍ هولنديّ. [المترجم]

لقد دفنته بنفسي في مقبرة كريهة في إيست إند ليلة الكريسماس الماضي، لوحدي. وكان القس يعاني من إعاقة في الكلام.

«لطالما كان ويلي أندريوارثا أشدّ الناس كذبًا»، أجاب مارتنديل بهدوء شديد. «قلت له الأمر ذاته بنفسي: هراء يا ويلي، ينبغي أن تخجل من نفسك»، ومباشرةً وكأنّه لم يُشر أبدًا بفكرة أو كلمة إلى ذلك الرأي التافه: «كانت الفضيحة التشيكيّة هي التي وضعت المسمار الأخير في نعش كونترول، كما أعتقد. ذلك المسكين الذي أُصيب بالرصاص في ظهره وظهرت صوره في الجرائد، ذاك الذي كان دومًا شديد القرب من بل هايدن، كما سمعنا. إليس، كما كنّا ندعوه، ولا زلنا، أليس كذلك، حتى لو كنّا نعرف اسمه الحقيقيّ كما نعرف أسماءنا».

بمكر، انتظر مارتنديل تعليقًا من سمايلي، ولكن لم يكن هناك أدنى نيّة لدى سمايلي للتعليق، لذا حاول مارتنديل من زاوية ثالثة.

«على نحو ما، لا يمكنني أن أؤمن كليًا ببيرسي أليلاين كمدير، هل بإمكانك أنت؟ هل هو العمر يا جورج، أم هي نزعتي السينيكيّة الطبيعيّة؟ أخبرني، أنت خبير بالبشر. أعتقد بأنّ السلطة ضئيلة التلاؤم مع أولئك الذين كبرنا معهم. هل هذا صحيح؟ ثمّة قلائل ممّن بمقدورهم تولّي الأمور في هذه الأيام، كما يبدو لي، وبيرسي المسكين شخص شديد الوضوح، كما اعتقدت دومًا، بخاصة بعد الأفعى الصغيرة، كونترول. ذلك الشخص شديد الطيبة؛ كيف يمكن للمرء أن يأخذه على محمل الجد؟ ليس بوسع المرء سوى تذكّره في الأيام الخوالي وهو يعبث في بار ترافيليرز، يمجّ من غليونه الخشبيّ ذاك، ويشتري كؤوسًا للمغول؛ حقًا، يميل المرء إلى المكر الذي يقوم به الشخص ليكون غامضًا، أليس كذلك؟ أم لا تكترث لذلك طالما أنّ العمل ينجح؟ ما هي حيلته يا جورج، ما وصفته السريّة؟» كان يتحدّث وفي ذهنه غرضٌ ما، منحنيًا إلى الأمام، وعيناه جشعتان مبتهجتان. وحده الطعام ما يمكن أن يقلبه كليًا. «يعتمد على ذكاء موظّفيه؛ حسنًا، هذه هي القيادة في أيامنا ربما».

«حقًا يا رودي، لا يمكنني مساعدتك»، قال سمايلي بوهن. «لم أعرف بيرسي يومًا وهو في موقع قوّة، كما تعلم. بل فقط كـ ...» وأضاع الكلمة المناسبة.

«مكافح»، اقترح مارتنديل وعيناه تبرقان. «وأنظاره على سُلطة كونترول، ليلًا ونهارًا. والآن هو يتقلّدها والعصابة تحبّه. إذًا، من هو ذراعه اليسرى القويّة يا جورج؟ مَنْ يُكسبه سمعته؟ إنّه يقوم بعمل رائع، هذا ما نسمعه من الجميع. غرف قراءة صغيرة في القيادة، لجان صغيرة تبرز بأسماء طريفة، سجاد أحمر تحت قدمي بيرسي أينما توجّه في ممرات مقرّ الحكومة، وزراء صغار يتلقّون عبارات مباركة من فوق، أناس لم يسمع بهم المرء يحصلون على أوسمة كبيرة من أجل لا شيء. لقد رأيت هذا كله من قبل، كما تعلم».

«رودي، ليس بمقدوري مساعدتك»، أصرّ سمايلي، وأضاف وهو يهمّ بالوقوف. «ليس بوسعك فهم ما أقصده فعلًا». ولكنّ مارتنديل كان يعيق حركته بجسده، مثبّتًا إياه إلى الطاولة بكفٍ رطبة ويتحدّث على نحو أسرع.

«إذًا من هم الأذكياء؟ ليس بيرسي بكل تأكيد. ولا تقل لي إنّ الأميركيّين عاودوا الثقة بنا من جديد كذلك. الجَسور بل هايدن، لورنس العرب في أيامنا، ليرحمه الرب؛ هاك، إنه بل، منافسك القديم». أطلّ رأس لسان مارتنديل مجددًا، مستطلعًا، ثم عاد أدراجه، مخلّفًا ابتسامةً رفيعة وراءه. «قيل لي إنك وبل كنتما تتشاركان كلّ شيء في سالف الزمان، ومع ذلك، هو لم يكن متعصّبًا أبدًا، أليس كذلك. العباقرة لا يكونون كذلك على الإطلاق».

«أتطلب شيئًا آخر سيّد سمايلي؟»، استفسر النادل.

«إذًا فهو بلاند: الأمل الأبيض، السيد خريج القرميد الأحمر». كان لا يزال قابضًا عليه لا يسمح له بالحركة. «ولو كان هذان الاثنان ليسا من

يحرّكان الأمور، لا بدّ وأن يكون شخص آخر في التقاعد، أليس كذلك؟ أعني شخصًا يتظاهر بأنّه متقاعد، لا؟ وبما أنّ كونترول قد مات، من تبقّى؟ بمعزل عنك».

كان الحمّالون قد انصرفوا، لذا كان عليهما إحضار معطفَيهما بنفسيهما من العلّاقات البنيّة الفارغة.

«روي بلاند ليس من خريجي كليات القرميد الأحمر»، صاح سمايلي. «لقد درس في كلية سان أنتوني بأوكسفود، لمعلوماتك».

فلتساعدني السماء، كان هذا أفضل ما بإمكاني فعله، فكّر سمايلي.

«لا تكن سخيفًا يا عزيزي»، ردّ مارتنديل بنزق. كان سمايلي قد أصابه بالملل وبدا عابسًا ومخدوعًا؛ كانت أمارات اليأس قد بدأت بالارتسام أسفل وجنتيه. «سان أنتوني كلية قرميد أحمر بالطبع، ليس ثمة فارق إذا كان هناك القليل من الحجارة الرمليّة في الشارع ذاته، حتى لو كان موظّفك. أعتقد بأنّه بل هايدن الآن - لا تدفع له بقشيشًا، إنّه حزبي لا حزبَك. بل هو والدهم جميعًا، لطالما كان هو. يحرّكهم كالنحل. حسنًا، يمتلك ذلك السحر، أليس كذلك، بخلاف بعضنا. ميزة النجم، كما أسمّيها، أحد القلائل ممن يمتلكونها. قيل لي إنّ المرأة تركع له حرفيًا، لو كان هذا ما تفعله النساء».

«تصبح على خير رودي».

«سلامي إلى آن، تذكّرْ».

«لن أنسى».

«حسنًا، لا تفعل».

والآن كان المطر يهطل بغزارة، وغرق سمايلي تمامًا، وبدا أنّ الربّ قد أزال جميع التكسيات من لندن، كعقاب.

3

«افتقارٌ كليٌّ لقوّة الإرادة»، قال لنفسه، وهو يرفض بلطف دعوات سيّدةٍ في الممر. «يسمّيه المرء تهذيبًا فيما هو في الحقيقة ليس سوى ضعف. أيّها المغفّل مارتنديل. أيّها المغرور، الكذّاب، المخنّث، الكسول..»، خطا خطوةً واسعة ليتجنّب عقبةً لا مرئيّة. «ضعف»، تابع، «وعجز عن عيش حياة مكتفية بذاتها مستقلّة - نزل حذاءه في بركة-وارتباطات عاطفيّة تجاوزت غايتها. تحديدًا زوجتي، وتحديدًا السيرك، وتحديدًا العيش في لندن. تاكسي!».

قفز سمايلي إلى الأمام ولكنّه تأخّر كثيرًا. فتاتان تضحكان تحت مظلة واحدة، ركبتا بفوضى من الأذرع والسيقان. بيأس، رفع ياقة معطفه الأسود وتابع مشيه المنعزل. «أمل أبيض»، همهم بنزق. «قليلٌ من الحجارة الرمليّة في الشارع. أيّها المنمّق، الفضوليّ، الوقح ...».

ثمّ تذكّر متأخرًا أنّه ترك الغريملشاوزن في النادي.

«اللعنة!»، صاح، متعثّرًا في خطواته بفعل التركيز الزائد. «اللعنة، اللعنة، اللعنة».

سيبيع بيته اللندنيّ: قرّر هذا. هناك تحت مظلّة المتجر، بقرب آلة بيع السجائر، منتظرًا توقّف المطر، اتّخذ هذا القرار الخطير. لقد ارتفعت أسعار

العقارات في لندن، كما سمع من الجميع. جيد. سيبيع، وسيشتري بجزءٍ من الأرباح كوخًا في كوتسوولدز. بيرفورد؟ ازدحام مروريّ خانق. ستيبل آستون، هذا مكان جيّد. سيستقر كغريب أطوار متجوّل منعزل، مع إبقاء عادةٍ محبَّبةٍ أو اثنتين مثل محادثة نفسه وهو يذرع الأرصفة. عادة منقرضة ربما، ولكن من بقي غير منقرض في هذه الأيام؟ منقرض، ولكنّه مخلص لزمنه. في لحظة محددة، مع ذلك، سيعمد كلّ إنسان إلى الاختيار: هل سيتقدّم أم سيتراجع؟ ليس ثمة ما هو مذموم في أن تجرفك كلّ ريحٍ حديثة صغيرة. من الأفضل أن تكون لك قيمة، أن تتحصّن، أن تكون سنديانةً في جيلك. ولو أرادت آن العودة، حسنًا، سيُريها طريق الباب. أو لا يريها طريق الباب. حسنًا، سيكون ذلك بحسب مدى رغبتها في العودة.

مواسًى بهذه الأفكار وصل سمايلي إلى طريق كنغز، حيث توقّف على الرصيف كما لو أنّه ينتظر قطع الشارع. كانت المتاجر المبهجة في كلا الجانبين. أمامه، شارعه بايووتر، بنهايته المسدودة التي تبعد مئة وسبع عشرة خطوةً من خطواته المعتادة. عندما أتى أول مرة ليعيش هنا، كانت هذه الأكواخ الجورجيّة ذات مظهر متواضع، حيث بمقدور الأزواج الصغار العيش مقابل خمسة عشر جنيهًا أسبوعيًا مع إمكانيّة استقبال نزيل مجّانًا حيث يختفي في القبو. الآن، الحواجز المعدنيّة تحمي نوافذها الواطئة، وأصبح لكل بيت ثلاث سيارات تزدحم عند الحاجز الحجريّ في نهاية الطريق. كان لدى سمايلي عادةٌ قديمة حيث يطوف بنظراته مراجعًا، متأكّدًا من السيارات المألوفة، وغير المألوفة؛ في ما يخص غير المألوفة، يراقب تلك التي فيها هوائيٌّ ومرايا إضافيّة، والتي كانت فانات مغلقة يفضّلها المراقبون. كان يفعل ذلك، جزئيًا، كاختبار للذاكرة، لعبة خاصة لصون عقله من ضمور التقاعد، كما كان في أيام أخرى يحفظ أسماء المتاجر على طول طريق حافلته باتّجاه المتحف البريطانيّ؛ كما حين عرف عدد الدرجات المُفضية إلى كلّ مصطبة قبل منزله، والاتّجاه الذي يُفتح فيه كلّ باب.

ولكن كان لدى سمايلي سبب ثانٍ هو الخوف، الخوف الخفيّ الذي يلاحق كلّ محترف إلى قبره. تحديدًا، في يوم ما، من الماضي السحيق المعقّد إلى درجة عدم تذكّر جميع الأعداء ٱلذين صنعهم، قد يتمكّن أحدهم من إيجاده لتصفية الحساب.

في نهاية الشارع، جارةٌ تدرّب كلبها؛ وحالَ رؤيته رفعت رأسها لتقول شيئًا ولكنّه تجاهلها، فهو يعرف أنّ الأمر متعلّق بآن. قطع الطريق. كان بيته غارقًا في الظلمة، والستائر على حالها كما تركها. صعد الدرجات الستّ إلى الباب الأماميّ. منذ رحيل آن، تركته السيّدة المسؤولة عن التنظيف أيضًا: لم يكن المفتاح بحوزة أحد عدا آن. ثمة قفلان، قفل بانهام، وقفل تشب بيبيكي، وشظيّتان خشبيّتان من صنعه، من خشب السنديان لا تتجاوزان ظفر الإبهام في الحجم، مغروزتان في دعامة الباب العليا أعلى وأسفل قفل بانهام. كانت من بقايا أيام عمله الميدانيّ. مؤخرًا، ومن دون أن يعرف السبب، بدأ باستخدامهما مجددًا؛ ربما لم يشأ أن تفاجئه. بأطراف أصابعه تلمّس كلًّا منهما. انتهى الروتين، فتح القفلين، ودفع الباب، ثم أحسّ ببريد منتصف اليوم ينزلق على السجّادة.

ما هو الترتيب؟ تساءل. جيرمان لايف أند ليترز؟ فيلولوجي؟ فيلولوجي، قرّر؛ كانت قديمةً أساسًا. أشعل ضوء الصالة وانحنى ناظرًا إلى البريد. «حساب يتوجّب دفعه» من خيّاطه لقاء بدلة لم يطلبها، ولكنّه يظنّ بأنّها إحدى البدلات التي يرتديها عشيق آن حاليًا؛ فاتورة من كراج في هنلي مقابل بنزين سيارتها (ما الذي كانا يفعلانه في هنلي في التاسع من تشرين الأول/ أكتوبر بحق الآلهة؟)؛ رسالة من البنك بخصوص تسهيل صرف شيك محليٍّ باسم السيّدة آن سمايلي في فرعٍ لبنك مدلاند في إمنغهام.

وماذا بحقّ الشيطان - استدعاه بسبب هذه الرسالة - يفعلان في إمنغهام؟ من يقيم علاقة محرّمة في إمنغهام بحقّ الرب؟ أين كانت إمنغهام؟

كان لا يزال يقلّب السؤال حينما وقعت نظرته على مظلة غير مألوفة في الستاند، مظلّة حريريّة ذات مقبض جلديّ وخاتمٍ ذهبيٍّ لا يحمل أيّ حرف. جال في ذهنه بسرعة كبيرة، بما أنّ المظلة جافة لا بدّ وأنّها جاءت قبل الساعة السادسة والربع عندما بدأ المطر، إذ لم يكن ثمة رطوبة في الستاند أيضًا. وكذلك هي مظلة أنيقة، والحلقة لم تُخدش مع أنّ المظلة ليست جديدة. وبهذا، فإنّ المظلة تعود لشخص خفيف الحركة، وشاب، مثل عاشق آن الأخير. ولكن بما أنّ مالك المظلة يعرف بشأن الشظيّتين الخشبيّتين ويعرف كيفيّة إعادتهما حال دخوله إلى المنزل، وتصرّف بذكاء بحيث أسند البريد على الباب بعد لخبطته، وقراءته بلا شك، لا بدّ أنّه يعرف سمايلي على الأرجح، أيضًا؛ ولم يكن عاشقًا، بل محترفًا مثله، كان قد عمل معه في وقتٍ ما على نحو مقرّب وعرف خطّ يده، كما كان يُسمّى في لغة الشيفرة.

كان باب قاعة الاستقبال مواربًا. دفعه بهدوء وفتحه.

نادى: «بيتر؟».

عبر الفراغ شاهد على ضوء الشارع فردتي حذاء جلديّ، متشابكتين بكسل، بارزتين من طرف الصوفا.

قال صوتٌ لطيف: «كنتُ سأبقى مرتديًا هذا المعطف لو كنت مكانك يا عزيزي جورج، أمامنا مشوار طويل».

بعد خمس دقائق، مرتديًا معطف سفرٍ بنيًا كبيرًا، وهو هديّة من آن، والمعطف الوحيد الذي بقي جافًا، كان جورج سمايلي يجلس في المقعد المجاور للسائق في سيّارة بيتر غويلام الرياضيّة الملوّنة، التي كان قد ركنها في ساحة مجاورة. كانت وجهتهم هي آسكوت، وهي مكانٌ مشهور بالنساء والأحصنة. وأقل شهرةً ربما بكونها مكان إقامة السيّد أوليفر ليكون قريبًا من مكتب رئاسة الحكومة، وهو مستشار كبير لعدة لجان متنوّعة ومراقب للشؤون الاستخباراتيّة. أو، كما يقول غويلام على نحو أقل توقيرًا، المفوّض الأعلى في مكاتب الحكومة.

في هذه الأثناء، في مدرسة ثيرزغود، كان بل روتش مستيقظًا في السرير، يتأمّل العجائب الأخيرة التي صادفته أثناء مراقبته اليوميّة لسعادة جم. البارحة، كان جِمْ قد أدهش لاتزي. يوم الخميس كان قد سرق بريد الآنسة آرونستون. كانت الآنسة آرونسون تعلّم الكمان والنحت، وقد أحبّها روتش بسبب لطفها. كان لاتزي البستانيّ ش م، كما يقول ماترون، ومن يكون ش م لا يتحدّث الإنكليزيّة، أو يتحدث القليل منها. ش م تعني الشخص المختلف، كما يقول ماترون، أو أيّ شخص أجنبيٍّ عن الحرب. ولكن البارحة تحدّث جِمْ مع لاتزي، طالبًا مساعدته في إصلاح السيّارة، وقد تحدّث معه بلغة ش م، أو أيًا يكن ما يتحدث به الـ ش م، وقد ارتفع شأن لاتزي بعدئذ.

كانت مسألة بريد الآنسة آرونستون أكثر تعقيدًا. كان ثمة مغلّفان على طاولة غرفة الكادر التدريسيّ صباح الخميس بعد الكنيسة حينما تمّ استدعاء روتش بسبب دفتر التمارين. أحدهما موجَّه إلى جِمْ والآخر إلى الآنسة آرونستون. كانت الكتابة على مغلّف جِمْ بالآلة الكاتبة. فيما كانت الكتابة على مغلّف الآنسة آرونستون بخط اليد، خطٍّ لا يختلف كثيرًا عن خط جم. عندما انتبه روتش إلى هذه الملاحظات كانت غرفة الكادر فارغة. أخذ دفتر التمارين وكان على وشك المغادرة بهدوء عندما دخل جِمْ من الباب الآخر، محمرًّا ولاهثًا بعد نزهته الصباحيّة.

«تابع طريقك جامبو، لقد رنّ الجرس»، قال مادًّا يده إلى الطاولة.

«حاضر أستاذ».

«طقس مراوغ، ها يا جامبو؟».

«نعم أستاذ».

«تابع طريقك إذًا».

عند الباب، تلفّت روتش حوله. كان جِمْ قد وقف مجددًا، منحنيًا إلى

الوراء كي يفتح ديلي تلغراف الصباحيّة. كانت الطاولة فارغة. وقد اختفى المغلّفان.

هل كان جِمْ قد كتب رسالةً إلى الآنسة آرونستون وغيّر رأيه؟ عارضًا الزواج، ربما؟ فكرة أخرى خطرت لبل روتش. مؤخرًا، كان جِمْ قد اقتنى آلة كاتبة قديمة، ريمنغتون خَرِبة أصلحها بنفسه. هل كتب رسالته بواسطتها؟ هل كان شديد الوحدة إلى درجة كتابة رسائل لنفسه، وسرقة رسائل الآخرين أيضًا؟ غرق بل في النوم.

4

كان غويلام يقود بفتورٍ ولكن بسرعة. وكانت روائح الخريف تملأ السيارة، والقمر بدرٌ يشعّ، وسُحُب الضباب تحفّ الحقول المفتوحة، والبرد قارس. تساءل سمايلي عن عمر غويلام، وخمّن أنّه في الأربعين، ولكن بحسب هذا التخمين سيكون مجرّد مجذّفٍ مبتدئ في النهر؛ حرّك ناقل السرعة بحركةٍ طويلةٍ متموّجة كما لو كان يقودها في المياه. بكل الأحوال، كان سمايلي يفكّر بقلق، كانت السيارة غير متناسبة مع عمر غويلام إلى حد بعيد. قطعا رانيميد بسرعة وبدآ الصعود باتّجاه إيغام هل. كانا قد أمضيا عشرين دقيقة في القيادة، وكان سمايلي قد طرح أكثر من عشرة أسئلة من دون أن يتلقّى إجابةً مُرْضية، وكان ثمة خوفٌ مزعجٌ يستيقظ في داخله لم يشأ تحديده.

«أنا متفاجئ لأنهم لم يطردوك معنا»، قال، بشيءٍ من الانزعاج، وهو يضمّ أطراف معطفه بقوّة أكبر حول جسده. «كنت تمتلك جميع المؤهّلات لذلك: متقنٌ لعملك، ومخلص، وكتوم».

«سلّموني مسؤوليّة صيّادي الرؤوس».

«يا إلهي»، قال سمايلي مع ارتعاشة، ثم غرق، وهو يرفع ياقة معطفه حول ذقنه الكبيرة، في تلك الذكرى الخاصة بأناس في مكان أشدّ إرعابًا: بركستون، وبناء المدرسة الحجريّ المقيت الذي كان يشغله صيّادو

الرؤوس بوصفه مركزًا لهم. كان الاسم الرسميّ لصيّادي الرؤوس هو السفر. وقد أسّسها كونترول بناءً على اقتراح بل هايدن في الأيام الأولى للحرب الباردة، حينما كان القتل والخطف والابتزاز أفعالًا اعتياديّة، وكان قائدهم الأول مرشَّحًا من هايدن. كانوا مجموعة صغيرة، حوالى اثني عشر رجلًا، وقد انحصر عملهم بأعمال الجريمة التي كانت شديدة القذارة أو شديدة الخطورة على العملاء المقيمين في الخارج. العمل الاستخباراتيّ الجيد، كما كان يردّد كونترول دومًا، هو التدريجيّ والمستند إلى شيءٍ من اللطف. كان صيّادو الرؤوس الاستثناء لقاعدته. لم تكن أفعالهم تدريجيّة أو لطيفة، وبذا فقد كانوا يعكسون عقليّة هايدن لا كونترول. وكانوا يعملون فرادى، ولذا كانوا مخفيّين عن النظر وراء جدار حجريٍّ متوَّج بشظايا زجاج وسلك شائك.

«سألتك ما إذا كانت كلمة «تجانب» تعني شيئًا لك؟».

«لا أعتقد ذلك».

«إنّها العقيدة «الجوّانيّة. اعتدنا الصعود والهبوط. الآن نمضي إلى الأمام».

«ما المفترض أن يعنيه هذا؟».

«في أيامك، كان السيرك يدير نفسه عبر المناطق: أفريقيا، الدول التابعة لبريطانيا، روسيا، الصين، جنوب شرقي آسيا.. وما إلى ذلك؛ كلّ منطقة تديرها دمية، ويجلس كونترول في السماء ممسكًا بالخيوط. هل تذكر؟

«هذا يحرّض ذكرى بعيدة».

«حسنًا، اليوم كل الأمور العمليّاتيّة تحت قيادة واحدة. تسمى محطة لندن. المناطق انتهت، وبقي التجانب. بل هايدن هو قائد محطة لندن، روي بلاند مساعده، ويركض توبي إيسترهيز بينهما ككلب بودل. إنّهم يشكّلون وكالة ضمن الوكالة. يتشاركون أسرارهم الخاصة ولا يختلطون مع الموظفين الأقل شأنًا. هذا يجعلنا أكثر أمانًا».

«تبدو فكرة جيدةً جدًا»، قال سمايلي بحرص متجاهلًا التلميح.

ومع تداعي الذكريات مرةً أخرى إلى عقله الواعي، غمره إحساس عجيب: بأنّه كان يعيش اليوم مرّتين تخيُّلًا، مرةً مع مارتنديل في النادي، والآن مع غويلام مرةً أخرى. عبرا مزرعةً من أشجار الصنوبر الفتيّة. وكان ضوء القمر يتخلّلها في خطوط.

بدأ سمايلي، «هل هناك أيّ خبر من...»، ثم سأل بنبرة أكثر تردّدًا: «ما هي أخبار إليس؟».

«في العزل الصحيّ»، ردّ غويلام بإيجاز.

«أوه بالتأكيد. بالطبع. لا أعني التطفّل. باختصار، هل بإمكانه العودة وما إلى ذلك؟ لقد تعافى بالتأكيد؛ هل يستطيع المشي؟ إصابات الظهر قد تكون مراوغة، كما تعلم».

«يقال إنّه يدبّر أموره على نحو جيّد. كيف هي آن؟ لم أسألك».

«بخير. بخير».

كانت الظلمة مخيّمةً في السيارة. وكانا قد خرجا عن الطريق وشرعت السيارة بالسير على الحصى. ارتفعت جدران مزخرفة سوداء على الجانبين، ولمعت أضواء، ثم رواق مرتفع، وهيكل منزل يبدو معرّشًا على قمم الأشجار. كان المطر قد توقّف، ولكن حالما خطا سمايلي نحو الهواء المنعش سمع حوله الخشخشة المستمرة للأوراق المبتلّة.

نعم، فكّر، لقد كانت تمطر حين جئت هنا من قبل؛ حينما كان اسم جِمْ إليس يتصدّر عناوين الأخبار.

* * *

كانا قد دخلا إلى غرفة تعليق المعاطف، ولمحا صندوق عدّة تسلّق الجبال الخاص بليكون موضوعًا على خزانة الأحذية. والآن، كانا يجلسان في نصف دائرةٍ مواجهَيْن كرسيًا فارغًا. كان أبشع منزل على بعد أميال،

وكان ليكون قد اختاره بناءً على أغنية. «كاميلوت بيركشاير»، سمّاه مرةً، شارحًا ذلك لسمايلي، «بناه مليونير كبير». كانت قاعة الاستقبال عبارةً عن صالةٍ كبيرة بنوافذ ذات زجاج ملوّن بارتفاع عشرين قدمًا وقوسٍ من خشب الصنوبر فوق المدخل. كان سمايلي يعدّد الأشياء المألوفة: بيانو عموديّ الأوتار مغطّى بعلامات موسيقيّة، لوحات قديمة لرجال دين بعباءاتهم الكهنوتيّة، ورزمةٌ من بطاقات الدعوة المطبوعة. بحث عن مجذاف جامعة كيمبردج ووجده معلّقًا فوق المدفأة. كانت النار متّقدةً، وإنْ بدت صغيرةً مقارنةً بالقضبان الضخمة أمامها. جوٌّ من العَوَز يفوق ملامح الثروة.

سأل ليكون، كما لو أنّه ينفخ الترومبيت في أذن عمّة طرشاء: «هل تستمتع بتقاعدك يا جورج؟، ألا تفتقد دفء التواصل البشري؟ أنا كنت سأفتقده كما أعتقد. عمل المرء، الأصدقاء القدامى».

كان نحيلًا، سمجًا، صبيانيًا: تنشئة الكنيسة والجاسوسيّة، كما قال عنه هايدن، داهية السيرك. كان والده أحد وجهاء الكنيسة الاسكتلنديّة، وأمه ذات نسب رفيع. كانت صحف الأحد تكتب عنه أحيانًا واصفةً إياه بأنّه «الأسلوب الجديد» لأنه كان شابًا. كانت بشرة وجهه مخدوشةً بسبب الحلاقة المتعجّلة.

«أعتقد بأنّني أتأقلم على نحو جيّد جدًا، شكرًا لك»، قال سمايلي بتهذيب. وبهدف إغرائه بالكلام، أضاف: «نعم. نعم، بالطبع أفتقده. ماذا عنك؟ هل الأمور على ما يرام؟».

«لا جديد. الأمور سلسة. حصلت شارلوت على منحةٍ للدراسة في رويدين، وهذا رائع».

«أوه جيّد».

«وزوجتك، هل هي في قمّتها وما إلى ذلك؟».

كانت تعبيراته صبيانيّةً كذلك.

«ممتازة جدًا، شكرًا لك»، قال سمايلي، محاولًا الإجابة بلطف.

كانوا يراقبون الأبواب المزدوجة. من بعيد سمعوا جَلَبة وقع أقدام. خمّن سمايلي بأنّهما شخصان، رجلان كلاهما. فُتحت الأبواب وظهر شخص طويل يبدو نصفه غارقًا في الظل. لجزءٍ من الثانية، لمح سمايلي رجلًا ثانيًا خلفه، داكن البشرة، ضئيل الجسد، يقظًا؛ ولكن وحده الرجل الأول دخل إلى الغرفة قبل أن تنغلق الأبواب بفعل يدٍ خفيّة.

«أقفل علينا لو سمحت»، صاح ليكون، فسمعوا قرقعة المفتاح. «أنت تعرف سمايلي، أليس كذلك؟».

قال الشخص وهو يبدأ مشيه الطويل باتّجاههم من الظلمة البعيدة. «نعم، أعتقد ذلك، أعتقد بأنّه أعطاني عملًا يومًا ما، أليس كذلك سيّد سمايلي؟».

كان صوته ناعمًا بلهجةٍ جنوبيّة ولكن لم يكن ليغفل عن النبرة العسكريّة. «تار يا سيّدي. ريكي تار، من بينانغ».

التماعةٌ صغيرة للنار أضاءت جانبًا من الابتسامة القاسية، وكشفت تجويف عين. «ابن المحامي، أتتذكّر؟ هيا، سيّد سمايلي، لقد غيّرتَ أول حفاضاتي».

ثمّ، وعلى نحو غريب، كان الأربعة واقفين، وكان غويلام وليكون يبدوان كوالدين بالمعموديّة وهما ينظران إلى تار وسمايلي يتصافحان مرةً، ثم أخرى، ثمّ أخرى وكأنّهما يتصوّران.

«كيف حالك سيّد سمايلي؟ سررت كثيرًا برؤيتك يا سيّدي».

مُفلتًا كفّ سمايلي أخيرًا توجّه نحو الكرسيّ المخصّص له، فيما كان سمايلي يفكّر: نعم، ربما حدث هذا مع ريكي تار. مع تار، أيّ شيءٍ يمكن أن يحدث. يا إلهي، فكر؛ منذ ساعتين كنت أقول لنفسي إنّه يتوجّب عليّ اللجوء إلى الماضي. شعر بالعطش وافترض بأنّ هذا كان بسبب الخوف.

* * *

عشرة؟ اثنا عشر عامًا؟ لم تكن تلك ليلته بشأن تذكُّر الزمن وفهمه. من بين وظائف سمايلي في تلك الأيام كان اختبار العملاء الجدد: لم يكن يُقبل أحد من دون إيماءته، لا أحد يتدرّب من دون توقيعه على الجدول. كانت الحرب الباردة تتعاظم، وكان صيّادو الرؤوس مطلوبين، وكان هايدن قد أمر عملاء السيرك المقيمين في الخارج بالبحث في هذه المسائل. جاء ستيف ماكيلفور من جاكرتا ومعه تار. كان ماكيلفور محترفًا قديمًا متخفّيًا كوكيل شحن بحريّ، وكان قد وجد تار سكران وغاضبًا، يتجوّل بين أرصفة التحميل باحثًا عن فتاة تدعى روز كانت قد تركته.

بحسب قصة تار، كان هو منخرطًا مع مجموعة من البلجيكيّين في عمليات تهريب أسلحة بين الجزر والساحل. كان يكره البلجيكيّين، وسئم من تهريب الأسلحة، وغضب لأنهم سرقوا روز. اعتبره ماكيلفور قابلًا للانضباط، خاصة لكونه صغير السن وملائمًا للتدريب بشأن نمط العمليات القذرة التي كان صيّادو الرؤوس يتولّونها من خلف جدران مدرسة بركستون. بعد التحريات المعتادة تم إرسال تار إلى سنغافورة ليلقوا عليه نظرة ثانية، ثم إلى سارات لنظرة أخرى. في تلك الأيام كان سمايلي قد بدأ العمل كمشرف على سلسلة من المقابلات، كان بعضها عدائيًا. وكانت حضانة سارات مركزًا للتدريب، ولكنه كان يتّسع لاستخدامات أخرى.

كان والد تار محاميًا أستراليًا يعيش في بينانغ، كما يبدو. وكانت الأم ممثّلة ثانويّة من برادفورد جاءت شرقًا مع مجموعة مسرح بريطانيّة قبل الحرب. الأب، كما يتذكّر سمايلي، ذا مسحةٍ أنغليكانيّة حيث كان يعظ في صالات إنجيليّة محليّة. كان للأم سجلّ إجراميّ صغير في إنكلترا ولكن لم يكن والد تار يعلم، أو لم يكترث لذلك. عندما اندلعت الحرب هاجر الزوجان إلى سنغافورة من أجل ابنهم الصغير. وبعد عدة أشهر، سقطت سنغافورة وبدأ ريكي تار تعليمه في سجن شانجي تحت إشراف يابانيّ. في

شانجي، كان الأب يلقي عظات عن خير الرب لكل مَنْ يراه، ولو لم يوقفه اليابانيّون لكان زملاؤه السجناء سيتكفّلون بذلك نيابةً عنهم. إثر التحرّر، عاد الثلاثة إلى بينانغ. حاول ريكي دراسة القانون ولكن غالبًا ما كان يقطع الدراسة، وقد وجّه له الأب بضع عظات قاسيّة كي يُخرج الخطيئة من روحه. فسافر تار إلى بورنيو، وفي الثامنة عشرة، كان قد أصبح مهرّب أسلحة براتبٍ كامل يمخر البحر حول الجزر الإندونيسيّة. وهكذا تعرّف ماكيلفور إليه.

مع تخرّجه من المدرسة، عاد تار إلى تهريب الأسلحة. وكان أصدقاؤه البلغاريّون القدماء أول من اصطدم بهم ربما. كانوا مشغولين في تأمين الأسلحة للشيوعيّين بحيث لم يكترثوا لغيابه، وقد وصلوا إلى مرحلة العجز عن التهريب. قام تار بتأمين عدة شحنات لهم بهدف إنهاء علاقاته بهم، ثم جعلهم يسكرون في إحدى الليالي قبل أن يقتل أربعة منهم، من بينهم روز، وأحرق قاربهم. تجوّل حول المالايو وأنجز مهمّتين ثم استُدعي إلى بركستون ليتم إعداده لعمليات خاصة في كينيا – أو، بلغةٍ أقل تعقيدًا، لاصطياد ماو ماو مقابل مكافأة.

بعد كينيا، أضاع سمايلي أثره، ولكن علقت حادثتان في ذاكرته ربما لأنّهما أوشكتا أن تصبحا فضيحتين، وكان لا بد من إبلاغ كونترول. عام أربعة وستين، أُرسل تار إلى البرازيل لتقديم عرض مغرٍ عبارة عن رشوة لوزيرٍ مسؤول عن التسليح كان في وضعٍ سيىء. كان تار شديد القسوة؛ فخاف الوزير وأبلغ الصحافة. كان لدى تار غطاء هولنديّ ولم يتضايق أحد باستثناء الاستخبارات الهولنديّة التي انفجر غضبها. في إسبانيا، بعد عام، واعتمادًا على معلومات سريّة قام بل هايدن بتأمينها، قام تار بابتزاز – أو حرق، كما يقول صيّادو الرؤوس – دبلوماسيّ بولنديّ كان قد عشق راقصةً. كانت المحاولة الأولى ناجحة حيث حصل تار على إطراء وعلاوة. ولكن حين عاد لمحاولة ثانية كتب البولنديّ اعترافًا لسفيره وألقى بنفسه، بتشجيعٍ أو من دونه، من نافذة عالية.

في بركستون، كانوا يسمّونه وجه المشاكل. غويلام بتعبيرٍ على وجهه الطفوليّ، المتغضّن مع ذلك، خاطبه بتوصيف أسوأ من ذلك بكثير، وهم يجلسون في نصف دائرة حول النار.

«حسنًا، سأُدلي بدلوي»، قال تار بمرح وهو يُريح جسده الرشيق على الكرسيّ.

5

بدأ تار الكلام: «حدث هذا منذ ستة أشهر تقريبًا.» قاطعه غويلام: «نيسان/ أبريل، لنُبقِ الأمور دقيقةً على طول الخط، ها؟».

«حسنًا، نيسان/ أبريل»، قال تار بهدوء. «كانت الأمور هادئة في بركستون. أظنّ أنّ ستّة أو سبعة منّا كانوا في حالة استراحة. بيتي سمبريني كان قد عاد من روما، ساي فانهوفر كان قد أنهى عمليّة في بودابست»- رسم ابتسامةً عابثة - «بنغ-بونغ وسنوكر في صالة استقبال بركستون. أليس هذا صحيحًا، سيّد غويلام؟».

«كان هذا هو الموسم الراكد».

عندها وصل طلب مستعجل فجأة من عميلنا في هونغ كونغ، قال تار.

«كان هناك وفدٌ تجاريٌّ سوفياتيّ في البلاد، يلاحق أمور بضائع كهربائيّة من أجل السوق السوفياتيّة. وكان أحد المفوَّضين يقضي وقتًا كبيرًا في النوادي الليليّة. اسمه بوريس. السيّد غويلام يمتلك التفاصيل. ليس هناك سجلّ سابق باسمه. كانوا يراقبونه منذ خمسة أيام، وكان الوفد قد حجز لاثني عشر يومًا إضافيًا. كان الوضع السياسيّ شديد السخونة بحيث لا يمكن للعملاء المقيمين التعامل، ولكنّهم ارتأوا أنّ عمليّة خاطفة

قد تفي بالغرض. لن تكون الحصيلة مهمّة إلى هذا الحد، ولكن فليكن. ربما كان بوسعنا استبداله ببضاعة أخرى، أليس كذلك سيّد غويلام؟».

كانت البضاعة تعني ما يمكن بيعه أو استبداله مع وكالة استخبارات أخرى: وهي تجارة سريعة يقوم بها صيّادو الرؤوس.

متجاهلًا تار، قال غويلام: «كان جنوب شرق آسيا من اختصاص تار. وكان من دون عمل لذا أمرته بالقيام بمراقبة ميدانيّة وإرسال التقرير برقيًا».

كلّما كان يتحدث شخص آخر، كان تار يغرق في حلم. كانت نظرته تتركّز على المتحدث، وغشاوةٌ تظلّل عينيه حيث كان يتوقّف للحظة قبل أن يعاود حديثه.

«لذا فعلت ما أمرني به السيّد غويلام»، قال. «أنا أفعل هذا دائمًا، أليس كذلك سيّد غويلام؟ أنا رجل مطيع حقيقةً، حتى لو كنت متهوّرًا».

سافر في الليلة التالية بجواز سفر أستراليّ كتاجر سيارات، وجوازَي سفر سويسريَّيْن نظيفَين مخبَّأين في بطانة الحقيبة. كان ثمة مستندا طوارئ يجب تعبئتهما حينما تضطر الظروف: أحدهما لبوريس والآخر له. أجرى لقاءً في السيارة مع العميل المقيم في هونغ كونغ بالقرب من فندقه، غولدن غيت في كاولون.

هنا مال غويلام إلى سمايلي وهمس:

«تفتي ثيسنغر، بدينٌ أبله. ميجور سابق في الجيش، كتيبة الرماة الأفريقية التابعة للمملكة. عيّنه بيرسي أليلاين».

قدّم ثيسنغر تقريرًا عن تحرّكات بوريس اعتمادًا على مراقبة أسبوع واحد.

«كان بوريس غريب الأطوار فعلًا»، قال تار. «لم أستطع فهمه. كان يشرب كل ليلة من دون توقّف. لم ينم لأسبوع كامل، ما أرهق المراقبين

التابعين لثيسنغر. وكان يتجوّل يوميًا مع الوفد، متفقّدًا المعامل، منخرطًا في نقاشات، محافظًا على مظهر المسؤول الرسميّ السوفياتيّ الشاب المتألّق».

«شاب بأيّ عمر؟»، سأل سمايلي.

تدخّل غويلام: «بحسب طلب الفيزا كان من مواليد مينسك عام ستة وأربعين».

وفي المساء كان يعود إلى نُزل ألكساندرا، وهو منزل قديم أشبه بكوخ في نورث بوينت حيث كان يقيم الوفد. كان يأكل مع الطاقم، ثم يخرج من الباب الجانبيّ حوالى الساعة التاسعة، ويتوجّه إلى النوادي الليليّة في الشارع الرئيسيّ لكاولون. كان ناديه المفضل هو كاتس كريدل في شارع كوينز، حيث كان يشتري المشروبات لرجال أعمال محليين ويتصرف كما لو أنّه السيّد ذو الشأن. قد يبقى هناك إلى منتصف الليل. ومن كريدل كان يعود إلى وانشاي عبر النفق، متوجّهًا إلى مكان اسمه إينجلايكا حيث كان المشروب أرخص. وهو وحيد. إينجلايكا هي كافيتريا تضم بؤرة قذارة في القبو حيث يذهب البحّارة والسيّاح، وبدا وكأنّ بوريس يحب هذا المكان. كان يطلب ثلاثًا أو أربع كؤوس ويحتفظ بالإيصالات. كان يشرب البراندي أساسًا، ولكنّه كان يطلب فودكا أحيانًا للتنويع. تورّط مرةً مع فتاة أوراسيّة، فلاحقها رجال ثيسنغر وعرفوا ما جرى بينهما. قالت إنه كان وحيدًا وكان يجلس على السرير شاكيًا بشأن زوجته لأنّها لا تقدّر عبقريّته. وكان هذا اختراقًا حقيقيًا»، أضاف بسخرية كما لو كان يقلّب فحمةً إثر أخرى في النار لتحريكها، وليعيد إليها الحياة. «في تلك الليلة ذهبتُ إلى كريدل لإلقاء نظرة عليه. كان مراقبو ثيسنغر قد صُرفوا للنوم وشرب كأس من الحليب. ولم يرغبوا بمعرفة أيّ شيء».

أحيانًا، مع حديث تار، كان ثمة هدوء غريب يحتلّ جسده، كما لو كان يُنصت لصوته يُرَدَّد أمامه مجددًا.

«وصل بعد عشر دقائق من وصولي جالبًا مرافقتيه، سويديّة شقراء ضخمة، تجر خلفها عاهرة صينيّة. طلبوا ويسكي على حساب بوريس، وجلستُ على بعد ست أقدامٍ مراقبًا المجموعة القميئة منصتًا إلى حديثهم. بقيت الطفلة الصينيّة صامتةً فيما كانت السويديّة تتولّى معظم الكلام. كانوا يتحدّثون بالإنكليزيّة. سألت السويديّة بوريس عن مكان إقامته، فرد بوريس بأنّه الإكسيلسيور، وكان يكذب بخسّة لأنه كان يقيم في نُزل ألكساندرا برفقة جوقته. حسنًا: ألكساندرا في أسفل اللائحة: الإكسيلسيور يبدو أفضل. حوالى منتصف الليل تفرّق الجمع. قال بوريس إنّ عليه العودة إلى الفندق لأن لديه عملًا كثيرًا في الغد. وكانت تلك الكذبة الثانية لأنّه لم يكن ليتوجّه إلى المنزل أكثر ممّا كان سيفعلها ذاك – ما اسم ذلك الشخص، جيكل وهايد، تمامًا! – الطبيب النموذجيّ الذي كان يتنكّر متّجهًا إلى المرح والرذيلة. من كان بوريس إذًا؟».

للحظة، لم يساعده أحد.

«هايد»، قال وقد جلس مجدّدًا ووضع يديه الحمراوين الضئيلتين في حضنه.

«هايد»، كرّر تار. «شكرًا سيّد ليكون؛ لطالما كنت أراك رجلًا مثقّفًا. إذًا، طلبوا الحساب فاندفعت مباشرة إلى وانشاي كي أسبقه إلى هناك بعد أن يترك إنجيليكا. آنذاك، كنت واثقًا بأنّني في لعبة الكرة الخاطئة».

على أصابع طويلة جافّة، عدّد تار الأسباب بثقة: أولًا، لم يسبق له أن رأى وفدًا سوفياتيًا يخلو من رجلَين ضخمَين كالغوريلا تنحصر مهمّتهما في إبعاد الفتيان عن اللهو. إذًا، كيف كان بوريس يتسلل كل ليلة؟ ثانيًا، لم يحبّ الطريقة التي كان يصرف فيها بوريس نقوده الأجنبيّة. بالنسبة إلى مسؤول سوفياتيّ، كان هذا مغايرًا للطبيعة، كما أصرّ تار: «لم يكن ليملك نقودًا أساسًا. ولو كان يملك، كان سيشتري عقدًا لزوجته. وثالثًا، لم أحبّ الطريقة التي كان يكذب فيها. كانت تصرّفاته ارتجاليّة وبعيدة كلّ البعد عن الأصول».

لذ انتظر تار في إنجيليكا، وبعد نصف ساعة تمامًا وصل السيّد هايد لوحده. جلس وطلب مشروبًا. «هذا كلّ ما يفعله. يجلس ويشرب كزهرة حائط لعينة!».

مرةً أخرى كان دور سمايلي لتلقّي حرارة سحر تار: «إذًا ما كان كلّ هذا سيّد سمايلي؟ هل فهمت ما أعنيه؟ ألاحظ أدقّ التفاصيل. خذ الطريقة التي يجلس فيها. صدّقني يا سيّدي، لو كنّا في ذلك المكان بأنفسنا، لن يكون بوسعنا الجلوس كما يفعل بوريس. كان في موقعٍ يمكّنه من رؤية جميع المخارج والدرج، وتُتاح له زاوية جيّدة لرؤية المَدخل الأساسيّ، أما عن أفعاله، فقد كان يستخدم يده اليمنى فيما ثمّة جدار يغطّي جانبه الأيسر. كان بوريس محترفًا، سيد سمايلي، ليس ثمة شك في هذا أبدًا. كان ينتظر تواصلًا ما، ربما كان يعمل صندوق بريد، أو يجرجر معطفه باحثًا عن حركةٍ ما من أحمق مثلي. حسنًا، اسمعوا الآن: أن تحرق مفوّضًا تجاريًا صغيرًا أمرٌ، ولكنّها لعبة كرة مختلفة أن تدخل بقدميك إلى بيئة محترفة ومدرَّبة، أليس هذا صحيحًا سيّد غويلام؟»

رد غويلام: «بما أنّ صيّادي الرؤوس المعاد تنظيمهم لم يكن بوسعهم متابعة العملاء المزدوجين. كان لا بدّ لهم من العودة إلى محطة لندن للاستشارة. كان لديهم أمرٌ واضح بتوقيع بل هايدن. ولو كان هناك مجرّد رائحة طفيفة لأي اعتراض، سيتم التخلّي عنهم». أضاف لأُذن سمايلي الخاصة: «في ظل مبدأ التجانب، استؤصلت استقلاليّتنا من جذورها».

«وقد كنت في ألعاب مزدوج-مزدوج من قبل»، قال تار بنبرة كرامةٍ مجروحة. «صدّقني سيد سمايلي، إنّهم علبة مليئة بالديدان».

«متأكّد من أنّهم كذلك»، قال سمايلي معدّلًا نظارته.

أبرق تار لغويلام «لا صفقة»، وحجز تذكرة عودة ومضى للتسوّق. وعلى أيّة حال، بما أنّ رحلته لن تكون قبل الخميس، ظنّ بأنّ من الأفضل أن يقوم قبل أن يغادر، كي يعمل مقابل أجرته، بتفتيش غرفة بوريس.

«كان نزل ألكساندرا مكانًا قديمًا متداعيًا فعلًا، سيد سمايلي، عند طريق ماربل، يحتوي على شرفات خشبيّة. أما بخصوص الأقفال، فقد كانت تستسلم يا سيدي بمجرد رؤيتك قادمًا نحوها».

خلال وقت قصير كان تار يقف داخل غرفة بوريس مُسندًا ظهره إلى الجدار، منتظرًا كي تعتاد عيناه الظلام. كان لا يزال واقفًا هناك عندما سمع امرأة تحدّثه بنبرة ناعسة بالروسيّة من السرير.

«كانت زوجة بوريس»، فسّر تار. «كانت تبكي. سأسمّيها إيرينا، حسنًا؟ السيّد غويلام لديه التفاصيل».

اعترض سمايلي مباشرةً: «من المستحيل أن تكون الزوجة، قال. لن يسمح لهم المركز بالخروج معًا من روسيا في الوقت ذاته، كانوا سيبقون على أحدهما، ويرسلون الآخر...».

«زواج عرفيّ»، ردّ غويلام باقتضاب. «غير رسميّ، ولكنّه دائم».

«ثمة كثير من الأمور التي تبدو مقلوبةً رأسًا على عقب هذه الأيام»، قال تار بابتسامةٍ حادّة غير موجّهة لأحد محدد، وإن بدت موجّهة لسمايلي، فصوّب إليه غويلام نظرةً حمقاء أخرى.

6

منذ بداية هذا اللقاء دخل سمايلي في حالة هدوء غامض كبوذا بحيث لم تحفّزه قصة تار أو الاعتراضات النادرة لكلٍّ من ليكون وغويلام. جلس مسندًا ظهره طاويًا ساقيه القصيرتين، رأسه إلى الأمام وكفّاه الممتلئتان متعانقتان عند معدته البارزة. كانت عيناه الغائمتان مغلقتَيْن خلف العدسات السميكة لنظارته. وكانت حركته الوحيدة مقتصرةً على تنظيف نظارته بالبطانة الحريريّة لربطة عنقه، وحين كان يفعل ذلك ثمة نظرةٌ غارقة مباشرة تحتلّ عينيه تصيب بالإحراج كلّ من يقع نظره عليها. وكان تعجّبه، والصوت المتحذلق المجنون الذي يتبع تفسير غويلام، الذي يبدو الآن بمثابة تنبيه لباقي الجمع، يثيران إزاحةً للكراسي وسعالًا يكسر الصمت.

بادر ليكون: «ما الذي تشربه عادةً؟ هل أقدّم لك ويسكي أم شيئًا آخر؟». عرض المشروب بتَوْقٍ، كما لو كان أسبرينًا لصداع، وشرح: «نسيت عرض ذلك مبكّرًا، جورج، مشروب: هيا. إنّه الشتاء. كأس ما؟».

«لا داعي، شكرًا»، رد سمايلي.

كان يرغب ببعض القهوة من الآلة، ولكنّه لم يشعر برغبةٍ لطلب ذلك. كما تذكّر بأنّ طعمها سيىء.

تابع ليكون: «غويلام؟ لا ، وجد غويلام أنّ من المستحيل قبول كحولٍ من ليكون.

ولم يعرض شيئًا على تار الذي تابع حديثه مباشرةً.

تعامل تار مع وجود إيرينا بهدوء، كما قال. كان قد جهّز خطة خروجه قبل أن يدخل المبنى، والآن هو بمواجهة هدفه. لم يشهر مسدّسًا أو يكمّم فمها، أو أيًا من هذه الأفعال، كما قال، بل قال لها إنّه جاء للتحدث مع بوريس بشأن مسألة شخصية، وهو يعتذر عن الدخول، وسيبقى جالسًا إلى حين مجيء بوريس. بلهجة أستراليّة متقنة، تقمّص دور تاجر سيارات غاضب من أحياء الحثالة، وفسّر بأنّه لم يكن يريد التدخّل في شؤون أحد لو لم تتم سرقة فتاته ونقوده من قِبل روسيٍّ حقير لم يتمكّن من دفع ثمن لذّته. تصنّع الكثير من الغضب ولكن أبقى صوته خفيضًا وانتظر ردّ فعلها.

«وهكذا، كانت بداية كل شيء».

كانت الساعة الحادية عشرة والنصف حين دخل غرفة بوريس. وغادرها الساعة الواحدة والنصف مع وعدٍ بلقاءٍ آخر في الليلة التالية. حينئذٍ كان الوضع على غير ما يُفترض: «لم نكن نفعل شيئًا غير ملائم، فليكن هذا في البال. مثل أصدقاء مراسلة، صحيح سيد سمايلي؟».

للحظة، بدت الإشارة الهازئة وكأنّها موجّهةٌ إلى أغلى أسرار سمايلي.

«صحيح»، أكّد بسأم.

لم يكن ثمة ما هو غريب بشأن وجود إيرينا في هونغ كونغ، أو أيّ سبب منع ثيسنغر من معرفة ذلك، كما فسّر تار. كانت إيرينا في الوفد كأيّ عضو آخر. كانت بائعة نسيج مدرّبة: «لو فكّرتَ في الموضوع، كانت مؤهّلةً على نحو أكبر من زوجها، لو كان بإمكاني اعتباره كهذا. كانت طفلة بسيطة، أشدّ ثقافةً مما أفضّله في النساء، ولكنّها كانت شابّة وذات ابتسامة مذهلة حين تتوقّف عن البكاء». توقّف ثم أضاف تار بظرف. «كانت صاحبةً جيّدة»، أصرّ، كما لو كان يحاجج ضدّ نمطٍ ثابت. «حين دخل السيّد توماس القادم

من أديليد إلى حياتها، كانت تنفض آخر آثار قلقها بشأن الشيطان بوريس. اعتقدت بأنّي الملاك جبرائيل. من بإمكانها التحدّث إليه عن زوجها من دون أن تخشى شيئًا؟ لم يكن ثمّة أصدقاء لها في الوفد، ولا أحد جديرٌ بثقتها في موسكو، كما قالت. لم يكن أحد ليعلم، ما لم يكن يعايش هذا الوضع، ما تعنيه محاولة الإبقاء على علاقة فاشلة فيما أنتَ على الحافّة دومًا». غرق سمايلي في لحظة هدوء عميقة أخرى. «فندقًا إثر آخر، مدينة إثر أخرى، من دون أن يُتاح لها مجرّد الحديث إلى السكّان المحليّين بطريقة طبيعيّة أو أن تظفر بابتسامة من غريب، هكذا وصفت حياتها. أدركتُ بأنّه وضع مأساويّ فعليًا، سيد سمايلي، وكان ثمة الكثير من المعاناة، وثمة زجاجة فودكا فارغة قرب السرير توضح ذلك. لِمَ ليس بوسعها أن تكون شخصًا طبيعيًا؟ كانت تكرّر هذا. لمَ لا يكون بإمكانها التمتّع بشمس الرب مثل باقي الخلق؟ كانت تحب زيارة الأماكن الجديدة، وتعشق الأطفال الأجانب، لمَ ليس بوسعها أن تلد طفلًا لها؟ طفلًا يولد حرًا، لا في الأسر. كانت تكرّر هذا: الأسر، الحرية. أنا فتاة مرحة يا توماس. أنا فتاة اجتماعيّة طبيعيّة. أحب البشر: لمَ عليّ أن أخدعهم وأنا أحبّهم؟ ثم قالت إنّ المأساة كانت حين اختيرت منذ زمن طويل لعملٍ جعلها جامدةً كعجوز، وقطعها عن الرب. ولذا هي تشرب وتبكي. بدتْ وكأنها نسيت زوجها حينذاك، بل وكانت تعتذر بسبب خوضها علاقة عابرة». تردّد مجددًا. «كان بوسعي تلمّس هذا سيد سمايلي. كان ثمّة ذهب داخلها. كان بوسعي تلمّس هذا منذ البداية. المعرفة قوّة، كما يقولون يا سيّدي، وكانت إيرينا تمتلك القوة، كما كانت تمتلك المزايا في الوقت ذاته. ربما كانت حازمةً، ولكنّها كانت ستسلّم نفسها كليًا. بوسعي التقاط السخاء في المرأة حين ألتقيها، سيد سمايلي. لديّ موهبة في هذا الأمر. وقد كانت هذه السيدة جاهزةً لتكون سخيّة. يا إلهي، كيف بمقدورك وصف الحدس؟ بوسع بعض الناس تحسّس الماء تحت الأرض ...».

بدا وكأنّه كان يتوقّع بعض التعاطف لذا قال سمايلي «أتفهّم ذلك»، وأمسك شحمة أذنه.

مراقبًا سمايلي بتبعيّةٍ غريبة تظهر في تعابيره، بقي تار صامتًا لبرهةٍ أطولثم قال: «كان أول ما فعلته في الصباح هو إلغاء رحلتي وتغيير الفندق».

فجأةً فتح سمايلي عينيه «ما الذي قلته للندن؟».

«لا شيء».

«لم لا؟».

علّق غويلام: «لأنه أحمق مراوغ».

«ربما لأنني ظننت بأنّ السيد غويلام سيقول: 'عد إلى الوطن يا تار'، أجاب مصوّبًا نظرة العارف إلى غويلام الذي لم ينظر إليه. «كما تعلم، عندما كنت صبيًا صغيرًا اقترفتُ خطأً وخطوت نحو المصيدة».

فقال غويلام: «ارتكب حماقات مع فتاة بولنديّة. أحسَّ بسخائها أيضًا».

«كنت أعرف أنّ إيرينا ليست مصيدة ولكن كيف كان بوسعي أن أتوقّع موافقة السيد غويلام على هذا؟ مستحيل».

«هل أخبرت ثيسنغر؟».

«لا، لا بالتأكيد».

«ما السبب الذي قلته للندن كي تبرّر تأجيل عودتك؟».

«كنت قد قرّرت السفر يومِ الخميس. واعتقدت بأنّ أحدًا لن ينتبه إلى غيابي قبل الثلاثاء. بخاصة وأنّ بوريس يتصرف ببراءة».

قال غويلام: «لم يقدّم أيّ سبب، واعتبره مدبّرو المنزل متغيّبًا دون عذر منذ يوم الاثنين»، ثم أضاف بحدّة: «لقد انتهك جميع القواعد المتعارَف عليها. بل وبعضًا من القواعد الأخرى. وعند منتصف الأسبوع كان بل هايدن قد بدأ قرع طبول الحرب كذلك. وكنتُ مضطرًا للإنصات».

بصرف النظر عن الكيفيّة، التقى تار وإيرينا في المساء التالي. والتقيا مجددًا في المساء الذي تلاه. كان اللقاء الأول في مقهى ولكنّه كان مضطربًا. تصرّفا بحرص كيلا يتم كشفهما لأنّ إيرينا كانت خائفة لا من زوجها فحسب، بل من الحرّاس الملحَقين بالوفد، الغوريلا بحسب تسمية تار. ورفضت أن تشرب شيئًا وكانت ترتعش. في المساء التالي كان تار لا يزال ينتظر سخاءها. ركبا الترام باتجاه فكتوريا بيك، عالقَين في حشود العجائز الأميركيات بجواربهنّ ونظّاراتهنّ البيض. وفي اللقاء الثالث استأجر سيارة وأخذها بالقرب من المناطق الجديدة إلى أن تنبّهت فجأةً إلى اقترابهما من الحدود الصينيّة، لذا هرعا لإيجاد مهرب. بالرغم مما حدث، أحبّت الرحلة وغالبًا ما كانت تستعيد الجمال اللطيف فيها: برك السمك وحقول الأرزّ. أحبّ تار الرحلة أيضًا لأنّها برهنت لكليهما بأنّهما ليسا مراقَبين. ولكن بقيت إيرينا متردّدة ولم تُفرغ كلّ حقائبها، بحسب تعبير تار.

«والآن سأقول لكم أمرًا غريبًا جدًا بشأن هذه المرحلة من اللعبة. في البداية، انغمستُ في دور توماس الأستراليّ. أخبرتها الكثير من الترّهات عن مزرعة خراف خارج أديليد وبيتًا واسعًا في الشارع الرئيسيّ بواجهة زجاجيّة ولافتة تحمل اسم «توماس» بالأضواء. لم تصدّقني. كانت تومئ برأسها وتصمت منتظرةً انتهاء كلامي لتقول : نعم، توماس، لا، توماس، ثم تغيّر الموضوع».

في الأمسية الرابعة أخذها بالسيارة إلى التلال المطلّة على الشاطئ الشمالي فاعترفت إيرينا بحبها له وبأنّها تعمل لصالح مركز موسكو، هي وزوجها، وأنّها عرفت بأنّ تار كان يعمل في هذا المجال أيضًا؛ كان بوسعها معرفة ذلك من انتباهه والطريقة التي كان ينصت فيها بعينيه.

«قررت بأنّني كنت كولونيلًا إنكليزيًا في الاستخبارات»، قال تار من دون أن يبتسم على الإطلاق. «كانت تبكي لدقيقة، ثم تضحك في أخرى، وأظنّ بأنها كانت قد قطعت ثلاثة أرباع الطريق نحو الجنون. لنصف الوقت

كانت تتكلّم كبطلة مخبولة في روايات الجيب، وفي النصف الآخر كطفلة لطيفة من الضواحي. كان الإنكليز شعبها المفضّل. كلّهم جنتلمان، كانت تقول دومًا. كنت أحضر لها زجاجة فودكا فتشرب ما يقارب نصفها في رشفةٍ واحدة لا تتجاوز خمس عشرة ثانية. فليحيا الجنتلمان الإنكليزيّ. كان بوريس هو العنصر الأساسيّ في حين كانت هي الفتاة الداعمة. ويومًا ما ستتحدّث مع بيرسي أليلاين لتخبره سرًا عظيمًا له وحده. كان بوريس في رحلة عمل في هونغ كونغ، بالتوازي مع عمله كساعي بريد بين المركز والعميل السوفياتيّ المقيم في هونغ كونغ. وكانت إيرينا هي الرسول، وهي التي توجز الأخبار- وترفع صوت الراديو إلى أقصاه كي يشوّش على من يسترق السمع. هذا ما كُتب في الجريدة، هل فهمت؟ كان الناديان الليليّان موقعين للمواعيد والمكان الاحتياطيّ لصِلاته المحليّة، بهذا الترتيب. ولكن كلّ ما كان بوريس يريد فعله هو الشرب ومطاردة الراقصات والوقوع في الاكتئاب. أو يذهب في نزهات قد تستمر خمس ساعات لأنه لا يُطيق البقاء مع زوجته في الغرفة ذاتها. وكلّ ما كانت تفعله إيرينا هو الانتظار والبكاء وإراحة نفسها عبر الجلوس وحيدةً في البيت. كنتُ أبقيها تتحدث هناك، على التلة هناك ونحن جالسان في السيارة. لم أكن أتحرك لأنّني لم أُرد كسر هذا السحر. كنا نشاهد حلول المغيب عند الميناء والقمر الرائع عاليًا في السماء، والمزارعين وهم يعبرون بجانبهما بعصيّهم ومصابيح الكيروسين. كل ما كنّا نحتاج إليه هو همفري بوغارت في بدلة توكسيدو. كنت أضع رجلي على زجاجة الفودكا لأدعها تتحدث. لم أكن أُبدي أيّ حركة. الحقيقة، سيد سمايلي، تلك هي الحقيقة»، صدح باستسلام رجل يتوق لأن يصدّقه مستمعوه، ولكن كانت عينا سمايلي مغمَضَتَيْن، وكان أصمّ تجاه كلّ المناشدات.

«تخلّت عن كلّ شيء هكذا»، شرح تار كما لو أنّ الأمر كان حادثةً لا دور له فيها. «أخبرتني قصة حياتها كاملةً منذ ولادتها وصولًا إلى الكولونيل توماس؛ هذا أنا. أمها، أبوها، قصص الحب الأولى، التجنيد، التدريب، شبه زواجها الفاشل، كلّ شيء. كيف التقت مع بوريس في التدريبات

ليبقيا معًا منذ تلك اللحظة: إحدى أعظم العلاقات الباقية. أخبرتني اسمها الحقيقيّ، اسمها في العمل، والأسماء المستعارة الأخرى التي كانت تسافر وتتنقّل بها، ثم أفرغت حقيبة يدها وبدأت تريني أدوات العمل: قلمٌ مجوَّف، خريطة مطويّة بالعكس؛ كاميرا مخفيّة، وما إلى ذلك. «انتظري كي يرى بيرسي كل هذا»، - كنت أقول لها محاولًا المماطلة. كانت أدوات خط إنتاج، وليست مصنَّعةً خارجيًا، بل كانت جميعها أدوات متماثلة من الدرجة الأولى. ولكي تُنهي كلّ شيء، بدأت تكشف عن كلّ قذارة العملاء السوفيات في هونغ كونغ: المخبرون، المنازل الآمنة، صناديق البريد، وغيرها. كنت سأجنّ وأنا أحاول تذكّر هذه التفاصيل».

«ولكنّك فعلت ذلك»، قال غويلام باختصار.

نعم، وافقه تار؛ فعل ذلك بهذه الدرجة أو تلك. كان يعلم بأنّها لم تخبره الحقيقة كاملةً، ولكنّه كان يعلم أيضًا بأنّ قول الحقيقة أمر مرهِق على فتاة كانت تعمل في الخفاء منذ مراهقتها، وأعتقد بأنّها كانت تُبلي بلاءً حسنًا بالنسبة إلى مبتدئة.

قال في لمحةٍ أخرى من الاعترافيّة الزائفة: «تعاطفت معها بعض الشيء.أحسست بأنّنا على الموجة ذاتها».

«فعلًا»، قال ليكون في مداخلة نادرة. وكان شديد الشحوب، ولكن أكان هذا بفعل الغضب أو بتأثير الضوء الباهت لبداية الفجر المتسلل عبر شقوق النافذة، لم تكن ثمة طريقة لمعرفة هذا.

7

«أصبحتُ الآن في وضع غريب. رأيتها في اليوم التالي، ثم التالي، وحدستُ بأنّها إن لم تكن قد أصيبت بالفصام، لا بدّ أنّها ستصبح كذلك قريبًا. في لحظة كانت تتحدّث عن بيرسي الذي سيعطيها عملًا في السيرك عند الكولونيل توماس، وتجادلني ما إذا كانت ستصبح برتبة ملازم أو نقيب. وفي اللحظة التالية تقول إنها لن تتجسّس لحساب أحد مجددًا، وبأنّها ستزرع الأزهار وتعبث مع توماس على القش. ثم خطرت لها فكرة جنونيّة: ستقوم الراهبات المعمدانيّات بتطهير روحها. سألتها، من بحق الجحيم سمع بالراهبات المعمدانيات؟ لا تقلق، أجابت، المعمدانيّات هنّ الأفضل، أمها كانت قرويّة وتعلم ذلك. كان هذا ثاني أخطر سر تبوح لي به. «ما هو الأخطر إذًا؟»، سألت. لا رد. كلّ ما كانت تقوله هو أنّنا في خطر بالغ، أكبر مما بوسعي معرفته: ليس ثمة أمل لأيٍّ منا ما لم تحصل على ذلك اللقاء الخاص مع الأخ بيرسي. «أيّ خطر، بحقّ المسيح؟ ما الذي تعرفينه ولا أعرفه؟» ولكنها تبقى صامتةً كهرّة، حين ألححت عليها، اضطربت إلى درجة أنني خشيت أنّها ستذهب إلى المنزل وتخبر بوريس بكل شيء. الوقت كان ينفد مني كذلك. حلّ يوم الأربعاء وكان الوفد سيعود إلى موسكو الجمعة. لم تكن خبرتها سيئة ولكن كيف لي أن أثق بمجنونة مثلها؟ تعلم كيف تصبح المرأة حين تقع في الحب، سيد سمايلي. يعجزنَ حتّى...».

قاطعه غويلام آمرًا: «انتبه لكلامك فحسب، أوكي؟». فتجهّم تار بصمت.

««كل ما عرفته هو أنّ إيرينا أرادت الانشقاق - أن تتحدث إلى بيرسي. تبقّى لها ثلاثة أيام، وكلّما أسرعت بذلك كان أفضل للجميع. لو انتظرتُ أكثر كانت ستُقنع نفسها بالتراجع. لذا هرعتُ للتحدّث مع ثيسنغر، حين كان يهمّ بفتح متجره في الصباح؟».

«الأربعاء، يوم الحادي عشر»، تمتم سمايلي. «في لندن يكون الوقت هو الساعات الأولى من الصباح».

«أعتقد بأنّ ثيسنغر ظنّني شبحًا. لا بدّ أن أتحدّث مع لندن، مع مدير محطة لندن شخصيًا، قلت له. تجادلنا بشدّة إلى أن رضخ أخيرًا. جلست إلى مكتبه وشفّرت الرسالة بنفسي، وكان ثيسنغر يراقبني ككلب بائس. كان علينا أن نرسلها بحيث تبدو رسالةً تجاريّة بسبب الغطاء التجاري الذي كان ثيسنغر يتخفّى به. استغرق منّي الأمر نصف ساعة أخرى. كنت مرتبكًا، أجل كنت كذلك. ثمّ أحرقت الدفتر اللعين وطبعت الرسالة على التلغراف. في تلك اللحظة لم يكن ثمّة شخص على الأرض عداي يعلم دلالة الأرقام على الورقة، ولا حتى ثيسنغر، أنا فقط. طلبت معاملةً تامةً لانشقاق إيرينا كإجراء عاجل. وعرضت كلّ الأمور التي لم تتحدّث بشأنها أبدًا: المال، الجنسيّة، هويّة جديدة، لا أضواء تسلّط عليها، ومكان لتقيم فيه. قبل أيّ شيء آخر، كنت ممثّلها الرسميّ في العمل بشكل من الأشكال، أليس كذلك سيد سمايلي؟».

بحلق فيه سمايلي وكأنه بوغت. «أجل»، وأضاف بلطف. «نعم، أفترض بأنّك كنت كذلك على نحو ما».

«كان له نصيب في كلّ هذا، بما أنّني أعرفه»، تمتم غويلام.

مع سماع الجملة أو تخمين معناها، استشاط تار غضبًا. «هذا كذب شنيع!» صاح، وقد تلوّن وجهه. وبعد أن نظر باتجاه غويلام للحظة، عاد ليتابع قصته.

«شرحت مسيرة عملها حتى تلك اللحظة، بما فيها الوظائف التي شغلتها في المركز. طلبتُ محقّقين وطائرة حربيّة. كانت تظنّ بأنّني أطلب لقاءً خاصًا مع بيرسي أليلاين على نحو طبيعيّ، ولكنّني ظننت بأنّ من الأفضل لنا قطع الجسر بما أنّنا قد تجاوزناه. طلبت إرسال اثنين من حَمَلة المصابيح التابعين لإيسترهيز ليتولّوا مسؤوليتها، وطبيبًا نفسيًا كذلك».

سأله سمايلي بحدّة: «لا يُسمَح لحَمَلة المصابيح بالتعامل مع المنشقّين؟».

كان حَمَلة المصابيح تابعين لتوبي إيسترهيز، ومركزهم في آكتون وليس بركستون. كان عملهم يتعلّق بتأمين خدمات الدعم للعمليات الأساسيّة: المراقبة، والتنصّت، والتنقّل، والمنازل الآمنة.

«آه حسنًا، توبي شخصية بارزة منذ أيامك سيّد سمايلي»، فسّر تار. «قيل لي إنّه حتى موظّفوه الثانويّون يركبون كاديلاك. ويسرقون اللقمة من فم صيّادي الرؤوس لو أُتيح لهم ذلك، صحيح سيّد غويلام؟».

«لقد أصبحوا قطّاع الطرق الأساسيّين في محطة لندن»، قال غويلام بإيجاز. «إحدى نتائج التّجانب».

«خمّنت بأنّ الأمر سيستغرق نصف عام كي يتمكّن المحقّقون من إفراغ جعبتها، كما أنّها كانت متيّمةً باسكتلندا لسببٍ ما. كان لديها أمنية كبيرة بأن تقضي ما تبقّى من حياتها هناك. مع توماس. يربّيان أولادهما بين نباتات الخلنج. أرسلتها إلى محطة لندن، كبرقيّة عاجلة تُسلَّم للمدير شخصيًا».

شرح غويلام الأمر: «هذه هي الصيغة الجديدة للحد الأقصى. من المفترَض أن يحل هذا محلّ المعالجة القديمة في غرفة الشيفرة».

سأل سمايلي: «ولكن ليس في محطة لندن؟».

«هذا شأنهم».

«سمعتَ بأنّ بل هايدن تسلّم هذه الوظيفة، كما أعتقد؟»، قال ليكون، محاولًا استفزاز سمايلي. «مدير محطة لندن؟ إنه عمليًا مدير عملياتهم، تمامًا كما كان بيرسي أيام إدارة كونترول. لقد غيّروا التسميات كلّها، هذا ما في الأمر. وأنت تعلم نظرة زملائك القدامى بشأن التسميات. من الأفضل أن تشرح له يا غويلام، حدِّث معلوماته».

«أعتقد بأنّ الصورة واضحة بالنسبة لي، شكرًا»، قال سمايلي بتهذيب. وسأل تار مغيّرًا الموضوع: «تحدثت بشأن سر خطير، كما قلت؟».

«نعم يا سيدي».

«هل أدرجت أية إشارة بشأن هذا في رسالتك إلى لندن؟»

لقد أحسّ بشيء ما، لا شك في ذلك؛ وجد نقطةً من المؤلم طرحها، إذ أجفل تار، واختلس نظرةً متشكّكة إلى ليكون، ثم غويلام.

مخمّنًا ما يعنيه، عاجله ليكون بإنكار: «لا يعرف سمايلي أيّ شيء بخلاف ما أخبرته به في هذه الغرفة. صحيح غويلام؟»، أومأ غويلام برأسه، مراقبًا سمايلي.

«أخبرت لندن بما قالته لي تمامًا»، تابع تار بنزق، كما لو أنّ أحدًا سرق منه قصةً ثمينة.

«ما هي الكلمات بالضبط؟» سأله سمايلي. «أتساءل ما إذا كنت تتذكر ذلك؟».

«ادّعاءات بامتلاك معلومات حاسمةً أخرى بشأن مصير السيرك، ليست معروفةً بعد. «شيء يشبه هذا على أية حال».

«شكرًا. شكرًا جزيلًا».

انتظروا تار كينه يكمل حديثه.

«كما طلبت من مدير محطة لندن إعلام السيد غويلام بأنّني ثابت ولم أكن ألعب الهوكي في تأخّري».

سأل سمايلي: «هل حدث هذا؟».

«لم يخبرني أحد بأيّ شيء»، قال غويلام بنبرة جافة.

«انتظرت الرد طوال اليوم، ولكن مع حلول المساء لم يكن قد وصل شيء. كانت إيرينا تنفّذ أعمالها الاعتياديّة. أصررتُ على ذلك. كانت تريد الادّعاء بأنّها أصيبت بحمّى خفيفة أبقتها في السرير، ولكنني لم أسمح لها. كان ينبغي على الوفد زيارة معامل في كاولون، وطلبت منها أن تلتزم بالخطة وأن تكون ذكية. كما جعلتها تُقسم على عدم مسّ زجاجة المشروب. لم أكن أريدها أن تغرق في تصرّفات دراميّة طفوليّة في اللحظة الأخيرة. أردتُ أن تبقى طبيعيّة إلى حين لحظة الحسم. انتظرتُ حتى المساء ثم أرسلت رسالة تأكيد عاجلة».

صوّب سمايلي نظرةً حادّة إلى الوجه الشاحب أمامه وسأله: «وقد صلك ردّ بالطبع؟».

«وصلت الرسالة». هذا كلّ ما وصلني. كنتُ أتعرّق طوال تلك الليلة اللعينة. ومع الفجر لم يصل أيّ رد آخر. فكّرتُ: ربما كانت الطائرة في طريقها. لندن تلعب بالوقت حتى أقصاه، كما اعتقدت، مجهّزين كل شيء قبل إعلامي. أعني، عندما تكون بعيدًا إلى هذا الحد عنهم، لا بد أن تجزم بأنّهم بارعون. بصرف النظر عن رأيك بهم، يجب أن تجزم بهذا. أعني هذا الآن وآنذاك، أليس كذلك سيّد غويلام؟».

لم يجبه أحد.

«كنت قلقًا بشأن إيرينا. كنت شديد الثقة بأنّها ستنهار لو انتظرت يومًا آخر. أخيرًا جاء الرد. لم يكن ردًا على الإطلاق. كانت مماطلة: «أخبرنا عن الأقسام التي عملت فيها، أسماء ارتباطاتها السابقة ومعارفها داخل مركز موسكو، اسم مديرها الحاليّ، تاريخ انضمامها إلى المركز، وأشياء أخرى لا يتذكّرها إلا الرب. كتبت ردًا سريعًا لأنّني كنت سألتقي بها الساعة الثالثة عند الكنيسة...».

قال سمايلي: «أيّ كنيسة؟».

«المعمدانيّة الإنكليزيّة». ولدهشة الجميع، كان وجه تار قد احمرّ مرةً أخرى. «كانت تحب زيارة تلك الكنيسة. لا من أجل شيء محدد، بل تكتفي بالتجوال. مشيت بالقرب من المدخل على نحو طبيعيّ، ولكنها لم تظهر. كانت تلك المرة الأولى التي تُخلف فيها موعدًا بيننا. كان الموعد الاحتياطيّ بعد ثلاث ساعات عند التلة، ثم رجوعًا بمعدّل ثابت باتجاه الكنيسة. لو كانت في مأزق، كانت ستترك المايوه على عتبة نافذتها. فقد كانت مهووسة بالسباحة، تسبح يوميًا. نظرت إلى واجهة ألكساندرا: لا مايوه. تبقّت ساعتان ونصف. لم يكن لديّ ما أفعله سوى الانتظار».

قال سمايلي: «ما كان مستوى أولويّة تلغراف محطة لندن إليك؟».

«مباشر».

«ولكنّ تلغرافك كان عاجلًا؟».

«كلاهما كانا عاجلين».

«هل كان تلغراف لندن موقّعًا؟».

تدخّل غويلام: «لم تعد التلغرافات تُوقَّع. يتعامل العملاء الخارجيّون مع محطة لندن بوصفها وحدة متكاملة».

«هل فككت شيفرته بنفسك؟».

«لا»، رد غويلام.

انتظَروا تار ليتم حديثه.

«ذهبت إلى مكتب ثيسنغر، ولكنّني لم أكن محبوبًا هناك، إذ لم يكن محبًّا لصيّادي الرؤوس، كما كان لديه عمل مهم في الأراضي الصينية ظنّ أنّني سأخرّبه بإلحاحي. لذا جلست في مقهى ثم خطرت لي فكرة أنّ عليّ أن أهرع مباشرة إلى المطار. كانت مجرد فكرة: كما حين تقول، «ربما

عليّ أن أذهب لمشاهدة فيلم». قلت لسائق التاكسي أن ينطلق بأقصى سرعة. لم أناقش بشأن السعر. بدا الأمر وكأنّه نوبة هلع. ذهبت إلى مكتب الاستعلامات واستفسرت عن جميع الرحلات القادمة أو المغادرة إلى موسكو. كدت أن أُجنّ وأنا أبحث في لوائح الطيران، صارخًا في وجوه الموظفين الصينيّين، ولكن لم تكن هناك أي طائرة منذ البارحة، ولن تكون هناك أخرى حتى ست ساعات. ولكن كان قد احتلّني حدس الآن. كان يجب أن أعرف ما حدث. ماذا عن الطائرات المستأجرة، ماذا عن الرحلات غير المسجلة، أو رحلات الترانزيت؟ هل يعقل أن لا يكون هناك شيء، لا شيء حقًّا بشأن موسكو منذ صباح البارحة؟ ثم أتت تلك الفتاة الصغيرة بالإجابة، إحدى المضيفات الصينيات. قدّمت لي معروفًا حقيقيًا. طائرة سوفياتيّة غير مسجَّلة أقلعت منذ ساعتين. على متنها أربعة ركاب فقط. كانت محور الاهتمام امرأة مريضة. سيّدة. في غيبوبة. كان عليهم أن ينقلوها إلى الطائرة بسرير طبيّ، وكان وجهها ملفوفًا بضمادات. ومعها ممرّضان وطبيب، هذا كان كلّ طاقم الركاب. اتصلت بألكساندرا كأمل أخير. لم تقم إيرينا أو زوجها الزائف بتسجيل مغادرتهما من الفندق، ولكن لم يكن هناك أيّ رد من غرفتهما. لم يكن موظفو ذلك الفندق البائس قد علموا بأنّهما قد غادرا أساسًا».

ربما كانت الموسيقا صادحةً منذ وقت طويل، ولم ينتبه لها سمايلي إلا الآن. سمعها بشذرات مبعثرة من أجزاء مختلفة من المنزل: مقطوعة فلوت، وصوت طفل على آلة تسجيل، ومقطوعة كمان تُعزَف بمهارة واثقة. كانت بنات ليكون الكثيرات قد استيقظن.

8

قال سمايلي بتبلّد، متحدّثًا كما لو كان يخاطب غويلام أكثر من أيّ شخص آخر: «ربما كانت مريضة. ربما كانت في غيبوبة. ربما كان هذان الشخصان ممرّضين حقيقيّين أعاداها معهما. بحسب ما سمعنا عنها، هي تبدو مضطربة كليًا». أضاف بنصف التفاتةٍ إلى تار: قبل أيّ شيء، أربع وعشرون ساعة فقط كان الوقت الفاصل بين تلغرافك الأول ورحيل إيرينا. بالكاد يمكنك وضع اللوم على كاهل لندن في مثل هذا الوقت الضيق».

قال غويلام، مطرقًا رأسه: «كانت الأمور تجري بسرعة رهيبة، ولكن كان يمكن تلافي الأمر لو أنّ شخصًا في لندن...»، كانوا جميعًا ينتظرون التتمة، «لو أنّ شخصًا في لندن تصرّف بتكتيك أفضل. وفي موسكو كذلك، بالطبع».

قال تار متباهيًا، مركّزًا على ملاحظة سمايلي ومتجاهلًا ملاحظة غويلام: «هذا ما قلته لنفسي بالضبط يا سيدي. كلماتي بالضبط، سيد سمايلي. اهدأ يا ريكي، قلت، ستوجّه الاتّهامات جزافًا إن لم تكن حريصًا».

«أو أنّ الروس كشفوا أمرها»، أصرّ سمايلي. «أو اكتشف الحرّاس علاقتك بها فرحّلوها. سيكون الأمر غريبًا لو أنّهم لم يكتشفوها، خاصة بالطريقة التي تعاملتما بها مع الأمر».

أردف تار: «أو أنّها أخبرت زوجها، أفهم علم النفس جيدًا يا سيّدي. أعلم ما يمكن أن يحدث بين الرجل وزوجته حين يتخاصمان. هي تريد إزعاجه. وإرباكه كي يكون لها رد فعل فقط، كما أعتقد. هل تريد أن تعرف ما كنت أفعله حينما كنت تسكر وتعبث مع راقصاتك؟ وما إلى ذلك. يقوم بوريس بإبلاغ الغوريلات، فيعمدون إلى تأديبها وإعادتها إلى بلدهم. مررت بكل هذه الاحتمالات، سيد سمايلي، صدّقني. فكّرت بها جميعًا في الحقيقة. كما سيفعل أيّ رجل حين تهجره زوجته».

شدّد غويلام بغضب: «هيا، لنبق في قضيتنا»،

حسنًا، قال تار، وأوضح أنه سيوافق على أنّه تصرّف بطيش مدة أربع وعشرين ساعة: «لا أتصرف بهذا الشكل معظم الأحيان، صحيح سيد غويلام؟».

«تتصرف بطيش بما فيه الكفاية».

«كنت أشعر بالإرهاق. وكنت منهكًا. يمكنك قول هذا».

اعتقاده بأنّ جائزةً كبيرة قد سُرقت منه بقسوة دفعه إلى جنون مشوَّش تمثّل في هياج النبش في أشباح قديمة. ذهب إلى كاتس كريدل، ثم إلى أنجليكا، ومع حلول الفجر كان قد زار عدة أماكن أخرى، عدا عن سؤال عدة فتيات. وصل إلى حد قطع المدينة بأكملها، وصولًا إلى اندفاعه نحو ألكساندرا. كان يأمل تبادل بضع كلمات مع أولئك الغوريلات. وحين هدأ، بدأ يفكّر بإيرينا والوقت الذي قضياه سويةً، وقرر قبل أن يعود إلى لندن أن ينبش أماكن تبادل الرسائل بينهما على أمل أن تكون قد تركت له رسالة قبل رحيلها.

كان أمرًا يتوجّب فعله على نحو ما. وأضاف الصبيّ المفعم بالتضحية: «أعتقد أنّني لم أستطع احتمال فكرة وجود رسالة منها مرميّة في فجوةٍ في جدارٍ ما بذلت كل ما بوسعها لإيصالها».

كان لديهما مكانان يتبادلان فيهما البريد. لم يكن الأول بعيدًا عن الفندق، في موقع بناء.

«هل سبق أن رأيتم تلك السقالات من قصب البامبو التي يستخدمونها؟ إنها رائعة. رأيت بناءً على ارتفاع عشرين طابقًا والعمّال محتشدون فوقه يرمّمونه بالإسمنت». قطعة من أنبوب مجوّف، قال، على ارتفاع الكتف. بدا من الأرجح أنّ إيرينا كانت ستستخدم هذا الأنبوب كصندوق بريد، لو كانت على عجلة من أمرها، ولكن حين فتّشه تار وجده فارغًا. كان المكان الثاني بقرب الكنيسة، «هناك حيث يخزّنون الكرّاسات»، كما قال. «كان هذا الرف جزءًا من خزانة قديمة. لو انحنيت إلى القسم الخلفي ستجد لوحًا مخلوعًا. وخلف اللوح فجوةٌ مليئة بالقمامة وفضلات الجرذان. كما أقول لكم، إنّه المكان الأفضل».

خيّم صمتٌ قصير، تخيّلوا فيه ريكي تار وعشيقته الروسيّة راكعين متجاورين عند مذبح الكنيسة المعمدانيّة في هونغ كونغ.

في صندوق البريد ذاك، لم يجد تار رسالة، بل وجد مفكّرة كاملة. كان الخط جميلًا وعلى جانبي الورقة بحيث غالبًا ما كان الحبر يرشح بين الكلمات. كانت كتابةً سريعة عاجلة دون محو. وعلم حالًا بأنّها كتبتها في لحظات صحوها.

«ليست هذه هي، لا تخف. هذه نسخة فقط».

دسّ كفًّا طويلةً داخل قميصه وسحب محفظةً جلديّةً متّصلة برباط جلديّ سميك. وأخرج منها لفافةً كالحةً من الأوراق.

«أعتقد بأنّها وضعت المفكّرة قبل أن يضربوها . «ربما كانت تؤدّي صلاتها الأخيرة في الوقت ذاته. «قمتُ بالترجمة بنفسي».

«لم أكن أعلم بأنّك تتقن الروسيّة»، قال سمايلي - تعليق تجاهله الجميع ما عدا تار الذي ابتسم مباشرةً.

«آه، يحتاج الإنسان إلى نقطة تميّز في هذه المهنة، سيد سمايلي»، كان يفسّر وهو يفصل الأوراق «ربما لستُ ضليعًا بالقانون ولكنّ امتلاك لغةٍ أخرى أمر حاسم. تعرف ما قاله الشعراء، كما أعتقد؟ رفع رأسه عن الأوراق، واتّسعت ابتسامته «امتلاك لغةٍ أخرى يعني امتلاك روح أخرى» كتب هذا ملكٌ عظيم، يا سيدي، هو تشارلز الخامس. لم يكن أبي ينسى أيّ قول مأثور، لا بدّ أن أؤكّد هذا عنه، ولكنّ الأمر المضحك هو أنّه لم يتحدث لغة أخرى بخلاف الإنكليزيّة. سأقرأ المفكّرة لكم بصوتٍ عالٍ إن لم تمانعوا ذلك».

«لم ينطق أيّ كلمة بالروسيّة»، قال غويلام. «كانا يتحدثان الإنكليزيّة طوال الوقت. وكانت إيرينا قد درست الإنكليزيّة ثلاث سنوات».

اختار غويلام السقف لينظر إليه، وليكون يديه؛ وحده سمايلي كان يراقب تار الذي كان يضحك بهدوء على نكتته.

«هل الجميع مستعدون؟» سأل. «حسنًا إذًا، سأبدأ اسمعني يا توماس، أنا أتحدث إليك. كانت تخاطبني بكنيتي»، شرح. «أخبرتها بأنّ اسمي توني، ولكنها كانت تناديني توماس طوال الوقت، هذه المفكرة هديّتي لك في حال أخذوني بعيدًا قبل أن أتحدث إلى أليلاين. كنت أفضّل منحك حياتي، يا توماس، وجسدي بالطبع، ولكنّ أظنّ بأنّ من الأرجح أنّ هذا السر البائس سيكون الأمر الوحيد الذي أمتلكه ويسبّب لك السعادة. استخدمه على نحو أمثل»، نظر تار إلى الأعلى. «التاريخ هو يوم الاثنين. كتبت المفكّرة طوال الأيام الأربعة». أصبح صوته جافًا، ويكاد يكون ملولًا. «في مركز موسكو ثمة ثرثرة أكثر مما يتمنّى رؤسائنا في العمل. بخاصة وأنّ الموظفين الصغار يحبّون إظهار أنّ مكانتهم كبيرة عبر الإيماء بأنّهم يعرفون كل الخفايا. خلال عامين قبل التحاقي بوزارة التجارة، عملت كمشرفة في قسم الملفات في مكتبنا الرئيسيّ في ساحة دزيرزنسكي. كان العمل مملًا جدًا، يا توماس، لم يكن الجوّ باعثًا على السعادة، ولم أكن قد تزوجت بعد. كان يتم دفعنا كي نشكّك ببعضنا بعضًا؛ إنه جوٌّ لا

يساعدك على إعطاء قلبك لأحد، أبدًا. تحت إدارتي كان ثمة موظف اسمه إيفلوف. وبالرغم من أنّه لم يكن مساويًا لي اجتماعيًا أو في العمل فإنّ جوّ الاضطهاد أسهم في التقريب بين عقليّتَينا. سامحني، أحيانًا وحده الجسد من يستطيع التحدّث عنا، كان عليك أن تظهر في وقت سابق يا توماس! عملت مع إيفلوف عدة نوبات ليليّة، ثم اتفقنا على نبذ الرسميّات والقواعد واتفقنا على اللقاء خارج العمل. كان أشقر ، مثلك يا توماس، وقد ملت إليه. التقينا في كافيتريا في منطقة بائسة من موسكو. كانوا يلقّنوننا في روسيا بأنّ المناطق البائسة غير موجودة، ولكن كانت هذه كذبة. أخبرني إيفلوف بأنّ اسمه الحقيقيّ هو برود، وبأنّه لم يكن يهوديًا. جلب لي قهوةً أحضرها له خلسةً رفيق في طهران، إضافةً إلى بعض الجوارب كان هذا لطيفًا جدًا. أخبرني إيفلوف بأنّه يحترمني كثيرًا وبأنّه كان قد عمل سابقًا في قسم مسؤول عن تسجيل خصوصيّات جميع العملاء الأجانب التابعين للمركز. ضحكت وأخبرته بعدم وجود سجلٍ كهذا، إذا هي أضغاث أحلام أناس يفترضون وجود الكثير من الأسرار في مكان واحد. حسنًا، أعتقد بأنّ كلينا كان من أولئك الحالمين».

توقّف تار مجددًا ثم قال: «لدينا الآن يوم جديد . بدأت بالكثير من تحيات الصباح، والصلوات، وبعض عبارات الغزل. لا يمكن للمرأة أن تتحدث إلى الهواء، لذا كانت تخاطب توماس. كان زوجها قد ذهب مبكرًا، وأمامها ساعة من الحريّة. أوكي؟».

تنحنح سمايلي.

«في الموعد الثاني مع إيفلوف، التقيته في غرفةٍ لقريب زوجته، مدرّس في جامعة موسكو الحكوميّة. لم يكن هناك غيرنا. ضمّ اللقاء ما نسمّيه في التقارير الرسميّة فعلَ تورّطٍ. أعتقد بأنّك يا توماس تورّطت مرةً أو اثنتين في مثل هذا الفعل! في هذا اللقاء كذلك، أخبرني إيفلوف القصة التالية كي تتعمّق صداقتنا. يجب أن تكون حذرًا يا توماس. هل سمعت بكارلا؟ إنه ثعلب عجوز، الأكثر مكرًا في المركز، الأشدّ سريّة، حتى اسمه

لم يكن الروس قادرين على فهمه. كان إيفلوف يخشى رواية هذه الحكاية لي، والتي كانت تتعلق، بحسب إيفلوف، بمؤامرة كبيرة، لعلّها أكبر مؤامرة نواجهها. قصة إيفلوف هي كالتالي. لا يجب أن تخبرها إلا للأشخاص الأكثر جدارة بالثقة يا توماس، بسبب طبيعتها شديدة المؤامراتيّة. لا يجب أن تخبرها لأحد في السيرك، إذ لا يمكن الوثوق بأحد إلى أن يتّضح اللغز بأكمله. قال إيفلوف إنّه لم يعمل سابقًا في سجلّات العملاء. اختلق هذه القصة كي يُظهر لي المدى العميق لمعلوماته بما يخص شؤون المركز، ولكي يبيّن بأنّني لست واقعة في حبّ شخصٍ نكرة. الحقيقة هي أنّه عمل كمساعدٍ لكارلا في إحدى أعظمِ مؤامرات كارلا، وبأنّه عُيّن في إنكلترا بغايةٍ مؤامراتيّة متخفّيًا بكونه سائقًا وعاملًا على التشفير في السفارة. مُنح اسم لوبان في هذه المهمة. وبذا، تحوّل برود إلى إيفلوف وإيفلوف إلى لوبان: كان إيفلوف المسكين فخورًا للغاية بهذا. لم أخبره معنى اسم لوبان بالفرنسيّة= (الأرنب) إذ إنّ ثروة الرجل يجب أن تُقاس بعدد أسمائه! كانت مهمّة لوبان هي تقديم الخدمات للجاسوس. الجاسوس عميلٌ شديد النفوذ، وسمّي بهذا لكونه يحفر عميقًا في نسيج الإمبرياليّة الغربيّة، وفي هذه الحالة كان إنكليزيًا. الجواسيس عظيمو القيمة بالنسبة إلى المركز بسبب السنوات الطويلة التي يستغرقها الأمر لتجنيدهم، وغالبًا ما تكون خمس عشرة سنة أو حتى عشرين. جُنّد معظم الجواسيس الإنكليز على يد كارلا قبل الحرب، وينحدرون من الطبقات البورجوازيّة العالية، وحتّى الأرستقراطيّين والنبلاء الذين يمقتون أصولهم، وأصبحوا متطرّفين وسرّيّين، بل أشدّ تطرّفًا من رفاقهم الإنكليز من الطبقة العاملة الكسولين. كان بعضهم يقدّم طلبات الانتساب للحزب قبل أن ينتشلهم كارلا في الوقت المناسب ليوجّههم إلى العمل الخاص. قاتلَ بعضهم في إسبانيا ضد فاشية فرانكو، فوجدهم مقتفو-المواهب التابعون لكارلا هناك وأرسلوهم إلى كارلا ليجنّدهم. وآخرون كانوا قد تجنّدوا في خلال الحرب إبّان التحالف بين روسيا السوفياتيّة وبريطانيا. وآخرون استاؤوا لاحقًا لأنّ الحرب لم تجلب الاشتراكيّة إلى الغرب ...، انقطاع هنا»، قال تار دون أن ينظر إلى

أحد بخلاف أوراقه. «كتبتُ: ‹انقطاع›. أعتقد أنّ زوجها عاد قبل موعده الذي تتوقّعه. الحبر ملطّخ. يعلم الله أين كانت تخبّئ هذه الأوراق اللعينة. تحت فرشة السرير ربما».

لو كان يعني هنا نكتةً ما، فقد أخفق.

«‹الجاسوس الذي كان لوبان يخدمه في لندن معروف بالاسم المشفّر جيرالد. كان كارلا قد جنّده، كما كان موضع جدل كبير. خدمة الجواسيس لا يؤدّيها إلّا الرفاق ذوي القدرة العالية على العمل، قال إيفلوف. وبذلك فإنّ المظهر الذي كان عليه إيفلوف-لوبان في السفارة بوصفه نكرة، عرضةً لكثير من الإهانات بسبب مظهره الخارجيّ، مثل الوقوف مع النساء وراء البار، كان في الواقع شخصًا عظيمًا، إذ هو المساعد السريّ للكولونيل غريغور فكتوروف الذي كان اسمه الحركيّ في السفارة بولياكوف».

هنا قام سمايلي بمداخلته الوحيدة، طالبًا تهجئة الاسم. ومثل ممثّل تمت مقاطعته أثناء استرساله، أجاب تار بوقاحة: «ب - و - ل - ي - ا - ك - و - ف، مفهوم؟».

«شكرًا»، قال سمايلي بمجاملةٍ واضحة، بطريقةٍ أظهرت أنّ الاسم لم يكن يعني له شيئًا. تابع تار.

«كان فكتوروف محترفًا قديمًا شديد المكر، قال إيفلوف. كان يتخفّى بوصفه ملحقًا ثقافيًا وكان يتحدث بهذه الصفة مع كارلا. وبوصفه الملحق الثقافي بولياكوف بدأ ينظّم محاضرات في الجامعات والجمعيات البريطانية حول الشؤون الثقافية في الاتحاد السوفياتي، ولكنّ عمله الليليّ بوصفه الكولونيل غريغور فكتوروف كان نقل الرسائل من وإلى الجاسوس جيرالد بتعليمات من كارلا والمركز. ولهذه الغاية، كان الكولونيل فكتوروف-بولياكوف يستخدم مساعدين، كان المسكين إيفلوف أحدهم. ومع ذلك فإنّ كارلا في موسكو هو المتحكّم الفعليّ بالجاسوس جيرالد».

«يتغيّر الوضع الآن فعليًا»، قال تار. «إنها تكتب ليلًا، وقد كانت مرتبكة أو خائفة لأنها تحوم حول تفاصيل تافهة في الصفحة بأكملها. ثمة كلام بشأن وقع أقدام في الممر ونظرات الاحتقار التي يوجهها الغوريلات نحوها. هذا ليس مهمًا، صحيح سيد سمايلي؟» وبعد تلقّيه إيماءة صغيرة، تابع القراءة «كانت إجراءات حماية الجاسوس كبيرة فعلًا. كانت التقارير الواردة من لندن إلى كارلا في مركز موسكو تُقسّم إلى نصفين، حتى بعد فك شيفرتها، وتُرسَل عبر سعاة منفصلين، كما كانت تقارير أخرى ترد بأحبار سريّة ضمن المراسلات الرسميّة للسفارة. أخبرني إيفلوف أنّ الجاسوس جيرالد كان يقدّم أحيانًا مواد مؤامراتيّة أكبر مما بوسع كارلا التعامل معها. أكثرها كان على فيلم غير معالَج، وغالبًا ما تغطّي المواد ثلاثين بكرة أسبوعيًا. وكان الفيلم سيتعرض للاحتراق لو قام الشخص بفتح العلبة بطريقةٍ خاطئة. وكانت مواد أخرى تُنقَل عبر رسائل للجاسوس في لقاءات شديدة السريّة، وتُسجَّل على شريطٍ خاص لا يمكن تشغيله إلا على آلات معقّدة. وكان هذا الشريط سيُمحى تمامًا لو تعرّض للضوء أو أُدخل في آلة خاطئة. كانت اللقاءات من النوع العاجل، مختلفة دومًا، مفاجئة دومًا، هذا كل ما أعرفه، باستثناء أنّ تلك اللقاءات كانت في ذروتها أثناء الاعتداء الفاشيّ على فيتنام؛ ففي إنكلترا، كان الرجعيّون المتطرّفون قد تسلّموا السلطة مجددًا. وكذلك، بحسب إيفلوف-لابان، كان الجاسوس جيرالد ذو وظيفة مرموقة في السيرك. توماس، أخبرك بهذا لأنني، بسبب حبي لك، قررت احترام جميع الإنكليز، أنتم بالذات. لا أتمنى رؤية جنتلمان إنكليزيّ يمارس الخيانة، بالرغم من إيماني الطبيعيّ بأنّه محقٌّ في الانضمام إلى قضيّة العمّال. كما أنني أخشى على حياة أيّ شخص قد ورّطه السيرك في مؤامرة ما. توماس، أنا أحبك، تذكّر هذا، إذ قد يؤذيك هذا الأمر أيضًا. كان إيفلوف رجلًا يشبهك، حتى لو كانوا يسمّونه لوبان...». توقّف تار بتردد، ثم أكمل: «ثمة قسم قليلٌ متبقٍّ في النهاية قد ...».

«اقرأه»، تمتم غويلام.

رافعًا رزمة الأوراق من الجانبين بلطف، عاود تار القراءة بالنبرة الجافة ذاتها:

«توماس، أخبرك بهذا أيضًا لأنني خائفة. عنما استيقظت هذا الصباح كان يجلس على السرير، محدّقًا بي كمجنون. عندما نزلت لأشرب القهوة كان الحارسان تريبوف ونوفيكوف يراقبانني كحيوانين، ويأكلان بعدم اكتراث. أنا واثقة من أنّهما كانا هناك لساعات، وكذلك كان أفيلوف العميل المقيم جالسًا معهما. هل أفشيتَ شيئًا يا توماس؟ هل تحدّثتَ بأكثر مما ظننت؟ الآن تعرف لمَ كان أليلاين وحده هو من سيفي بالغرض. لا يجب أن تلوم نفسك، بإمكاني تخمين ما قلته لهم. لقد تحرّرتُ في أعماقي. لم ترَ إلا الأشياء السلبيّة عني، الشرب، والخوف، والأكاذيب التي نعيشها. ولكن ثمة نورًا جديدًا رحيمًا يتّقد في داخلي. كنتُ أظنّ بأنّ العالم الخفيّ مكان منفصل، وبأنّني نُفيت إلى الأبد إلى جزيرة من أنصاف البشر. ولكن يا توماس، العالمان ليسا منفصلين. أراني الرب أنّه هنا، في مركز هذا العالم الحقيقيّ، المحيط بنا، وما علينا سوى أن نفتح الباب ونخطو إلى الداخل لنتحرر. توماس، يجب أن تتوق دومًا لهذا النور الذي وجدتُه. إنّه يُسمّى الحب. والآن، يجب أن آخذ هذه المفكّرة إلى مكاننا السريّ، لأتركها هناك طالما أنّ ثمة وقتًا لذلك. يا إلهي أتمنّى أن يتبقى هناك وقت. امنحني الأمان يا إلهي في الكنيسة. تذكر هذا: لقد أحببتك هناك أيضًا». كان شاحبًا للغاية، أما يداه، وهو يفتح قميصه ليعيد المفكّرة إلى محفظتها، فقد كانتا رطبتين ومرتعشتين. «هناك مقطع أخير»، قال. «تقول: 'توماس، لمَ لا تتذكّر سوى أدعية قليلة من طفولتك؟ كان والدك رجلًا عظيمًا وطيبًا'، كما أخبرتكم»، تابع كلامه، «كانت مجنونة».

كان ليكون قد فتح الستائر، وانسكب الضوء الأبيض الشديد للنهار في الغرفة. كانت النوافذ تطلّ على حقلٍ صغير، حيث كانت جاكي ليكون، وهي فتاة صغيرة بدينة بضفائر وقبّعة قاسية، تمتطي حصانها الصغير بحذر.

9

قبل أن يغادر تار، طرح عليه سمايلي عددًا من الأسئلة. لم يكن ينظر إليه بل كان يحدّق عشوائيًا في نقطةٍ في المنتصف، ووجهه الممتلئ متأثراً بالمأساة.

«أين أصْل هذه المفكّرة؟».

«أعدته مباشرةً إلى صندوق البريد. تخيّلوا الأمر على هذا النحو سيد سمايلي: في الوقت الذي كنت قد عثرت فيه على المفكّرة، كانت إيرينا قد وصلت إلى موسكو قبل أربع وعشرين ساعة. خمّنت بأنّها لن تستطيع تحمّل التحقيق طويلًا. على الأرجح أنّهم استنزفوها على الطائرة، تليها جولة أخرى عند وصولها، ثم يبدأ السؤال الأول مع انتهاء الرجال من إفطارهم. هذه هي الطريقة المعتمَدة مع المتمرّدين: الضرب أولًا ثم تأتي الأسئلة، أليس كذلك؟ إذًا، لن يستغرق الأمر يومًا أو اثنين قبل ان يرسل المركز أحدًا لينظر في المخبأ عند الكنيسة، أوكي؟» ثم أضاف متمتمًا: «كما كان عليّ الاهتمام بمصيري».

«يعني أنّ مركز موسكو لن يكون شديد الاكتراث لذبحه لو اعتقدوا أنّه لم يقرأ المفكّرة»، قال غويلام.

«هل صوّرتها؟».

«لا أحمل كاميرا. اشتريت دفترًا عاديًا، ونسخت المفكّرة عليه. وأعدت الأصل. استغرق مني الأمر أربع ساعات كاملة». نظر إلى غويلام، ثم أشاح بنظره عنه. في ضوء النهار المنعش، كان ثمة خوف داخليّ عميق قد بدأ يظهر على وجه تار. «حين عدت إلى الفندق، كانت غرفتي خرابًا؛ لم يتورّعوا حتى عن كشط ورق الجدران. صاح بي المدير: 'اخرج حالًا'. لم يكن يريد معرفة أيّ شيءٍ».

قال غويلام: «إنه يحمل مسدسًا، لن يجازف أبدًا».

«أنت محقّ تمامًا، لن أجازف».

أبدى سمايلي ابتسامةً تعاطف باهتة: «تلك اللقاءات مع إيرينا: صناديق البريد، إشارات الأمان، والأماكن الاحتياطيّة. من اقترحها: أنت أم هي؟».

«هي».

«ما كانت إشارات الأمان؟».

«لغة جسد. لو كنت أرفع ياقتي، تعلم بأنني تجوّلت في المكان وبأنّ الجو ملائم. ولو أبقيتها منخفضة، هذا يعني إلغاء اللقاء والاتجاه إلى المكان الاحتياطيّ».

«وإيرينا؟».

«الحقيبة. واليد اليسرى، واليد اليمنى. كنت أصل أولًا وأنتظر في مكانٍ يكون بوسعها رؤيتي فيه. كان هذا يتيح لها الخيار: الاستمرار أو المغادرة».

«حصل هذا منذ ستة أشهر. ما الذي كنت تفعله منذئذ؟».

«استراحة»، قال تار بوقاحة.

أردف غويلام: «لقد شعر بالذعر وهرب. التجأ إلى كوالالامبور، ثم استقر في إحدى قرى التل. هذه هي قصته. لديه ابنة اسمها داني».

«داني هي صغيرتي».

«أقام مع داني وأمها»، قال غويلام، متحدثًا، كعادته، ليفسّر كلام تار: «لديه زوجات حول العالم ولكن يبدو أنّها على رأس لائحته الآن».

«لمَ اخترت هذه اللحظة كي تأتي إلينا؟».

بقي تار صامتًا.

«ألا تريد قضاء الكريسماس مع داني؟».

«بالتأكيد».

«ما الذي حدث إذًا؟ هل أخافك أحد؟».

«كان ثمة إشاعات»، قال تار باختصار.

«أي نوع من الإشاعات؟».

«ظهر شخص فرنسي في كوالالامبور ليقول للجميع إنّني مدين له بالمال. وأراد توكيل محامٍ لمعرفة مكان إقامتي. وأنا لا أدين لأحد بمال».

عاد سمايلي إلى غويلام: «في السيرك هو لا يزال يُعتبر منشقًا؟».

«يُفترَض ذلك».

«ما الذي فعلوه بشأن هذا حتى الآن؟».

«هذا خارج عن نطاق صلاحياتي. سمعت من مصدرٍ سريٍّ بأن محطة لندن أرسلت فريقين للبحث عنه منذ فترة، ولكنّهم لم يرسلوا بطلبي، ولا أعرف النتيجة. لا شيء، كما أعتقد، كالمعتاد».

«ما جوازات السفر التي كان يستخدمها؟».

كان تار قد جهّز نفسه للرد: «تخلّصت من توماس مع وصولي إلى الملايو. كنتُ متأكدًا من أنّ توماس ليس هو الرجل المفضّل في موسكو ورأيت أنّ من الأفضل قتله حالًا هناك. في كوالالامبور، طلبت منهم إعداد جواز سفر بريطانيّ باسم بول». وأعطاه لسمايلي- «ليس سيئًا مقارنةً بما دُفع لأجله».

«لِمَ لم تستخدم أحد جوازات السفر السويسريّة الاحتياطيّة؟».

صمت غريب آخر.

«أو لعلّك أضعتها عندما تم تفتيش غرفتك في الفندق؟».

قال غويلام: «تخلّص منها حالَ وصوله إلى هونغ كونغ، الإجراء المعتاد».

«إذًا، لِمَ لم تستخدمها؟».

«لقد كانت مرقّمةً سيد سمايلي. ربما كانت زائفةً ولكنها مرقّمة. كنت أشعر بالخوف صراحةً. لو كانت لندن تعرف الأرقام، فقد تكون موسكو كذلك، لو فهمتَ ما أعنيه».

«ما الذي فعلته بجوازات سفرك السويسريّة إذًا؟» ، كرّر سمايلي بعناد.

فأجاب غويلام: «قال إنّه تخلص منها، باعها على الأغلب. أو ربما استبدلها بالجواز الجديد».

«كيف؟ كيف تخلصت منها؟ هل أحرقتها؟».

«هذا صحيح، لقد أحرقتها»، قال تار، بنبرة غضب، نصفها كتهديد ونصفها بفعل الخوف.

«إذًا، عندما قلت إنّ ذلك الفرنسيّ كان يبحث عنك...».

«كان يبحث عن بول».

«ولكن من سمع عن بول غيرك، عدا الرجل الذي زوّر لك جواز السفر طبعًا؟»، سأله سمايلي وهو يقلّب الصفحات. لم يجب تار، فأكمل سمايلي: «قل لي كيف سافرت إلى إنكلترا».

«طريق مباشر من دبلن. لا مشاكل». كان تار يكذب على نحو سيئ تحت الضغط. ربما كان يجب لوم والديه على هذا. كان يندفع بسرعة في الحديث عندما لا يمتلك إجابة جاهزة، وشديد العدوانيّة حين يمتلك إجابة في متناول يده.

«كيف وصلت إلى دبلن؟»، سأله سمايلي، متفحّصًا أختام الحدود في الصفحات الداخليّة.

«ورود». استعاد ثقته، «ورود في كلّ مكان. أعرف فتاةً تعمل مضيفة طيران على الخطوط الجنوب أفريقيّة. تدبّر صديق لي أمر سفري مع الأمتعة إلى كيب، ثم اعتنت الفتاة بي في كيب في رحلة مجانيّة إلى دبلن بواسطة من أحد الطيارين. الجميع في الشرق يظنّون أنّني لم أترك شبه الجزيرة هناك».

قال غويلام وعيناه إلى السقف: « أقوم ما بوسعي للتأكّد من هذا...».

«قاطعه تار على الفور: «عليك أن تكون حذرًا جدًا يا عزيزي،لأنني لا أريد أن يقتفي أثري الناس الخاطئون».

سأله سمايلي، وهو منهمك في التدقيق في جواز بول. وكان له مظهر جواز مستعمل، ليس ممتلئًا كليًا، أو فارغًا: «لمَ جئت إلى السيد غويلام؟ بعيدًا عن حقيقة أنّك كنت خائفًا بالطبع».

قال تار بنبرة امتنان: « السيد غويلام مديري»،

«ألم يخطر ببالك بأنّه سيسلّمك مباشرةً إلى أليلاين؟ إذ إنّك، في نهاية المطاف، مطلوب لجميع موظّفي السيرك، أليس كذلك؟».

«بالتأكيد. ولكنّني لا أعتقد بأنّ السيد غويلام من المعجَبين بالترتيبات الجديدة أكثر منك سيد سمايلي؟».

«كما أنّه يحب إنكلترا»، أردف غويلام باستهزاء.

«بالطبع. أصابني الحنين إلى الوطن».

«هل فكّرت باللجوء إلى أيّ أحد بخلاف السيد غويلام؟ لمَ لم تذهب إلى أحد عملائكم المقيمين في الخارج على سبيل المثال، ألم تكن لتكون عرضة أقل للخطر؟ ألا يزال ماكلفور المسؤول الأكبر في باريس؟». أومأ غويلام برأسه موافقًا «حسنًا، إذًا: كان بوسعك الذهاب إلى السيد ماكلفور.

وهو من جندك، وبإمكانك الوثوق به: إنه موظف قديم في السيرك. كان بوسعك الإقامة مطمئنًا في باريس بدلًا من المخاطرة برأسك هنا. أوه يا إلهي. أسرع يا ليكون!».

كان سمايلي قد نهض واقفًا، وظهرت إحدى يديه على فمه وهو يحدّق من النافذة. في الحقل كانت جاكي ليكون مستلقية على بطنها وهي تصرخ فيما حصانها الصغير يخبّ وحيدًا بين الأشجار. والبقية يراقبون زوجة ليكون، وهي امرأة جميلة ذات شعر طويل وجوارب شتائيّة سميكة، تقف قرب السياج تجمع الأولاد.

قال ليكون بنزق: «غالبًا ما يقعون ويتعثّرون. لا يؤذون أنفسهم في هذه السن». ثم بلطف: «لا يمكن أن تكون مسؤولًا عن الجميع، تعرف ذلك جورج».

ثم عادوا إلى أماكنهم مجددًا. و تابع سمايلي:

«وفيما لو كنت ستتوجّه إلى باريس، أيّ طريق كنت ستأخذ؟».

«الطريق نفسه إلى إيرلندا، ثم دبلن–أورلي كما أعتقد. ما الذي تعتقد أنّني كنت سأفعله: أن أمشي على الماء اللعين؟».

هنا تلوّن وجه ليكون، ونهض غويلام واقفًا وعلى وجهه علامات دهشة غاضبة. ولكن بدا أنّ سمايلي لم يتضايق. بل أمسك الجواز مجددًا، ثم قلّبه ببطء من جديد وسأل:

«وكيف تواصلت مع السيد غويلام؟».

أجاب غويلام عنه، متحدثًا بسرعة: «كان يعرف أين أركن سيارتي. ترك ملاحظةً عليها قائلًا يعلمني بأنّه يريد شراءها، ووقّعها باسمه الحركيّ، ترنش. اقترح مكانًا للقاء، تركه غير محدد بالضبط كي يؤمّن نفسه، وتركني أقود سيارتي على غير هدى. وقد أحضرت فون معي ليعتني بي».

قاطعه سمايلي: «كان هذا فون إذًا عند الباب؟».

قال غويلام: «كان يحميني أثناء حديثنا، وأبقيته معنا منذئذ. وحالما سمعت قصة تار، اتصلت بليكون من هاتف عموميّ، وطلبت لقاءً. جورج، لمَ لا نتحدث بشأن هذا وحدنا؟».

«اتصلت بليكون هنا أم في لندن؟».

«هنا»، أجاب ليكون.

مرّت لحظات صمت إلى أن قطعها غويلام بالشرح: «تصادفَ أنّني أتذكّر اسم الفتاة التي تعمل في مكتب ليكون. ذكرت اسمها وقلت إنها طلبت مني التحدث إليه على نحو عاجل بشأن مسألة ملحّة. لم يكن هذا متقنًا تمامًا، ولكن كان هذا أفضل حل ارتأيته في تلك اللحظة». ثم أضاف كاسرًا الصمت: «اللعنة، لم يكن ثمة سبب للاعتقاد بأنّ الهاتف مراقَب».

«كان ثمة جميع الأسباب لذلك».

أغلق سمايلي الجواز وراح يتفحّص الغلاف على ضوء مصباح بجانبه: «هذا جيد، أليس كذلك؟ جيد جدًا حقًا. كنتُ سأقول إنّه عمل محترف. لا أستطيع إيجاد عيب واحدٍ فيه».

«لا تقلق سيد سمايلي»، قال تار مادًا يده ليستعيد الجواز، «ليس مصنوعًا في روسيا». وحالما وصل الباب كانت ابتسامته قد عادت. «أتعرفون شيئًا؟» قال مخاطبًا الرجال الثلاثة على طول الغرفة الكبيرة. «لو كانت إيرينا على حق، ستحتاجون يا شباب إلى سيرك جديد كليًا. لذا، لو بقينا معًا أظنّ بأنّنا سنكون في كادر الأعضاء الأساسيّين». ثم طرق الباب بعبث: «هيا، يا عزيزي، إنه أنا. ريكي».

«شكرًا! الأمر على ما يرام الآن. افتح لو سمحت»، صاح ليكون، وبعد لحظة سُمع صوت المفتاح، ثم ظهر وجه فون الداكن. ثم تلاشى وقع أقدام تار وفون في الممرات الكبيرة للمنزل، ليختلط بالجلبة البعيدة لبكاء جاكي ليكون.

10

في جانب آخر من المنزل، بعيدًا عن الحقل الذي كان يخبّ فيه الحصان، كان ثمة ملعب تنس عشبيٌّ مختفٍ بين الأشجار. لم يكن ملعب تنس جيّدًا؛ إذ نادرًا ما كان يتمّ جزّ أعشابه. في الربيع كان العشب ينضح بفعل رطوبة الشتاء دون أن تصله الشمس لتجفّفه، وفي الصيف كانت الكرات تختفي بين الأوراق. وفي هذا الصباح كانت القدم تختفي في الأوراق المتساقطة التي تمّ تجميعها من كلّ أرجاء الحديقة. ولكن بقرب السور، بعد مستطيل الأسلاك تقريبًا، يوجد ممشى بين أشجار الزّان، هناك كان يتمشّى سمايلي وليكون. كان سمايلي قد ارتدى معطفه ولكنّ ليكون اكتفى ببدلته الرثّة. ولذا ربّما اختار المشي بخطًى رشيقة، ولكن متقطّعة، وكانت كلّ فشخة تبعده مسافةً جيدة عن سمايلي، بحيث كان يتوقّف على نحو دائم رافعًا كتفيه ومرفقيه، بانتظار أن يلحق به الرجل القصير. ثمّ يسرع الخطى مجددًا لتعود المسافة السابقة. أكملا دورتَيْن حول الحقل على هذا النحو قبل أن يقطع ليكون الصمت.

«عندما جئتني منذ عام بشيءٍ مماثل، أعتقد أنّني طردتك. ينبغي أن أعتذر. كنتُ مهملًا». سادت برهة صمت قبل أن يتابع حديثه: «طلبت منك نسيان تساؤلاتك».

«قلت لي إنّها غير معقولة»، قال سمايلي بتألم، وكأنه يستعيد تلك الذكرى الحزينة ذاتها.

«هل كانت تلك المفردة التي استخدمتها؟ يا إلهي، كم كنتُ مغرورًا!».

من جانب المنزل جاء صوت بكاء جاكي.

«لم يكن لديك أحد، أليس كذلك؟»، قال ليكون فجأة، بعد أن تحرّك رأسه باتجاه الصوت.

«عفوًا؟».

«أطفال. أنت وآن».

«لا».

«أولاد أخ، بنات أخت؟».

«ابن أخ واحد».

«من جهتك؟».

«بل ابن أخيها».

ربما لم أغادر المكان بعد، فكّر، وهو يحدّق في الورود المتشابكة، والأراجيح المكسورة، وكومات الرمل الرطبة، والمنزل البارد الأحمر شديد الصخب في ضوء الصباح. ربما لا يزالان هنا من المرة الماضية.

كان ليكون يعتذر مجددًا: «هل جرؤت على القول إنّني لم أثق بحدسك على الإطلاق؟ خطر لي بأنّ كونترول ، كما تعلم، اعتبرك أهلًا لهذا. نوع من تشديد القوة وإبقاء بيرسي أليلاين خارج الدائرة...».

مبتعدًا من جديد، ذراعاه مرفوعتان، ومعصماه مشدودان. قال سمايلي:

«أوه، لا، أؤكّد لك بأنّ كونترول لم يكن يعرف أيّ شيء على الإطلاق».

«أدركُ هذا الآن. لم أكن أدركه آنذاك. من الصعب قليلًا أن تعرف متى يجب وضع ثقتك بالناس. أنت تعيش ضمن معايير مختلفة، أليس كذلك؟ أعني يتوجّب عليك ذلك. أتقبّل هذا. لست بصدد الحكم عليك أو انتقادك. أهدافنا هي ذاتها في نهاية المطاف، حتى لو اختلفت طرقنا».
- قفز ليتحاشى حفرة مياه لشرب الماشية- «سمعت أحدهم يقول مرةً إنّ الأخلاق منهج وطريقة. هل توافق على هذا؟ أعتقد بأنّك قد تختلف معه. ستقول إنّ الأخلاق مغروسة في الهدف، كما أعتقد. من الصعب معرفة ما هي عليه أهداف المرء، هذه هي المشكلة، بخاصة لو كنت بريطانيًا. لا يمكن أن نتوقّع منكم أيها الناس أن تحدّدوا سياستنا، صحيح؟ قد نطلب منكم تعزيزها ليس إلا، أليس كذلك؟ هذا أمر مربك».

بدلًا من اللحاق به، جلس سمايلي على كرسيّ أرجوحة صدئ ودفن نفسه متكوّرًا في معطفه، إلى أن عاد ليكون أدراجه وجلس بجانبه. ولبرهة استكانا معًا إلى إيقاع صرير النوابض.

«لمَ اختارت تار بحق الشيطان؟»، قال ليكون أخيرًا، شادًا أصابعه الطويلة. «من بين كل الناس في العالم اختارته هو كي تعترف له، لا يمكنني تخيّل خيارٍ أسوأ منه على الإطلاق».

تساءل سمايلي من جديد عن مكان إيمنغهام. ثم قال: «أخشى أنّ عليك طرح هذا السؤال على امرأة، لا علينا».

«بالفعل»، وافقه ليكون بحماسة: «كلّ هذا سرّ غامض. سأقابل الوزير الساعة الحادية عشرة»، أردف بصوت خفيض مغتصبًا ضحكة قصيرة، «يجب أن أضعه في الصورة. قريبك البرلمانيّ».

«هو قريب آن»، صحّح له سمايلي، بالنبرة الخفيضة ذاتها، «قريب بعيد في درجة القربى عمليًا، ولكنه قريب بكل الأحوال».

«وبل هايدن قريب آن كذلك؟ مديرنا المرموق في محطة لندن». كانا قد لعبا هذه اللعبة من قبل.

«من فرع مختلف، أجل، بل قريبها». ثم أضاف بلا مبالاة: «هي تتحدّر من عائلة قديمة ذات سمعة سياسيّة قويّة. تبعثرت مع الزمن».

«السمعة؟... العائلة..»، أحبّ ليكون هذا الغموض.

تخيّل سمايلي، وراء الأشجار كانت السيارات تعبر. وراء الأشجار كان ثمة عالم كامل، ولكنّ ليكون كان يمتلك هذه القلعة الحمراء، ونمطًا من الأخلاق المسيحيّة التي لم تورثه شيئًا بخلاف لقب الفروسيّة (سير)، واحترام أقرانه، وقصرًا كبيرًا، ومؤسستين خيريتين في المدينة.

«بكل الأحوال سأقابله عند الساعة الحادية عشرة». نهض ليكون وعاودا المشي. التقط سمايلي اسم «إليس» يعاوده في هواء الصباح البارد. وللحظة، كما حدث في سيارة غويلام، انتابه شعور عصبيّ.

كان ليكون يقول: «في نهاية المطاف، نحن نتقلّد منصبَين مرموقَين. شعرت بأنّ إليس قد تمت خيانته، وأردتَ المضيّ في مطاردة أشباح. شعرنا، زيري وأنا، بأنّ ثمة تقصيرًا كبيرًا من جهة كونترول – وهو رأي كان يشاركنا فيه مكتب الخارجيّة – وأردنا مكنسةً جديدة».

قال سمايلي، مخاطبًا نفسه عمليًا أكثر من ليكون: «أتفهّم معضلتكم تمامًا».

«أنا ممتنّ. ولا تنس جورج: لقد كنتَ رجل كونترول. كان كونترول يفضّلك على هايدن، وحينما بدأت الخيوط تفلت منه أخيرًا، ويبدأ تلك المغامرة الغريبة، كنتَ أنت من دعمه. لا أحد سواك، يا جورج. لا يحدث الأمر كلّ يوم. أن يقوم مدير جهاز استخباريّ بشنّ حرب شخصيّة على التشيك». كان واضحًا أنّ الذاكرة لا تزال متّقدة، «في ظروف أخرى، أفترض بأنّه كان سيتمّ إقصاء هايدن، ولكنّك كنت على المحك و ...».

«وكان بيرسي أليلاين رجل الوزير»، قال سمايلي، ما أرغم ليكون على الإبطاء والإصغاء.

«ولم يكن بين يديك أيّ مشتبه، كما تعلم! لم توجّه أصابع الاتّهام نحو أحد! التحقيق العشوائيّ قد يكون مدمّرًا بشدة!».

«بينما المكنسة الجديدة تنظّف بشكل أكبر».

«بيرسي أليلاين؟ كان أداؤه جيدًا بالعموم. كان نتاجه عملًا استخباريًا لا فضيحة، التزم بالقانون واكتسب ثقة عملائه. لم يقم، على حدّ علمي، بغزو أراضي تشيكوسلوفاكيا بعد».

«من سيفعل هذا حين يكون بل هايدن مدير عملياته؟».

«فعلها كونترول مرة»، قال ليكون بصرامة.

كانا قد وصلا إلى حوض سباحة فارغ، ووقفا يحدّقان في النهاية الضيّقة. من أعماق الحوض المتّسخة، تراءى لسمايلي بأنّه يسمع مجددًا النبرة التلميحية لرودي مارتنديل: «غرف قراءة أقل في الإدارة، لجان أقل تحت أسماء مضحكة ...».

«هل لا يزال مصدر بيرسي الخاص موجودًا؟» تساءل سمايلي. «مواد عمليّة وتشكرافت، أو أيًا كان اسمها اليوم؟».

«لم أكن أعلم بأنّك في اللائحة»، قال ليكون بحزن، ولكن بما أنّك سألت، نعم. المصدر ميرلين هو دعامتنا الأساسيّة، ولا يزال نتاجه تحت اسم الوتشكرافت. لم يقدّم السيرك مثل جودة هذه المواد منذ سنوات. بحسب ما أتذكّر طبعًا».

«وملا يزال خاضعًا لكل تلك المعاملة الخاصة؟».

«بالتأكيد، ولكن بعد أن حصل هذا، ليس لديّ أدنى شك بأنّ علينا اتخاذ إجراءات وقائيّة أشدّ».

«لن أفعل هذا لو كنت مكانك. قد يحسّ جيرالد بأنّ ثمة أمرًا مريبًا».

قال ليكون بسرعة: «هذا هو المغزى، أليس كذلك؟»، وكانت قوّته غير قابلة للتوقّع، كما لاحظ سمايلي. في لحظة يكون مثل ملاكم

نحيل قفّازاه أكبر من معصميه؛ وفي اللحظة التالية يكون قد وصل إليك ودفعك باتجاه الجِبال، ثم يتفحّصك بحنوّ شديد. «عاجزون عن التحرك. لا يمكننا التحقيق لأنّ كل أدوات التحقيق بين يديّ السيرك، وربما بين يديّ الجاسوس جيرالد. لا يمكننا المراقبة، أو التنصّت، أو فتح البريد. إذ إنّ أيّ خطوة من هذه الخطوات يستلزم مصادر مُشعِلي المصابيح التابعين لإيسترهيز، وإيسترهيز مشتبَه به كأيّ شخص آخر. لا يمكننا طرح استفسارات، أو اتخاذ خطوات لتحديد حريّة شخصٍ محدًّد للوصول إلى الأسرار الدقيقة. إذ إنّ القيام بأيٍّ من هذه الأمور سيرفع من إمكانيّة تنبيه الجاسوس. إنّه السؤال الأقدم على الإطلاق يا جورج. من بوسعه التجسّس على الجواسيس؟ من بإمكانه كشف الثعلب دون أن ينكشف أمره؟». ثم نطق بعبارة هامسة مؤلمة: «بل الجاسوس عمليًا»، قال متمتمًا.

في جرعة طاقةٍ مفاجئة، اندفع سمايلي مبتعدًا، تاركًا ليكون وراءه على الطريق المؤدّي إلى الحقل.

صاح: «الجأ إلى المنافسين،اذهب إلى رجال الأمن. إنهم الخبراء، سيفيدونك».

«لن يقبل الوزير بهذا. أنت تعلم تمامًا رأيه ورأي أليلاين بشأن المنافسة. وهذا رأي سديد لو أردت رأيي. مجموعة من المشرفين الضباط السابقين في الجيش يدقّقون في أوراق السيرك: كما لو أنّك تجلب الجيش ليحقّق في أمور البحريّة!»

اعترض سمايلي: «لا تصحّ هذه المقارنة على الإطلاق».

ولكنّ ليكون، الموظّف المخضرم، كان يمتلك استعارته الثانية جاهزةً. «حسنًا، سيفضّل الوزير العيش تحت سقف رطب على أن يرى قلعته وقد دمّرها غرباء. هل يرضيك هذا؟ رأيه صحيح بنسبة كبيرة يا جورج. لدينا عملاء ميدانيّون ولن أراهن كثيرًا على ما سيحدث لهم مع تدخّل رجال الأمن».

الآن، جاء دور سمايلي كي يبطئ الخطو.

«كم عددهم؟».

«ستمائة، مع بعض الزيادة أو النقصان».

«وخلف الستار؟».

«لدينا ميزانية لمئة وعشرين». مع الأرقام والوقائع من كل الأنواع، لم يكن ليكون ليخفق. كانت تمثّل الحقل الذهبي الذي يعمل فيه، مرتاحًا من الأرض البيروقراطيّة الرماديّة. «وبحسب ما يمكنني استنتاجه من العائدات الماليّة، كلّهم تقريبًا ناشطون حاليًا». قفز قفزة كبيرة. «إذًا، بإمكاني إخباره بأنّك ستتولّى المهمة، ما رأيك؟» قال عَرَضًا كما لو كان سؤالًا عابرًا، لجسّ النبض: «ستتولى المهمة، تنظيف الإسطبلات؟ إنّه جيلك في نهاية الأمر. إرثك».

كان سمايلي قد فتح بوّابة الحقل وأغلقها خلفه. كانا الآن متواجهين عبر إطارها المفرّغ. ليكون، متورّد الوجه قليلًا، يرسم ابتسامة ثقة.

سأل فجأةً: «لِمَ أقول إليس؟لمَ أتحدث عن قضيّة إليس مع أنّ اسم الرجل المسكين هو بريدو؟».

«إليس كان اسمه الحركيّ».

«بالطبع. الكثير من الفضائح تلك الأيام، إلى حدّ أنّ المرء ينسى التفاصيل». صمت. ثم اندفاعة. «وقد كان صديق هايدن، لا صديقك؟».

«كانا في أوكسفورد معًا قبل الحرب».

«وزملاء في القسم ذاته في السيرك خلال الحرب وبعدها. شراكة هايدن-بريدو الشهيرة. كان سلفي يتحدث عنها طوال الوقت. ولكنّك لم تكن مقرّبًا منه؟».

«من؟ بريدو؟ لا».

«ليس قريبًا، أعني؟».

«بحق السماء»، صاح سمايلي.

بدا ليكون غريبًا مجددًا، ولكنّ شعورًا غريبًا دفعه لتثبيت نظرته على سمايلي. «وليس ثمة سبب عاطفيّ أو سبب آخر يُشعرك بأنّه قد يبعدك عن المهمة؟ لا بدّ أن تكون صريحًا، يا جورج»، أصرّ بشدّة، كما لو كانت الصراحة هي كل ما يريده. انتظر للحظات ثم دلق كلّ ما يفكّر فيه فجأة: «وبالرغم من أنّني لا أجد قضيّة حقيقيّة هنا. هناك دومًا جانبٌ منا ينتمي إلى الحيّز العام، أليس كذلك؟ العقد الاجتماعيّ يعني الأمرين معًا، وأنا واثق من أنّك كنت تعلم هذا طوال الوقت. وكذلك بريدو».

«ما المقصود؟».

«يا إلهي يا جورج، الرجل ضحية إطلاق نار. رصاصة في الظهر تعد تضحية تمامًا، أليس كذلك، حتى في عالمك؟».

وحيدًا، وقف سمايلي عند النهاية البعيدة للحقل، تحت الأشجار، محاولًا فهم مشاعره وهو يلتقط أنفاسه. كمرض قديم، كان غضبه يباغته فجأة. منذ تقاعده كان ينكر وجوده، مبتعدًا عن كلّ ما يمكن أن يلامس تلك القضية: الجرائد، والزملاء القدامى، والثرثرات الشبيهة بثرثرات مارتنديل. بعد حياةٍ كاملة من العيش مع غرائزه وذكائه وذاكرته المتّقدة، سلّم نفسه كليًا لمهنة النسيان. أرغم نفسه على متابعة اهتمامات بحثيّة أدّت مهمّة الإلهاء حين كان في السيرك، ولكن الآن بعد أن أصبح بلا عمل، ولا معنى لأي شيء، لا شيء على الإطلاق. كان بوسعي الصراخ: لا شيء!

«أحرق كلّ شيء. أحرق المنزل. ولكن لا تتعفّن».كانت آن قد اقترحت عليه ذلك مشيرةً إلى كتبه.

إنّ كا نت تعني بأنّ التعفّن يعني التأقلم، فقد كانت محقّة في قراءته. لقد حاول جاهدًا، حاول فعلًا، أثناء اعتياده على ما تقدّمه له خدمات التأمين، أن يكون كأيّ متقاعد آخر؛ بالرغم من أنّ لا أحد، حتى آن، قد

شكره على ما قام به. كل صباح حين ينهض من السرير، وكل مساء حين يعود إليه وحيدًا عادةً، كان يذكّر نفسه بأنّه لم يكن في يوم من الأيام شخصًا غير قابل للاستغناء عنه. أرغم نفسه على الاعتراف بأنه، في تلك الأشهر الأخيرة البائسة في إدارة كونترول، حينما كانت المصائب تتوالى بتواتر سريع، كان مذنبًا لكونه يرى الأمور غير متناسبة. ولو تمرّد آدم المحترف الذي في داخله الآن لقال: أنت تعلم أنّ الأمور ساءت، تعلم أنّ جِمْ بريدو ضحيّة خيانة – إذ ما الدليل الأفضل من رصاصة، بل رصاصتين في الظهر؟ – كان سيجيب، ولو كان هذا؟ افترض بأنّه على حق؟ «من الغرور الشديد تصديق أنّ الجاسوس البدين الكهل هو الشخص الوحيد القادر على ترتيب العالم»، سيقول لنفسه. وأحيانًا أخرى: «لم أسمع بعد أنّ أحدًا ترك السيرك بلا عمل يجب إتمامه».

وحدها آن، بالرغم من أنها لم تستطعِ قراءة ما في أعماقه، رفضت قبول نتائج اكتشافاته. كانت عاطفية، حقيقةً، كما تكون المرأة وحدها في مسائل العمل، تدفعه فعليًا إلى التراجع، وتتمرّد حين يتراجع، من دون أن توافقه على أيّ حوار عاديّ. لا يعني بأنّها لا تعرف شيئًا بالطبع، ولكن هي امرأة سبق أن توقّفت أمام إغراء الرغبة بالمعلومات؟ كانت تحسّ به. وكانت تكرهه لأنه لم يجارِها في مشاعرها.

والآن، في اللحظة التي كان فيها على وشك تصديق مصيره، وهو أمر لم يكن سهلًا بعد سعت آن للهرب منه مع ممثل. ما حدث هو أنّ شبح الماضي – ليكون، كونترول، كارلا، أليلاين، إيسترهيز، بلاند، وأخيرًا بل هايدن بنفسه – اقتحموا عزلته وأعلموه، حينما جرّوه إلى تلك الحديقة القديمة ذاتها، بأنّ كل ما كان يعتبره غرورًا كان حقيقةً؟

عاجزًا عن دفع أمواج الذاكرة، كرّر لنفسه: «هايدن»، حتى الاسم كان مزعجًا. «قيل لي إنّك وبل تشاركتما كلّ شيء في إحدى الفترات»، قال مارتنديل. حدّق بكفّيه الممتلئتين، مراقبًا إياهما وهما ترتعشان. كبرَ في السن؟ عاجز؟ خائف من المطاردة؟ أو خائف مما سيكشف عنه في

نهاية المطاف؟ «هناك دومًا عشرات الأسباب لعدم فعل أي شيء»، كانت آن تحب القول - كان دفاعها المفضّل عن كثير من آثامها، «وهناك سبب وحيد لفعل شيءٍ ما. وهو أنّك ترغب بذلك». أو ينبغي عليك؟ كانت آن ستنكر ذلك: الإرغام، كانت ستقول، مجرد كلمة أخرى لفعل ما تريد؛ أو لعدم فعل ما تخشى فعله.

الطفل الثاني يبكي أكثر من إخوته واخواته. كان على كتف أمه، وكانت جاكي ليكون تراقب الحشد وهو يتفرّق. أولًا، رجلان لم ترهما من قبل، أحدهما طويل، والآخر قصير داكن البشرة. انطلقا في فان أخضر صغير. لم يلوّح لهما أحد، كما لاحظت، ولا حتى كلمة وداع. ثم غادر والدها في سيارته؛ وأخيرًا، رجل أشقر وآخر قصير بدين في معطف ضخم كسرج حصان تابعا طريقهما إلى سيارة رياضية مركونة تحت شجر الزان. للحظة فكّرت أنّه لا بدّ من أنّ الرجل القصير يعاني من أمر ما، إذ كان يتبعه ببطء وألم. ثم، حين شاهدت الرجل الوسيم يمسك باب السيارة له، بدا وكأنه استيقظ، وقفز إلى الأمام بنشاط. ومن دون أن تستطيع التفسير، عكّرتها هذه الحركة من جديد. باغتتها عاصفة أسى ولم تستطع أمها مواساتها.

11

كان بيتر غويلام رجلًا شهمًا تتحدّد ولاءاته الواعية بفعل مشاعره. أما صفاته الأخرى فقد تشكّلت منذ زمن من خلال السيرك. والده، رجل أعمال فرنسيّ، كان قد تجسّس لصالح السيرك خلال الحرب، أما أمه، وهي إنكليزية، فكانت مذهلة في عملها على الشيفرات . حتى ثماني سنوات مضت، كان غويلام، المتخفّي تحت مهنة موظف شحن، يدير عملاءه في شمال أفريقيا التابع لفرنسا، ما اعتُبرت مهمة خطيرة. كُشف أمره، وأُعدم عملاؤه، ودخل سنّ الكهولة كمحترف مكرَّس. عاد واستقر في لندن، وكان يؤدي أحيانًا، تحت إدارة سمايلي، عمليات داخليّة بما فيها شبكة من الفتيات لم يكنّ، بحسب لغة المحترفين، متّصلات في ما بينهنّ، وحين تسلّمت جماعة أليلاين الأمور أُبعد إلى براكستون بسبب علاقاته الخاطئة، بمن فيهم سمايلي. وهذا ما كان عليه الأمر حتى الجمعة الماضية حين رويت له قصة العمر. إذ بسبب علاقته مع سمايلي كان يمكن أن يبقى في الظل إلى النهاية.

كان غويلام يعيش أساسًا في لندن آنذاك، حيث كان يشكّل شبكات بحريّة من الرعاع، من كلّ ما تقع عليهم أيدي مكتشفي المواهب من رجاله الذين يديرون مجموعة من البحّارة البولنديّين والروس والصينيّين. أحيانًا كان يجلس في غرفة صغيرة في الطابق الأول من السيرك، إلى جانب

سكرتيرة جميلة اسمها ماري، وقد كان سعيدًا ما عدا أنّ أحدًا من الإدارة لا يتواصل معه. وحين كان يحاول الاتصال هاتفيًا كان يجد الخط مشغولًا، أو لا يتلقّى أيّ رد. سمع أقاويل بشأن لغطٍ ما، ولكن دائمًا كان هناك لغط. كان من المعروف مثلًا بأنّ أليلاين وكونترول أشعلا معركة، ولكن هذا ما كانا يفعلانه منذ سنوات. كما علم، مثل الجميع، بأنّ عمليةً كبيرة أخفقت في تشيكوسلوفاكيا، وأنّ كلّاً من مكتب الخارجيّة ووزارة الدفاع قد كُشف أمرهما، وأنّ جِمْ بريدو، رئيس صيّادي الرؤوس والعميل الأكبر في التشيك، والشريك القديم لبل هايدن، قد وقع ضحية إطلاقِ رصاص واعتُقل. وبذا، توقّعَ الصمت المخيّم والوجوه الكالحة. كما توقّع كذلك غضب بل هايدن الشديد، الذي انتشرت بشأنه الأقاويل كرياح عاصفة في المبنى: كغضب الرب، قالت ماري التي كانت تميل إلى الإثارة. سمع لاحقًا عن الكارثة المسمّاة تستيفاي. تستيفاي، كما أخبره هايدن لاحقًا، أنها كانت العمليّة الأشد إخفاقًا وقد قام بها عجوز ليحيي مجده المحتضر، وقد كان جِمْ بريدو هو الثمن. وصلت أخبار إلى الجرائد، إضافة إلى استدعاءات برلمانيّة واشاعات، لم تُؤكَّد رسميًا، بأنّ القوات البريطانيّة في ألمانيا وُضعت في حالة الجاهزيّة القصوى.

في نهاية الأمر، عبر تجواله بين المكاتب، بدأ يدرك ما كان قد أدركه الجميع منذ أسابيع. لم يكن السيرك صامتًا فحسب، بل كان مجمَّدًا. لا شيء يدخل، ولا شيء يخرج؛ ولا حتى على المستوى الذي كان يعمل فيه غويلام، على الإطلاق. داخل المبنى اختفى جميع من في الإدارة، وحين جاء وقت دفع الثمن لم يكن هناك مغلّفات سميكة لتُدَسّ في أعشاش الحمام لأنّ مدبّري المنزل، بحسب ماري، لم يتلقّوا الأوامر الشهريّة لصرفها . بين الحين والآخر كان ثمة من يقول إنّه شاهد أليلاين مغادرًا ناديه وهو شديد الغضب. أو أنّ كونترول يركب سيارته مَرِحًا. أو أنّ بل هايدن قدّم استقالته لأنّ سلطته قد تمّ تجاوزها أو تجاهُلها، ولكن بل كان يقدّم استقالته طوال الوقت. هذه المرة، كما تقول الاشاعات، كانت الأسباب مختلفة: كان هايدن غاضبًا لأنّ السيرك لن يدفع ثمن إطلاق سراح جِمْ بريدو؛ وقد قيل

إنّ الثمن كان باهظًا جدًا في عدد العملاء، أو البرستيج. وبأنّ بل انفجر في إحدى نوبات شوفينيّته وصرّح بأنّ دفع أيّ ثمن لن يعادل إعادة إنكليزيّ مخلص إلى الوطن: أعطوهم كل شيء، وأعيدوا جم.

في إحدى الأمسيات ظهر سمايلي عند باب غويلام واقترح شرب كأس. لم تعرفه ماري لذا قال «مرحبًا» بلهجتها السوقيّة. وعندما خرجا معًا من السيرك تمنّى سمايلي ليلةً سعيدة للبوّابين في بادرة لطف غير معهودة، وفي الحانة الواقعة في شارع واردور قال «صُرفتُ من الخدمة»، وهذا كان كل شيء.

من الحانة اتجها إلى بار نبيذ عند تقاطع تارشنغ، وهو قبو تُبث فيه الموسيقا من دون أيّ زبائن. «هل قالوا أيّ سبب؟» سأله غويلام. «أم لمجرّد أن أسهمك انخفضت؟».

كانت كلمة «سبب» هي التي ركّز عليها سمايلي. كان حينها قد سكر على نحو خفيف ولكن واضح، ولكنّ السبب، حينما كانا يتأرجحان في مشيتهما على ضفاف التيمز، السبب كان يغمر كلماته:

«سبب عقلانيّ كالمنطق، أو سبب كدافع؟» قال، حيث بدا وكأنّه يشبه بل هايدن أكثر مما يشبه نفسه، حيث كان أسلوب جماعة أوكسفورد الجدليّ قبل الحرب منتشرًا عند الجميع. «أم السبب كطريقة حياة؟»، جلسا على مقعد. «لا يتوجّب عليهم إعطائي سببًا. بإمكاني كتابة أسبابي اللعينة. وهذا ليس الأمر نفسه، هذا لا يماثل التسامح نصف الناضج النابع من اهتمام منتهٍ». أصرّ فيما كان غويلام يقوده بحرص نحو تاكسي، ويعطي السائق أجره والعنوان.

«آمين»، قال غويلام، مدركًا مع ابتعاد التاكسي بأنّه، وبحسب قواعد السيرك، كانت صداقتهما، في الحالة التي كانت عليها، قد انتهت في تلك اللحظة. في اليوم التالي عرف غويلام بأنّ رؤوسًا أخرى تمتّ الإطاحة بها وأنّ بيرسي أليلاين سيكون هو المفوَّض بمقام مدير فعليّ، وبأنّ بل هايدن،

مفاجئًا الجميع، ولكن من الأرجح أنّ ذلك كان بسبب غضبه الدائم على كونترول، سيعمل تحت إدارته؛ أو، كما سيقول العارفون، سيكون هو المدير الحقيقيّ.

مع الكريسماس كان كونترول قد فارق الحياة. «ستكون أنت التالي»، قالت ماري التي كانت ترى أنّ هذه الحوادث عواصف ارتداديّة للعاصفة الأولى، وقد بكت عندما نقلوا غويلام إلى بركستون، ويا للسخرية، ليحلّ محلّ جِمْ بريدو.

صاعدًا الدرجات الأربع إلى السيرك في صباح ذلك الاثنين الرطب، وعقله متّقد بجميع الاحتمالات، استعاد غويلام تلك الحوادث وقرّر أنّ ذلك اليوم كان بداية خطّ العودة.

كان قد قضى الليلة السابقة في شقته في إيتون برفقة كاميلا، وهي طالبة موسيقا ذات جسد طويل، ووجه جميل حزين. وبرغم أنّها لم تتجاوز العشرين، كان الرماديّ يتخلّل شعرها الأسود، كما لو كان ذاك بفعل صدمة لم تُفصح عنها أبدًا. وكنتيجة أخرى، ربما، لتلك الصدمة الغامضة، لم تكن تأكل اللحم، ولا ترتدي الجلد، ولا تشرب الكحول؛ فقط في الحب، كما بدت لغويلام، كانت متحرّرة من هذه القيود الغامضة.

كان قد قضى الصباح وحيدًا في غرفته الشديدة القذارة في بركستون يصوّر وثائق السيرك، مصطحبًا معه كاميرا دقيقة اشتراها من المتاجر المختصة ببيع أدوات العمليات، وهو أمر غالبًا ما يفعله. سأله صاحب المتجر: «ضوء نهاريّ أم إلكترونيّ؟». ثم خاضا محادثةً ودودة عن أنواع الأفلام. أخبر سكرتيرته بألّا يزعجه أحد، أغلق بابه، وبدأ العمل بحسب تعليمات سمايلي الدقيقة. كانت النوافذ عاليّة قريبة من السقف. حتّى في جلوسه، لم يكن بوسعه رؤية شيء ما عدا السماء وحافّة جدار المدرسة الجديدة في نهاية الطريق.

بدأ بالوثائق الموجودة في خزنته الشخصيّة. كان سمايلي قد رتّب له

الأولويات. أولًا إدارة الموظفين، بما يخص الموظفين الكبار فقط، والتي تحوي العناوين، وأرقام الهواتف، والأسماء الحركيّة لجميع موظّفي السيرك الداخليين. ثانيًا، الدفتر الخاص بأعمال الكادر، بما فيه مخطط السيرك بعد إعادة تنظيمه على يد أليلاين. في المركز كانت تقبع محطة لندن تحت إدارة بل هايدن كعنكبوت في منتصف شبكته. «بعد قضيّة بريدو»، كان يكرر بل: «لن يكون لدينا جيوش خاصة لعينة، أو أعمالٌ لليد اليسرى من دون أن تعلم بها اليد اليمنى». أليلاين، كما لاحظ غويلام، كان يتقاضى راتبين: الأول كمدير، والثاني كـ «مدير المصادر الخاصة». وبحسب الاشاعات كانت تلك المصادر هي ما تُبقي على عمل السيرك. لا شيء آخر، بحسب غويلام، كان يمكن أن يجعل السيرك في حالة عمل مستمر، والإبقاء على المستوى الذي يتمتّع به في مكاتب الحكومة. وقد أضاف إلى هذه الوثائق، بناء على إلحاح سمايلي، العقد المعدَّل الخاص بصيّادي الـرؤوس، بصيغة رسالة من رسائل أليلاين تبدأ بـ «عزيزي غويلام»، توضح بالتفصيل تقليص سلطته. في حالات كثيرة، كان هذا لصالح توبي إيسترهيز، مدير حملة المصابيح في آكتون، وهو القسم الوحيد الذي توسّع عمليًا بعد تطبيق التجانب.

ثم انتقل غويلام إلى مكتبه وصوّر، بناءً على تعليمات سمايلي أيضًا، مجموعةً من الترتيبات الروتينية التي قد تكون مفيدة كقراءة للخلفيّة. كانت المجموعة تشمل انزعاجًا من المشرف بشأن وضع المنازل الآمنة في منطقة لندن. «(لُطفًا تعاملوا معها كما لو كانت لكم)» وورقة أخرى بشأن إساءة استخدام هواتف غير مسجّلة خاصة بالسيرك لمكالمات شخصيّة. وأخيرًا، رسالة شخصية شديدة الوقاحة من قسم الوثائق ينبّهونه فيها بأنّ شهادة السواقة باسمه الحركيّ انتهت صلاحيتها، وبأنّه إن لم يقم بتجديدها «سيتمّ رفع اسمه لمدبّري المنزل من أجل إجراء انضباطيّ مناسب».

ترك الكاميرا وعاد إلى خزنته. في الرف السفليّ ثمة رزمة من تقارير حملة المصابيح موقّعة من توبي إيسترهيز ومختومة بالكلمة المشفّرة

«البلطة». كانت تلك التقارير تضم الأسماء وأعمال التخفّي لمئتين أو ثلاثمئة موظف معروف في الاستخبارات السوفياتيّة، يعملون في لندن تحت غطاء قانونيّ أو شبه قانونيّ؛ التجارة، وكالة تاس، أيروفلوت، راديو موسكو، ومناصب استشاريّة ودبلوماسيّة. وكذلك كانت تضم تواريخ تحقيقات حَمَلة المصابيح وأسماء الخطوط الفرعيّة، والتي تعني بحسب اللغة المشفّرة، الصلات العاملة في مجال المراقبة من دون أن تكون متصلة مع الميدان بالضرورة. كانت التقارير مرتبة في مجلد سنويّ أساسيّ، ثم الملاحق. في الساعة الحادية عشرة والثلث أقفل خزنته، اتصل بمحطة لندن على الخط المباشر، وطلب لاودر ستركلاند من قسم البنوك.

«لاودر، أنا بيتر من بركستون، كيف الحال؟».

«نعم بيتر، بم يمكننا خدمتك؟».

صوت سريع وجاف. نحن في محطة لندن لدينا أصدقاء أهم منك، كانت تقول النبرة.

كان الأمر متعلقًا بغسيل أموال قذرة، فسّر غويلام، لتمويل مكيدة ضد ساع دبلوماسي فرنسيّ يبدو أنّه للبيع. وبأشدّ نبرات صوته خنوعًا تساءل ما إذا كان لاودر يمكن أن يجد وقتًا لمقابلته ومناقشته. هل وافقت محطة لندن على المشروع؟ لا، ولكن غويلام كان قد أرسل الأوراق إلى بل. دفعه لاودر ستركلاند إلى التذلّل؛ شدّد غويلام على أهميّة القضية: «ثمة نقطة او اثنتان مربكتان يا لاودر، وأعتقد بأننا نحتاج إلى طريقتك في التفكير».

قال لاودر إنّه قد يوفّر له نصف ساعة.

في طريقه إلى وست إند وضع أفلامه في صيدليّة لشخص اسمه لارك، في شارك تشارنغ كروس. لارك، في ما لو كان هو هذا الشخص، رجلاً شديد البدانة ذا قبضتين ضخمتين. كان المحل فارغًا.

«أفلام السيد لامبتن، للتحميض»، قال غويلام. وتناول لارك منه الكيس إلى الغرفة الخلفيّة، وحين عاد قال «تمام» بصوت عميق، ثم زفر

بقوة، كما لو كان يدخّن، ولكن بلا دخان. رافق غويلام إلى الباب ثم أغلقه وراءه بالمزلاج. من أين، بحق الآلهة، يجد جورج هؤلاء الناس؟ تساءل غويلام. كان قد اشترى أقراصًا طبية للحنجرة. لا بد أن تكون كل خطوة محسوبة، كما حذّره سمايلي: افترض أنّ السيرك قد وضع الكلاب في مراقبتك على مدار الساعة. ما الجديد بشأن هذا إذًا؟ فكر غويلام؛ توبي إيسترهيز كان سيُطلق كلاب المراقبة على أمه إذا كان هذا سيرفع من شانه أمام أليلاين.

من تشارنغ كروس مشى إلى شيه فكتور ليتناول الغداء مع عميله ساي فانهوفر وبلطجيّ يطلق على نفسه اسم لوريمر الذي يدّعي أنّه يتشارك عشيقته مع سفير ألمانيا الشرقيّة في استوكهولم. قال لوريمر إنّ الفتاة جاهزة للدخول في اللعبة ولكنّها تحتاج إلى جنسيّة بريطانيّة ومبلغ كبير من المال أولًا. ستفعل أيّ شيء، قال: تتجسّس على بريد السفير، وتزرع أجهزة تنصّت في بيته، أو تضع شظايا زجاج في البانيو، ما افترض أنّها نكتة. أحسّ غويلام أن لوريمر يكذب ومضى في تفكيره ليعلم ما إذا كان فانهوفر كاذبًا أيضًا، ولكنّه كان حكيمًا بما يكفي ليدرك بأنّه في وضع لا يسمح له بتحديد من منهما الكاذب. كان يحبّ شيه فكتور، ولكنه لم يعد يتذكر ما تناوله من طعام، وحالما دخل لوبي السيرك عرف أنّ السبب كان الإثارة.

«مرحبا بريانت».

«تسرّني رؤيتك سيّدي. تفضل بالجلوس، سيّدي، لو سمحت، لحظة فقط، سيدي، شكرًا»، قالها بريانت دفعة واحدة، فجلس غويلام على المقعد الخشبيّ يفكّر بأطباء الأسنان وكاميلا. كانت اكتسابًا جديدًا، وزئبقيًا إلى حد ما؛ منذ زمن لم تمضِ الأمور بهذه السرعة بالنسبة إليه. التقيا في حفلة وكانت تتحدث عن الحقيقة، وحيدةً في زاويةٍ مع عصير جزر. غويلام، مجازفًا بشدة، قال إنّه ليس خبيرًا في الأخلاقيات لذا لمَ لا يقضيان ليلةً معًا؟، صمتت لبرهة، مفكّرة بعمق؛ ثم التقطت معطفها. كانت تتسلّى قبل هذا، تطبخ ريزولي بالجوز وتعزف على الفلوت.

بدا المدخل كالحًا على نحو أكبر مما كان عليه. ثلاثة مصاعد قديمة، وحاجز خشبيّ، وملصق لشاي مازاواتي، وكوّة بريانت ذات الواجهة الزجاجيّة مع تقويم يحوي مناظر من إنكلترا وسلسلة من الهواتف المتشابكة.

«السيد ستكرلاند يتوقّع قدومك سيدي»، قال بريانت مع دخوله، ثم ضغط ختمًا ورديًا بالوقت: أربعة عشر وخمسة وخمسون، ب. بريانت، البواب. انفتح المصعد الأوسط ككومة دبق جافة.

«حان وقت تزييت هذا الشيء، أليس كذلك؟»، قال غويلام قبل أن تبدأ آلة الصعود.

قال بريانت، بنبرة شكوى مفضّلة. «نطالب دومًا بهذا، ولكنهم لا يفعلون شيئًا. تستمر بالطلب إلى أنّ يزرقّ وجهك. كيف هي عائلتك سيدي؟».

«على ما يرام»، قال غويلام الذي لا يمتلك عائلة.

«حسنًا»، قال بريانت. ناظرًا إلى الأسفل، رأى غويلام رأسه الناعمة تختفي بين قدميه. كانت ماري تسميه فراولة مع فانيلا، كما تذكّر: وجه أحمر، وشعر أبيض.

في المصعد تفقّد بطاقة السماح بدخوله. سماح بالدخول إلى ل س» في الترويسة. « هدف الزيارة: قسم البنوك. يجب إعادة هذه البطاقة قبل المغادرة. وحقل مُشار إليه بـ«توقيع المضيف»، حقل فارغ.

«سررت بلقائك بيتر. تحياتي. أنت متأخر قليلًا، ولكن لا بأس».

كان لاوندر ينتظر عند الحاجز، بدت القوائم الخمس للحاجز وكأنها لا تشكّل شيئًا مقارنة به، كما بدا وكأنه حريص على عدم تلقي زيارات. أيام كونترول، كان هذا الطابق يغصّ بالناس المشغولين. اليوم كان ثمة حاجز يغلق المدخل، وحارسٌ ذو وجه شبيه بالجرذ يدقّق في البطاقات.

«يا إلهي، منذ متى وأنت تمتلك هذا الوحش؟» سأله غويلام، مبطئًا خطاه أمام آلة تحضير قهوة برّاقة. فتاتان كانتا تملآن كأسيهما، التفتتا ورددتا: «مرحباً لاودر»، ناظرتين إلى غويلام. ذكّرته الطويلة بكاميلا: العينان المتّقدتان بلطف ذاتهما، عينان تلومان تردّد الرجال.

«آه، ولكنّك لا تعلم مقدار ساعات العمل التي يوفّرها»، صاح لاودر فجأة. «رائع. رائع حقًا»، وكاد في غمرة حماسته أن يرتطم ببل هايدن.

كان يخرج من غرفته سداسيّة الشكل المطلّة على شارع نيو كومبتن وطريق تشارنغ كروس. وكان يتحرك في الاتجاه ذاته ولكن بسرعةٍ تقارب نصف ميل في الساعة، بحيث كانت الممرات خانقة بالنسبة إلى بل. أما الممرات الخارجيّة فشأن آخر؛ غويلام كان قد شاهد هذا أيضًا، في مباريات تدريبيّة في سارات، ومرةً في جولة ليلية في اليونان. في الخارج كان سريعًا ومتحمّسًا؛ كان وجهه، الذي يبدو في هذا الممر الكالح، كئيبًا ومترددًا، يبدو في الهواء الطلق وكأنّه مصمَّم للعمل في الأماكن المفتوحة. لم يكن ثمة نهاية لهذا: ليس ثمة مسرح عمليات، في عيني غويلام التبجيليّة، لا يحمل بصمة هايدن في مكان ما. مرارًا وتكرارًا، أثناء عمله، كان يصادف هذا اللقاء المدهش مع مشية هايدن الغريبة. منذ عام أو اثنين، حينما كان لا يزال يعمل في الاستخبارات البحريّة، حيث كان أحد أهدافه تجمّعٌ لفريق من مراقبي الشاطئ في الميناءين الصينيين ونتشاو وأموي، اكتشف غويلام أنّ هناك عملاء صينيين ثابتين مقيمين في تلك البلدات، جنّدهم بل هايدن أثناء عملية منسيّة خلال الحرب، مجهّزين بكل وسائل الاتصال، بحيث كان التواصل معهم متاحًا. وفي مناسبة أخرى، حين كان يقلّب في سجلّات الحرب الخاصة برجال السيرك، بدافع من الحنين لتلك الفترة أكثر من كونه تفاؤلًا باحترافيّة الحاضر، وقّع غويلام مرتين على اسم هايدن الحركيّ في مناسبتين: في الحادية والأربعين كان يدير مراكب الصيد الفرنسيّة في مصبّ هلفورد؛ وفي السنة ذاتها، حين كان جِمْ بريدو مساعده، كان يشرف على خطوط المراسلة عبر أوروبا من البلقان

إلى مدريد. بالنسبة إلى غويلام، كان هايدن من الجيل الغابر الذي لن يتكرر في السيرك، والذي ينتمي إليه والداه وجورج سمايلي - كان جيلًا حصريًا، وفي حالة هايدن كان لذوي الدم الأزرق- -الجيل الذي عاش حيوات مرفّهة إضافة إلى حياته الطائشة، ولا يزال، حتى بعد ثلاثين عامًا، يمنح السيرك النكهة الأخيرة للمغامرة.

مع رؤيتهما معًا، توقف هايدن مكانه كصخرة. كان قد انقضى شهر مذ تحدث إليه غويلام آخر مرة؛ ربما كان في مهمة غامضة في الخارج. والآن، في ضوء باب غرفته المفتوح، بدا مظلمًا وطويلًا على نحو غريب. كان يحمل شيئًا ما، لم يتمكّن غويلام من تمييزه، مجلة، أو ملف، أو تقرير؛ غرفته المقسومة بظله كانت تبدو كمهجع طالب جامعيّ، تعجّ بالفوضى. كانت التقارير، وأوراق كربون النسخ، والملفات مكوّمةً في كل مكان؛ على الجدار كانت لوحة إعلانات تغصّ بالبطاقات البريديّة وقصاصات الصحف؛ إلى جانبها، منحرفةً وبلا إطار، إحدى لوحات بل القديمة، لوحة تجريديّة مستديرة بألوان الصحراء القاسية.

«مرحباً بل»، قال غويلام، تاركًا باب غرفته مفتوحًا - وهو خرقٌ لتعليمات مدبّري المنزل - كان هايدن أمامهما، صامتًا دون أن ينطق بكلمة. كان يرتدي ملابسه المرقّطة. وكانت الرقع الجلديّة لجاكيته مرسومةً على شكل ماس، لا مربعات، والتي أعطته من الخلف مظهر بطّةٍ مزركشة. وكانت نظارته مستندة إلى غرّته الشيباء كمنظار. للحظة تبعاه عفويًا، إلى أن استدار فجأة، استدار بجسده كاملًا كتمثال يدور ببطء حول محوره، وثبّت نظرته على غويلام. ثم ابتسم بحيث ارتفع حاجباه إلى الأعلى كحاجبي مهرّج، وأصبح وجهه وسيمًا وشابًا على نحو غريب.

«ما الذي تفعله هنا بحق الجحيم، أيها المنبوذ؟»، قال بمرح.

آخذًا السؤال بجدّية، بدأ لاودر تفسير قضيّة الفرنسيّ والمال القذر.

قال بل متحدثًا إليه مباشرةً: «حسنًا، احرص على أن تقفل على

ملاعقك، صيّادو الرؤوس اللعينون أولئك سيسرقون الذهب من أسنانك. أقفل على الفتيات أيضًا»، وأضاف كخاتمة، وعيناه على غويلام: «لو سمحن لك بذلك. منذ متى كان صيّادو الرؤوس يغسلون أموالهم؟ هذا عملنا».

«لاودر سيقوم بالغسيل. نحن ننفق الأموال فحسب».

خاطب هايدن ستركلاند، بنبرة جافة مفاجئة: «الأوراق حوّلها إليّ، لن أجازف بخرق أيّ قوانين لعينة مرة أخرى».

قال غويلام: «لقد حُوّلت إليك مباشرةً، لعلها الآن في بريدك الوارد».

إيماءة أخرى سمحت لهما بالمغادرة، بحيث أحسّ غويلام أنّ نظرة عين هايدن الزرقاء القاسية تخترق ظهره طوال الطريق وصولًا إلى الممر المظلم الآخر.

«رجل رائع»، قال لاودر، كما لو أنّ غويلام لم يلتق به من قبل. «لم تكن محطة لندن لتكون تحت إدارة أفضل. قدرة مذهلة. سجلّ مذهل. رائع».

بينما أنت، فكّر غويلام بقسوة، رائع بالمعيّة. مع بل، ومع آلة القهوة، ومع البنوك. قوطعت أفكاره عبر صوت روي بلاند بلهجته اللندنيّة الشرقيّة، يخرج من غرفةٍ أمامهما.

«مرحباً لاودر، انتظر دقيقة: هل رأيت بل اللعين؟ إنّه مطلوب على نحو عاجل».

تبعه مباشرةً صدى صوت توبي إيسترهيز بلهجة وسط أوروبا من الاتجاه ذاته: «حالًا، لاودر، لقد طلبنا استدعاءه بالميكروفون عمليًا».

كانا قد دخلا الممر الضيق الأخير. وكان لاودر يتقدّمه بثلاث خطوات وكان يهيّئ إجابته على هذا السؤال عندما وصل غويلام إلى الباب المفتوح وألقى نظرة منه. كان بلاند غارقًا في كرسيّه، وقد ألقى جاكيته، وأمسك

بورقة، والعرق يرشح من إبطيه. وكان توبي إيسترهيز الضئيل واقفًا بجانبه كنادل، أو كمفوّضٍ صغير بشعر أشيب وفكّ مدبّب منفّر، وكان يمدّ إحدى يديه بالورقة كما لو كان يطلب استشارة. من الواضح أنّهما كانا يقرآن الورقة ذاتها عندما لمح بلاند عبور لاودر ستركلاند أمامهما.

«نعم رأيت بل هايدن»، قال لاودر الذي كان يحب الرد عبر إعادة صياغة الأسئلة ليجعلها تبدو أكثر لباقةً. «أعتقد بأنّ بل في طريقه إلى هنا الآن. إنه هناك في الممر؛ كنا منشغلين في محادثة قصيرة حول عدد من المسائل».

تحرّكت تحديقة بلاند ببطء نحو غويلام واستقرت هناك؛ ترحيبه البارد كان استعادة غير مريحة لترحيب هايدن. «مرحباً بيت»، قال. فاعتدل توبي الضئيل وحوّل نظراته إلى غويلام أيضًا: بنيّة وهادئة كعقرب ساعة.

قال غويلام: «أهلًا، ما المشكلة؟».

لم يكن ترحيبهما باردًا فحسب، بل كان عدائيًا. كان غويلام قد عايش توبي إيسترهيز ثلاثة أشهر في عملية مرهقة في سويسرا، ولم يبتسم توبي ولو مرة واحدة، لذا لم يبدُ فتوره مفاجئًا. ولكنّ روي بلاند كان أحد اكتشافات سمايلي، رجل لطيف ينتمي إلى ذلك العالم الغابر، أصهب وضخم الجثّة، مبتدئ في العالم الاحترافيّ، وكانت فكرته عن الأمسية الجيّدة تتلخص في التحدث عن فتغنشتاين في حانات بلدة كنتيش. كان قد أمضى عشر سنوات ككاتب في الحزب، مشرفًا على دائرة أكاديميّة في أوروبا الشرقيّة، والآن أُعيد إلى الوطن مثل غويلام، ما اعتُبر بمثابة إعادة صلات. كان أسلوبه المعتاد يتلخّص في ابتسامة واسعة، وتربيتة على الكتف، وذبول بفعل شرب البيرة في سهرة الليلة الماضية؛ ولكن ليس اليوم.

قال روي، مغتصبًا ابتسامة: «لا مشكلة، عزيزي بيتر. تفاجأنا برؤيتك لا أكثر، هذا كل ما في الأمر. اعتدنا أن يكون الطابق لنا فقط».

قال لاودر، مبتهجًا لأن توقّعاته تحقّقت: «ها هو بل».

في خيط من الضوء، حالَ دخوله، انتبه غويلام إلى لون وجنتَيْ هايدن الغريب. أحمر متورّداً، برّاقًا عند العظمة، ولكن عميقًا في الجلد كانت وجنته تبدو متشكّلة من شرايين صغيرة ممزّقة. بدا هذا اللون بالنسبة إلى غويلام، وهو في حالته القصوى من الارتباك، وكأنّه يمنح هايدن مظهر دوريان غراي.

امتدّ لقاؤه مع لاودر ستركلاند ساعة وعشرين دقيقة، وكان غويلام هو من جعله بهذا الطول، وخلال اللقاء كانت صورة بلاند وإيسترهيز تحتلّ مخيّلته متسائلًا عما يشغلهما.

قال أخيرًا: «حسنًا، أعتقد بأنّ عليّ الذهاب لتوضيح الأمور للدولفين. جميعنا نعلم موقفها تجاه البنوك السويسريّة». كان مكتب مدبّري المنزل على مسافة بابين من قسم البنوك. «سأترك هذه هنا»، أضاف وترك الأوراق على مكتب لاودر.

كان مكتب ديانا دولفين يعبق برائحة ملطّف جوّ منعش؛ وكانت حقيبة بريدها موضوعةً على الصوفا بجوار نسخة من فايننشال تايمز. كانت ديانا إحدى الفتيات الجاهزات للزواج في السيرك، ولكن من دون أن يتقدّم أحد لخطبتها. نعم، قال بضجر، أوراق العمليات أُرسلت إلى محطة لندن. نعم، كان يفهم بأنّ التعامل مع المال القذر مسألة من الماضي.

«إذًا لا بدّ أن ندرسها ثم نُعلمك بالنتيجة»، قالت، وهو ما يعني بأنّها ستذهب لتسأل فل بورتيوس في المكتب المجاور.

قال غويلام، ثم غادر: «سأُعلم لاودر إذًا».

تحرّكْ، فكّرْ. في تواليت الرجال انتظر ثلاثين ثانية عند المغاسل، مراقبًا الباب في المرآة، متنصّتًا. كان هدوء غريب يخيّم على الطابق بأكمله. هيا، فكّرْ، لقد تقدّمت في العمر، تحرّكْ. عبر الممر، توقف عند مكتب موظّفي الخدمة ودخل، ثم صفق الباب خلفه بقوّة، وتلفّت حوله. فكّر بأنّ أمامه

عشر دقائق، كما فكّر بأنّ الباب المصفوق سيُشعل ضجيجًا أقل من الباب المُغلَق بحرص في هذا الهدوء المخيّم. تحرّكْ.

كان قد أحضر الكاميرا ولكنّ الإضاءة كانت سيئة. وكانت النافذة المشبكة تطلّ على فناءٍ مليءٍ بالأنابيب المسودّة. لم يكن ليخاطر بإشعال مصباح يدويّ حتى لو كان يحمل واحدًا معه، لذا استخدم ذاكرته. لم يبدُ أنّ شيئًا قد تغيّر منذ تبديل الإدارة. نهارًا، كان يُستخدَم المكان كاستراحةٍ للفتيات للتبجّح، وبحسب رائحة العطر الرخيص في المكتب لا بدّ أنّه لا يزال كذلك. بجانب أحد الجدران نجد الصوفا القابلة للطيّ، والتي تُستخدَم كسرير ليلًا؛ وبجانبها صندوق الإسعافات الأوّلية مع شارة الصليب الأحمر على واجهته، وتلفزيون قديم. كانت الخزانة المعدنيّة في مكانها بين لوحة المقابس الكهربائيّة والهواتف المقفولة، فسلك أقصر الطرق إليها. أنها خزانة قديمة وبإمكانه فتحها بفتّاحة علب. وكان قد أحضر أدواته وحقيبة عدّة خفيفة. ثم تذكّر بأنّ الرقم السريّ كان 31 – 22 – 11 فجرّبه، أربع حركات بعكس عقارب الساعة، ثلاث معها، اثنتان عكس، وأخرى مع، فانفتحت. عندما فتح الباب اندفع الغبار من الأسفل في سحابة تجمّعت للحظات ثم اندفعت باتّجاه النافذة المظلمة. في اللحظة ذاتها سمع ما بدا له وكأنها نغمة فلوت واحدة: كانت صادرة من سيارة، على الأغلب، مركونة في الشارع؛ أو صرير عجلة عربة ملفّات وهي تتقدّم على الأرض؛ ولكن في تلك اللحظة بدت وكأنها إحدى تلك النغمات الطويلة المؤلمة التي تشكّل نوتة تدريبات كاميلا. كانت تعزف حين يخطر لها الأمر. لم تكترث للجيران؛ وكانت تبدو هادئة تمامًا. تذكّرها في تلك الأمسية الأولى، «ما الجانب الذي تفضّله من السرير؟ أين يجب أن أضع ثيابي؟». حسد نفسه على لمستها الدقيقة في أشياء كهذه، ولكن لم تكن كاميلا تتقصّد ذلك، إذ كانت التقنيّة ارتجالًا، ارتجالًا متزامنًا مع الواقع، بل قد تقول إنّه هروب منه. حسنًا، إذًا أخرجيني من هذه المعضلة.

كانت ملفات دفاتر المهمات على الرف العلويّ في مجلّدات مرتبّة

بحسب التاريخ. بدت مثل السجلّات العائليّة. أنزل مجلّد نيسان/ أبريل وتفحّص لائحة الأسماء على الغلاف الداخليّ، متسائلًا ما إذا كان بوسع أحد رؤيته من الغرفة المزدوجة عبر الفناء. ولو كان بوسعهم ذلك، هل سيكترثون لما يحدث؟ بدأ التفتيش في المعلومات، باحثًا عن يومَيْ العاشر والحادي عشر، وهما اليومان اللذان يُفترَض بأنّ المراسلات بين محطة لندن وتار قد جرت فيهما. كان توقيت هونغ كونغ متقدّمًا بتسع ساعات، كما أشار سمايلي: كان تلغراف تار وردّ لندن قد حدثا منذ ساعات.

من الممر انفجرت جلبة أصوات مفاجئة، وتخيّل للحظةٍ أنّه يسمع صوت لهجة أليلاين المميزة الصارمة، ولكن لا داعي للتهيّؤات الآن. كان لديه قصة تمويه وكان جزءٌ منه يصدّق تلك القصة أساسًا. لو اكتُشف أمره، سيصدّقها تمامًا، ولو أرغمه المحققون على قول الحقيقة سيقول الخطة الاحتياطيّة. لم يكن يتحرك من دون واحدة جاهزة. في شتى الأحوال، كان مرتعبًا. خمدت الأصوات، وغادر شبح بيرسي أليلاين معها. كان العرق يسيل على أضلاعه. مرّت فتاة تدندن مقطعًا من أغنية شَعر. لو سمعك بل، سيقتلك، فكَّرَ، إذ لو كان ثمة شيء يُشعل غضب بل، فهو ليس سوى الهمهمة: «ما الذي تفعله هنا أيها المنبوذ؟».

ثم باغته الذهول عندما سمع صوت بل وهو يصيح فعلًا، من مسافة يعلم الله مقدارها: «أوقفي هذا المواء. من هذه الحمقاء؟».

تحرَّكْ. عندما تتوقف لن تتابع عملك مجددًا: ثمة عتبة خوف محدَّدة تُرغمك على التجمّد والهروب، هي تلك العتبة التي تحرق أصابعك عندما تلامس الأشياء وتُحيل معدتك إلى ماء. تحرَّكْ. أعاد مجلد نيسان/ أبريل وسحب أربعة أخرى عشوائيًا، شباط/ فبراير، حزيران/ يونيو، أيلول/ سبتمبر، تشرين الأول/ أكتوبر. تصفّحها بسرعة، مقارنًا بينها، ثم أعادها إلى الرف ثم انحنى. دعا كي يهدأ الغبار. لِمَ لمْ يشتكِ أحد؟ يحدث الأمر ذاته عندما يستخدم عدد كبير من الناس مكانًا واحدًا: ليس ثمة من يتحمّل المسؤوليّة، ليس ثمة من يكترث. كان ينظر الآن إلى لائحة مناوبات

الحرس الليليّين. وجدها على الرفّ السفليّ، محشورة بين أكياس الشاي والحليب المبيّض: مرتّبةً في ملفّات كالمغلّفات. كان الحرّاس يملأونها ثم يحضرونها إليك مرتين أثناء نوبتك ذات الاثنتي عشرة ساعة: في منتصف الليل، وفي الساعة السادسة صباحًا. كنت تحرص على أن يكون عملهم دقيقًا- يعلم الله كيف كان يتم ذلك لأنّ الحراس الليليين منتشرون في جميع أنحاء المبنى - ثم توقّعها، وتحتفظ بالنسخة الثالثة في الخزانة، من دون أن يعلم أحد السبب. كان هذا هو الإجراء المتّبع قبل الطوفان، ويبدو أنّه لا يزال هو ذاته.

غبار وأكياس شاي على الرف ذاته، فكَّرَ. منذ متى لم يعدّ أحدٌ الشاي؟

مرةً أخرى ثبّت نظراته على تاريخ العاشر والحادي عشر من نيسان/ أبريل. كان قميصه ملتصقًا بأضلاعه. ما الذي حدث لي؟ يا إلهي، أنا متعب. انحنى إلى الأمام ثم إلى الخلف، الأمام مجددًا، مرتين، ثلاث مرات، ثم أغلق الخزانة على كلّ ما فيها. انتظر، تنصّت، استرق نظرةً قلقة أخيرة إلى الغبار ثم خطا باتجاه الممر، إلى نقطة الأمان في مرحاض الرجال. في طريقه كانت الضجة تحفّه: آلات الشيفرة، ورنين الهواتف وصوت فتاة تصرخ: «أين تلك المصقلة اللعينة، كانت في يدي»، ثم نغمة الفلوت الغامضة تلك، ولكنها لم تعد تشبه نغمات عزف كاميلا في تلك الساعات الشحيحة. في المرة القادمة سأرغمها على فعل ذلك، فكّر بوحشيّة؛ دون تسويات، وجهًا لوجه، هذا ما ينبغي أن تكون عليه طريقة الحياة.

في مرحاض الرجال وجد سبايك كاسبار ونك دو سلسكي عند المغاسل يتمتمان لبعضهما عبر المرآة: كانا مخبرين تابعين لشبكات هايدن السوفياتيّة، وقد كانا هنا منذ سنوات، معروفَين بكونهما الروسيّان بكل بساطة. حالما شاهدا غويلام أوقفا الحديث.

«مرحباً لكما. يا إلهي إنكما لا تنفصلان حقًّا».

كانا أشقرَين قصيرَين ضخمَي الجثة، وكانا يبدوان روسيّين أكثر من

الروس أنفسهم. انتظر مغادرتهما، غسل الغبار عن أصابعه، ثم عاد إلى مكتب لاودر ستركلاند.

قال بلا مبالاة: «فليرحمنا الرب، تلك الدولفين تتحدث فعلًا».

«موظفة شديدة الكفاءة. هي أكثر شخص لا يمكن الاستغناء عنه تقريبًا هنا. متمكّنة جدًا، ثق بي»، قال لاودر. نظر إلى ساعته بتمعّن قبل أن يوقّع البطاقة، ثم أعاد الأوراق إلى غويلام. كان توبي إيسترهيز عند الحاجز، يتحدث إلى حارس شاب غير ودود.

«عائد إلى بركستون يا بيتر؟»، كانت نبرته عاديّة، وملامحه غير قابلة للاختراق كالمعتاد.

«لماذا؟».

«سيارتي في الخارج. بإمكاني قيادتك. لدينا عمل قرب تلك المنطقة».

قيادتك! لم يكن توبي الضئيل يتقن أيّة لغة تمامًا، ولكنّه كان يتحدّث بها جميعها. في سويسرا، سمع غويلام فرنسيّته وكانت تشوبها لكنة ألمانيّة؛ وكان لألمانيّته لكنة سلافيّة، وكانت إنكليزيّته تعجّ بالأخطاء والتعثّرات والأحرف الصوتيّة الخاطئة.

«شكرًا يا توب، أعتقد بأنّني سأذهب إلى المنزل. ليلة سعيدة».

«إلى المنزل مباشرة؟ سأقودك، لا تناقش».

«شكرًا، يجب أن أتسوّق أولًا. كلّ أطفال المعموديّة اللعينون أولئك».

«بالتأكيد»، قال توبي كما لو لم يكن لديه أحد منهم، وحرّك فكّه المدبّب الصغير باستياء.

ما الذي يريده بحق الجحيم؟ فكّرَ غويلام مجددًا. توبي الضئيل وروي الضخم كلاهما: لمَ كانت نظراتهما عدائيّة؟ هل كان بسبب شيء كانا يقرآنه، أو شيء أكلاه؟

خرج إلى الشارع، ومشى في طريق تشارنغ كروس مختلسًا نظرات إلى واجهات المكتبات، فيما كان ذهنه الآخر يتفحّص جانبي الرصيف. كان الجو قد أصبح أشدّ برودة، ورياح بدأت بالهبوب، وكان الأمل يخيّم على ملامح الناس العابرين. شعر بالابتهاج. حتى هذه اللحظة، كان منغمسًا في العيش في الماضي. حان وقت إعادة تصويب اتّجاه نظراتي مجددًا. في زويمرز تفحّص كتابًا بعنوان الآلات الموسيقيّة عبر الزمن، وتذكّر أنّ كاميلا لديها درس متأخر مع الدكتور ساند، معلّمها على آلة الفلوت. مشى إلى أن وصل فويلز، وهو ينظر إلى طوابير منتظري الحافلات. تعامل مع الأمر كما لو كنتَ في الخارج، قال له سمايلي. متذكّرًا مكتب المهمات ونظرة روي المريبة، لم يكن غويلام ليجد أدنى صعوبة في هذا. وبل أيضًا: هل كان هايدن شريكًا في ريبتهما؟ لا. بل كان فريدًا من نوعه. قرَّرَ غويلام، عاجزًا عن مقاومة شعور بالولاء تجاه هايدن. لن يشارك بل في أمر ما لم يكن أمرًا خاصًا به منذ البداية. ضع بل جانبًا، هذان الاثنان مجرد قزمَين.

في سوهو أوقف سيارة إجرة واتجه إلى محطة واترلو. في واترلو، ومن هاتف عموميّ، اتصل برقم في منطقة متشام-سوريه، وتحدث إلى المفتش مندل، الذي كان يعمل سابقًا في الفرع الخاص، وقد كانت علاقته بغويلام وسمايلي تعود إلى زمن بعيد. عندما تحدّث مندل، سأله عن جيني، وسمع مندل يخبره بنزق عن عدم وجود أيّ فتاة تدعى جيني هنا. اعتذر وأنهى المكالمة. ضغط زر الساعة الناطقة، وأمضى محادثة مرحة مع المجيب الآليّ لأنّ ثمة عجوزًا تنتظر انتهاءه من المكالمة خارج الكابينة. لا بد أن يكون قد وصل الآن، فكّر. أنهى المكالمة واتصل برقم آخر في متشام، كان هذه المرة هاتفًا عموميًا في نهاية الحي الذي يسكنه مندل.

«أنا ول»، قال غويلام.

«وأنا آرثر»، قال مندل بمرح: «كيف حال ول؟» كان رجلًا مميزًا، حاد الوجه وحاد النظر، وكان غويلام يتخيّله تمامًا في هذه اللحظة منكبًّا على دفتر الملاحظات الصغير، محضّرًا قلمه الرصاص للكتابة.

«أود إعطاءك العناوين الأساسيّة الآن في حال دهستني حافلة».

قال مندل بهدوء: «هذا صحيح يا ول، لا يمكنك أن تكون شديد الحذر».

أعطى رسالته ببطء، مستخدمًا غطاء التخفّي التعليميّ الذي كانا قد اتفقا بشأنه كخطوة أمان أخيرة للمتغيّرات الطارئة: امتحانات، وطلاب، وأوراق مسروقة. وكلّما كان يوقف كلامه لم يكن يسمع شيئًا بخلاف خربشةٍ خافتة. تخيّل مندل وهو يكتب ببطء وهدوء من دون أن يتحدث حتى إنهاء الكتابة.

قال مندل أخيرًا، عندما أنهى كتابته: «حصلت على تلك الصور الجميلة من الصيدلانيّ اليوم. جميعها جميلة، وليس فيها أيّة شائبة».

«شكرًا. أنا سعيد لهذا».

ولكنّ مندل كان قد أنهى المكالمة.

سأقول أمرًا للجواسيس، فكّرَ غويلام: إنّ طريقكم أشبه بنفق طويل مظلم. وعندما فتح الباب للسيدة العجوز انتبه إلى أنّ السمّاعة الموضوعة في مكانها غارقة في قطرات العرق. فكّر برسالته إلى مندل، ثم فكّر مجددًا بروي بلاند وتوبي إيسترهيز وهما يحدّقان إليه عبر الباب، تساءل سريعًا عن مكان سمايلي، وما إذا كان حريصًا. عاد إلى إيتون بليس توّاقًا إلى كاميلا بشدّة، وخائفًا قليلًا من أسبابها. هل كان تقدّم العمر هو ما باغته فجأة؟ على نحوٍ ما، وللمرة الأولى في حياته، كان قد خان أفكاره النبيلة. كان يغمره شعور بالقذارة، بل والقرف من نفسه.

12

هناك عجائز يعودون إلى أوكسفورد ويجدون شبابهم قد ارتدّ لهم من الحجارة. لم يكن سمايلي أحدهم. منذ عشر سنوات ربما كان سيشعر بانجذاب ما، وليس الآن. عابرًا بودليان فكّر بغموض: لقد عملت هناك. ومع رؤية منزل معلّمه القديم في طريق باركس، تذكّر أنّه قبل الحرب، في حديقة المنزل الكبيرة، كان جيبيدي قد اقترح للمرة الأولى أنّه سيهتمّ بالتحدث إلى «شخص أو اثنين في لندن». ومع سماع دقات ساعة برج توم تعلن السادسة مساءً، وجد نفسه يفكّر ببل هايدن وجم بريدو اللذين وصلا هنا في السنة التي شهدت دخول سمايلي، حيث جمعتهم الحرب؛ وتساءل بخفّة عن الصيغة التي كان عليها تجمّعهم معًا آنذاك، بل الرسام، النجم الاجتماعيّ المولع بالجدال؛ جِمْ الرياضيّ، المدقّق في كلماته. في أوج عملهم معًا في السيرك، تذكَّرَ، ذلك التمايز بينهما لم يبقَ على حاله: تطوّر ذكاء جم، كما تميّز بل في العمل الميدانيّ. فقط في نهاية المطاف، فرض ذلك الاستقطاب القديم نفسه: عاد حصان الشّغل إلى إسطبله، والمفكّر إلى مكتبه.

قطرات مطر تتساقط من دون أن يستطيع رؤيتها. كان قد استقلّ القطار ثم مشى من المحطة، داخلًا في منعطفات طوال الطريق: بلاكوِل، كليّته القديمة، كل مكان، وصولًا إلى الشمال. كان الغروب قدْ حلّ هنا مبكّرًا هنا بسبب الأشجار.

مع وصوله إلى طريق مسدود، تلكّأ مرةً أخرى، ليتأمّل الطريق. امرأة ترتدي شالًا مرّت بجانبه على دراجة، مخترقةً ظلال مصابيح الشارع التي كانت تبدّد غمامة الضباب. ترجّلت، ثم فتحت بوّابةً واختفت. في نهاية الطريق شخصٍ لم يتبيّن ملامحه يمشي مع كلبه، كان عاجزًا عن معرفة ما إذا كان رجلًا أو امرأة. ما عداه، كان الشارع مقفرًا، وكذا كانت كابينة الهاتف. ثم عبر أمامه رجلان فجأة يتناقشان بصوتٍ عال بشأن الرب والحرب. كان الأصغر بينهما يستلم دفّة الحديث. ومع سماع موافقة الشخص الأكبر، افترض سمايلي بأنّه السيّد.

كان يمشي بمحاذاة سياج عالٍ محفوفٍ بالشجيرات. كانت البوّابة رقم 15 ساكنةً على محورها، بوّابة مزدوجة ولكنّ جانبًا واحدًا منها يُستخدَم. عندما دفعها، كُسر المزلاج. كان المنزل على مسافةٍ بعيدة؛ ومعظم النوافذ مضاءة. في إحداها، كان ثمة شاب منكبٌّ على مكتبه. وفي أخرى، بدا بأنّ فتاتين تجادلان فتاة ثالثة، وهي امرأة شاحبة تعزف الفيولا ولكنّه عجز عن سماع العزف. كانت نوافذ الطابق الأرضي مضاءة كذلك، ولكنّ الستائر مسدلة. الممر مرصوف، والباب مؤطّر بزجاج ملطّخ؛ ولافتةٌ قديمة معلّقة على الجدار: «بعد الساعة 11 ليلًا، استخدم الباب الجانبيّ فقط». فوق الأجراس، ثمة ملاحظات أخرى: برنس ثلاث رنّات، لمبي رنّتان، باز: خارج المنزل طوال المساء، أراك، جانيت. كان الجرس السفليّ لـ«ساكس» فضغطه. في الحال بدأت كلاب بالنباح، وامرأة بالصياح.

«فلاش، أيها الغبيّ، إنّه مجرد أحمق. فلاش، اخرس، أيها الغبي. فلاش!».

فُتح الباب جزئيًا، وكان معلّقًا بسلسلة؛ وبرز جسدٌ عند الباب. وفيما بذل سمايلي كل جهده لرؤية إن كان ثمة أحد آخر في المنزل، طالعته عينان ماكرتان، لامعتان كعيني طفل، ملاحظةً كيسه وحذاءه المبقّع، ثم ذهبت نظراتهما خلف كتفيه إلى مكان ركن السيارات، ثم عادت النظرات إليه مجددًا. أخيرًا ابتسم الوجه الأبيض، وأبدت الآنسة كوني ساكس، ملكة الأبحاث سابقًا في السيرك، بهجتها العفويّة.

«جورج سمايلي»، صاحت، بضحكةٍ خجولة وهي تشدّه إلى الداخل. «هذا أنت أيها الرجل الرائع العزيز، اعتقدت بأنّك أحد البائعين الجوّالين، وطوال الوقت كنت أنت يا جورج!».

وأغلقت الباب خلفه بسرعة.

كانت امرأة ضخمة، أطول من سمايلي بمسافة رأس. والشعر الأبيض يؤطّر وجهها، وترتدي سترة خفيفة ملوّنة وبنطالًا مع مطاط على الخصر، وكان لها كرش صغير متدلٍّ ككرش عجوز. كانت النار متقّدة في الموقد. القطط رابضة أمامها، وكلب سبانييل رماديّ، شديد البدانة بحيث يعجز عن الحركة، نائم على الصوفا. على صينيّة ذات عجلات كانت العلب التي أكلت منها والزجاجات التي شربتها. ومن الدارة الكهربائيّة ذاتها، كانت تشغّل الراديو، والجرس الإلكترونيّ، وملاقط تصفيف الشعر. كان ثمة صبيّ بشعرٍ طويل إلى الكتفين يجلس على الأرض يحمّص التوست. وعندما رأى سمايلي وضع الرمح الثلاثيّ النحاسي.

قالت كوني: «أوه يا عزيزي جنغل، هل يمكن التأجيل إلى الغد؟ ليس من عادة حبيبي الأول زيارتي دومًا». كان قد نسي صوتها. كانت تلعب به دائمًا بحيث تغيّر نبرتها ارتفاعًا وانخفاضًا. «سأعطيك ساعةً مجانيّة كاملة، يا عزيزي: هل تسمح؟ إنه أحد تلاميذي الحمقى»، شرحت لسمايلي قبل أن يخرج الصبيّ من نطاق السمع. «ما زلت أدرّس، لا أعلم السبب. جورج»، تمتمت، متأمّلة إياه بفخر عبر الغرفة وهي تتناول زجاجة نبيذ الشيري من الكيس الذي يحمله، وتملأ كأسين: «من بين جميع الرجال الرائعين الأعزاء الذين عرفتهم». لقد كان يمشي، فسّرت للكلب. «انظر إلى حذائه. لقد مشى طوال الطريق من لندن، أليس كذلك يا جورج؟ أوه بركة، ليباركك الرب».

كان الشرب صعبًا عليها. كانت أصابعها ذات المفاصل الملتهبة ملويّة إلى الأسفل كما لو كانت قد كُسرت في حادث، وكانت ذراعها متصلّبة.

«هل مشيت لوحدك جورج؟» سألت، ملتقطةً سيجارة من جيب سترتها. «هناك من يرافقنا، أليس كذلك؟».

أشعل لها السيجارة، فأمسكتها بحيث كانت أصابعها على الحافة، ثم تأمّلته من الأعلى إلى الأسفل بعينيها الورديّتين الماكرتين. «إذًا ما الذي تريده من كوني أيها الولد المشاغب؟».

«ذاكرتها».

«أي جزء؟».

«سنعود إلى أرض قديمة».

صاحت على الكلب: «سمعتَ هذا يا فلاش؟ بدايةً يطردوننا مع عظمة قديمة ثم يأتون ليتوسّلوا لاحقًا. أي أرض، جورج؟»

«لقد أحضرت لك رسالة من ليكون. سيكون في ناديه هذا المساء في السابعة. لو كنتِ قلقة، بإمكانك الاتصال به من الهاتف آخر الشارع. أفضّل ألا تفعلي ذلك، ولكن لو كان ولا بد من ذلك، سيقوم بالتشويش الضروريّ».

كانت تمسك به طوال الوقت، ولكنّ يديها انزلقتا الآن إلى جانبيها ثم بدأت الدوران في الغرفة لبرهة، عارفةً أماكن التوقّف والنقاط التي تستند إليها، وهي توزّع الشتائم، «فلتحل عليكم اللعنة يا جورج سمايلي وكلّ من معه». عند النافذة، بحكم العادة ربما، أزاحت طرف الستارة ولكن بدا كلّ شيء طبيعيًا.

تمتمت: «أوه جورج، لعنة عليك أيضًا، كيف لك أن تسمح بإدخال ليكون؟ ربما ستُدخله في المنافسة أيضًا، وأنت تريد الفوز».

على الطاولة كانت نسخة من عدد تايمز لهذا اليوم، مفتوحةً على الكلمات المتقاطعة. كان كلّ مربّع يضم حرفًا. لم يكن ثمة فراغات.

قالت من الظلمة تحت الدرج وهي تسلّي نفسها عند الصينية: «ذهبت إلى فوتر اليوم، ول الرائع اصطحبني. أحمقي المفضّل، أليس عملًا

رائعًا؟»، وها هو صوتها بنبرة فتاة صغيرة الآن، انفجر باستياء غاضب: «كوني تشعر بالبرد يا جورج. لقد تجمّدت، كوني تجمّدت، من أصابع قدميها صعودًا».

خمّن بأنّها تبكي لذا أخذها من الظلمة إلى الصوفا. كانت كأسها قد فرغت فملأ نصفها. متجاورَين على الصوفا يشربان، فيما دموع كوني تسيل عبر سترتها وصولًا إلى يديه.

«أوه جورج»، كرّرت. «هل تعلم ما قالته لي عندما طردوني؟ تلك الموظّفة في قسم شؤون الموظفين؟» كانت تمسك أحد طرفي ياقة سمايلي بين إبهامها وسبّابتها لتشعر بالتحسّن. «هل تعلم ما قالته تلك البقرة؟». ثم بنبرة الضابط الآن: «أنت تفقدين التناغم يا كوني. حان وقت خروجكِ إلى العالم الحقيقيّ. أنا أكره العالم الحقيقيّ يا جورج. أحب السيرك وجميع أصدقائي الرائعين». أمسكت يديه، محاولةً إدخال أصابعها بين أصابعه.

«بولياكوف»، قال بهدوء، ناطقًا الاسم كما نطقه تار، «ألكسي ألكساندروفتش بولياكوف، الملحق الثقافيّ، السفارة السوفياتيّة في لندن. عاد إلى الحياة مجددًا، كما توقّعتِ تمامًا».

كان ثمة سيارة آخر الطريق، لم يكن يسمع منها سوى صوت صرير العجلات، كان المحرك قد انطفأ. ثم خطوات، هادئة.

همست كوني، وعيناها الورديّتان مثبّتتان على عينيه عندما شردتا: «جانيت، تهرّب حبيبها، تعتقد أنّني لا أعرف. هل سمعتَ هذا؟ قطعٌ معدنيّة مثبّتة بكعبيها. الآن انتظر». توّقفت الخطوات، وكان ثمة ضجة خافتة. «إنها تعطيه المفتاح. يعتقد بأنّه يستطيع فتح الباب بهدوء أكبر. لكنه لا يفعل». انفتح القفل بصوت عالٍ. «أوه يا للرجال»، قالت كوني بابتسامة يائسة. «أوه جورج. لمَ عليك تذكّر ألكس؟»، وبكت قليلًا على ألكس بولياكوف.

كان أخواها أستاذَين في الجامعة، تذكّر سمايلي؛ وكان والدها بروفيسورًا. كان كونترول قد التقى بها في لعبة بريدج، وابتكر وظيفةً لها.

بدأت قصّتها كما تبدأ الحكايا: «كان يا ما كان، كان ثمة منشقّ يدعى ستانلي، وذلك عام 1963»، وقد منحت حكايتها المنطق الخياليّ ذاته، إلهامًا في نصفها، وتفكيرًا خلّاقًا في النصف الآخر النابعَين من عقل رائع لم يشخ يومًا. كان وجهها الأبيض الغامض يتألق ببريق الجدة المولعة بالذكريات السعيدة. كانت ذاكرتها موجزةً كجسدها، وقد أحبّتها على هذا النحو بشكل أكبر، إذ أقصت كلّ شيء لتُفرغ لذاكرتها الساحة: شرابها، وسيجارتها، بل – للحظة – يد سمايلي. لم تعد مرتخيةً بل بدت صارمة، رأسها الكبيرة مستندة إلى أحد جانبيها فيما كانت تداعب الصوف الأبيض لشعرها وكأنها تحلم. كان قد توقّع أنّها ستبدأ مباشرة ببولياكوف، ولكنها بدأت بستانلي؛ كان قد نسي شغفها بأشجار العائلة. ستانلي، قالت؛ الاسم الحركيّ الذي أطلقه المحققون على منشقّ من الدرجة الخامسة من مركز موسكو. آذار/ مارس عام ثلاثة وستين. كان صيّادو الرؤوس قد أحضروه من هولندا ثم نقلوه إلى سارات، وربما لو لم يكن ذلك الموسم سيئًا، ولو لم يكن لدى المحققين وقت كافٍ، من كان يعلم ما إذا كان أيّ من هذا سيُعرف في العلن؟ كما كان الأمر، كان للأخ ستانلي قيمةٌ ما، قيمة ضئيلة، وقد نبشوها. كان الهولنديون قد أخفقوا في إيجادها، ولكنّ المحققين وجدوها، ووصلت نسخة من تقريرهم إلى كوني: «ما كانت معجزة أخرى بحدّ ذاتها، بما أنّ الجميع، بخاصة سارات، كانوا يتّبعون مبدأ مطلقًا بإقصاء قسم الأبحاث عن لوائحهم».

انتظر سمايلي بصبر كي يصل إلى المغزى المنشود، إذ إنّ كوني كانت في عمرٍ ما من شيء يمكن للرجال منحها إياه سوى الوقت.

الآن، كان ستانلي قد انشقّ عندما كان في عمل في هاغ، شرحت. كان قاتلًا من نوع محدد، وقد تم إرساله إلى هولندا لقتل مهاجر روسيّ كان يثير غضب المركز. بدلًا من ذلك، قرّر تسليم نفسه: «كان ثمة فتاة قد خدعته»، قالت كوني بازدراء شديد. «نصب له الهولنديّون فخًا، يا عزيزي، ودخل فيه وعيناه مغلقتان باتّساع».

بدأ تجهيزه للمهمة، كان المركز قد عيّنه في أحد مخيمات التدريب التابعة له خارج موسكو لصقل خبرته في الفنون السوداء: التخريب والقتل الصامت. الهولنديون، حين أمسكوه، كانوا مصعوقين بهذا الأمر فجعلوه النقطة الأساسية في تحقيقاتهم. وضعوا صورته في الجرائد، كما جعلوه يرسم تخطيطات لرصاص السيانيد وأسلحته القاتلة الأخرى التي كان يفضّلها المركز. ولكن في الحضانة، كان المحققون يعرفون هذه المعلومات مسبقًا لذا ركّزوا على المخيم بذاته، لأنه كان جديدًا، وغير معروف. رسموا مخططات للمجمّع الذي كان يغطّي مساحة عدة مئات من الفدادين الممتدة في الغابة وضفاف البحيرة، ووضعوا جميع الأبنية التي تذكرها ستانلي: أماكن غسيل الملابس، المهاجع، غرف المحاضرات، حقل الرمي، وما إلى ذلك. كان ستانلي قد ذهب إلى هناك عدة مرات فتذكّر الكثير . ظنّوا أنّهم قد انتهوا عندما صمت ستانلي فجأة. أمسك قلم رصاص ورسم في الزاوية الشماليّة الغربيّة خمسة أكواخ أخرى وسياجًا مزدوجًا حولها من أجل كلاب الحراسة. كانت تلك الأكواخ حديثة، قال ستانلي، بُنيت في الأشهر القليلة الماضية. تصل إليها عبر طريق خاص؛ كان قد رآها من على تلة عندما كان يتمشّى هناك مع أستاذه، ميلوس. بحسب ميلوس (الذي كان صديق ستانلي، قالت كوني بتلميح تشديديّ) كانت تلك الأكواخ تضم مدرسة أنشأها كارلا حديثًا من أجل تأهيل ضباط عسكريّين للمشاركة في مؤامرات.

أضافت كوني: «لذا، يا عزيزي، ها نحن ذا، لسنوات، كنا نسمع شائعات بأنّ كارلا كان يحاول تشكيل جيش خاص داخل مركز موسكو، ولكنّ ذلك الخروف المسكين لم يكن يملك السلطة الكافية. كنا نعلم بأنّ لديه عملاء منتشرين حول العالم، ومن الطبيعيّ بأنّه كان قلقًا من أن يعجز عن إدارتهم بنفسه مع تقدّمه في السن والمناصب. ونعلم بأنّه، كالجميع، كان شديد الغيرة منهم ولم يكن يُطيق فكرة تسليم أمرهم للعملاء المقيمين القانونيين في البلاد التي تُعتبر أهدافًا له. من الطبيعيّ أنّه لن يقوم بذلك: إذ تعلم مدى كراهيته للعملاء المقيمين: عدد أكبر من اللازم، عدا عن

فوضاهم. وكذلك كان يكره الحرس القديم. سطحيّون، كما كان يدعوهم. محقٌّ تمامًا. حسنًا، الآن باتت السلطة بين يديه وكان ينفّذ مشروعه، كما سيفعلها أيّ رجل حقيقيّ. آذار/ مارس ثلاثة وستين»، وكرّرت في حال لم ينتبه سمايلي إلى التاريخ.

«ثم لا شيء، بالطبع. اللعبة المعتادة: الترقّب، الانشغال بأعمال أخرى، وانتظار ما تحمله الرياح». انتظرت ثلاث سنوات إلى أن تم إمساك الميجور ميخائيل فيدوروفتش كوماروف، مساعد الملحق العسكريّ في السفارة السوفياتيّة في طوكيو، بالجرم المشهود وهو يحمل ست لفافات من المعلومات الاستخباريّة بالغة السريّة سرّبها مسؤول رفيع في وزارة الدفاع اليابانيّة. كان كوماروف بطل حكايتها الثانية: ليس منشقًا بل جنديّ متمرّس في سلاح المدفعيّة».

«وأوسمة، يا عزيزي. أوسمة كثيرة!».

توجّب على كوماروف مغادرة موسكو بأقصى سرعة إلى درجة أنّ كلبه بقي في الشقة المقفلة، ليجدوه لاحقًا وقد مات من الجوع، وهو أمر لم تكن كوني لتغفره له. وقد تم التحقيق مع العميل الياباني لكوماروف، وتمكّن السيرك بمصادفة سعيدة من شراء التقرير.

«صحيح يا جورج، تذكّرتُ الآن، كنتَ أنت من رتّب للصفقة».

بإيماءة كارهة للغرور الاحترافي، أشار سمايلي إلى أنّ المهمة كان يجب أن تُنجَز فحسب.

كان جوهر التقرير بسيطًا. فقد كان المسؤول في وزارة الدفاع اليابانيّة جاسوسًا. وكان قد جُنّد قبل الحرب أثناء الغزو اليابانيّ لمَنشوريا، عن طريق مارتن برانت، وهو صحافيّ ألمانيّ يبدو أنّ له صلات مع الكومنترن. برانت، قال كوني، كان أحد أسماء كارلا في الثلاثينات. كوماروف لم يكن عضوًا رسميًا مقيمًا في سفارة طوكيو، إذ كان قد عمل مع مساعد وخط مباشر مع كارلا الذي كان زميله في الجيش أثناء الحرب. وكذلك، قبل

وصوله إلى طوكيو كان قد خضع لدورة تدريبيّة خاصة في مدرسة جديدة خارج موسكو مخصّصةٍ لطلّاب ينتقيهم كارلا بنفسه. «الخاتمة»، صدحت كوني: «كان كوماروف خريجنا الأول ولكن للأسف ليس الخريج الأكثر تميّزًا من مدرسة كارلا التدريبيّة. وقد أُعدم رميًا بالرصاص، ذلك الخروف المسكين»، أضافت، بانخفاض دراميّ في نبرة صوتها: «هم لا ينفّذون الإعدامات شنقًا، أليس كذلك: متعجّلون جدًا، أولئك المتوحّشون».

شعرت كوني بأنّها قادرة على الخروج إلى البلدة، عارفةً ماهيّة العلامات التي عليها البحث عنها، بدأت التنقيب في ملف كارلا. قضت ثلاثة أسابيع في مكاتب الحكومة مع المختصّين العسكريّين بالشؤون الروسيّة، مقلّبةً في ملفات الجنود السوفيات من أجل العثور على العلامات المميزة، إلى أن تمكّنت، بعد البحث في مجموعة كبيرة من المشتبهين، من حصولها على ثلاثة متدرّبين آخرين عند كارلا. كانوا جميعًا عسكريّين، وجميعهم يعرفون كارلا شخصيًا، وجميعهم أصغر منه من عشر سنوات إلى خمس عشرة سنة. أعطت أسماءهم: باردين، ستوكوفسكي، فيكتوروف، وجميعهم برتبة كولونيل.

مع ذكر الاسم الثالث احتلّ الفتور ملامح سمايلي، وبدت عيناه مرهقتين، وكأنّه كان يصارع الملل.

«وما مصيرهم؟»، سألها.

«باردين أصبح باسم سوكولوف ثم روساكوف. انضم إلى المفوّضية السوفياتيّة في الأمم المتحدة في نيويورك. لا صلات واضحة مع العملاء المقيمين، ولا انخراط في عمليات سريّة، أو بحث عن عملاء، بل مجرد عمل تخفٍّ بارع. ولا يزال هناك على حد علمي».

«ستوكوفسكي؟».

«بدأ يعمل خارج القانون، وأسّس عملًا في التصوير الفوتوغرافيّ في باريس باسم غروديسكو، فرنسيّ رومانيّ. أنشأ مؤسسة في بون، يُعتقَد بأنّها تُدير شبكة عملاء كارلا في ألمانيا الغربيّة خارج الحدود».

«والثالث؟ فيكتوروف؟».

«اختفى من دون أيّ أثر».

«يا إلهي»، قال سمايلي، وبدا بأنّ ملله قد ازداد.

«دُرّب واختفى عن وجه الأرض. قد يكون مات بالطبع. يميل المرء إلى تجاهل الأسباب الطبيعيّة للموت».

«أوه بالفعل»، وافقها سمايلي.

بعد سنوات وسنوات من الحياة السريّة، المتمثّلة بالإنصات ظاهريًا؛ كان يتمتّع بهذه الموهبة، في جعل الحوادث الأساسيّة تتوزّع أمامه، مع صلاتها التاريخيّة ، فيما يصارع جانبٌ آخر مستقل من عقله. تمتد الصلة عبر تار إلى إيرينا، وعبر إيرينا إلى عشيقها المسكين الذي كان شديد الفخر باسم الأرنب، وبخدمة الكولونيل غريغور فيكتوروف، الذي كان اسمه الحركيّ في السفارة بولياكوف. في ذاكرته، كانت تلك الأشياء بمثابة جزء من الطفولة؛ لن ينساها.

«كوني، هل كان هناك صور؟»، سألها بفتور. «هل لديك صفات جسديّة من أيّ نوع؟».

«عن باردين في الأمم المتحدة، بالطبع. عن ستوكوفسكي، ربما. لدينا صورة قديمة مقصوصة من جريدة أيام خدمته العسكريّة ولكنّنا لم نؤكّد هويّته تمامًا».

وعن فيكتوروف الذي اختفى من دون أثر؟»، وقد يحمل أيّ اسم الآن. «لا صور واضحة له، أيضًا؟»، سألها سمايلي، متّجهًا إلى آخر الغرفة لإحضار المزيد من الشراب.

كرّرت كوني بابتسامة عريضة: «فيكتوروف، كولونيل غريغور، حارب ككلب تيريير في ستالينغراد. لا ليست لدينا أيّة صورة. للأسف. يقولون إنّه كان الأفضل بأشواط بالرغم من أنّنا لا نعرف بالطبع عن الآخرين. خمسة

أكواخ وتدريب لعامين: حسنًا يا عزيزي، هذا يعني عددًا أكبر بكثير من الخريجين الثلاثة بعد كل هذه السنوات!».

بزفرة خيبة، كما لو أنّه يشير إلى عدم وجود ما يهم في كلّ هذه الحكاية، اقترح ترك الكولونيل غريغور فيكتوروف، للتقدم في رحلة البحث المضنية. اقترح سمايلي أن ينتقلا إلى الظاهرة غير المرتبطة أبدًا ببولياكوف، ألكسي ألكساندروفتش، من السفارة السوفياتيّة في لندن، المعروف على نحو أفضل لكوني باسم ألكس بولياكوف، وتحديد الموقع الذي يلائمه في مخطط كارلا عن الأمور، وما كان سبب منعها من متابعة الاستقصاء عنه.

13

أصبحت كوني أكثر حيويّة الآن. لم يكن بولياكوف بطل حكاية لديها، بل كان حبيبها ألكس، بالرغم من أنّها لم تتحدث إليه أبدًا، بل وربما لم تره على الإطلاق. كانت قد تحركت إلى مقعد آخر أقرب إلى مصباح القراءة، وهو كرسيّ صلبٌ يخفّف آلامها، فلم يعد بوسعها الجلوس في أيّ مكان فترة طويلة. كانت قد رفعت شعرها إلى فوق بحيث أصبح سمايلي ينظر إلى التموّجات البيضاء على عنقها، وأرخت يدًا متصلبّة بغنج، مستعيدةً حماقات ليست نادمةً بشأنها؛ بينما، بالنسبة إلى عقل سمايلي المضبوط، بدت تأمّلاتها، في ما يخص النسبة المنطقيّة للذكاء، أشدّ جموحًا مما كانت عليه. وقالت:

«أوه لقد كان جيدًا جدًا، لسبع سنوات بأكملها كان ألكس هنا قبل أن نمتلك أدنى فكرة عنه. سبع سنوات، يا عزيزي، من دون أيّ لمحة صغيرة! تخيّل!».

ثم ردّدت معلومات طلبه للحصول على فيزا منذ تسع سنوات: بولياكوف، ألكسي ألكساندروفتش، خرّيج جامعة لينينغراد الحكوميّة، الملحق الثقافيّ برتبة سكرتير درجة ثانية، متزوّج ولكنّه لا يصطحب زوجته، ولد في الثالث من آذار/ مارس ألف وتسعمئة واثنين وعشرين في أوكرانيا، ابن لناقل معدّات عسكريّة، المعلومات بشأن دراسته المبكّرة

غير متوفّرة. ثم تابعت بابتسامةٍ على وجهها وكأنها تعطي المعلومات لحَمَلة المصابيح بتوصيف روتينيّ: «الطول خمس أقدام وأحد عشر إنشًا، ضخم الجثة، لون العينين أخضر، لون الشعر أسود، ليس ثمة علامات مميّزة أخرى. فتى عملاق مَرِح»، قالت وهي تضحك. «مرحٌ جدًا. شامة سوداء، هنا، فوق العين اليمنى. متأكّدة بأنه كان رامي كرة بيسبول مع أنّنا لم نشاهده وهو يلعب. كنتُ سأمرّر له كرةً او اثنتين لو كان توبي يلعب الكرة، ولكنّه لا يلعب. لا يعني هذا أنّ ألكس ألكساندروفتش كان سيقع في هذا الفخ، انتبه. كان ألكس شديد الدهاء»، قالت بفخر. «صوت رائع. رخيمٌ كصوتك. غالبًا ما كنتُ أستمع إلى التسجيلات مرتين، فقط لأسمع صوته. هل لا يزال في الأرجاء حقًا يا جورج؟ لا أحب أن أسأل عن ذلك أساسًا. أخشى أن يكونوا قد تغيّروا جميعًا، ولن أعرفهم أبدًا».

كان ما يزال في الأرجاء، أكّد لها سمايلي. الغطاء نفسه، الرتبة نفسها.

«ولا يزال يسكن ذلك المنزل المخيف الصغير في ضاحية هايغيت الذي كان مراقبو توبي يكرهونه؟ أربعون، ميدو كلوز، الطابق العلويّ. أوه لقد كان مكانًا بغيضًا. أحب الرجل الذي يعايش مكان إقامته فعليًا، وهذا ما كان عليه ألكس. كان أنشط ملحق ثقافيّ في تاريخ السفارة. لو أردتَ إنجاز أمر بسرعة، ومحاضر، وموسيقيّ، وما إلى ذلك، فإن ألكس أسرع من يقوم بالمهمّة».

«كيف كان يتدبّر ذلك يا كوني؟».

«ليس كما تعتقد، يا جورج سمايلي»، صاحت والدم يتصاعد إلى وجهها. «أوه لا. ألكسي ألكساندروفتش لم يكن بخلاف ما قال إنّه عليه، اسأل توبي إيسترهيز أو بيرسي أليلاين. نقيّ كالثلج. لم يتلطّخ بأيّ شكل أبدًا، سيؤكّد لك توبي ذلك!».

تمتم سمايلي، وهو يملأ كأسها: «هيه، اهدئي يا كوني. مهلًا عليّ».

صاحت من دون أن تهدأ. «شرير. شرير صافٍ من دون شوائب.

ألكسي ألكساندروفتش كان أحد خرّيجي كارلا الأشدّاء لو كان لي أن أرى واحدًا منهم، ولكنّهم لم ينصتوا لي! أنت ترين جواسيس تحت السرير، قال توبي. حَمَلة المصابيح يقومون بعملهم على أكمل وجه، يقول بيرسي، – بلهجةٍ اسكتلنديّة –«لا وقت لدينا لهذا الترف.أجل ترف!». كانت تبكي مجددًا «جورج المسكين»، بقيت تردد: «جورج المسكين. لقد حاولتَ المساعدة ولكن كيف بإمكانك ذلك؟ لقد تم تجاهلك أنت أيضًا. أوه جورج، لا تذهب إلى الصيد معهم. رجاءً لا تفعل».

أعادها بلطف مجددًا إلى بولياكوف، وسأل لمَ كانت متأكدة أنّه على صلة بكارلا، وأنه أحد خرّيجي مدرسة كارلا الخاصة.

كانت تنشج. «لقد كانت ذكرى يوم الهدنة 11 تشرين الثاني/ نوفمبر، ولقد صوّرنا أوسمته، بالطبع فعلنا ذلك».

السنة الأولى مجددًا، السنة الأولى في علاقة حب مع ألكس بولياكوف. الأمر الغريب كان، كما قالت، هي أنّها انتبهت إليه منذ لحظة وصوله: «مرحباً، فكّرتُ. سأمارس قليلًا من المرح معك».

ولهذا بالذات اعتقدت أنّها لا تعرف السبب. ربما كانت ثقته بنفسه، وربما كانت مشيته الصارمة، من دون أيّ خيلاء: «صلب كزرّ. بصمة الجيش واضحةٌ على كلّ ملامحه». أو ربما كانت طريقة حياته: «انتقى المنزل الوحيد في لندن الذي لا يمكن لحَمَلة المصابيح الاقتراب أكثر من مسافة خمسين ياردة منه». أو ربما كان عمله: «كان هناك ثلاثة ملحقين ثقافيين، كان اثنان منهم خريجين، أما المهمة الوحيدة التي كانت ملقاة على عاتق الثالث فهي نقل الأزهار إلى مقبرة هايغيت من أجل المسكين كارل ماركس».

كانت قد سكرت قليلًا لذا رافقها في المشي، بحيث يمسك بجسدها حين تتعثّر. حسنًا، قالت، بدايةً وافق توبي إيسترهيز على وضع ألكس على

اللائحة (أ)، وجعل حملة المصابيح في آكتون يراقبون تحركاته في أيام عشوائيّة، اثنا عشر يومًا من أصل ثلاثين، وكل مرةٍ من المراقبة اللصيقة كان يتبيّن أنّه نقيّ كالثلج.

«عزيزي، قد تظنّ أنّني كنت أتّصل به لأخبره: ألكس ألكساندروفتش، انتبه إلى تصرفاتك لأنّ كلاب توبي الضئيل يراقبونك. لذا تابع حياة التخفّي الخاصة بك ولا تقمْ بأيّ عمل سريّ».

كان يذهب إلى مناسبات اجتماعية، ومحاضرات، ويتجوّل في الحديقة، ويلعب قليلًا من التنس، من دون أن ينسى إعطاء حلوى للأطفال، لم يكن ليكون أشدّ احترامًا. حاربت كوني من أجل المزيد من المراقبة ولكنّها كانت معركة خاسرة. تتابعت الآليّة ونُقل اسم بولياكوف إلى اللائحة (ب): أن يُراقَب كل ستة أشهر، أو حين تسمح الموارد. لم تُسفر المراقبة كل ستة أشهر عن شيء أبدًا، وبعد ثلاث سنوات انتقل إلى مستوى أعلى: استُقصي عنه بعمق، وتبيّن عدم وجود أيّ علاقة استخباريّة. لم يكن بوسع كوني فعل أيّ شيء، وكانت قد أوشكت على الاستسلام عندما اتصل بها الجميل تيدي هانكي في أحد أيام تشرين الثاني/ نوفمبر الرائعة ليخبرها وهو منقطع الأنفاس بأنّ ألكس بولياكوف كشف تخفّيه وبانت حقيقته الفعليّة أخيرًا. وهذا ما شكّل مفاجأة صاعقة للجميع.

«كان تيدي صديقًا قديمًا جدًا. كان من الموظفين القدامى في السيرك ورجلًا دقيقًا، ولا أكترث إن أصبح في التسعين. كان متّجهًا إلى منزله بعد العمل، عندما عبرت بجواره سيارة الفولغا التابعة للسفير السوفياتيّ متّجهةً إلى احتفال رسميّ، وهي تضم الملحقين الثلاثة. وتبعهم ثلاثة آخرون في سيارة ثانية. كان بولياكوف أحدهم وقد ارتدى أوسمةً أكثر من شجرة كريسماس. اندفع تيدي إلى مكاتب الحكومة مع كاميرته وصوّرهم عبر الشارع. يا عزيزي، كان كل شيء في صالحنا: كان الجو مناسبًا، قليلٌ من المطر ثم أشرقت شمس مسائيّة جميلة، فكان يمكن التقاط الابتسامة على ظهر ذبابة من مسافة ثلاثمائة ياردة. قمنا بتحميض الصور، وها هي

النتيجة: وساما شجاعة وأربعة أوسمة بسبب المشاركة في معارك. كان ألكس بولياكوف مقاتلًا محنكًا في الحرب من دون أن يخبر أحدًا بذلك طوال سبع سنوات. أوه كم شعرت بالإثارة! لم أكن بحاجة حتى لمطالعة أوسمة المشاركة. اتصلت بتوبي مباشرة وقلت: انصت لي للحظة فقط، أيها القزم الهنغاريّ المسموم. هذه إحدى المناسبات التي يقضي فيها الغرور على التخفّي. أريد منك نبش كلّ شيء عن ألكس ألكساندروفتش، من دون تردد أو تلكّؤ، لقد انتصر حدس كوني بشدّة».

«وبم أجابك توبي؟».

أطلق الكلب الرماديّ تنهيدة عالية، ثم عاد إلى النوم مجددًا.

«توبي؟ أوه»، بدت كوني شديد العزلة فجأة. «تحدث معي توبي الضئيل بنبرة جافة وقال إن بيرسي أليلاين هو مدير العمليات الآن، أليس كذلك؟ إنها وظيفة بيرسي، لا وظيفته، أن يجهّز الموارد. عرفت بأنّ ثمة أمرًا مريبًا على الفور ولكنني اعتقدت بأنّه توبي». صمتت للحظات، «تلك النار اللعينة»، تمتمت بحسرة، «تستدير فحسب، تجدها قد انطفأت». خفّت حماستها وبدا أنها فقدت اهتمامها بالحديث، «أنت تعلم ما تبقّى. ذهب التقرير إلى بيرسي. ‹والمعنى؟› قال بيرسي. ‹كان بولياكوف في الجيش الروسيّ. لقد كان جيشًا ضخمًا، ولا يعني أنّ جميع من حاربوا فيه عملاء لكارلا›. أمر يثير الضحك. اتّهمني بقول استنتاجات غير علميّة. «لمن هذا التعبير؟» سألته. «إنّه ليس استنتاجًا على الإطلاق،» رد. «إنه استقراء». «عزيزي بيرسي، عندما تستخدم هذه المفردات، تبدو كطبيب كريه». يا إلهي، كان فظًا! بمثابة ترضية، كان توبي قد وضع كلابه لمراقبة ألكس من دون ان يُسفر هذا عن شيء. ‹انبش بيته،› قلت. ‹سيارته، كل شيء! جهّز هجومًا، انبشه تمامًا، ضعه تحت التنصّت! اختلق هويّة زائفة، وفتّشه. أي شيء، ولكن افعل شيئًا ما بحق الآلهة، لأنني أراهنك من جنيه لربول بأنّ ألكس بولياكوف يُدير جاسوسًا إنكليزيًا». وتحدث بيرسي معي، بكل عجرفة – باللهجة الاسكتلنديّة مجددًا – «اتركي بولياكوف وشأنه. عليك

أن تخرجيه من عقل المرأة السخيف، هل تفهمين؟ أنت وهراؤك بشأن بولياكوف أصبحتما مصدر إزعاج لعين، لذا اتركيه». ثم أتبع كلامه برسالة وقحة «لقد تحدّثنا وقد وافقت»، نسخة إلى البقرة. كتبت ‹أجل، لا داعي للتكرار› في الأسفل وأعدتها إليه». ثم انتقل إلى النبرة العسكريّة: «أنت تفقدين التناغم يا كوني. حان وقت ذهابك إلى العالم الحقيقيّ.›».

كانت كوني قد سكرت. جلست مجددًا وانكبّت على كأسها. أغلقت عينيها وتركت رأسها يميل إلى جانب واحد.

«أوه يا إلهي»، همست، وقد استيقظت مجددًا. «أوه يا ربّي».

سألها سمايلي: «هل كان هناك مساعد تابع لبولياكوف؟»

«لمَ ينبغي عليه ذلك؟ إنه ملحق ثقافيّ. ولا يحتاج الملحقون الثقافيّون إلى مساعدين».

«كوماروف كان لديه مساعد في طوكيو. أنتِ قلتِ هذا».

ردّت بغضب: «كوماروف كان عسكريًا».

«وكذلك كان بولياكوف. لقد رأيتِ أوسمته».

أمسك يدها، منتظرًا ردها. لابان الأرنب، قالت، موظف كسائق في السفارة، رجل تافه. في البداية لم تتمكّن من كشف هويته. شكّت بأنّه إيفلوف المعروف باسم برود ولكنّها لم تتمكّن من إثبات هذا، ولم يكن ليساعدها أحد على أيّ حال. كان لابان الأرنب يقضي معظم يومه متجوّلًا في لندن يراقب الفتيات من دون أن يجرؤ على التحدث معهنّ. ولكن تدريجيًا، تمكّنت من إيجاد الصلة. كان عند بولياكوف حفلة استقبال، وكان لابان يقدّم المشروبات. استُدعي بولياكوف في وقتٍ متأخر ليلًا، وبعد نصف ساعة تبيّن أنّ لابان تلقّى تلغرافًا. وعندما سافر بولياكوف إلى موسكو، انتقل لابان إلى السفارة وبقي هناك حتى عودة بولياكوف. «كان يقوم بعمل مزدوج»، أكّدت كوني.

«هل بلّغتِ بشأن هذا أيضًا؟».

«بالطبع فعلت».

«وماذا حدث؟».

«تم تجاهل كوني، وعاد لابان بريئًا إلى المنزل»، قالت ضاحكةً. ثم تثاءبت: «هيه لا، الأيام الخوالي. هل بدأتُ مرحلة الانهيار يا جورج؟».

كانت النار قد خمدت تمامًا. من مكانٍ ما فوقهم كان ثمّة جلبة، ربما كانت جانيت وحبيبها. وتدريجًا، بدأت كوني الهمهمة، ثم التمايل مع موسيقاها الخاصة.

ظلّ يحاول إبهاجها. صبّ لها مزيدًا من الشراب، ما تسبّب في نهاية الأمر في إسعادها.

قالت: «هيا، سأريك أوسمتي اللعينة».

كانت تحتفظ بها في خزنة مغلقة طلبت من سمايلي أن يسحبها من تحت السرير. أولًا، وسام حقيقيّ في صندوق وشهادة موقّعة تضم اسمها الحركيّ كونستانس سالنغر، لتضعها على لائحة رئيس الوزراء.

«لأنّ كوني كانت فتاة مطيعة»، فسّرت، وخدّها ملتصق بخدّه، «وأحبّت جميع فتيانها الرائعين».

ثم صور أعضاء سابقين في السيرك: كوني بزيّ عسكري في الحرب واقفةً بين جيبيدي والعجوز بل ماغنس راعي البقر، وقد التقطت في مكانٍ ما من إنكلترا؛ كوني مع بل هايدن على أحد جانبيها وجم بريدو على الجانب الآخر، الرجلان يرتديان ملابس الكريكت، ويبدو الجميع سعداء، في دورة صيفيّة في سارات، والأراضي ممتدة وراءهم، العشب وأشعة الشمس والأفق الصافي البرّاق. إضافة إلى عدسة مكبّرة ضخمة مع توقيعات منقوشة على العدسة: من روي، من بيرسي، من توبي، وآخرين، «إلى كوني مع الحب ولا تقولي وداعًا!».

أخيرًا، مساهمة بل الخاصة: كاريكاتور لكوني مستلقيةً على امتداد حدائق كنغستون بالاس فيما هي تنظر باتجاه السفارة السوفياتيّة عبر تلسكوب، «مع الحب والذكريات العزيزة، يا عزيزتي، عزيزتي كوني».

«ما زالوا يتذكّرونه هنا، كما تعلم. الفتى الذهبيّ. تضمّ الغرفة المشتركة في الكنيسة اليسوعيّة عددًا من رسوماته. غالبًا ما يعرضونها. أوقفني غايلز لانغلي في الطريق الرئيسيّ ذلك اليوم، وسأل إذا ما زلت أتواصل مع هايدن؟ لا أعلم ما قلتُ». نعم! لا! وهل تزال أخت غايلز مسؤولة عن المنازل الآمنة؟ هل تعرف؟ «لم يكن سمايلي يعرف»، نفتقد موهبته، قال غايلز، «لم يعودوا ينتجون من أمثال بل هايدن أبدًا». لا بد أنّ غايلز قد كبر في السن. قال إنّه درّس بل التاريخ الحديث في الأيام التي سبقت تحوّل كلمة إمبراطوريّة إلى قذارة. سألت عن جِمْ أيضًا. «أناه الأخرى كما نعتبره، هو هو، لم تحبّ بل يومًا، أليس كذلك؟» . تابعت كوني على نحو غريب، كما لو أنّها كانت تحمل الكلام في أكياس بلاستيكيّة وقطع قماش، «لم أعلم ما إذا كنتَ تغار منه أو هو يغار منك. أمر شديد السحر كما أعتقد. كنتَ تشكّك في المظاهر دومًا. فقط عند الرجال، تذكّر هذا».

رد سمايلي بسرعة، في نبرة دفاعيّة مباشرة: «عزيزتي كوني، لا تكوني سخيفة، كنتُ وبِل صديقين جيدين. ما الذي يدفعك لقول هذا؟».

كانت قد نسيت تقريبًا: «لا شيء، سمعت مرةً بأنّه ركض برفقة آن حول الحديقة مرة، هذا كل شيء. أليس قريبها أو شيئًا من هذا القبيل؟ لطالما ظننتُ أنّكما ستشكّلان ثنائيًا رائعًا، أنت وبل، لو كان هذا سينجح على كل حال. كنتما ستعيدان الروح القديمة. بدلًا من ذاك التافه الاسكتلنديّ. بل يعيد بناء الكاميلوت...»، عادت ابتسامتها مجددًا، «وجورج ..».

«جورج! جورج يلتقط الفُتات»، قال سمايلي، سابقًا إياها، فضحكا، وإن كانت ضحكة سمايلي كاذبة.

«قبّلني يا جورج. امنح كوني قبلة».

رافقته إلى حديقة المطبخ، وهو الطريق الذي يستخدمه المستأجرون عندها، قالت إنّه سيفضّله على منظر البناغل[1]، البيوت التي بناها خنازير هاريسون في حديقة المنزل المجاور. مطر خفيف يهطل، والنجوم القليلة تبدو ذات بريق واسع شحيح في الضباب؛ وكانت الشاحنات في الطريق تتجه شمالًا موغلة في الظلمة. حين عانقته، أحسّت كوني بخوف مفاجئ.

«أنت مشاغب جدًا يا جورج. هل تسمع ذلك؟ انظر إليّ. لا تنظر في ذلك الاتجاه، كل ما هناك هي أضواء النيون و بلدة سودوم. قبّلني. في كل أنحاء العالم ثمة وحوش يحيلون وقتنا إلى خواء، لمَ تساعدهم؟ لماذا؟»

«أنا لا أساعدهم يا كوني».

«بالطبع أنت تفعل. انظر إليّ. لقد كان وقتًا جميلًا، هل تنصت؟ وقتًا حقيقيًا. كان يمكن للإنكليز أن يفخروا آنذاك. فلتجعلهم فخورين الآن».

«لستُ أهلًا لهذا يا كوني».

كانت تجذب وجهه إلى وجهها، لذا قبّلها بعمق على شفتيها.

«يا للعشاق التعساء». كانت تتنفس بصعوبة، لا بفعل عاطفة واحدة ربما، بل بسبب اجتماع فوضى من المشاعر، اختلطت داخلها كمزيج من المشروبات. «عشاق تعساء. دُرّبوا من أجل الامبراطوريّة، درّبوا ليتسيّدوا الأمواج. كلهم ذهبوا. كل شيء انتهى . وداعًا أيها العالم. أنت الأخير يا جورج، أنت وبل. وبيرسي القذر على نحو أقل». كان يعلم بأنّ الأمور ستنتهي هكذا؛ ولكن ليس بكل هذا الألم. كان يسمع الكلام ذاته منها كل كريسماس في حفلات الشرب الصغيرة التي تُقام في زوايا السيرك. «لا تعرف ملبوندز، صحيح؟»، سألته.

«ما هو ملبوندز؟».

---

(1) المفرد: بنغالو، بيوت من طابق واحد، تكون عادةً في المناطق الريفيّة أو بمحاذاة الساحل. [المترجم]

«المنزل الذي يعيش فيه أخي. منزل جميل على الطراز البالاديّ، أرض جميلة بالقرب من نيوبري. يومًا ما بدأ إنشاء الطريق. كراش. بانغ. طريق للسيارات. احتلّ الأرض بأكملها. لقد نشأتُ هناك. لم يبيعوا سارات، أليس كذلك؟ أخشى أنهم قد فعلوا».

«متأكد من أنهم لم يفعلوا».

كان يتوق للتحرّر منها، ولكنّها كانت تعانقه بقوة، كان بوسعه أن يحسّ دقات قلبها على صدره.

«لو ساءت الأمور، لا تعُد إلى هنا، وعد؟ أنا عجوز، وقد كبرت على تغيير الأمكنة. أودّ تذكّرك كما كنت دائمًا، واحداً من فتيان رائعين، رائعين».

لم يكن يحبّ تركها هنا في الظلمة، لتمشي متأرجحة بين الأشجار، لذا مشى معها إلى منتصف الطريق نحو المنزل من دون أن ينطق أيٌّ منهما بكلمة. وعندما تابع طريقه، سمعها تدندن مجددًا، بصوتٍ عالٍ أقرب للصراخ. ولكن هذا لا يُقارَن بالاضطراب داخله الآن، تيارات التنبّه والغضب والقرف بسبب هذه الليلة المظلمة التي يعلم الله عمّا ستُسفر في نهاية المطاف.

لحق بقطار متجه إلى سلاف حيث كان مندل ينتظره بسيارة مستأجَرة. وأثناء توجّههما باتجاه البريق البرتقالي للمدينة، استمع إلى ملخّص بحثٍ بيتر غويلام. لم تكن سجلّات موظّفي الواجب تحتوي على أيّ سجلّ لليلة العاشر والحادي عشر من نيسان/ أبريل، أخبره مندل أنه تمّ قصّ الصفحات بشفرة حلاقة. كما كانت سجلّات الحرّاس لتلك الليلة مفقودة أيضًا، وكذلك نتائج المراسلات.

«يعتقد بيتر بأنّ هذا حدث مؤخّرًا. ثمة ملاحظة مخربشة على عجل في الصفحة التالية تقول: تُوجّه الاستفسارات إلى مدير محطة لندن. إنها بخط إيسترهيز، وبتاريخ الجمعة».

التفت سمايلي بسرعة بحيث أصدر حزام الأمان صرير احتجاج، وقال: «الجمعة الماضية؟ هذا يوم وصول تار إلى إنكلترا».

أجاب مندل ببلادة: «هذا كله بحسب بيتر».

وأخيرًا، في ما يخص لابان المعروف باسم إيفلوف، والملحق الثقافي ألكسي ألكساندروفتش بولياكوف، اللذين يعملان في السفارة السوفياتيّة في لندن، لم تحمل تقارير حَمَلة المصابيح التابعين لتوبي إيسترهيز أيّ ملاحظات بشأنهما. كلاهما تم الاستقصاء عنه، وكلاهما انتقلا إلى مستوى أعلى: أنظف تصنيف موجود. وقد نُقل لوبان إلى موسكو منذ عام.

في كيسن، كان مندل قد أحضر صور غويلام أيضًا، نتائج غارته على بركستون، مظهَّرةً ومكبَّرةً إلى حجم صفحة مجلة. بالقرب من محطة بادنغتون، نزل سمايلي فسلّمه مندل الكيس عبر الباب.

«متأكد من أنّك لا تريد أن أرافقك؟»، سأله مندل.

«شكرًا. إنها مجرد مئة ياردة».

«من حسن حظك أنّ هناك أربعاً وعشرين ساعة في اليوم».

«نعم، صحيح».

«بعض الناس ينام».

«تصبح على خير».

كان لا يزال مندل ممسكًا بالكيس، وقال: «ربما أكون قد وجدتُ المدرسة، مكان باسم ثيرزغود قرب تاونتن. غطّى عمل نصف فصلٍ دراسيّ في بيركشاير أولًا، ثم بدا أنّه غيّرها لينتقل إلى سومرست. اشترى كارافانًا، كما سمعت. هل تريد أن أتأكد؟».

«كيف ستفعل ذلك؟».

«أطرق بابه. أبيعه مكنسة، وأتواصل معه».

قال سمايلي فجأةً وهو يشعر بالقلق: «آسف، أخشى أنني أشعر ببعض المخاوف. أعتذر، كانت وقاحةً مني».

قال مندل بحزم: « الفتى غويلام يشعر ببعض المخاوف أيضًا، قال إنّه يرى نظرات متشكّكة في كل مكان. كما قال إنّ ثمة أمرًا مريبًا وإنّهم غارقون فيه جميعهم. أخبرته أن يشرب كأسًا من مشروب قويّ».

قال سمايلي بعد لحظة تفكير: «نعم، هذا ما يجب فعله. جِمْ محترف. رجل ميدانيّ من الطراز القديم. إنه جيد، بصرف النظر عما فعلوه به».

كانت كاميلا قد تأخرت في العودة. وكان غويلام قد فهم أنّ دروس الفلوت مع ساند تنتهي الساعة التاسعة، ولكنّها لم تأتِ حتى الساعة الحادية عشرة، ولذا انزعج منها، إذ لم يستطع تحمّل هذا. الآن، كانت مستلقية على السرير وشعرها الأسود المشوب بالرماديّ مبعثر على الوسادة تراقبه وهو يقف أمام النافذة المطفأة يحدّق في الساحة.

«هل أكلتِ؟»، سألها.

«أطعمني الدكتور ساند».

« ماذا؟».

كان ساند فارسيًا، كما أخبرته.

لا إجابة. أحلام، ربما؟ ستيك بالبندق؟ حُب؟ في السرير لم تكن تتحرك إلا لتحتضنه. عندما تنام، كانت تتنفس بالكاد؛ أحيانًا كان يستيقظ ويراقبها، متسائلًا عمّا سيشعر به لو كانت ميتة.

«هل أنت معجبة بساند؟»، سأل.

«أحيانًا».

«هل هو عشيقك؟».

«أحيانًا».

«ربما ينبغي عليكِ الانتقال للعيش معه بدلًا من العيش معي».

«الأمر ليس على هذا النحو. أنت لا تفهم».

لا، لم يفهم. بدايةً كان ثمة عاشقان متعانقان في المقعد الخلفيّ لسيارة روفر، ثم رجل يتنزّه مع كلبه السيليهام، ثم فتاتان تُجريان اتّصالًا منذ ساعة من كابينة هاتف أمام منزله. ليس ثمة ما يدعو للقلق، ما عدا أنّ الحوادث كانت متعاقبة، مثل تبديل حرس. الآن، كان ثمة سيارة فان قد توقفت من دون أن ينزل منها أحد. عشاق آخرون، أم فريق حَمَلة مصابيح ليليّ؟ كانت الفان قد توقفت عشر دقائق قبل أن تغادر سيارة الروفر.

نامت كاميلا. استلقى بجانبها وهو مستيقظ، منتظرًا الغد حيث سيقوم، بناءً على طلب سمايلي، بسرقة الملف المتعلق بقضيّة بريدو، المعروفة باسم فضيحة إليس أو - على نحو أكثر محليّة - العمليّة تستيفاي.

14

حتى تلك اللحظة، كان هذا هو ثاني أكثر الأيام سعادة في حياة بل روتش القصيرة. كان اليوم الأكثر سعادة قبل فترة وجيزة من انهيار زواج والديه، عندما اكتشف والده عش دبابير في السقف وطلب من بل مساعدته في طردها بالدُّخان. لم يكن والده خبيرًا في الأسواق، أو في الأعمال اليدويّة، ولكن بعد أن بحث بل عن الدبابير في موسوعته ذهبا بالسيارة إلى الصيدليّ ليشتريا كبريتًا، أشعلاه تحت السقف ما تسبّب بموت الدبابير.

اليوم شهد الافتتاح الرسميّ لرالي نادي سيارات جِمْ بريدو. حتى الآن، كانوا قد فكّكوا سيارة الألفيس، وأعادوا صقلها، ثمّ أعادوا تجميعها، ولكن كمكافأة نظّموا اليوم، بمساعدة لاتزي، سباقًا للتزلّج المتعرّج على الجانب الحجريّ من الممشى، ثم انطلق كل منهم تباعًا على عجلته. كان جِمْ هو ضابط الوقت، مندفعًا ومصطدمًا بالبوابات، ما أثار حماسة جمهورهم. «أفضل سيارة صنعتها إنكلترا على الإطلاق»، كانت العبارة التي قدّم بها جِمْ سيارته: «أصبحت خارج الإنتاج بفضل الاشتراكيّة». كانت قد أُصلحت الآن، مع شعار لسباق يونيون جاك على غطاء المحرك، فأصبحت – من دون أدنى شك – أفضل وأسرع سيارة في العالم. في الجولة الأولى حلّ بل في المرتبة الثالثة من أصل أربعة عشر متسابقًا، والآن في الجولة الثانية وصل إلى أشجار الكستناء من دون تلكّؤ، وكان

جاهزًا للدورة الأخيرة وتحقيق رقم قياسيّ. لم يكن يتخيّل أنّ شيئًا آخر قد يمنحه هذا القدر من السعادة. لقد أحبَّ السيارة، وأحبّ جم، بل وأحبَّ المدرسة، وللمرة الأولى في حياته أحبَّ محاولة الفوز. كان بوسعه سماع جِمْ يصيح: «تمهّل يا جامبو»، كما كان بوسعه رؤية لاتزي يقفز أعلى وأسفل مع عَلَمه ذي المربعات البيضاء والسوداء، ولكن حالما وصل إلى تلك النقطة كان يعرف أساسًا أنّ جِمْ لم يكن يشاهده، بل يراقب المسار المؤدّي إلى أشجار الزان.

«أستاذ، كم الوقت، أستاذ؟»، سأل منقطع الأنفاس، ولكن أسكته جِمْ بإشارة.

«ضابط الوقت!»، صاح سبايكي، مجرّبًا حظّه. «الوقت من فضلك يا رينو».

«كان جيدًا جدًا يا جامبو»، قال لاتزي، ناظرًا إلى جِمْ كذلك.

وحالًا، لم تلقَ وقاحة سبايكلي، كما توسّل روتش، أيّة استجابة. كان جِمْ يحدّق عبر الحقل، باتجاه الخط الذي يؤطّر الحاجز الشرقيّ. ولد اسمه كولشو يقف بجانبه، والذي كان اسم الدلع الخاص به كول سلو. كان مطرودًا من مدرسة (3 ب)، ومعروفًا بوقاحته مع الكادر. كانت الأرض منبسطة هناك قبل أن تصعد باتجاه التلال؛ وغالبًا ما كانت تحمل طوفانًا بعد عدة أيام من المطر. ولهذا السبب، لم يكن يوجد سور حجريّ جيد قرب الخط، بل مجرّد سياج من الأسلاك؛ ولا أشجار أيضًا، بل السياج فقط، والسهول، وأحيانًا الكوانتوكس في الخلف، والتي اختفت اليوم في البياض المخيّم. كان يمكن للسهول أن تكون مستنقعات تُفضي إلى البحيرة، أو إلى البياض اللانهائيّ بكل بساطة. عند هذه الخلفيّة الباهتة كان ثمة شخص يتنزّه وحيدًا، كان رجلًا نحيل الوجه غير واضح الملامح، يمشي راجلًا بقبّعة ومعطف رماديّ، وعصا يستخدمها بالكاد. بعد أن شاهده أيضًا، قرر روتش أنّ ذلك الرجل أراد المشي على نحو أسرع، ولكنّه كان يمشي ببطء لغايةٍ ما.

«هل وضعت نظارتك يا جامبو؟»، سأله جِمْ وهو يحدّق بالشخص ذاته الذي كان على وشك الوصول إلى نقطة الوقوف التالية.

«نعم أستاذ».

«من هو إذًا؟ يبدو مثل سولومون غروندي».

«لا أعرف أستاذ».

«لم تره من قبل؟».

«لا أستاذ».

«ليس من الكادر، أو القرويين. من هو إذًا؟ متسوّل؟ لص؟ لمَ لا يبدو بتلك الهيئة إذًا يا جامبو؟ ما المشكلة فينا؟ ألن تتحمس أنت لو شاهدت مجموعةً من الأولاد يدفعون سيارة حول الحقل؟ ألا يحب السيارات؟ ألا يحب الأولاد؟».

كان روتش لا يزال يفكّر بإجابة لكل تلك الأسئلة عندما بدأ جِمْ يتحدث مع لاتزي بلغة الأشخاص المختلفين بنبرة أشبه بالتمتمة ما دفع روتش مباشرة للاعتقاد بأنّ ثمة شراكةً بينهما، رابطة خاصة بين الأجانب. وقد تعزّز انطباعه مع إجابة لاتزي، التي كانت نفيًا على نحو واضح، بنفس الهدوء الحازم.

«أستاذ، لو سمحت أستاذ، أعتقد بأنّه من جماعة الكنيسة أستاذ»، قال كول سلو. «شاهدته يتحدث مع ولز فارغو، بعد انتهاء الصلاة».

كان اسم القس سبارغو، وكان طاعنًا في السن. كان ثيرزغود هو من أطلق أسطورة أنّه العظيم ولز فارغو بعد تقاعده. بدأ جِمْ التفكير لوهلة، فيما فكّر روتش في نفسه بغضب أنّ كولشو اختلق هذه القصة.

«سمعتَ ما كانوا يتحدثون عنه كول سلو؟».

«أستاذ، لا أستاذ. كانا ينظران إلى لوائح المقاعد أستاذ. ولكن بإمكاني سؤال ولز فارغو أستاذ».

«لوائح مقاعدنا؟ لوائح مقاعد ثيرزغود؟».

نعم أستاذ. لوائح مقاعد المدرسة. ثيرزغود. مع جميع الأسماء أستاذ، وأماكن جلوسنا».

ومكان جلوس الكادر أيضًا، فكّر روتش بقلق.

«لو رآه أي واحد منكم مجددًا، فليخبرني فورًا. أو أيّ أشخاص شريرين آخرين، فهمتم؟». كان جِمْ يخاطبهم جميعًا، موضحًا الموقف الآن: «لا تتواصلوا مع الغرباء المتجولين حول المدرسة. في آخر مدرسة كنت فيها، واجهتنا عصابة كاملة. نهبت المكان كله. الفضيات، والمال، وساعات الأولاد، والراديوات، ويعلم الله ما لم يسرقوه. سيسرق الألفيس لاحقًا. أفضل سيارة صنعتها إنكلترا على الإطلاق، وقد أصبحت خارج الإنتاج. لون الشعر جامبو؟».

«أسود، أستاذ».

«الطول، يا كول سلو؟».

«أستاذ، ست أقدام، أستاذ».

«الجميع يبدون بطول ستة أقدام بالنسبة لكول سلو أستاذ»، قال أحد الظرفاء، إذ كان كولشو قزمًا، قيل إنّه شرب الجِنّ وهو رضيع.

«العمر، سبايكلي، أيها الأحمق؟».

«واحد وتسعون أستاذ».

انفجر الجميع بالضحك، وكوفئ روتش بجولةٍ أخرى مع السيارة وأبلى بلاء سيئًا، وبقي في تلك الليلة في مزاج عكِرٍ من الغيرة لأنّ نادي السيارات بأكمله، إضافة إلى لاتزي، اشتركوا في تحديد مواصفات المراقِب. ولم يساهم تأكيده لنفسه بأنّ يقظتهم لن تصل إلى مستوى يقظته في التخفيف من حزنه؛ إذ إنّ أمر جِمْ لن يمتد تأثيره إلى أكثر من هذه الليلة؛ أو أنّ روتش سيعمد، من الآن فصاعدًا، إلى بذل جهد أكبر لمواجهة ما بدا، على نحو واضح، أنّه تهديد قادم.

اختفى الغريب ذو الوجه النحيل، ولكن في اليوم التالي زار جِمْ الكنيسة في خطوة نادرة؛ رآه روتش يحادث ولز فارغو أمام قبر مفتوح. ومنذئذ انتبه روتش إلى تكدّرٍ دائم يحتل وجه جم، ويقظةٍ كانت تتحوّل أحيانًا إلى غضب داخله، وهو يتنزّه عبر الشفق كل مساء، أو يجلس عند الرابية خارج كرفانه، غير مبالٍ بالبرد أو الرطوبة، يدخّن سيجاره الصغير ويحتسي الفودكا مع اقتراب الظلام.

القسم الثاني

15

فندق آيلاي في ساسكس غاردنز - حيث جهّز جورج سمايلي، في اليوم الذي تلا زيارته إلى آكتون، مقر عملياته، تحت اسم باراكلوك - كان مكانًا شديد الهدوء مقارنةً بموقعه، وملائمًا تمامًا لحاجاته. يقع على مسافة مئة ياردة جنوب محطة بادنغتون، وهو أحد القصور القديمة التي عُزلت عن الجادة الرئيسيّة بخطٍّ من أشجار الدلب وموقف لركن السيارات. كان المرور يضجّ قربه ليلًا. ولكن في الداخل، وبالرغم من كونه أشبه بكرة نار من الملصقات الملوّنة والمصابيح النحاسيّة، كان مكانًا ذا هدوء استثنائيّ. لم يكن الفندق وحده خاليًا من جلبة الحياة: بل كذلك كان العالم المحيط به، وكان هذا الانطباع يتعزّز عبر السيدة البابا غراهام، المديرة، وهي أرملة ميجور صوتها شديد الضعف ما يتسبّب بنوعٍ من الإرهاق الشديد للسيد باراكلوك، أو أيّ نزيل آخر. أصرّ المفتش مندل، الذي كانت مخبرةً لديه لسنوات طويلة، أنّ اسمها كان غراهام فحسب. وقد أضيف اسم البابا من أجل الأبّهة، أو بسبب إجلالها لروما.

«لم يكن والدك عسكريًا، أليس كذلك يا عزيزي؟»، استفسرت وهي

تتثاءب، حينما قرأت اسم باراكلوك في السجلّ. دفع لها سمايلي خمسين جنيهًا مقدّمًا لقاء إقامة لأسبوعين، فأعطته الغرفة رقم ثمانية لأنّه أراد التفرغ للعمل. طلب طاولة مكتب، فأعطته طاولة مخلّعة للعب الورق، أحضرها نورمان صبي الفندق. تنهدّت حالَ وصول الطاولة: «إنها جورجية، لذا ستحبّها من أجلي، أليس كذلك يا عزيزي؟ لا ينبغي لي أن أُعيرك إياها، لقد كانت طاولة الميجور».

إضافة إلى الخمسين، كان مندل قد دفع عشرين جنيهًا أخرى على الحساب من ماله الخاص، أخذها لاحقًا من سمايلي. «لا ينبغي لأحد أن يشمّ رائحة ما يحدث، تمام؟»، أخبرها.

«يمكنك قول هذا»، وافقته السيدة البابا غراهام، وهي تصنّف الملاحظات بهدوء.

«أريد أن أعرف كل تفصيل»، حذّرها مندل، وهو يجلس في شقّتها الواقعة في القبو وهما يشربان من زجاجة المشروب الذي تفضّله. «مواعيد الدخول والخروج، الاتصالات، طريقة الحياة، والأهم من هذا كله» -هزّ إصبعه مشدّدًا على ما سيقوله_ «الأهم من هذا كله، أهم من كل ما يمكن لك أن تعرفيه، هذا الشخص، أتوقّع أنّ أناسًا مريبين سيهتمّون أو يستفسرون من موظّفيكِ تحت ذريعةٍ ما». صوّب إليها نظرة سر من أسرار الدولة، «حتى لو قالوا إنّهم الحرس المسلّحون وشيرلوك هولمز وقد توحّدا في شخص واحد».

«ليس هناك سواي أنا ونورمن»، قالت السيدة البابا غراهام مشيرةً إلى صبيّ هشّ بمعطف أسود كانت السيدة البابا غراهام قد خاطت عليه ياقة مخمليّة بلون البيج. «ولن يبالغوا بشأن نورمن، أليس كذلك يا عزيزي، أنت شديد الحساسيّة».

«وكذلك الأمر مع الرسائل الواردة»، قال المفتش. «أريد ملاحظات وتواريخ قدر الإمكان، ولكن ليس عن طريق الاقتحام أو العرقلة. وكذا

الأمر مع أغراضه». ثم أطلق صفيرًا خافتًا عندما وقعت عيناه على الخزنة القويّة التي كانت تعطي الأثاث مظهرًا فخمًا، «بين الحين والآخر، سيطلب إيداع أغراض له. غالبًا ما ستكون أوراقًا، وأحيانًا بعض الكتب. هناك شخص واحد يُسمح له بالنظر إلى تلك الأشياء عداه»- رسم ابتسامة قرصان مباغتة- «أنا. هل تفهمين؟ ولا يجب أن يعرف أحد أنّ هذه الأشياء بحوزتك. ولا تحاولي أن تعبثي بها لأنه سيعرف لكونه شديد البراعة. يجب أن تُعامَل هذه الأشياء باحتراف. لن أقول شيئًا آخر»، اختتم مندل كلامه؛ وبالرغم من أنّه كان قد أخبر سمايلي، أنه قريبًا بعد أن يعود من سومرست، وبخلاف العشرين جنيهًا كتكلفة، كان نورمن وحمايته أرخص خدمة في تاريخ المهنة.

كان غروره معذورًا، إذ لم يكن بإمكانه معرفة أو توقّع تجنيد جِمْ لنادي السيارات بأسره؛ أو الوسائل التي تمكّن فيها جِمْ من اقتفاء أثر تحقيقات مندل الحذرة. ولم يكن بوسع مندل، أو أيّ أحد آخر، تخمين حالة الحذر الآليّة التي ولّدها الغضب، والترقّب، وربما القليل من الجنون، داخل جم.

كانت الغرفة رقم ثمانية في الطابق العلوي، تطلّ نوافذها على حاجز الشرفة. خارج الحاجز كان ثمة شارع جانبيّ يضم مكتبة ووكالة سفريات باسم وايد وورلد. وكان ليكون قد جاء في الأمسية ذاتها حاملًا حقيبة منتفخة تضم الدفعة الأولى من أوراق مكتبه. جلسا متجاورَين على السرير فيما شغّل سمايلي راديو لاسلكي ليغطّي على صوتيهما. اعتبرها ليكون حركة صبيانيّة؛ بدا على نحو ما وقد كبر على هذه التّرهات. في الصباح التالي في طريقه إلى العمل، استعاد ليكون الأوراق وأعاد الكتب التي كان سمايلي قد أعطاه إياها لملء حقيبته. في هذا الدور، كان ليكون في أسوأ أحواله. كانت طريقته مزعجة وفظّة؛ بدا واضحًا أنّه كان يكره التظاهر. في الطقس البارد، بدا وكأنّه حافظَ على تورّد دائم في وجهه. ولكن عَجِزَ سمايلي عن قراءة الملفات كلها في يوم واحد لأنّها كانت مرتبطة بموظّفي ليكون، وكان غيابهم يتسبّب بفوضى. كما لم يرغب بذلك. كان يعلم

أكثر من أيّ شخصٍ آخر بأنّ الوقت ليس في صالحه. وقد تنوّعت هذه العملية على نحو طفيف في الأيام الثلاثة التالية. كل مساء، في طريقه إلى ركوب القطار من بادنغتون، كان ليكون يُفرغ جعبته من الأوراق، وفي كل ليلة كانت السيدة البابا غراهام تُنبئ مندل بفرح أنّ رجل العصابات الفظ قد اتصل مجددًا، ذاك الذي كان ينظر بقرف إلى نورمن. وكل صباح، بعد ثلاث ساعات من النوم وإفطار مقرف من السجق غير المطهو جيدًا والطماطم مفرطة الطهو - لم يكن ثمة طبقٍ آخر في لائحة الطعام - كان سمايلي ينتظر قدوم ليكون، ثم يغادر منسلاً في الشتاء البارد ليأخذ مكانه بين زملائه في العمل.

كانت ليالي استثنائيّة لسمايلي وحيدًا هناك في الطابق العلويّ. حين فكّر بها لاحقًا، وبالرغم من أنّ أيامه خلالها كانت مشحونةً، بل وتبدو مثمرة ظاهريًا، كان يستعيدها بوصفها رحلة واحدة، كما لو كانت ليلة وحيدة. صاح ليكون بجسارة في الحديقة: «وستفعلها؟ تنبش أمامًا وخلفًا». مع إعادة سمايلي اقتفاء مسارات حياته واحدًا إثر آخر، لم يعد ثمة فرق بين الاثنين: أمامًا أو خلفًا، كانت هي الرحلة ذاتها، ووجهتها واضحة أمامه. لم يكن ثمة شيء في تلك الغرفة، ليس ثمة أيّ غرضٍ آخر من أثاث الفندق الرثّ، يمكن له أن يعيقه عن الغرف الأخرى في رحلته. كان قد عاد إلى الطابق العلويّ في السيرك، إلى مكتبه البسيط مع ملصقات أوكسفورد، كما تركها منذ عام كامل. خلف الباب كانت الغرف الواطئة التي كانت تعمل فيها نساء كونترول ذوات الشعر الرماديّ، الأمّهات، يطبعن بهدوء ويُجِبنَ على الاتصالات؛ بينما هنا في الفندق، كان عبقريّ مجهول يكتب بصبر على آلته الكاتبة القديمة ليلًا و نهارًا. في أقصى ركن من الغرفة الواطئة - في عالم السيدة البابا غراهام حيث يوجد حَمّام، وفوقه تحذير من استخدامه- ينتصب الباب الباهت المُفضي إلى حَرَم كونترول: ممر بخزانات معدنيّة قديمة وكتب حمراء عتيقة، ورائحة غبار لطيف وشاي الياسمين. خلف المكتب، كونترول بنفسه، وقد كان حيًا آنذاك، بناصية شعره الفضيّة وابتسامته الدافئة كجمجمة.

كان هذا الانتقال العقليّ شديد الاكتمال عند سمايلي إلى درجة أنّه، حين يرنّ الهاتف - كانت الاتصالات تُدفَع كمبالغ إضافيّة نقدًا - كان عليه منح نفسه لحظات لتذكّر مكانه. كان للأصوات الأخرى التأثير المربِك ذاته عليه، كهديل الحمام على حافة النافذة، واهتزاز هوائيّ التلفزيون في الرياح، وجريان النهر المفاجئ من المياه على السقف أثناء المطر. إذ كانت تلك الأصوات تنتمي إلى ماضيه أيضًا، وكانت تُسمَع في الطابق الخامس فحسب من سيرك كيمبردج. ولعل أذنيه انتقتها لذلك السبب بلا شك: لقد كانت الصلصلة الخلفيّة لماضيه. في أحد الصباحات المبكرة، وبعد سماعه وقع أقدام في الممر خارج غرفته، مشى سمايلي فعلًا باتجاه الباب متوقّعًا دخول موظّف الشيفرة الليليّ في السيرك. كان قد غرق في تأمّل صور غويلام حينذاك، محتارًا بسبب المعلومات الشحيحة، محاولًا اكتشاف الإجراء الجديد للسيرك وفق مبدأ التجانب للتعامل مع التلغرافات القادمة من هونغ كونغ. ولكن بدلًا من الموظف، وجد نورمن يمشي حافيًا مرتديًا بيجامته. كانت القصاصات الملوّنة منثورة على السجادة وزوجان من الأحذية لرجل وفتاة، موضوعان أمام الباب المقابل، بالرغم من أنّ أحدًا في الفندق، حتى نورمن، لن يقوم بتلميعها.

«توقّف عن البحلقة وعُد إلى النوم»، قال سمايلي. وعندما اكتفى نورمن بالتحديق، أردف: « أوه، ارحل، هل تسمح؟...»، وكاد أن يكمل، ولكنه كبح نفسه في الوقت المناسب .. «أيها الصبي القذر».

* * *

«العمليّة وتشكرافت»، يقول عنوان المجلد الأول الذي أحضره ليكون في الليلة الأولى. «السياسة المتعلقة بتوزيع النتاج الخاص». وغصّ ما تبقّى من الغلاف بإشارات تحذيريّة وتعليمات للاستخدام، بما فيها تنبيه ينصح من يجد الملف صدفةً بـ«إعادته من دون قراءة» إلى أمين السجلات في مكتب رئاسة الحكومة. «العمليّة وتشكرافت»، عنوان الملف الثاني. «تقديرات إضافيّة للخزينة. إقامة خاصة في لندن. ترتيبات ماليّة خاصة.

هِبات. إلخ». «المصدر مرلين». عنوان الثالث، المربوط مع الأول بشريط قماشيّ ورديّ. «تقييمات الزبون. فعالية التكلفة. استثمار أوسع. انظر كذلك الملحق السريّ». ولكن الملحق السريّ لم يكن مرفقًا، وعندما سأل سمايلي عنه، ساد فتور.

«يُبقيه الوزير في خزنته الشخصيّة»، أجاب ليكون.

«هل تعرف الرقم السريّ؟».

رد بسرعة، وقد بدا غاضبًا: «لا، بالطبع».

«ما عنوانه؟».

«قد لا يكون هذا من شأنك. لم أعرف سبب إضاعة وقتك في نبش كل هذه الملفات أساسًا. إنّها عالية السريّة وقد قمنا بكل ما في وسعنا لتضييق عدد المسموح لهم بالاطّلاع عليها إلى الحد الأدنى».

قال سمايلي بهدوء: «حتى الملحق السريّ يجب أن يكون له عنوان».

«هذا الملف بلا عنوان».

«هل يكشف هويّة ميرلين؟».

«لا تكن سخيفًا. لا يريد الوزير أن يعرف هذا، ولن يقوم أليلاين بإخباره».

«ما الذي يعنيه: الاستثمار الأوسع؟».

«أرفض أن يتم استجوابي يا جورج. أنت لم تعد من العائلة، كما تعلم. بالمناسبة، كان ينبغي أن أُعلمك بأنّك لست من الأشخاص المخوّلين بمعرفة التفاصيل».

«هناك أشخاص مخوَّلون بوتشكرافت؟».

«نعم».

«هل لديك لائحة بأسماء هؤلاء الأشخاص؟».

«إنها في ملف السياسة»، رد ليكون بسرعة، وكأنّه يصفق الباب في وجهه على نحو كليّ قبل أن يعود إلى الدندنة البطيئة لأغنية «أين ذهبت كل الأزهار؟» التي قدّمها موسيقيّ أستراليّ. ثم تابع حديثه: «لا يحب التفسيرات التفصيليّة. لديه قول دائم: سيصدّق ما هو مكتوب على بطاقة بريديّة فحسب. إنّه شديد النزق بحيث لا يمكن أن يقدَّم إليه شيء».

قال سمايلي: «لا تنسَ بريدو، حسنًا؟ أيّ شيء عنه؛ حتى الفُتات الصغير أفضل من لا شيء».

جملة سمايلي هذه دفعت ليكون إلى الحملقة لبرهة، ثم اللجوء إلى مهرب آخر: «لم تصَب بالجنون بعد، صحيح يا جورج؟ أنت تدرك أنّ من الأرجح أنّ بريدو لم يسمع أبدًا بوتشكرافت قبل أن يُصاب؟ حقيقةً لا أعلم لمَ لا تركّز على المشكلة الأساسيّة بدلًا من النبش ...»، وأكمل جملته وهو يتجه إلى خارج الغرفة.

نظر سمايلي إلى آخر ملف في الرزمة: «العملية وتشكرافت، المراسلات مع القسم. القسم هو إحدى التسميات التمويهيّة التي تستخدمها الحكومة للدلالة على السيرك. وقد أُنجز هذا الملف بصيغة تفاصيل رسميّة بين الوزير من جانب، ومن الجانب الآخر – مميّزًا مباشرةً بسبب خطّه الصبيانيّ المتعب – بيرسي أليلاين، الذي كان لا يزال آنذاك في الدرجات السفلى من سلّم كونترول الخاص بالموظفين.

تذكار باهتٌ جدًا، فكّر سمايلي، يستعيد هذه الملفات الدقيقة، لتلك الحرب القاسية الطويلة.

16

كانت تلك الحرب القاسية الطويلة ذاتها هي التي يعاود سمايلي معايشة معاركها الأساسيّة وهو يباشر قراءته. لم تكن الملفات تضم إلا النزر اليسير من الأحداث؛ كانت ذاكرته تضم ما هو أكثر بكثير. كان بطليها أليلاين وكونترول، وأساسها غامض. بل هايدن، وهو متابع قويّ لتلك الأحداث، أكّد بأنّ الرجلين تعلّما كراهية بعضهما في كمبردج أثناء الفترة القصيرة التي درّس فيها كونترول في الجامعة فيما كان أليلاين على وشك التخرّج. بحسب بل، كان أليلاين طالبًا عند كونترول، وقد كان طالبًا سيئًا، وكان كونترول يوبّخه، وهو أمر قد يفعله كونترول بكل تأكيد.

كانت القصة غريبةً بما يكفي كي يضيف عليها كونترول ما يشاء: «بيرسي وأنا أشقّاء بالدم كما سمعت. كنا نلعب معًا في القارب، تخيّلْ!»، ولكنّه لم يؤكّد هذا القول.

إلى أنصاف أساطير كهذه كان بإمكان سمايلي إضافة وقائع حقيقيّة من معرفته بنشأة الرجلين. كان كونترول ابن نفسه، فيما كان بيرسي أليلاين اسكتلنديًا من الطبقة الدنيا وابنًا للكنيسة؛ كان والده قسًا مشيخيًا وفي حال لم يرث بيرسي إيمانه، فهو لا شك قد ورث موهبة الإقناع العنيد. جاء بعد الحرب بسنة أو اثنتين ليلتحق بالسيرك من عمله في شركة تجاريّة كبيرة. في كمبردج. كان سياسيًا بدرجةٍ ما (أقرب إلى جنكيز خان، كما يقول هايدن

الذي كان هو نفسه ليبراليًا صلبًا) ورياضيًا بدرجةٍ ما. جنّده شخص لا وزن كبيرًا له يدعى ماستون والذي سعى لفترة وجيزة كي يبني لنفسه ركنًا في الاستخبارات المضادة. رأى ماستون مستقبلًا كبيرًا في أليلاين، ولكونه روّج لاسمه بشدّة، هبط من النعيم. عندما رأوا أنّ أليلاين يشكّل مصدرًا للإحراج نقله مكتب كونترول إلى أميركا الجنوبيّة حيث أنهى جولتين كاملتين تحت غطاءٍ قنصليّ من دون أن يعود إلى إنكلترا.

حتى كونترول أقرّ بأنّ بيرسي أبلى بلاءً ممتازًا هناك، كما يتذكّر سمايلي. اعتبره الأرجنتينيّون جنتلمانًا بسبب محبّتهم لطريقته في لعب التنس وركوب الخيل - بحسب كونترول - وافترضوا بأنّه غبيّ، وهي سمة لم تكن موجودة في بيرسي على الإطلاق. وبعد أن سلّم الأمور لخليفته كان قد جهّز شبكةً من العملاء على جانبَيْ المحيط، كما كان يفرد جناحيه شمالًا كذلك. بعد إجازة في الوطن، وفترة توقف عن العمل استمرت أسبوعين، انتقل إلى الهند حيث كان يعتبره عملاؤه هناك بمثابة بَعْثٍ للتاج البريطانيّ. كان يعدهم بالإخلاص، ولا يدفع لهم إلا القليل، وحينما رأى فائدة في الأمر باعهم من دون تردّد. ومن الهند انتقل إلى القاهرة.

لا بد وأنّ هذه المهمة كانت صعبة على أليلاين، إن لم تكن مستحيلة؛ إذ كان الشرق الأوسط حتى تلك الأيام أرض هايدن المفضلة. كان عملاء الشبكات في القاهرة يعتبرون هايدن حرفيًا، مثل لورنس العرب الجديد، كما في التوصيفات التي استخدمها مارتنديل في تلك الليلة المشؤومة أثناء تناول العشاء. وكانوا سيحيلون حياة خليفته إلى جحيم. ومع ذلك، وبطريقةٍ ما، تمكّن بيرسي من شقّ طريقه، ولو كان الأميركيّون قد تركوه وشأنه، ربما كان سيبقى في الذاكرة على أنه رجل أفضل حتى من هايدن. بدلًا من ذلك، كانت ثمة فضيحة، ومعركة مفتوحة بين بيرسي وكونترول.

كانت الظروف لا تزال غامضة: حصلت الحادثة قبل ترقية سمايلي ليكون مدير مكتب كونترول بكثير. من دون تفويض من لندن، كما يبدو، أدخل أليلاين نفسه في مؤامرة أميركيّة سخيفة لاستبدال حاكم محليّ بآخر

تابع لهم. كان لدى أليلاين تبجيل قاتل دائم للأميركيّين. من الأرجنتين كان يراقب بإعجاب طريق سياسيّيهم اليساريّين حول نصف الكرة الجنوبيّ بأكمله؛ في الهند كان قد أُعجب بمهارتهم في تقسيم قوى الدولة المركزيّة. بينما كان كونترول، مثل معظم أفراد السيرك، يبغضهم جميعًا ويمقت أعمالهم التي كان يسعى دومًا إلى تقويضها.

أُحبطت المؤامرة، واستشاطت شركات النفط البريطانية غضبًا، وكان على أليلاين، بحسب المفردات المَرِحة للّغة المشفّرة، الرحيل بجوربيه. لاحقًا، ادّعى أليلاين أنّ كونترول كان قد شجّعه على الاستمرار، ثم سحب البساط من تحت قدميه؛ بل وحتى إنّه كشف المؤامرة لموسكو على نحو متعمَّد. بصرف النظر عما حدث فعلًا، وصل أليلاين إلى لندن ليجد بانتظاره أمر نقل إلى الحضانة حيث كُلّف بتدريب الأغرار الموضوعين تحت التجربة. وقد كانت الحضانة مركزًا يُستخدَم عادةً لإقامة من كادت سنوات خدماتهم تنتهي، وتبقّى لهم سنة او اثنتان قبل التقاعد. لم يكن قد تبقّى إلا عدد قليل من الوظائف في لندن آنذاك. رجل بمثل خبرة ومواهب بيرسي، كما يشرح بل هايدن، الذي كان مدير شؤون العاملين آنذك.

«إذًا، عليك أن تخترع لي منصبًا لعينًا ما»، قال بيرسي. لقد كان على حق. إذ كما اعترف بل لسمايلي في وقت لاحق، كان بهذا سيبقى من دون دعم لوبي أليلاين.

تساءل سمايلي: «ولكن من هم هؤلاء الداعمون؟ كيف يمكن لهم أن يفرضوا عليك رجلًا لا تريده؟»

«لاعبو الغولف»، أجابه كونترول. لاعبو الغولف (الأرستقراطيّون) والمحافظون، إذ كان أليلاين في تلك الأيام يغازل المعارضة، وقد استُقبل بأذرع مفتوحة، ليس أقلّها من مايلز سيركومب، قريب آن من بعيد لسوء الحظ، والذي أصبح الآن وزير ليكون. ومع ذلك، لم يكن لدى كونترول قوة كبيرة للمقاومة. كان السيرك في حالة ركود، وكان ثمة إشاعات عن إزالة المنظومة الحاليّة برمّتها والبدء بأخرى جديدة في مكان آخر. كانت

الإخفاقات في ذلك العالم تحدث طبيعيًا بالتالي، ولكن كان هذا الإخفاق مديدًا على نحو استثنائيّ. كانت النتائج في انهيار؛ كما تبيّن أنّ كثيرًا منهم مشتبه بهم. لم تعد قبضة كونترول شديدة القوة حتى في نقاط قوّته المعتادة.

لم يتسبّب هذا العجز الموقت في تعكير مرح كونترول وهو يصوغ مسوَّدة إحداث منصبٍ لبيرسي أليلاين بوصفه مديرًا للعمليات. سمّاه قبّعة الأحمق بيرسي.

لم يكن بوسع بيرسي فعل أي شيء. كان بل هايدن في واشنطن آنذاك، يحاول التفاوض بشأن معاهدة استخباراتيّة مع من سمّاهم البيوريتانيّين الفاشيّين في الوكالة الأميركية. ولكن نُقل سمايلي إلى الطابق الخامس، بحيث كانت إحدى وظائفه إبعاد أصحاب الطلبات عن كونترول. لذا توجّه بيرسي بالسؤال إلى سمايلي: «لماذا؟». وكان يتصل به في مكتبه عند خروج كونترول، ويدعوه إلى شقّته الكئيبة بعد أن يرسل عشيقته إلى السينما، ليستفسر منه بلهجته الحزينة «لماذا؟». بل اشترى كذلك زجاجةً من ويسكي المَلت أرغم سمايلي على الشرب منها فيما بقي هو يشرب من الماركة الأرخص.

«ما هذا الأمر شديد الخصوصية الذي فعلتُه له يا جورج؟ عانينا من انتكاسة مرة أو اثنتين. ما الغريب في هذا، قل لي؟ لمَ يتقصّدني؟ كل ما أريده هو مكان على الطاولة العليا. يعلم الله أنّ سجلّي يؤهّلني لذلك!».

كان يعني الطابق الخامس: الطاولة العليا.

كانت الوظيفة التي ابتكرها كونترول له، والتي كان لها وقع كبير للوهلة الأولى، أعطت أليلاين الحق بالتدقيق في جميع العمليات قبل انطلاقها. كان التوصيف الوظيفيّ ينص على أنّ هذا الحق مشروط بموافقة الأقسام العمليّاتية وكان كونترول حريصًا على عدم تحقّق هذا. كانت الوظيفة تتيح له «تنسيق الموارد والقضاء على النزاعات بين الإدارات الفرعيّة»، وهو عمل أنجزه أليلاين عبر تأسيس محطة لندن. ولكنّ أقسام الموارد، مثل

حَمَلة المصابيح، والتزوير، والتنصّت، ورعاة البقر، رفضوا فتح سجّلاتهم له، وكان يفتقر إلى القوة التي تؤهّله لإرغامهم على ذلك. لذا تضوّر أليلاين جوعًا، إذ كانت أوانيه فارغةً ابتداءً من وقت الغداء وبعده.

«أنا ذو قدرات متوسّطة، هل هذا هو الأمر؟ يجب أن نكون عباقرة جميعًا هذه الأيام، ممثّلين أساسيّين من دون كورس؛ خبراء في هذا». بالنسبة إلى أليلاين، وبالرغم من أنّه يتناسى هذا، كان لا يزال صغير السن على الارتقاء إلى الطاولة العليا، حيث تفصله ثمان إلى عشر سنوات عن هايدن أو سمايلي، وأكثر من هذا عن كونترول.

كان كونترول راسخًا: «بيرسي أليلاين سيبيع أمّه لقاء رتبة فروسيّة، وسيبيع هذه الخدمة لقاء مقعد في مجلس اللوردات». ولاحقًا، عندما بدأ المرض يسيطر عليه: «أرفض تحويل عمل حياتي إلى بيت للتباهي. أنا شديد الغرور إلى درجة أنّ الإطراء لن يؤثّر بي، وكبير في السن بخصوص الطموح، وقبيح كسرطان. بينما بيرسي على عكسي تمامًا، وثمة ما يكفي من الأذكياء في مكاتب الحكومة لتفضيله عليّ».

لذا، وعلى نحو غير مباشر، قيل إنّ كونترول أقدم على عملية وتشكرافت على مسؤوليته.

ناداه كونترول أحد الأيام على الميكروفون الداخليّ: «جورج، تعال، الأخ بيرسي يحاول التلاعب بي. تعال إلى هنا وإلا ستكون هناك مجزرة».

كان وقتًا، كما يتذكّر سمايلي، يعود فيه المحاربون المهزومون من البلدان الأجنبيّة. وكان روي بلاند قد عاد من بلغراد، حيث كان يحاول، بمساعدة من توبي إيسترهيز، إنقاذ أطلال شبكة تحتضر؛ بول سكوردينو، الذي كان مدير فرع ألمانيا آنذاك، كان قد دفن أفضل عميل سوفياتيّ لديه في ألمانيا الشرقيّة. وبخصوص بل، بعد رحلة عقيمة، عاد إلى القِدر الذي كان يغلي غاضبًا بشأن عجرفة البنتاغون، وحماقة البنتاغون، وازدواجية تعامل البنتاغون؛ ليقول إنّ الوقت حان لعقد صفقة مع الروس اللعينين بدلًا منهم».

في آيلاي كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل؛ ثمة ضيف متأخر يرنّ الجرس. ما سيكّلفه عشرة شلنات لنورمن، فكّر سمايلي، الذي لا يزال يتعامل مع العملات البريطانيّة الجديدة وكأنّها معضلة. بتنهيدة، أمسك أول ملفات وتشكرافت، وبعد لعق إبهام وسبابة يده اليمنى، بدأ العمل رابطًا الذاكرة الرسميّة بذاكرته الشخصيّة.

«تحدثنا»، كتب أليلاين بعد أشهر قليلة من المقابلة، في رسالة شخصيّة هستيريّة إلى قريب آن المهم، أي الوزير. وتناول ملف ليكون: «تأتي تقارير وتشكرافت من مصدر على جانب كبير من الحساسيّة. على حد علمي، ليس ثمّة منهج توزيع موجود لدى مكاتب الحكومة يلائم هذه الحالة. منظومة صناديق البريد التي استخدمناها في غادفلاي انهارت عندما أضاع زبائن مكاتب الحكومة المفاتيح، أو في حالة مشينة أخرى عندما قام سكرتير من الدرجة الثانية، بعد إرهاقه في العمل، بإعطاء مفتاحه إلى مساعدته. كنت قد تحدّثت إلى لايلي من الاستخبارات البحريّة وهو مستعد لوضع قاعة قراءة تحت تصرفنا في بناء الأميراليّة الأساسيّ حيث تكون المعطيات متوفرة للزبائن، ومراقَبة من حراس الاستخبارات. ستُعرَف قاعة القراءة، لأغراض التمويه، بكونها قاعة اجتماعات حزب الأعمال الأدرياتيكيّة أو قاعة ح أ أ للاختصار. لن يكون للزبائن المتمتعين بحقوق القراءة حريّة الدخول إذ إنّ هذه الملفات أيضًا معرَّضة لسوء الاستخدام. بدلًا من هذا، سيقومون بالتعريف عن أنفسهم شخصيًا لحارسي - انتبه سمايلي إلى ضمير الملكيّة -الذي سيكون مجهَّزًا بلائحة توضيحيّة تضم صور الزبائن».

ليكون، غير المقتنع بعد، قدّم تحفّظاته إلى الخزينة، عبر رئيسه المباشر، الوزير، الذي تحمّل مسؤولية نقلها: «حتى بعد التسليم أنّ هذا الأمر ضروريّ، يجب إعادة بناء قاعة القراءة على نحو شامل.

1- هل ستقوم أنت بإقرار التكلفة؟

2 – لو كانت الأميراليّة ستتكفّل بالتكلفة. يجب أن يلتزم القسم بإعادة المصاريف سريًا.

3 – هناك أيضًا مسألة الحراس الإضافيّين، مصاريف إضافيّة ...».

«كما أنّ هناك مسألة المجد المتعاظم لأليلاين»، عقّب سمايلي وهو يقلّب الصفحات ببطء. كان يبرق كمنارة في كل مكان: بيرسي يسعى للوصول إلى الطاولة العليا وربما كونترول كان قد مات أساسًا.

من اتجاه الدرج أتى صوت غناء جميل. ضيف ويلزيّ، سكران جدًا، كان يتمنّى ليلةَ سعيدة للجميع.

وتشكرافت، استعاد سمايلي الأحداث – ذاكرته مجددًا،–فالملفات لا تضم ما هو إنسانيّ بكل وضوح – وتشكرافت كانت بلا شك محاولة بيرسي الأولى، في منصبه الجديد، لإطلاق عملية خاصة به؛ ولكن بما أنّ وظيفته تستلزم موافقة كونترول، كانت خيوطها الأولى قد ولدت للتو. لفترةٍ، مثلًا، كان قد ركّز على حفر الأنفاق. كان الأميركيون قد حفروا أنفاقًا للتنصّت في برلين وبلغراد، كما قام الفرنسيّون بشيءٍ مماثل ضد الأميركيين. حسنًا، تحت اسم بيرسي سيدخل السيرك إلى السوق. استحسن كونترول الفكرة بهدوء، وشُكّلت لجنة مشتركة مع الأجهزة الأخرى (عُرفت باسم لجنة أليلاين)، قام فريق من مهندسي السيرك برسم مخطط للسفارة السوفياتيّة في أثينا، حيث عوّل أليلاين على دعم سخيّ من النظام العسكريّ الأخير الذي كان يحترمه بشدة، كأسلافه من الأنظمة. ثم قام كونترول بحثّ بيرسي بلطف، وانتظر منه نتائج جديدة. وهذا، بعد عدة محاولات، ما كان يفعله بيرسي بالضبط في ذلك الصباح الغائم عندما قام كونترول باستدعاء سمايلي بلهجة آمرة إلى الاحتفال.

كان كونترول جالسًا وراء مكتبه، وأليلاين واقفًا عند النافذة، وبينهما ملفٌّ أصفر برّاق مغلق.

«اجلس هناك وألقِ نظرة على هذا الهراء».

جلس سمايلي على أقرب كرسيّ فيما بقي أليلاين عند النافذة ساندًا مرفقيه الكبيرين على الحافّة محدّقًا بأسطح تجمّع أبنية نلسون، وبناء مكاتب الحكومة خلفه.

داخل الملف كانت توجد صورة لما يُفترَض أنّها برقيّة مهمة خاصة بالبحريّة السوفياتيّة، تشغل خمس عشرة صفحة.

«من أنجز الترجمة؟»، سأل سمايلي، معتبرًا أنّها تبدو أفضل من أن تكون ترجمة روي بلاند.

«الرب»، أجابه كونترول. «الرب أنجزها، صحيح يا بيرسي؟ لا تسأله عن أيّ شيء يا جورج، لن يخبرك».

كان هذا هو الوقت الذي يبدو فيه كونترول مفعَمًا بالفتوّة على نحو استثنائيّ. تذكّر سمايلي فقدانه لوزنه، وتورّد وجنتيه، وكيف كان من يعرفونه على نحو أقل يهنئونه على مظهره الرائع. وحده سمايلي، ربما، لاحظ قطرات العرق الصغيرة التي كانت ترشح على جبينه حتى في تلك الأيام الباردة.

بالتحديد، كانت الوثيقة تقديرًا، يبدو وكأنّه مجهّز من قِبل القيادة العليا السوفياتيّة، بشأن تدريب بحريّ سوفياتيّ جديد في البحر المتوسط والبحر الأسود. في ملف ليكون، كان مُشارًا إلى الوثيقة بوصفها التقرير رقم (1) فحسب، تحت عنوان: «بحريّ». لأشهر كانت الأميراليّة تطالب السيرك بتقديم أيّ نتيجة بشأن ذلك التدريب. ولذا بدا هذا الملف ذو صلة قوية مدهشة، ولذا كان، في عينيّ سمايلي، مدعاة للشك. كان مفصّلًا ولكنّه كان يتعامل مع مواضيع لا يفهمها سمايلي حتى بشكل عام: القوة الضاربة من الشاطئ إلى البحر، التفعيل اللاسلكيّ لإجراءات الإنذار الخاصة بالعدو، الرياضيات العالية بشأن توازن الرعب. لو كانت الوثيقة أصليةً ستكون كنزًا فعليًا، ولكن ليس ثمة أدنى سبب يدعو للاعتقاد بأنّها أصلية.

كل أسبوع كان السيرك يتعامل مع عشرات الوثائق السوفياتيّة المزعومة. كانت معظمها بضاعة باعة جوّالين. وعدد قليل منها تسريبات متعمَّدة من حلفاء تكون بمثابة تهديد، وعدد أقل كان فُتاتًا روسيًا. وعلى نحو شديد الندرة، قد يتبيّن بأنّ هذه الوثيقة أو تلك ذات أهمية ما، ولكن عادةً بعد أن يتم رفضها.

سأل سمايلي، مشيرًا إلى بعض الحواشي المكتوبة بقلم الرصاص بالروسيّة في الهامش: «لمن تعود هذه الأحرف الأولى؟ هل يعرف أحد؟».

أشار كونترول برأسه إلى أليلاين: «اسأل السلطة. لا تسألني».

قال أليلاين: «زاروف، أميرال أسطول البحر الأسود».

اعترض سمايلي: «إنها بلا تاريخ».

رد أليلاين بسرعة، وقد بدت لجهته الاسكتلنديّة أقوى من المعتاد: «إنها مسوّدة، وقّعها زاروف يوم الخميس. وتمّ توزيع النسخة النهائيّة مع هذه التعديلات يوم الاثنين، بحسب التاريخ».

كان اليوم هو الثلاثاء. فسأل سمايلي وهو لا يزال محتارًا: «من أين جاءت؟».

فقال كونترول: «لا يشعر بيرسي بحاجةٍ إلى الإفصاح».

«ما الذي يقوله خبراؤنا؟».

رد بيرسي: «لم يروها بعد، ولن يروها».

قال كونترول ببرود شديد: «أخي في المسيح، لايلي من الاستخبارات البحريّة، قدّم رأيًا أوليًا، مع ذلك، أليس كذلك يا بيرسي؟ أراه بيرسي إياه ليلة أمس – على كأس من الجنّ الورديّ، صحيح يا بيرسي، في حانة الترافيلرز؟».

«في الأميراليّة».

«الأخ ليلاي، لكونه زميلًا عزيزًا لبيرسي، غير معتاد على المديح. ومع ذلك، حين اتصل بي منذ نصف ساعة كان متحمّسًا بشدة. بل هنأني أيضًا. اعتبر الوثيقة أصلية ويطلب إذننا - إذن بيرسي، كما أفترض أن عليّ القول - ليُطلع زملائه سادة البحار على نتائجها».

«مستحيل تمامًا»، قال أليلاين: «أريتها له وحده، ولننتظر أسبوعين على الأقل».

تدخّل كونترول: «الوثيقة طازجة جدًا، لذا يجب أن تبرد قليلًا قبل توزيعها».

«ولكن من أين جاءت؟»، ألحّ سمايلي بالسؤال.

«أوه لا بد وأن بيرسي اختلق قصة وهميّة، لا تقلق. لم نكن يومًا عاجزين عن اختلاق القصص، أليس كذلك يا بيرسي؟».

«ولكن من هو المدخل؟ ومن هو ضابط الحالة؟».

«ستستمتع بهذا»، وعده كونترول بصوت خافت. وكان غاضبًا على نحو غريب. طوال علاقتهما الطويلة لم يتذكّره سمايلي على هذه الدرجة من الغضب. كانت يداه النحيلتان المنمّشتان ترتعشان، فيما عيناه اللتان كانتا ساكنتين عادةً، كانتا تشتعلان بالغضب.

قال أليلاين، ممهّدًا للحديث بنبرة تضجّ بلهجته الاسكتلنديّة: «المصدر ميرلين، هو مصدر عالي الأهميّة مع حرية وصول إلى المستويات شديد الحساسيّة لصنّاع القرار السوفيات». وأكمل كما لو كان أحد أفراد العائلة الملكيّة: «أطلقنا على نتاجه اسم وتشكرافت».

كان قد استخدم الطريقة ذاتها في الكلام، كما انتبه سمايلي، في رسالة شخصيّة شديدة السريّة إلى معجب في الخزينة يطلب لنفسه تكتّمًا أكبر في المدفوعات العاجلة للعملاء.

«سيقول إنّه ربحه في رهان كرة قدم، والآن أقنعه أن يخبرك سبب عدم

إخباري». حذّره كونترول الذي، برغم فتوّته المستعادة كان يتّسم بعدم دقّة المصطلحات العامة كأيّ رجل عجوز.

لم يكن أليلاين متحفّظًا، بل كان شديد الاندفاع، كمنتصر لا كمذنب. ملأ صدره الكبير تحضيرًا لخطاب طويل سيوجّهه لسمايلي بكليّته، وبدرجة صوت واحدة، كما يقوم شرطيٌّ اسكتلنديٌّ باستعراض الأدلّة أمام المحكمة.

«هويّة المصدر ميرلين، وهذا ليس سرًا خاصًا بي وحدي لأفشيه. إنه ثمرة تراكم طويل لأناس محدَّدين في العمل. أناس مرتبطون بي، كما أنا مرتبط بهم. أناس ليسوا مسرورين أبدًا بمعدل الإخفاق في هذا المكان. كان هناك الكثير من النكسات. والكثير الكثير من الفضائح وضياع الوقت والجهد. قلت هذا مرات عديدة ولكنّني كنتُ كمن يتحدث للريح بسبب ذلك التجاهل اللعين الذي يعاملني به».

فسّر كونترول بهمس: «إنه يقصدني، أنا هو في هذا الحديث، هل انتبهت يا جورج؟».

«المبادئ الاعتياديّة في تقاليد المهنة والأمن تم ضربها عرض الحائط هنا. يجب أن تعرف: أين هي؟ تقسيم على جميع المستويات: أين هي يا جورج؟ هناك الكثير من الغِيبة في الفروع الخارجيّة بتحريض من القمة».

«إشارة أخرى لي»، علّق كونترول.

«فرّق تسد، هذا هو مبدأ العمل حاليًا. الأشخاص الذين يُفترَض بهم أن يتعاونوا لقتال الشيوعيين، كلٌّ منهم يمسك بخناق الآخر. إننا نفقد أهم شركائنا».

«يقصد الأميركيين»، فسّر كونترول.

«نفقد حيويتنا. واحترامنا لذاتنا. قاسينا بما فيه الكفاية». وهنا أخذ الملف ودسّه تحت ذراعه وكرّر: «قاسَينا أكثر من اللازم في الحقيقة».

«فَوْر مغادرة أليلاين الصاخبة من الغرفة، قال كونترول: «وككل شخص عانى ما فيه الكفاية، هو يطلب المزيد».

الآن، ولبرهة، أخذت ملفات ليكون، بدلًا من ذاكرة سمايلي، زمام رواية الحكاية. كان من الطبيعي في جو تلك الأشهر الأخيرة، مع أنّه استُدعي بشأن المسألة منذ بدايتها، أنّ سمايلي لم يتلقّ أيّ تفصيل عن كيفيّة تطوّر الأحداث. كان كونترول يمقت الفشل، كما يمقت المرض، ويمقت إخفاقاته هو على نحو أكبر. كان يعلم أنّ معرفة الفشل تستلزم معايشته؛ وأنّ الجهاز الاستخباراتيّ الذي لا يعاني لن ينجو ويستمر. كان يمقت العملاء ذوي القمصان الحريريّة الذين يقتطعون مبالغ كبيرة من الخزينة ما يتسبّب بالضرر للشبكات الأساسيّة التي كان يضع ثقته فيها. كان يعشق النجاح، ولكنه يمقت المعجزات حين تضع ما تبقى من جهوده خارج نطاق التركيز. ويمقت الضعف كما يمقت العواطف والدين، ويمقت بيرسي أليلاين الذي كان يتّسم بقدرٍ كبيرٍ من كلّ ما سبق. كانت طريقته في التعامل مع تلك الأمور تتمثّل بإغلاق الباب حرفيًا: أن ينسحب إلى معتزله الكئيب في الغرف العلويّة، من دون أن يستقبل أيّ زوّار وأن يُنقَل فحوى المكالمات إليه عبر الأمّهات. أولئك السيدات الهادئات أنفسهنّ كنّ يحملن إليه شاي الياسمين وملفات المكتب الكثيرة التي كان يطلبها ويعيدها بالأكداس. كان سمايلي يراها مكوّمة أمام الباب كلما كان يتابع عمله المتمثّل بإبقاء ما تبقّى من السيرك على قدميه. كثير منها كان قديمًا ويعود إلى الأيام التي سبقت تسلّم كونترول للإدارة. وبعضها كان شخصيًا يضمّ سِيَر أعضاء السيرك السابقين والحاليين.

لم يتحدّث كونترول يومًا عما كان يفعله. ولو سأل سمايلي الأمهات، أو لو تمشّى بل هايدن، الفتى المفضّل، بجانبهنّ وطرح التساؤل ذاته، كنّ يكتفين بهزّ رؤوسهنّ أو رفع حواجبهنّ نحو السماء: «قضيّة خطيرة»، تقول نظراتهنّ اللطيفة: «إننا نُداري رجلًا عظيمًا في نهاية مهنته». ولكن سمايلي - وهو يتصفّح الملفات بصبر، ويستعيد رسالة إيرينا إلى ريكي تار

في زاويةٍ من عقله المركّب – كان يعرف، بل وكان مرتاحًا فعليًا بسبب هذه المعرفة، أنّه لم يكن أوّل شخص يخوض رحلة الاكتشاف هذه في نهاية المطاف؛ وأنّ طيف كونترول كان رفيقه إلى أقصى حد؛ وأنّه كان سيُبقي نفسه على هذه المسافة لو لم تتسبّب العملية تستيفاي، في الساعة الحادية عشرة، بموته.

الإفطار مجددًا ورجل ويلزيّ شديد التمالك لنفسه لم يُغره السجق قليل الطهو والطماطم مفرطة الطهو.

سأله ليكون: « هل تريد هذه الملفات، أم انتهيت منها؟ إنها ليست مفيدة جدًا لأنها لا تضم التقارير أساسًا».

«الليلة لو سمحت، إن لم يكن لديك مانع».

«أعتقد أنّك تدرك بأنّك في حالة يُرثى لها».

لم يكن يدرك ذلك، ولكن في شارع بايووتر، عندما عاد إلى هناك أرته مرآة آن الجميلة عينيه المحمرّتين ووجنتيه الممتلئتين وقد ترهّلتا بسبب الإرهاق. كان ينام ساعات معدودة، ثم يغرق في العمل. عندما حل المساء، كان ليكون بانتظاره. باشر سمايلي القراءة فورًا.

لمدة ستة أسابيع، بحسب الملفات، لم ترد معلومات جديدة بشأن البرقيّة البحريّة. عبّرت أقسام أخرى في وزارة الدفاع عن مشاركتها حماسة الأميراليّة بشأن البرقيّة الأصليّة، وأشار مكتب الخارجيّة إلى أنّ «هذه الوثيقة تلقي مزيدًا من الضوء غير الاعتياديّ على التفكير العدوانيّ السوفياتيّ»، أيًا يكن ما تعنيه هذه العبارة؛ واستمر أليلاين في مناشداته من أجل معاملة خاصة للمسألة ولكنه كان أشبه بجنرال بلا جيش. أشار ليكون بتحفّظ إلى «النتائج التي تأخّرت إلى حد ما»، واقترح على وزيره أن «يهدّئ الوضع

مع الأميراليّة». من كونترول، بحسب الملف، لا جديد. ربما كان يبتهل كي يفشل الموضوع. خلال فترة الهدوء، أشار خبير في شؤون موسكو في الخزينة بتجهّم إلى أن مكاتب الحكومة شهدت حوادث مشابهة كثيرة في السنوات الأخيرة: تقرير مشجّع أولًا، ثم صمت، أو - على نحو أسوأ - فضيحة.

كان على خطأ. في الأسبوع السابع أعلن أليلاين نشر ثلاثة تقارير جديدة شأن وتشكرافت في يوم واحد. كانت جميعها بصيغة مراسلات داخليّة سوفياتيّة سريّة، بالرغم من اختلاف المواضيع على نحو كبير.

وتشكرافت رقم 2، بحسب ملخّص ليكون، كان يصف التوتّر داخل الحكومة ويتحدث عن التأثير المدمّر لصفقات التجارة الغربيّة على أعضائه الأضعف. بحسب لغة السيرك، كان هذا تقريرًا كلاسيكيًا من منطقة روي بلاند يغطّي الهدف ذاته الذي كانت شبكة أغرافات الموجودة في هنغاريا تعمل على مهاجمته بلا جدوى منذ سنوات. «عمل ممتاز»، كتب زبون في مكتب الخارجيّة «مدعوم بضمانة جيّدة».

وتشكرافت رقم 3 يناقش النزعة الإصلاحية في هنغاريا وتطهيرات كادار الجديدة في الحياة السياسيّة والأكاديميّة: الطريقة الأمثل لإنهاء القلاقل في هنغاريا، قال مؤلّف الورقة، مستعيرًا عبارةً سكّها خروتشيف منذ زمن طويل، هي أن تقتل عددًا أكبر من المثقفين. مجددًا، تلك كانت منطقة روي بلاند، «تحذير مفيد»، كتب المعلّق ذاته من مكتب الخارجيّة، «لجميع أولئك الذي يحبّون أن يعتقدوا أنّ الاتحاد السوفياتيّ يتساهل مع الدول التابعة له».

كان هذان السببان ضروريّين جوهريًا، ولكن وتشكرافت رقم 4 كان مكوّنًا من ستين صفحة واعتبره الزبائن فريدًا. كان تقييمًا شديد التقنية لقسم الاستخبارات الأجنبيّة السوفياتيّ لمحاسن ومساوئ التفاوض مع رئيس أميركيّ ضعيف. كانت الخلاصة تشير إلى أنّه عبر رمي عظمة للرئيس بشأن قاعدته الانتخابيّة، سيتمكّن الاتحاد السوفياتي من كسب

تنازلات في المباحثات القادمة بشأن البوارج القادرة على حمل رؤوس نووية متعددة. ولكنّه شكّك جديًا في الرغبة بجعل الولايات المتحدة تبدو الخاسر على نحو كبير بما أنّ هذا الإجراء قد يدفع البنتاغون إلى شنّ ضربة عقابيّة أو وقائيّة. كان التقرير من قلب منطقة بل هايدن. ولكن كما كتب هايدن بنفسه في ملاحظة مؤثّرة لأليلاين - ربما نُسخت للوزير من دون علم هايدن ثم أُدرجت في ملف مكتب رئاسة الحكومة - بأنّه طوال خمسة وعشرين عامًا من مهاجمة الهدف النووي السوفياتيّ، لم يسبق له أن وضع يده على أيّ شيءٍ بهذا القدر من الجودة.

كما لم يفعلها، أنهى الملاحظة: «ما لم أكن مخطئًا، رفاقنا في السلاح، الأميركيّون. أعلم بأنّ الوقت لا يزال مبكّرًا، ولكن يخطر لي أنّ وصول هذا التقرير إلى واشنطن سيكلّف صفقة صعبة بالمقابل. وبالفعل، لو حافظ ميرلين على هذا المستوى، سأميل إلى التنبّؤ بأنّ بوسعنا شراء كل ما يمكننا امتلاكه في متجر الوكالة الأميركيّة».

حصل بيرسي أليلاين على قاعة قراءته؛ وحضّر جورج سمايلي قهوةً لنفسه على الموقد المهجور قرب الحمام. خلال هذه العمليّة، انتهى وقت العدّاد، فاستدعى نورمن بعصبيّة، وطلب تبديل خمسة جنيهات بما يعادلها من الشلنات.

17

باهتمام متزايد تابع سمايلي رحلته في سجلات ليكون الشحيحة ابتداء باللقاء الأول لهؤلاء الأشخاص وصولًا إلى يومنا هذا. آنذاك، خيّم جوّ من الشك على السيرك بحيث أصبح موضوع المصدر ميرلين بمثابة تابو حتى بين سمايلي وكونترول. أحضر أليلاين تقارير وتشكرافت وبقي في غرفة الانتظار فيما أدخلتها الأمهات إلى كونترول الذي وقّعها على الفور لإظهار أنّه لم يقرأها. استعاد أليلاين الملف، ومدّ رأسه عند باب سمايلي، وابتسم كتحيّة، ثم نزل الدرج. بلاند أبقى نفسه على مسافة، بل حتى زيارات بل هايدن المرحة، التي كانت جزءًا تقليديًا من الحياة فوق، من أجل ركن الدردشة الذي كان يحب كونترول إقامته في الأيام الخوالي مع موظّفيه الأعلى رتبة، أصبحت أقل وأقصر، ثم انتهت كليًا.

قال هايدن لسمايلي بازدراء: «كونترول أصبح مخبولًا، وما لم أكن مخطئًا، هو يحتضر أيضًا. السؤال يتعلق بأيّهما سيتمكّن منه أولًا».

توقفت لقاءات زبائن يوم الثلاثاء، ووجد سمايلي نفسه وقد أصبح هدفًا دائمًا لمضايقات كونترول، إما عبر إرساله إلى الخارج من أجل رحلة قصيرة لا معنى لها، أو لزيارة الفروع المحلية - سارات، بركستون، آكتون، وغيرها - باعتباره مبعوثه الشخصيّ. نما لديه شعور متعاظم بأنّ كونترول

يريده خارج اللعبة. عندما كانا يتحدثان، كان يشعر بوطأة الشك بينهما، بحيث بدأ سمايلي بالتساؤل جديًا ما إذا كان بل على حق، وأنّ كونترول لم يعد صالحًا للعمل.

أوضحت ملفات رئاسة الحكومة أنّ تلك الشهور الثلاثة الأخيرة شهدت ازدهـارًا ثابتًا لعملية وتشكرافت، من دون أدنى مساعدة من كونترول. كانت التقارير ترِدُ بمعدل تقريرَين أو ثلاثة شهريًا، وبقي المستوى ممتازًا، بحسب الزبائن، ولكن نادرًا ما كان يرد اسم كونترول ولم يُطلب منه التعليق على أيّ شيء. أحيانًا كان المقيّمون يبدون انتقاداتهم. وأغلب الأحيان كانوا يشتكون من أنّ الإثباتات غير ممكنة لأنّ ميرلين أخذهم إلى مناطق خارج نطاق السيطرة: ألا يمكن أن نطلب مساعدة الأميركيّين؟ لا يمكننا ذلك، رد الوزير. ليس بعد، رد أليلاين الذي لم يكن يراه أحد، ثم أضاف: «عندما يحين الوقت لا بدّ أن نفعل أمرًا أكبر من مجرد تقديم ما لدينا لهم. لسنا مهتمّين بصفقة وحيدة. واجبنا هو ترسيخ مسار سجّل ميرلين ليكون خارج نطاق أيّ شك. عندما يحدث هذا، بوسع هايدن الذهاب إلى السوق ...

لم يعد ثمة تشكيك به على الإطـلاق. من بين القلّة المختارين المسموح لهم بدخول غرف حزب الأعمال الأدرياتيكيّة، كان ميرلين منتصرًا مباشرةً. كانت ملفاته دقيقة، وغالبًا ما كانت مصادر أخرى تؤكّدها على نحو تراجعيّ. شُكّلت لجنة وتشكرافت برئاسة الوزير. وكان أليلاين نائب الرئيس. أصبح ميرلين صناعةً، من دون أن يتم توظيف كونترول. ولذا أرسل سمايلي في بادرة يأس حاملًا معه صحن التسوّل: «هم ثلاثة إضافة إلى أليلاين. أقلِقهم يا جورج. أغرِهِم، اضغط عليهم، أعطِهم ما يريدون».

كانت الملفات بشأن تلك الاجتماعات غائبة خاصة وأنّها تنتمي إلى الحجرات الأسوأ في ذاكرة سمايلي. كان يعلم أساسًا أن لا شيء في جعبة كونترول يمكن أن يُشبع جوعهم.

كان نيسان/ أبريل. سمايلي عاد من البرتغال حيث كان يدفن فضيحة ليجد كونترول تحت الحصار. كانت الملفات متناثرة على الأرض؛ وأُضيفت أقفال جديدة على النوافذ. كان يضع فنجان الشاي على هاتفه الوحيد، وثمة جهاز تشويش معلّق في السقف ضد التنصّت الإلكترونيّ، شيء يشبه مروحة إلكترونيّة تتفاوب حدّتها. في الأسابيع الثلاثة التي كان فيها سمايلي بعيدًا، أصبح كونترول عجوزًا.

«أخبرهم أنّهم يشقّون طريقهم بأموال مزيّفة»، أمره، من دون أن يرفع عينيه عن الملفات. «أخبرهم أيّ شيء لعين. أحتاج إلى الوقت».

«هم ثلاثة إضافة إلى أليلاين»، كرّر سمايلي الآن لنفسه، وهو يجلس وراء طاولة لعب الورق الخاصة بالميجور، يدرس لائحة ليكون التي تضم أسماء المخوّلين بعملية وتشكرافت. اليوم يُسمح بدخول ثمانية وستين زائرًا مرخَّصًا له إلى قاعة قراءة حزب الأعمال الأدرياتيكيّة. كلّ منهم، كما أعضاء الحزب الشيوعيّ، كان يُرقّم بحسب تاريخ السماح له بالدخول. وقد تم تغيير اللائحة منذ وفاة كونترول؛ سمايلي ليس مشمولًا. ولكنّ الآباء المؤسسين ذاتهم لا يزالون على رأس اللائحة: أليلاين، بلاند، إيسترهيز، بل هايدن. ثلاثة إضافة إلى أليلاين، كما كان كونترول قد أخبره.

فجأةً انجرف عقل سمايلي المفتوح، بحيث قرأ كل إشارة، وكل صلة منحرفة، برؤيا غريبة كليًا: هو وآن يمشيان عند حافة الكورنيش. كان ذلك إثر وفاة كونترول مباشرة، أسوأ وقت بإمكان سمايلي تذكّره في زواجهما المضطرب الطويل. كانا على ارتفاع عالٍ فوق الساحل، في مكان ما بين لامورنا وبورتكورنو، وقد ذهبا هناك بعد انتهاء موسم السياحة كي تعالج آن سعالها عبر هواء البحر. كانا يتبعان مسار الشاطئ، وكلٌ منهما غارق في أفكاره: هي بهايدن، كما توقّع، وهو بكونترول، وجم بريدو، وتستيفاي، والفوضى الشاملة التي خلّفها وراءه إثر التقاعد. لم يكن بينهما تناغم أبدًا. كان كلٌ منهما قد فقد الهدوء في حضرة الآخر؛ أصبحا بمثابة لغزَين في ما بينهما، بحيث تتحول أدنى محادثة إلى اتجاهات غريبة لا يمكن التحكم

بها. في لندن، كانت آن تعيش حياة جامحة، بحيث تنجرف مع أيّ أحدٍ قد يرغب بها. كان يعرف فحسب أنّها كانت تحاول دفن شيءٍ يؤذيها أو يقلقها كثيرًا؛ ولكن من دون أن يدرك وسيلةً للوصول إليها.

«لو متّ أنا»، سألته فجأة، «بدلًا من كونترول، كيف كنت ستشعر إزاء بل؟».

كان سمايلي ما يزال يهيّئ إجابته عندما أردفت: «أحيانًا أظنّ بأنّني أحمي رأيك بشأنه. هل هذا ممكن؟ بأنّني، على نحو ما، أُبقيكما معًا. هل هذا ممكن؟».

«ممكن». ثم أضاف: «نعم، أعتقد أنّني معتمد على بل على نحو ما».

«هل لا يزال بل مهمًا في السيرك؟».

«أكثر مما كان عليه من قبل، ربما».

«ولا يزال يذهب إلى واشنطن، يتعامل ويتفاوض معهم، ويقلبهم رأسًا على عقب؟».

«أعتقد ذلك. سمعت هذا».

«هل هو مهمّ بالقدر الذي كنتَ فيه أنت؟».

«أفترض».

«أفترض»، كررَت: «أتوقّع. سمعت.. هل هو أفضل إذًا؟ يعمل أفضل منك، أفضل في الحساب؟ أخبرني. أخبرني لو سمحت. يجب أن تخبرني».

كانت تضجّ بالإثارة فجأة. عيناها، المليئتان بالدموع بفعل الريح، كانتا تلتمعان بيأس نحوه، وقبضت بيديها على ذراعه، وكطفل كانت تتوسّله كي يجيب.

أجاب على نحو غريب: «لطالما قلتِ لي إنّ الرجال لا يُقارَنون، لطالما كنت تقولين إنّك لا تؤمنين بهذا النوع من المقارنة».

«أخبرني!».

«حسنًا: لا، هو ليس أفضل».

«مماثل لك؟».

«لا».

«ولو لم أكن هناك، ما الرأي الذي كنتَ ستحمله عنه؟ إن لم يكن بل قريبي، أو أيّ شيء يخصّني؟ أخبرني. هل سترفع من قيمة رأيك عنه، أم ستُخفضها؟».

«سأخفضها، على ما أفترض».

«إذًا خفّض قيمة رأيك الآن. سأُقصيه من العائلة، من حياتنا، من كل شيء. هنا والآن. سأرميه في البحر. هناك. هل تفهم؟».

لم يفهم سوى: عُد إلى السيرك، وأنهِ عملك. كانت إحدى الطرق الكثيرة التي تستخدمها لقول الأمر نفسه.

معكَّرًا لا يزال من هذا التطفّل الذي حدث في ذاكرته، نهض سمايلي فجأة واندفع إلى النافذة، ليمارس إطلالته المعتادة حين يُشتَّت انتباهه. مجموعة نوارس، ستة أو سبعة، جثمت على حافة النافذة. لا بدّ أنّه سمع أصواتها، فتذكّر تلك النزهة في لامورنا.

«أصاب بالسعال حين يكون ثمة أمور لا أستطيع التحدث بشأنها»، كانت قد أخبرته آن مرة. ما الذي لم يكن بإمكانها قوله حينها؟ تساءل مخنوقًا بفعل دخان السيارات في الشارع. كان بإمكان كوني قولها، بإمكان مارتنديل قولها؛ إذًا لم ليس بإمكان آن قولها؟

«ثلاثة إضافة إلى أليلاين»، تمتم سمايلي بصوت عال. كانت النوارس قد طارت، كلها معًا، كما لو أنّها رأت مكانًا أفضل، «أخبرهم أنّهم يشقّون طريقهم بأموال مزيّفة». وماذا لو قبلت البنوك المال؟ لو اعتبرها الخبراء أصلية، وامتدحها بل هايدن إلى أقصى حد؟ وغصّت ملفات مكتب رئاسة

الحكومة بمديح الرجال الشجعان الجدد في سيرك كيمبردج الذين كسروا النحس أخيرًا!

كان قد اختار إيسترهيز أولًا، لأنّ توبي يدين لسمايلي بوظيفته. كان سمايلي قد جنّده في فيينا، حين كان طالبًا مفلسًا يعيش في أنقاض متحف كان عمّه المتوفّى هو القيّم عليه. اصطحبه إلى آكتون ووضعه في قسم الغسيل بجوار مكتبه المصنوع من خشب الجوز، وهواتفه العاجيّة. على الجدار، لوحة للمجوس ربما كانت تعود إلى القرن السابع عشر. عبر النافذة، كان ثمة فناء يعجّ بالسيارات والفانات والدراجات الناريّة، وغرف استراحة كانت فرق حَمَلة المصابيح تقتل فيها الوقت بين النوبات. بدايةً، سأل سمايلي توبي عن عائلته: كان لديه ابن ذهب إلى وستمنستر وابنة في السنة الأولى بكلية الطب. ثم أبلغ توبي أنّ حملة المصابيح كانوا متأخرين شهرين عن موعد تسليم جداول عملهم، وعندما تجنّب توبي الرد، عاجله بالسؤال ما إذا كان فتيانه قد خاضوا مهمات خاصة مؤخرًا، أكان في الوطن أم في الخارج، إذ قد يكون ذلك سببًا أمنيًا جيّدًا دفع توبي إلى عدم ذكره في الأوراق.

سأله توبي بعينين باردتين: «لمن قد أفعل هذا يا جورج؟ أنت تعلم أنّ هذا غير شرعيّ في دستوري». والمصطلحات، في دستور توبي، لها دلالات سخيفة.

أجاب سمايلي، معطيًا إياه العذر: «حسنًا، بوسعي رؤية أنّك تفعل هذا من أجل بيرسي أليلاين، مثلًا». في نهاية المطاف، لو أمرك بيرسي بفعل شيء من دون أن تسجّله، ستكون في موقف شديد الصعوبة».

«أي نوع من الأشياء تقصد يا جورج، أنا أتساءل؟».

«إفراغ صندوق بريد أجنبيّ، تهيئة منزل آمن، حماية شخص ما، تخريب سفارة. بيرسي هو مدير العمليات في نهاية المطاف. ربما اعتقدتَ أنّه كان يتصرف بناءً على تعليمات من الطابق الخامس. بإمكاني افتراض حدوث هذا على نحو طبيعيّ».

نظر توبي بحذر إلى سمايلي. كان يحمل سيجارة، ولكن برغم إشعالها إلا انّه لم يدخّنها. كانت صناعة يدويّة، تُحفظ في صندوق فضيّ، ولكن ما إن يتم إشعالها لا تقترب من فمه أبدًا. كانت تتنقّل، أمامًا وخلفًا، أو على الجانبين؛ أحيانًا يتم تهيئتها للشروع في المجازفة، ولكن لم يفعل. خلال هذا عبّر توبي عما في عقله: أحد تعبيرات توبي الشخصية، التي من المفترض أنّها تكون حاسمةً بشأن موقفه من الحياة.

كان توبي يحب العمل، كما قال. ويفضّل البقاء فيه. وكان يشعر بعاطفة تجاهه. لديه اهتمامات أخرى قد تخطر له أحيانًا، ولكنّه أحبّ الخدمة أكثر من أيّ شيء آخر. وكانت معضلته، كما قال، هي الترقية. لا يعني أنّه يريد ذلك بسبب الجشع. بل قال إنّ أسبابه اجتماعيّة.

«تعرف يا جورج، لديّ سنوات خبرة طويلة بحيث أشعر بالإحراج حين يلقي عليّ زملاء أصغر منيّ سنًا أوامرهم. تعلم ما أعنيه؟ آكتون، كذلك: مجرد اسم آكتون كافٍ لإثارة سخريتهم».

رد سمايلي بهدوء: «أوه، أي زملاء شبّان تقصد؟».

ولكن كان إيسترهيز قد فقد اهتمامه بمتابعة الحديث. انتهى تصريحه، وعاد وجهه ليستقر على ملامحه الخاوية المعتادة، عيناه الشبيهتان بعيني دمية تثبتان على نقطة في منتصف المسافة.

سأله سمايلي: «هل تعني روي بلاند؟ أو بيرسي؟ هل بيرسي شاب؟ مَنْ يا توبي؟».

ولكن كان هذا بلا طائل، إذ ندم توبي: «جورج، عندما تكون قد تأخرت على الترقية، وتعمل قصارى جهدك في العمل، سيبدو أيّ شخص شابًا حين يكون أعلى منك على السلم».

«ربما قد يَعمَد كونترول إلى ترقيتك بضع درجات»، اقترح سمايلي، من دون أن يكترث كثيرًا لنفسه هنا.

ردّ إيسترهيز تسبّب برعدة، «في الحقيقة، كما تعرف يا جورج، لست شديد الثقة من أنّه قادر على الفعل هذه الأيام. انظر هنا، أوّيد إهداء آن شيئًا - فتح الدرج - عندما سمعت بقدومك اتصلت بعدة أصدقاء، إنه شيء جميل برأيي، شيء تستحقه امرأة نبيلة، تعلم أنّني لم أنسها منذ التقينا في حفل الكوكتيل عند بل هايدن؟».

وبذا أخذ سمايلي جائزة الترضية - عطر غالٍ مهرَّب، كما افترض، عبر أحد حملة المصابيح - وأخذ صحن المتسوّل إلى بلاند، عارفًا أنّه بهذا سيكون قد اقترب درجة أخرى من هايدن.

بالعودة إلى طاولة لعب الميجور، كان سمايلي ينبش ملفات ليكون إلى أن وصل إلى ملف صغير بعنوان «العملية وتشكرافت، إعانات ماليّة مباشرة»، والذي كان يوثّق للنفقات الأولى المدفوعة من أجل المصدر ميرلين، فقد كتب بيرسي أليلاين في مذكرة شخصيّة أخرى إلى الوزير، مؤرَّخة قبل سنتين تقريبًا، «لأسباب تتعلّق بالأمن أقترح إبقاء تمويل وتشكرافت مستقلًا تمامًا عن جميع سُلف السيرك الأخرى. وإلى حين إيجاد غطاء مناسب، أطلب منك إعانات ماليّة مباشرة من أموال الخزينة بدلًا من إضافتها إلى التصويت السريّ والتي ستجد طريقها بالتالي إلى الحسابات العاديّة للسيرك. وسأقدّم تفصيلًا عن ذلك لك بنفسي».

كتب الوزير بعد أسبوع: «موافق، شريطة أن يتم دائمًا ...».

لم يكن ثمة اشتراطات. بنظرة سريعة إلى الصف الأول من الأرقام، أُتيح لسمايلي كل ما يحتاج إلى معرفته: مع قدوم أيار/ مايو من ذلك العام، عندما حدث ذلك اللقاء في آكتون، كان توبي إيسترهيز قد قام شخصيًا بما لا يقل عن ثماني رحلات من ميزانيّة وتشكرافت، اثنتان إلى باريس، واثنتان إلى هاغ، وواحدة إلى هلسنكي، وثلاث رحلات إلى برلين. كل مرة كان غرض الرحلة تحت توصيف «استلام نتاج». بين أيار/ مايو وتشرين

الثاني/ نوفمبر، عندما اختفى كونترول من المشهد، قام بتسع عشرة رحلة أخرى. لم يحتج في أيٍّ منها لأن يغيب أكثر من ثلاثة أيام بلياليها. كانت تتم أغلبها في عطل نهاية الأسبوع. وفي عدة رحلات كان يرافقه بلاند.

من دون أن يبدو الأمر مفاجئًا، توبي إيسترهيز، كما لم يشكّك سمايلي أبدًا، كان يكذب حتى النخاع. كان جميلًا إيجاد السجلّ الذي يؤكّد انطباعه.

كانت مشاعر سمايلي تجاه روي بلاند متذبذبة آنذاك. مع استعادتها الآن، عرف بأنّها لا تزال كذلك. اكتشفه مدرّس جامعيّ، وجنّده سمايلي؛ كانت هذه الطريقة مشابهة على نحو غريب للطريقة التي تم فيها إدخال سمايلي إلى شبكة السيرك. ولكن هذه المرة، لم يكن ثمة وحش ألمانيّ ليزيد استعار اللهيب الوطنيّ، وقد كان سمايلي دومًا يرتبك قليلًا أمام اعتراضات معاداة الشيوعيّة. مثل سمايلي، لم يعش بلاند طفولة فعليّة. كان والده عاملًا في رصيف الشحن، ونقابيًا متحمّسًا في اتحاد التجارة، وعضوًا في الحزب. توفيت والدته عندما كان بلاند صبيًا. كان والده يكره التعليم كما يكره السلطة، وعندما برز ذكاء بلاند تصوَّر الأب أنّه أضاع ابنه في متاهة الطبقة الحاكمة، وسرق شعلة الحياة منه. شقّ بلاند طريقه إلى مدرسة قواعد اللغة، وكان يعمل بجد في العطل، كي ينال أجر عمل إضافيّ. عندما التقى به سمايلي في مكتب المدرّس في أوكسفورد، كان يحمل الملامح المرهَقة لشخص وصل للتو بعد رحلة سيئة.

أخذه سمايلي على عاتقه، وبعد عدة أشهر أصبح قريبًا جدًا من تلقّي عرضٍ رسميّ، قبله بلاند بحماسة افترض سمايلي أنّها نابعة من كراهيته لأبيه. بعد ذلك خرج من عهدة سمايلي. بعد حصوله على منح غريبة غير مدوَّنة، انكبّ بلاند على الإقامة في مكتبة ماركس التذكاريّة وكتب أوراقًا يساريّة لمجلات صغيرة كانت ستموت منذ زمن طويل لو لم يقم السيرك بإعانتها ماليًا. في الأمسيات كان يخوض نقاشات في لقاءات تغصّ بالدخان في الحانات والقاعات المدرسيّة. وفي الإجازات كان يذهب إلى الحضانة حيث كان ثمة رجل متعصّب اسمه ثاتش يدير

مدرسة تدريب لعملاء الاختراق، بحيث لا يدرّب إلا طالبًا واحدًا تباعًا. درّب ثاتش بلاند في فنون المهنة وحرّك أفكاره التقدميّة برفق لتتقارب مع معسكر والده الماركسيّ. وبعد ثلاث سنوات من تجنيده، جزئيًا بفضل منشأه البروليتاريّ، وتأثير والده في شارع كنغ، فاز بلاند بتعيين لمدة عام في منصب محاضر مساعد في الاقتصاد بجامعة بوتسنان. ثم بدأت مسيرته الاستخباراتيّة.

من بولندا تقدّم بنجاح ليشغل موقعًا تدريسيًا في أكاديميّة بودابست للعلوم، ثم عاش في السنوات الثماني التالية حياة ترحال كمثقّف يساريّ صغير بحثًا عن النور، حيث غالبًا ما كان محبوبًا من دون أن يكون أهلًا للثقة. استقر في براغ، وعاد إلى بولندا، ثم أنهى فصلين دراسيين قاسيين في صوفيا، وستة فصول في كييف حيث عانى من انهيار عصبيّ، وهو الانهيار الثاني خلال عدة أشهر. مجددًا، أصبح تحت رعاية الحضانة بهدف ضبطه هذه المرة. ثم خرج نظيفًا، وعُهدت إدارة شبكاته لعملاء ميدانيين أقدم ثم أُعيد بلاند إلى السيرك لإدارة الشبكات التي جنّدها في الميدان، ولكن من مكتبه. مؤخرًا، كما بدا لسمايلي، أصبح بلاند بمثابة زميل مقرّب لهايدن. لو صدف ودخل سمايلي إلى مكتب روي لمحادثته، كان يجد بل في كرسيّه المحاط بالأوراق والمخططات ودخان السجائر؛ ولو دخل مكتب بل لن يكون مفاجئًا وجود بلاند، بقميص غارق في العرق، يذرع السجادة جيئة وذهابًا. كان بل مسؤولًا عن روسيا، وبلاند عن الدول التابعة؛ ولكن في تلك الأيام المتعلقة بوتشكرافت كان التمييز بين الاختصاصَيْن قد تلاشى.

التقيا في حانة في سان جيمس وود، في أيار/ مايو، الساعة الخامسة والنصف في يوم عادي، حيث كانت الحديقة خاوية. أحضر روي طفلًا، ولدًا في الخامسة من عمره تقريبًا، يبدو نسخة مصغرة من بلاند، أشقر، بوجه متورّد. لم يفسّر وجود الصبيّ، ولكن أحيانًا أثناء حديثهما كان يسكت فجأة ليراقبه وهو يجلس بعيدًا على مقعد يأكل الجوز. بانهيارات عصبيّة أو لا، كان بلاند لا يزال يحمل بصمة فلسفة ثاتش بشأن العملاء في

المعسكر العدوّ: الإيمان بالذات، والمشاركة الإيجابيّة، والعازف مدفوع الأجر، وغيرها من العبارات المزعجة حيث عملت الثقافة، أيام الحرب الباردة، على تحويل الحضانة إلى شيء أشبه بمركز تهذيب أخلاقيّ.

«إذًا ما المطلوب؟»، سأل بلاند بنبرة جافّة.

«لا شيء فعليًا يا روي. يشعر كونترول بأنّ الوضع الحاليّ غير صحّي. وهو لا يود رؤيتك منخرطًا في بيئة مضطربة في مؤامرة. كما لا أريدك أنا».

«عظيم. ما المطلوب؟».

«ما الذي تريده أنت؟».

على الطاولة، كان ثمة إبريق متروك منذ وقت الغداء مع عدد من أعواد الأسنان المغلّفة بالورق بينهما. التقط أحدها، وبصق الورقة على الأرض، ثم بدأ بلاند بتنظيف أسنانه الخلفيّة بالطرف الأسمك.

«حسنًا، ما رأيكم بخمسة آلاف كتعويض من التمويل الخفيّ؟».

«وبيت وسيارة؟»، قال سمايلي هازئًا.

«والصبيّ إلى إيتون»، أضاف بلاند، مومئًا عبر الدرب الإسمنتيّ باتجاه الولد من دون أن يتوقّف عن نكش أسنانه. «لقد دفعت الثمن يا جورج. أنت تعلم هذا. لا أعلم ما الذي حصلت عليه بالمقابل ولكنني دفعت الكثير. وأريد استرجاع بعضًا منه. عزلة عشر سنوات من أجل الطابق الخامس، هذا يساوي الكثير في أيّ سن. حتى في سنّك. لا بدّ وأنّ ثمة سببًا لانجرافي إلى تلك النقاشات القديمة، ولكنني لا أتذكّر تمامًا ما كان السبب فعلًا. ربما كانت شخصيّتك الجذّابة».

كانت زجاجة سمايلي لا تزال في منتصفها، بينما أحضر بلاند زجاجة أخرى لنفسه، وشيئًا للصبيّ كذلك.

«أنت حقير من النوع المثقّف»، قال بسلاسة وهو يعاود الجلوس. «الفنّان شخص بوسعه امتلاك رأيين متعارضين تمامًا، وما زال يؤدّي عمله: من حَلُمَ بمثل هذا؟».

«سكوت فتزجيرالد»، أجاب سمايلي، معتقدًا للحظة أنّ بلاند كان يتهيّأ لقول شيء بشأن بل هايدن.

«حسنًا، فتزجيرالد كان يعرف أمرًا أو اثنين»، أكّد بلاند. وحينما كان يشرب، كانت عيناه الجاحظتان قليلًا تميلان باتجاه السور، وكأنّهما تبحثان عن أحد ما. «وأنا ما أزال أؤدّي عملي حقًا يا جورج. كاشتراكيّ جيد، أسعى للمال. وكرأسماليّ جيد، سألتصق بالثورة لأنّك إن لم تستطع هزيمة أمرٍ ما تجسَّس عليه. لا تنظر على هذا النحو يا جورج. هذا عنوان اللعبة في هذه الأيام: حين تخدش ضميري سأقود سيارتك الجاغوار، صحيح؟». كان قد رفع ذراعه حين قال الجملة السابقة. ثم قال عبر صالة البار: «سأوافيك حالًا! أحضر واحدة لي!».

كان ثمة فتاتان تتجولان عند الجانب الآخر من سياج الأسلاك.

«هل هي نكتة بل؟»، سأل سمايلي بغضب مفاجئ.

«هل ماذا؟».

«هل هي إحدى نكات بل بشأن إنكلترا الماديّة، مجتمع الخنازير المُرفَّهين؟».

«قد تكون كذلك، ألا تحبها؟»، قال بلاند وأنهى زجاجته.

«ليس كثيرًا، لا. لم أعرف بل من قبل كمصلح راديكاليّ. ما الذي حدث له فجأة؟».

رد بلاند بسرعة، كارهًا أيّ إنقاص من قيمة اشتراكيّته أو اشتراكيّة هايدن: «هذا ليس راديكاليًا، هذا مجرّد إلقاء نظرة من النافذة اللعينة. هذه هي إنكلترا اليوم يا رجل. لا يريد أحد هذا، أليس كذلك؟».

قال سمايلي وهو يجد نفسه في أسوأ نقاش: «إذًا كيف تقترح تدمير الغرائز الاكتسابيّة والتنافسيّة في المجتمع الغربيّ، من دون أن تدمّر كذلك...

كان بلاند قد أنهى شرابه؛ ووقف معلنًا انتهاء اللقاء أيضًا. «لم أنت منزعج؟ لقد حصلت على وظيفة بل. ما الذي تريده أكثر من ذلك؟ تمتّع بها حتى النهاية».

بل أخذ زوجتي، فكّر سمايلي، عندما جهّز بلاند نفسه للذهاب. وتبًا له، أخبرك بهذا.

كان الولد قد ابتكر لعبة. كوان قد قلب الطاولة على جانبها وبدأ بدحرجة زجاجة فارغة إلى الحافة. وكان كل مرة يزيد من اندفاع الزجاجة نحو طرف الطاولة. فغادر سمايلي قبل أن تتحطّم.

على عكس إيسترهيز، لم يكلّف بلاند نفسه الامتناع عن الكذب. لم تحتو ملفات ليكون على أيّة إشارة لدوره في عملية وتشكرافت:

كتب أليلاين، في ملاحظة مؤرَّخة بعد رحيل كونترول بفترة وجيزة: «المصدر مارلين، أشبه بعملية جماعيّة بكل معنى الكلمة... ليس بوسعي حقيقةً تحديد أيٍّ من مساعديّ الثلاثة يستحق المديح الأكبر. طاقة بلاند كانت مصدر إلهام لنا جميعًا»... كان يرد على اقتراح الوزير بشأن وجوب تكريم أولئك المسؤولين عن وتشكرافت في لائحة العام الجديد. «مع أنّ براعة هايدن كانت تقصّر أحيانًا عن براعة ميرلين»، وأضاف. تقلّد الثلاثة أوسمة؛ وأكّد تعيين أليلاين كرئيس، ومعه لقب الفروسيّة الأحبّ إلى قلبه.

18

وهذا يُبقي بِلْ، فكّر سمايلي.

أثناء معظم ليالي لندن، تخيّم فترة هدوء لا يقطعها إزعاج. عشر دقائق، عشرون، ثلاثون، بل وساعة حتى، من دون زعيق سكران أو بكاء طفل أو صرير إطارات سيارة تكسر الصمت. في ساسكس غاردنز يحدث هذا قرابة الثالثة. تلك الليلة حدث هذا باكرًا، فجأة، عندما وقف سمايلي مجددًا على نافذته وهو يطل كسجين على الممر الرمليّ للسيدة البابا غراهام، حيث كان ثمة فان بدفورد قد ركن منذ قليل. كان السطح يغصّ بالشعارات: سيدني تسعون يومًا، أثينا من دون توقف، ماري لاو ها نحن ذا. ثمة ضوء متّقد في الداخل وافترض وجود عدة أطفال نائمين في جنة غير المتزوّجين. كانت الستائر تغطّي النوافذ.

وهذا يُبقي بِلْ، فكّر، وهو لا يزال يحدّق في الستائر المغلقة للفان مع ملصقاتها المتوهّجة؛ وهذا يُبقي بِلْ، ودردشتنا الصغيرة الودودة في شارع بايووتر، نحن الاثنان فحسب، صديقان قديمان، رفيقان قديمان، يتأبّطان ذراعَيْ بعضهما بعضًا، «ويتشاركان كل شيء»، كما قال مارتنديل بلطف، ولكنّ كانت آن خارجًا تاركة الرجلين وحدهما. وهذا يُبقي بل، كرّر، وشعر بصعود الدم إلى رأسه، وتوهّج الألوان في ناظريه، وليبدأ شعور اللطف لديه يميل إلى جانبه الخطر.

من كان؟ لم تعد ذاكرة سمايلي دقيقةً بشأنه. كلما كان يفكّر به، كان يصوّره ضخمًا ومختلفًا. حتى اللحظة التي بدأت فيها علاقة آن معه كان يعتقد بأنّه يعرف بل جيدًا: أي تألّقه وحدوده. كان من دفعة ما قبل الحرب التي بدا وكأنها اختفت إلى الأبد، والتي كانت تتسم بكونها سيئة السمعة وشديدة الذكاء في آن. كان والده قاضيًا في المحكمة العليا، كما تزوجت اثنتان من أخواته العديدات الجميلات رجلَين من الطبقة الأرستقراطيّة؛ في أوكسفورد، كان أقرب لليمين غير المرغوب به منه إلى اليسار المفضّل لدى كثيرين، ولكن من دون أن يصل مرحلة التطرّف. منذ سنوات مراهقته الأخيرة كان باحثًا دقيقًا ورسّامًا هاويًا ذا طابع شجاعٍ إن لم يكن مجازفًا حتى: ثمة عدد من لوحاته معلّقة الآن في القصر المفضّل لمايلز سيركومب في كارلتون غاردنز. كانت لديه علاقات في كل سفارة وقنصليّة على طول الشرق الأوسط وكان يستخدمها بقسوة. أتقن لغات متباعدة بسهولة، ومع بلوغه التاسعة والثلاثين التقطه السيرك؛ كانوا يراقبونه منذ سنوات. قام بأداء مدهش في الحرب. كان واسع الاطلاع وذا شخصية ساحرة؛ لم يكن ميّالًا للتحفّظ، بل مجازفًا في كثير من الأحيان. لعلّه كان بطلًا. وقد كانت مقارنته مع لورنس حتميّة.

وقد كان صحيحًا، تابع سمايلي تفكيره، بأنّ بل عبث بأجزاء محوريّة في التاريخ آنذاك؛ وقد طرح جميع الأفكار الجديدة لإعادة إنكلترا إلى حيّز التأثير والعظمة - كما كان عليه روبرت بروك، نادرًا ما كان يتحدث عن بريطانيا. ولكن في اللحظات النادرة التي كان سمايلي يفكّر بها بموضوعيّة بشأنه، لم يكن يستطيع تذكّر أكثر من مناسبات قليلة تجاوز فيها بل الحدود.

كان الجانب الآخر من طبيعة هايدن هو ما يجده أسهل للاحترام فيه كزميل: المهارات بطيئة الاحتراق للعميل الفعّال، إحساسه النادر بالتوازن في تعامله مع العملاء المزدوِجين، وتقييمه للعمليات الخادعة؛ فنّه الخاص بمشاعر الرعاية، بل الحب، بالرغم من طغيانه على الولاءات الأخرى.

كشاهد، شكرًا لكِ يا زوجتي.

ربما كان بل حقيقةً خارج نطاق التقييم، كان يفكّر بيأس، وهو يحاول التقاط خيط ما للتناسب. ومع تخيّله الآن، ووضعه جنبًا إلى جنب مع بلاند، إيسترهيز، وأليلاين حتى، بدا فعليًا لسمايلي أنّهم جميعًا نسخ بهذا القدر أو ذاك من الأصل الأوحد، هايدن. وأنّ طموحاتهم كانت بمثابة خطوات نحو المثل الأعلى غير القابل للبلوغ للشخص الكامل، حتى لو أُسيء فهم أو وضع الفكرة بذاتها؛ حتى لو كان بِل لا يستحق تلك المكانة فعليًا. بلاند في وقاحته الجافة، إيسترهيز في نزعته الوطنيّة الإنكليزيّة الزائفة، أليلاين في موهبته الضحلة في القيادة: بدون بِل كانوا في حالة فوضى. كما كان سمايلي يعرف، أو يظن أنه يعرف - أتته الفكرة الآن كبارقة تنوير - أنّ بل بذاته كان نسخة أصغر عن نفسه: أي، مع أنّ معجبيه - بلاند، بريدو، أليلاين، إيسترهيز، وجميع مَن تبقّى من نادي الداعمين - قد يرون فيه الكمال، إلا أنّ خدعة بِل الفعليّة كانت استغلالهم، والتعيّش عليهم لإكمال ذاته؛ جزء من هنا، وجزء من هناك، من هويّاتهم المنفعلة: ولذا فإنّ الكشف عن حقيقة أنّه كان أقل، أقل بكثير، من مجموع مزاياه الظاهريّة... وأخيرًا حجب تحت السطح الظاهريّ لعجرفة الفنّان، حين يعتبرهم نتاجات لتفكيره...

«هذا يكفي»، قال سمايلي لنفسه بصوتٍ عالٍ.

مع الانسحاب فجأة من هذا التفكير، وإقصائه على نحو كبير بكونه مجرد نظرية أخرى عن بِل، برّد تفكيره المشتعل عبر استعادة لقائهما الأخير.

* * *

«أعتقد بأنّك تريد سؤالي عن ميرلين اللعين»، عاجله بِل. بدا تعبًا ومتوتّرًا؛ كان ذلك وقت تنقّله إلى واشنطن. في ما سبق، كان يجلب فتاةً غير لائقة ويرسلها لتجلس مع آن في الأعلى فيما هما يتحدثان عن العمل؛ معتقدًا أنّ آن ستدعم عبقريّته تجاهها، فكّر سمايلي بقسوة. كنّ جميعًا من النمط نفسه: بنصف سِنّه، طالبات فنون قذرات، ودبقات بكل

تأكيد؛ وكانت تقول آن إنّ لديه قوّادًا. ومرةً بهدف إحداث صدمة، جلب فتى شنيعًا يدعى ستيغي، ويعمل مساعد بارمان في إحدى حانات تشلسي بقميص مفتوح وسلسلة ذهبيّة تطوّق جذعه.

«يقولون إنّك تكتب التقارير»، فسّر سمايلي.

«أعتقد أنّها مهمة بلاند»، رد بِل بابتسامة ماكرة.

قال سمايلي: «روي يقوم بالترجمة، وأنت تنجز مسوّدات التقارير؛ إنها مطبوعة على آلتك. إذ إنّ العمليّة ليس مصرَّحًا بها لعمّال التنضيد على الإطلاق».

أنصت بل بحذر، وقد ارتفع حاجباه، كما لو أنّه سيندفع في أيّة لحظة باعتراض أو بموضوعٍ آخرٍ أكثر ملاءمة، ثم ترك كنبته وتوجّه إلى المكتبة، حيث وقف على ارتفاع رفٍّ فوق سمايلي. مُخرجًا مجلّدًا بأصابعه الطويلة، تصفّحه مبتسمًا.

قال، وهو يقلّب الصفحات. «بيرسي أليلاين لا يصلح، هل هذا هو العرض؟».

«تمامًا».

«ما يعني أنّ ميرلين لا يصلح أيضًا. كان ميرلين سيصلح لو كان مصدري أنا، أليس كذلك؟ ما الذي سيحدث لو توجّه بل اللعين إلى كونترول وقال إنّه اصطاد سمكةً كبيرة وأراد الانفراد بها؟ يا لروعتك يا عزيزي بل، سيقول كونترول. فلتقم بها بالطريقة التي تحب يا عزيزي بل، بالطبع ستفعلها. فلتشرب قليلًا من الشاي القذر، سيمنحني وسامًا الآن بدلًا من إرسالك لتتجوّل في الممرات. كنّا شلّة راقية. لمَ أصبحنا سوقيّين هذه الأيام؟».

«يظنّ أنّ بيرسي يتوق لطموحات أكبر»، قال سمايلي.

«وهو كذلك فعلًا. وأنا كذلك. أريد أن أكون المدير. هل تعرف هذا؟ حان وقت أن أنجز شيئًا لنفسي يا جورج. نصف رسّام، نصف جاسوس،

حان الوقت كي أصبح شيئًا ذا قيمة. منذ متى كان الطموح خطيئة في عملنا الوحشيّ؟».

«من يديره يا بل؟».

«بيرسي؟ كارلا، من غيره؟ فتى من الطبقة الدنيا مع مصادر من الطبقة العليا، لا بد أن يكون قد جازف بشيء. بيرسي باع نفسه لكارلا، هذا هو التفسير الوحيد». كان قد طوّر هذا الفن منذ زمن طويل، سوء الفهم المتعمَّد. «بيرسي هو الجاسوس في منزلنا»، قال.

«عنيتُ من يدير ميرلين؟ من هو ميرلين؟ ما الذي يحدث؟»

تاركًا المكتبة بدأ بل رحلته في تفتيش أدراج سمايلي. «هذا العمل من صنع جاك كالو، أليس كذلك؟» - مُخرجًا إطارً مذهّبًا صغيرًا ليرفعه نحو الضوء - «إنه رائع». أمال نظارته كيّ تكبّر أكثر. كان سمايلي واثقًا أنّه نظر إلى هذا الإطار عشرات المرات من قبل. «إنه رائع جدًا. أليس هناك من يعتقد أنّ أنفي أمرٌ آخر بخلاف كونه غضروفًا؟ يُفترَض بأنّني مسؤول عن الهدف الروسيّ، كما تعلم. كرّست له أفضل سنوات حياتي، أنشأت شبكات، كشّافي مواهب، وكل ما له علاقة بمهنتنا. أنتم جماعة الطابق الخامس نسيتم كيفيّة إدارة عمليّة عندما يستلزم الأمر منك ثلاثة أيام لإرسال رسالة من دون أن تتلقّى ردًا على مشكلتك».

فكّر سمايلي بمسؤوليّة: نعم، لقد نسيت. نعم، أتعاطف معك. لا، آن ليست في تفكيري أبدًا. نحن زميلان في نهاية المطاف ورجلان يدركان العالم، إننا هنا للحديث عن ميرلين وكونترول.

«ثم أتى هذا المغرور بيرسي، تاجر شارع كاليدونيان اللعين، ليقوم بلا أدنى خجل بجر عربةٍ كاملة من الروس. أمرٌ مزعج، ألا تعتقد؟».

«جدًا».

«المشكلة هي أنّ شبكاتي ليست جيدة جدًا. من الأسهل التجسّس على بيرسي أكثر من...»، قطع كلامه، وكأنّه تعب من فكرته. واستقرّت

نظراته على منحوتةٍ صغيرةٍ لفرانس فان ميريس مصنوعة من الجبس. وقال: «وأحب هذه جدًا».

«أعطتني إياها آن».

«ترضية؟».

«ربما».

«لا بدّ وأنّها كانت خطيئة كبيرة. متى أصبحت عندك؟».

حتى الآن، كان سمايلي يتذكّر الصمت الذي كان يخيّم على الشارع. الثلاثاء؟ الأربعاء؟ ثم تذكّر تفكيره، «لا يا بِلٍ. لم أتلقّ جائزة ترضيةٍ بشأنك أبدًا. إذ حتى هذه اللحظة أنت لا تساوي خفًا منزليًا حتى». فكّر من دون أن ينطق.

«هل مات كونترول أو ليس بعد؟»، سأله هايدن.

«مشغول فحسب».

«ما الذي يفعله طوال اليوم؟ يبدو أشبه بناسك بثيابه تلك، متقوقعًا على نفسه في ذلك الكهف في الأعلى. يقرأ كل تلك الملفات، ما هدفه بحق الرب؟ رحلة عاطفية في ماضيه البائس، أراهنك على هذا. يبدو مريضًا كقط. أعتقد أنّ هذا ذنب ميرلين أيضًا، أليس كذلك؟».

التزم سمايلي الصمت مجددًا.

«لم لا يأكل مع الطباخين؟ لم لا ينضم إلينا بدلًا من نبش التفاهات في الأعلى؟ ما الذي يسعى إليه؟».

«لا أعلم ما إذا كان يسعى إلى شيء أساسًا»، قال سمايلي.

«آه، أوقف مراوغتك. بالطبع هو يسعى إلى شيء ما. لديّ مصدر في الأعلى، إحدى الأمهات، ألا تعرف هذا؟ تنقل لي الأقاويل مقابل شوكولا. كان كونترول يفتّش في ملفات شخصيّة لأبطال السيرك القدماء، ينفض

الغبار، مَنْ كان من النخبة، مَن كانت ملكة؟ نصفهم تحت الأرض. يُجري دراسة عن جميع إخفاقاتنا: هل تتخيل ذلك؟ ولِمَ هذا؟ لأنّ ثمة نجاحًا في متناول يدنا. إنه مجنون يا جورج. هو في أسوأ أحواله: بارانويا الشيخوخة، ثق بكلامي. هل أخبرتك آن من قبل عن العم فراي الشرير؟ كان يعتقد أنّ الخدم يزرعون أجهزة تنصّت في الورود لمعرفة مكان المال الذي خبّأه. ابتعد عنه يا جورج. الموت ثقيل الوطأة. اقطع صلتك به، وانزل إلى طابق آخر».

لم تكن آن قد عادت بعد لذا مشيا متجاورَين في طريق كنغز بحثًا عن تاكسي فيما كان بل يستعرض أخباره السياسيّة، ويرد سمايلي «نعم بل»، «لا بل»، متسائلًا كيف سينقل الأنباء إلى كونترول. نسي الآن كيف كانت صيغة الأحداث. في السنة التي قبلها، كان بِلْ صقرًا عظيمًا. كان يريد إدارة قوى سلميّة في أوروبا لاستبدالها مباشرةً بأسلحة نوويّة. ربما كان الشخص الوحيد المتبقّي في مكاتب الحكومة ممّن لا يزال يؤمن بقوة الردع البريطانيّة المستقلة. هذا العام، لو كان سمايلي يتذكّر جيدًا، أصبح بِلْ إنكليزيًا صارمًا مسالمًا يريد الحل السويديّ ولكن من دون سويديّين.

لم تأتِ أيّ تاكسي، كانت ليلةً جميلةً، لذا، وكصديقين قديمين، تابعا المشي متجاورَيْن.

«بالمناسبة، لو أردت بيع تلك المنحوتة، أعلمني، أوكي؟ سأعطيك سعرًا جيدًا مقابلها».

معتقدًا أنّ بِلْ كان يقول نكتةً سيئة أخرى، استدار سمايلي باتجاهه، متحضّرًا أخيرًا للغضب. لم يكن هايدن قد انتبه لما يجول في خاطره. كان يحدّق عبر الشارع رافعًا ذراعه الطويلة باتجاه تاكسي تقترب.

صاح بغضب: «يا للمسيح، انظر إليهم، مليئة باليهود اللعينين المتوجّهين إلى شارع كواغ».

تمتم كونترول في اليوم التالي: « لا بد وأنّ ظهر بِل يبدو كشبكة لعينة بسبب السنوات التي قضاها مستندًا إلى السياج». وللحظةٍ حدّق بسمايلي بطريقةٍ غريبة، كما لو كان ينظر من خلاله إلى شيءٍ مختلف أقلّ حيويّة؛ ثم أشاح بنظراته كما لو أنه يتابع القراءة، وأضاف: «أنا سعيد لأنّه ليس قريبي».

في الاثنين التالي، كان لدى الأمهات أخبار مفاجئة لسمايلي. سافر كونترول إلى بلفاست لخوض نقاش مع الجيش. لاحقًا، وبعد مراجعة سجلّات السفر، اكتشف سمايلي الكذبة. لم يسافر أحدٌ من السيرك إلى بلفاست ذلك الشهر ولكن كان ثمة إيصال دفع لبطاقة عودة على الدرجة الأولى إلى فيينا، بتفويض من ج. سمايلي.

هايدن، أثناء بحثه عن كونترول، كان متوتّرًا: «إذًا ما القصة الآن؟ يجذب أيرلندا إلى الشبكة ليتسبّب بتبديل مؤسساتيّ، كما أعتقد. يا إلهي، إنّ صاحبك مضجر!».

انطفأت أضواء الفان ولكن تابع سمايلي التحديق في سطحها. كيف يعيشون؟ تساءل. كيف يتدبّرون أمر الماء، والنقود؟ وحاول فهم منطق حياة سكّان الكهوف في ساسكس غاردنز: الماء، والصرف الصحيّ، والكهرباء. كانت آن ستتدبّر أمرها جيدًا؛ وكذلك بِل.

وقائع. ما هي الوقائع؟

الوقائع كانت أنّني عدت في ليلة صيفيّة قبل وتشكرافت فجأةً من برلين لأجد بل هايدن مستلقيًا على أرض صالة الاستقبال في منزلي في شارع بايووتر، فيما كانت آن تشغّل أسطوانة لِيْست على الغراموفون. كانت آن تجلس بعيدًا عنه في نهاية الغرفة مرتديةً الروب دو شامبر بلا مكياج. لم يكن ثمة ما يريب، إذا كان كلاهما يتصرّف بشكل طبيعيّ على نحو مؤلم. بحسب بِل، كان قد جاء في طريقه من المطار، وقد وصل للتو

من واشنطن؛ كانت آن نائمة ولكنها أصرّت على الاستيقاظ لاستقباله. اتفقنا أنّ الأمر كان مؤسفًا لأننا لم نتشارك تاكسي من هيثرو. غادر بل، فسألتها: «ما الذي كان يريده؟». وأجابت آن: «كتف ليبكي عليها». كان بِلْ يعاني من مشكلة عاطفيّة، وأراد الفضفضة. هكذا قالت.

«فيليسيتي في واشنطن تريد طفلًا وجان في لندن لديها طفل».

«طفل بِلْ؟».

«الله أعلم. متأكدة بأنّ بِلْ لا يعلم».

في الصباح التالي، ودون قصد، علم سمايلي بأنّ بل كان في لندن منذ يومين، وليس منذ يوم واحد. وبعد تلك الحادثة بدأ بل يُظهر اختلافًا واضحًا في معاملته مع سمايلي فيما كان سمايلي يردّ بأفعال لباقةٍ تليق بالأصدقاء الجُدُد. وخلال هذا، اكتشف سمايلي أنّ السر قد انكشف، وأنّه لا يزال مذهولًا من السرعة التي تم فيها ذلك. افترض أنّ بل تباهى أمام شخص ما، ربما كان بلاند. ولو كان الأمر صحيحًا، كانت آن قد خرقت ثلاثًا من قواعدها. بِلْ كان من السيرك، كما كان من الجماعة - وهي الكلمة التي تستخدمها للدلالة على العائلة وصلات القربى. وبشتى الأحوال، كان ينبغي أن يكون خارج الحسابات. ثالثًا، استقبلته في شارع بايووتر، وهذا انتهاك للّباقة الخاصة بالمناطق.

منسحبًا مرةً أخرى إلى حياته المنعزلة، انتظر سمايلي كي تقول آن شيئًا. انتقل إلى الغرفة الإضافيّة، ورتّب لنفسه لقاءات مسائيّة كثيرة بحيث لا ينتبه كثيرًا لخروجها وعودتها. تدريجًا، لاحظَ أنّها تعيسة جدًا. خسرت شيئًا من وزنها، كما فقدت إحساس المتعة الخاص بها، ولو لم يكن يعرفها تمامًا كان سيُقسم أنّها تحسّ بوطأة الذنب الشديد، إن لم يكن الاشمئزاز من نفسها. عندما كان يحاول ملاطفتها، كانت تصدّه بجفاف؛ لم تُبدِ اهتمامًا بالتسوّق من أجل الكريسماس وبدأت تسعل بشدّة وهذا دلالة خاصة بها على كونها يائسة. ولو لم يكن ذلك الوقت متزامنًا مع عمليّة تستيفاي، كانا

سيرحلان إلى كورنوول على نحو أبكر. اضطرا إلى تأجيل الرحلة حتى كانون الثاني/ يناير، حيث كان كونترول قد فارق الحياة، وأخرج سمايلي من العمل، ومالت كفة الميزان: وزادت آن من تعذيبه بإخفائها ورقة هايدن بكلّ ما بحوزتها من أوراق أخرى في جعبتها.

إذًا ما الذي حدث؟ هل قطعت العلاقة؟ هل فعلها هايدن؟ لمَ لم تتحدث عن الموضوع؟ هل كانت القصة تستحق، وهل هي قصة من بين قصص أخرى؟ استسلم. ومثل قط الشيشاير كان وجه بِلْ هايدن يتراجع كلّما تقدّم هو، تاركًا مجرد ابتسامة وراءه. ولكن كان يعلم بأنّ بل قد آذاها بشدة على نحو ما، وهو ما كان خطيئة الخطايا.

19

عائدًا بتنهيدةٍ إلى طاولة اللعب القميئة، تابع سمايلي قراءته لتقدّم ميرلين منذ أُرغم على التقاعد من السيرك. النظام الجديد لبيرسي أليلاين، كما لاحظ مباشرة، تسبّبَ بتغيّرات جيّدة عديدة في مسيرة ميرلين. بدا وكأنّه نضوج، واستقرار. قلّت الاندفاعات الليليّة إلى العواصم الأوروبيّة، وأصبح تدفّق المعلومات الاستخباريّة أكثر انضباطاً وأقل اضطرابًا. كان ثمة ما يستدعي الصداع بالطبع. استمرت مطالبات ميرلين بالمال – مطالبات، من دون أن تكون تهديدات أبدًا –، ومع الانحدار الثابت في قيمة الجنيه تسبّبت هذه الدفعات الكبيرة بالقطع الأجنبيّ بكثيرٍ من الضيق للخزينة. بل كان ثمة اقتراح مرةً، لم يُتابَع، بأنه «طالما أنّنا البلد الذي اختاره ميرلين، ينبغي أن يكون جاهزًا لتحمّل نصيبه من مشكلاتنا الماليّة». انفجر هايدن وبلاند بالطبع: «ليست لديّ جرأة لذكر هذا الموضوع أمام موظفيّ مجددًا». كتب أليلاين بصراحة نادرة إلى الوزير.

كان ثمة مطالبة كذلك بكاميرا جديدة، الأمر الذي حُطّم بشدّة إلى مكوّناته الأوليّة عبر قسم الهندسة، ليصبح أخيرًا مجرد مصباح عاديّ بصناعة سوفياتيّة. أُرسل المصباح، بعد مناشدات مؤلمة، من مكتب الخارجيّة هذه المرة، إلى موسكو عبر الحقيبة الدبلوماسيّة. كانت المشكلة آنذاك متمثّلة

بالتسليم. لم يكن ممكنًا إعلام العملاء المقيمين بهويّة ميرلين، كما لم يعرفوا ماهيّة المصباح. كان من الصعب التعامل مع المصباح، ولم يكن ليتّسع في قعر سيارة العميل المقيم. بعد عدة محاولات، تم التسليم على نحو مرتَجَل، ولكنّ الكاميرا لم تعمل ما تسبّب بتوتّر شديد بين السيرك وعملائه المقيمين بالنتيجة. ثم نُقل نموذج أقل تطوّرًا عبر إيسترهيز إلى هلسنكي حيث تم تسليمه - بحسب ملاحظة أليلاين للوزير - إلى «وسيط موثوق لا يمكن إيقاف قدرته على اختراق الحدود».

فجأةً، انتفض سمايلي جالسًا.

كتب أليلاين للوزير، في ملاحظة مؤرّخة في 27 شباط/ فبراير من تلك السنة: «لقد تحدثنا، وقد وافقتَ على إنجاز تقييم داعم للخزينة بشأن بيت في لندن يُضاف إلى ميزانيّة وتشكرافت».

قرأها مرةً، ثم أخرى ببطء أكبر. كانت الخزينة قد خصّصت ستة آلاف جنيه للبيت وعشرة آلاف أخرى للأثاث والمعدات. ولتخفيض النفقات، طلبوا من محاميهم معالجة الموضوع. رفض أليلاين الكشف عن العنوان. وللسبب ذاته، كان ثمة جدل بشأن الشخص الذي سيكون مسؤولًا عن صك الملكيّة. هذه المرة، شدّدت الخزينة من موقفها وجعلت محامييها يفرضون شروطًا لاستعادة البيت في حالة وفاة أليلاين أو إفلاسه. ولكنّه احتفظ بالعنوان لنفسه، وكذلك تبرير هذه التكاليف الكبيرة لعملية يفترَض بأنّها تحدث في الخارج.

بحث سمايلي بنشاط عن تفسير. الملفات الماليّة، أكّد بسرعة، كانت حريصةً على عدم إدراج سبب. كانت تقتصر على إشارة غامضة وحيدة إلى بيت لندن، وذلك عندما تضاعفت المبالغ: الوزير إلى أليلاين: «أعتقد أنّ بيت لندن لا يزال ضروريًا؟». أليلاين إلى الوزير: «بالتأكيد. بل وسأقول بأنّه مهمّ أكثر من أيّ وقت سابق. وسأضيف أنّ دائرة المعرفة لم تتّسع منذ محادثتنا الأخيرة». معرفة! أيّة معرفة؟

لم يفهم شيئًا إلى أن عاد إلى الملفات التي كانت تمتدح نتاج وتشكرافت الذي جعله ينتصر في الجدال. دُفع للبيت في آذار/ مارس الماضي. وتبعه الشغور مباشرة. ومنذ التاريخ ذاته بالضبط، بدأ ميرلين باكتساب شخصيّة، وقد توضّح هذا في تعليقات الزبائن. حتى الآن، بحسب عين سمايلي المتشكّكة. كان ميرلين آلة: خاليًا من الأخطاء في العمل، مخيفًا في قدرته على حرية الوصول إلى المعلومات، متحرّرًا من القيود التي تعيق عمل معظم العملاء. والآن فجأة بدأت تنتابه نوبات غضب.

«نقلنا لميرلين أسئلتك المتعلقة برأي الكرملين المهيمن بشأن فائض بيع النفط الروسيّ إلى الولايات المتحدة. اقترحنا عليه، بناء على طلبك، تعارُض هذا الأمر مع تقريره الشهر الماضي أنّ الكرملين يتقرّب حاليًا من حكومة تاناكا بهدف توقيع عقد لبيع النفط السيبيري في السوق اليابانية. لم يجد ميرلين تناقضًا بين التقريرَين، ولم يحدّد السوق التي ستكون مفضلة».

ندمت الحكومة على تهوّرها.

«لن يكرر ميرلين عدم الإضافة إلى تقريره بشأن قمع الجورجيين وأحداث الشغب في تبليسي. وبما أنّه ليس جورجيًا، فقد تبنّى وجهة النظر الروسيّة التقليدية بأنّ جميع الجورجيين لصوص ومتسكّعون، و من الأفضل سجنهم»...

قررت الحكومة عدم نشر التقرير.

اقترب ميرلين فجأة. هل كان هذا بفعل امتلاك بيت لندن بحيث أعطى هذا الإحساس الجديد لسمايلي بشأن الاقتراب الفيزيائيّ لميرلين. من الهدوء البعيد لشتاء موسكوفيّ، بدا ميرلين فجأة وكأنه جالس أمامه هنا في الغرفة الفوضويّة؛ في الشارع خارج نافذته، ينتظر المطر، حيث كان مندل يُبقي حارسه بين الفينة والأخرى على حد علمه. هنا، وفجأة، ظهر

ميرلين ليتحدث ويرد ويُدلي بآرائه: ميرلين الذي حان وقت لقائه. لقاؤه هنا في لندن؟ يتم إطعامه، وتسليته، ومناقشته في منزل يكلّف ستة آلاف جنيه حيث كان يريح جسده لُيلقي نكاتًا عن الجورجيين؟ ما دائرة المعرفة تلك التي شكّلت نفسها الآن حتى ضمن حدود الدائرة الأوسع لأولئك المخوّلين بمعرفة أسرار عملية وتشكرافت؟

عند هذه النقطة، ظهرت شخصيّة غير متوقعة على المسرح: ج. ب. ر، مجنَّد جديد في الزمرة المتعاظمة في مكاتب الحكومة من المتخصصين بتقييم وتشكرافت. مراجعًا لائحة الملقّنين، اكتشف سمايلي أنّ اسمه الكامل هو ريبل، وأنّه كان عضوًا في قسم الأبحاث في مكتب الخارجيّة. ج. ب. ريبل كان محتارًا.

ج. ب. ر إلى حزب العمل الأدرياتيكيّ (ح. ع. أ): «هل تسمحون لي بلفت انتباهكم إلى تناقض واضح بخصوص التواريخ؟ وتشكرافت رقم 104 (المباحثات السوفياتية-الفرنسية بشأن إنتاج مشترك لطائرة) مؤرّخ في 21 نيسان/ أبريل. وبحسب تقارير التغطية التفصيليّة الخاصة بكم، حصل ميرلين على هذه المعلومة من الجنرال ماركوف مباشرة في اليوم الذي تلا اتفاق فريقَيْ التفاوض على تبادل سريّ للملاحظات. ولكن في هذا اليوم، 21 نيسان/ أبريل، بحسب سفارتنا في باريس، كان ماركوف لا يزال في باريس، فيما كان ميرلين، بحسب تقريركم رقم 109، يزور مؤسسة أبحاث صاروخيّة خارج لينينغراد»...

وأدرجت الرسالة ما لا يقل عن أربعة «تناقضات» مماثلة، ستُعطي عند تناولها معًا درجةً ما من التشكيك في القدرات العجائبيّة المرتبطة باسم ميرلين.

تم إبلاغ ج. ب. ريبل بكلمات واضحة أن يهتم بشؤونه. ولكن في رسالة منفصلة إلى الوزير، أعلن أليلاين إقرارًا غريبًا ألقى ضوءًا جديدًا تمامًا على طبيعة عملية وتشكرافت.

«سرّي وشخصيّ للغاية. تحدثنا. ميرلين، كما عرفتَ منذ مدة، ليس مصدرًا واحدًا بل هو مصادر عديدة. ومع أننا عملنا أقصى جهدنا - لأسباب أمنيّة - كي نُخفي هذه الحقيقة عن قرّائنا، فإنّ الكَمّ الضخم من المعلومات يزيد من صعوبة الاستمرار بهذه القصة. ألم يحِن الوقت بعد كي نعلن هذا، على نطاق محدود على الأقل؟ وعلى الصعيد ذاته، لن يضرّ الخزينة أن يعلموا بأنّ العشرة آلاف فرنك سويسريّ الخاصة بميرلين، والمبلغ ذاته الخاص بالنفقات والتكاليف الجارية، تكفي بالكاد مع ملاحظة أنّ القماشة تُقسَّم على نحو كبير».

ولكن الرسالة انتهت بملاحظة صارمة: «ومع ذلك، حتى لو وافقنا على فتح الباب بهذا الاتساع، أعتبر أنّ من الضروريّ إبقاء قضية معرفة بيت لندن، وغاية استخدامه، في حدّها الأدنى. في الحقيقة، حالَ انتشار هوية ميرلين بين قرّائنا، ستتزايد حساسيّة عملية لندن».

محتارًا تمامًا، قرأ سمايلي هذه المراسلات مرات عديدة. ثم، كما لو أنّ فكرةً مفاجئة احتلّته، نظر إلى الأعلى، بحيث بدا وجهه أشبه بمرآة من الحيرة. كانت أفكاره تبحر بعيدًا، بل كانت شديدة العمق والتعقيد فعليًا، بحيث رنّ الهاتف عدة مرات قبل أن يتنبّه ليجيب. رفع السماعة، ونظر إلى ساعته؛ كانت السادسة مساء، وكان يقرأ منذ ساعة تقريبًا.

«سيد باراكلوك؟ أنا لوفتهاوس من قسم الماليّة سيدي».

بيتر غويلام، مستخدمًا إجراء الطوارئ، كان يطلب عبر العبارات المتفَق عليها لقاءً عاجلًا، وقد بدا مضطربًا.

20

لا يمكن دخول أرشيف السيرك من المدخل الرئيسيّ. كان الطريق إليه متعرّجًا عبر الغرف الرثّة ومصطبة الدرج في القسم الخلفيّ من البناء، بحيث يبدو مثل مكتبة للكتب المستعملة مهجورةٍ هناك، أكثر من كونه الذاكرة المنظَّمة لقسم ضخم. كان يمكن الوصول إليه عبر ممر مظلم في طريق تشارنغ كروس محشورًا بين محل لبيع إطارات الصور ومقهى مفتوح على مدار الساعة جميع زبائنه من موظّفي السيرك. ثمة لافتة على الأرض تقول «مدرسة اللغة للمدينة والريف، الدخول مسموح للكادر فقط»، ولافتة أخرى «سي و ل ليميتد للتوزيع». ولكي تدخل كان عليك ضغط الجرس مرة أو اثنتين ثم تنتظر وصول آلوين، وهو جنديّ بحريّة مخنّث لا يتحدث إلا عن العطل الأسبوعيّة. حتى يوم الأربعاء تقريبًا يتحدّث عن العطلة السابقة، وبعد ذلك يتحدّث عن العطلة القادمة. هذا الصباح، وهو يوم ثلاثاء، كان في مزاج متوتّر.

«حسنًا، ماذا عن تلك العاصفة؟»، بادر بالقول وهو يدفع الدفتر عبر الكاونتر كي يوقّع عليه غويلام. «وربما عليك العيش في منارة. طوال السبت، وطوال الأحد. قلتُ لصديقي: ها نحن ذا وسط لندن، أنصت إليها. هب تريدني أن أتولّى الأمر عنك؟».

قال غويلام معيدًا الدفتر البنيّ إلى يدي آلوين المنتظرتين: «كان ينبغي

عليك أن تكون حيث كنتُ، تتحدث عن الإنصات، فيما تكاد لا تحافظ على اتّزان وقفتك».

لا تبالغ في الود، فكّر في نفسه.

«ومع ذلك أنا أحب الريف»، أردف آلوين، مستندًا بقبضته إلى باب خزانة مفتوح خلف الكاونتر. «تريد رقمًا إذًا؟ يُفترض بي أن أعطيك واحدًا، ستقتلني الدولفين لو علمت بذلك».

«سأثق بك»، قال غويلام. صاعدًا الدرجات الأربع، ودفع الباب الدوّار المُفضي إلى غرفة القراءة. كان المكان أشبه بقاعة محاضرات: دزينة من المقاعد باتّجاه واحد، ومنصّة مرتفعة حيث تجلس موظفة الأرشيف. اختار غويلام مقعدًا في الخلف. كان الوقت لا يزال مبكّرًا - العاشرة وعشر دقائق بحسب ساعته - وكان القارئ الآخر الوحيد هو بن ثروكستن من قسم الأبحاث، الذي كان يقضي معظم وقته هنا. منذ زمن بعيد، متنكّرًا بهويّة منشقّ ليتوانيّ، انخرط بن مع الثوريين في شوارع موسكو هاتفًا بموت الطغاة. وها هو منكبٌّ الآن على أوراقه كقسٍّ عجوز، بشعره الأبيض وصمته المطبق.

عندما رأت غويلام واقفًا بقرب مكتبها، ابتسمت موظفة الأرشيف. معظم الأحيان، بعد جمود بركستون، كان غويلام يقضي يومًا كاملًا يبحث في القضايا القديمة عن قضيّة يمكن أن تحمل أملًا ما. كانت سال، وهي فتاة ممتلئة الجسم، رياضيّة تدير ناديًا رياضيًا شبابيًا في تشيزويك، وتحمل حزامًا أسود في الجودو.

«هل كسرتِ أعناقًا جديدة في العطلة الماضية؟»، سألها، مادًا يده ليأخذ رزمة أوراق طلبات خضراء.

أعطته الملاحظات التي حفظتها له في خزانتها الحديديّة.

«اثنتان. ماذا عنك؟».

«أزور خالاتي في شرويشاير، شكرًا».

«يا لهنّ من خالات»، قالت سال.

واقفًا قرب مكتبها، ملأ الأوراق من أجل الإحالتين التاليتين على لائحته. وراقبها وهي تختمها، وتمزّق القسم العلويّ، لتلصقه على مكتبها.

تمتمت، معيدةً إليه نسخ الطلبات. «الممر (د)، الثمانيتان في منتصف الطريق على يمينك، والثلاث واحدات في الكوّة التي تليها».

دفع الباب ، ودخل إلى الصالة الرئيسية. في المنتصف كان ثمة مصعد قديم كحجرة عامل منجم يحمل الملفات إلى داخل السيرك. وعاملان شابان يملآنه بالأوراق، فيما يقف ثالث ليشغّل الونش. تحرَّك غويلام ببطء عبر الرفوف وهو يقرأ البطاقات المرقّمة المضاءة بالفلورسنت.

شرح له سمايلي بنبرته القلقة المعتادة. « يقسم ليكون أنه لا يحتفظ بأي ملف بشأن تستيفاي على الإطلاق، لديه بضع أوراق بشأن تسوية وضع بريدو، ولا شيء آخر». وتابع بالنبرة المتوتّرة ذاتها: «لذا أخشى أنّ علينا إيجاد وسيلة للحصول على كل ما هو موجود في سجلات السيرك».

«الحصول» بحسب قاموس سمايلي تعني «السرقة».

ثمة فتاة تقف على سلم. أوسكار أليتسن، المشرف، كان يملأ سلة غسيل بالملفات، فيما كان آستريد عامل الصيانة يصلح شبكة التدفئة المركزية. كانت الرفوف خشبية عميقة مقسّمةً إلى فتحات بحواجز كرتونيّة. كان يعلم مسبقًا أنّ الإحالة الخاصة بتستيفاي تحت رقم أربعة-أربعة ثمانية-اثنان (م)، والتي تعني الكوّة رقم أربعة وأربعين، حيث هو واقف الآن. م تعني منقرض، وتُستخدم للعمليات الميتة فقط. بدأ غويلام العَدّ وصولاً إلى الكوّة الثامنة من اليسار. لا بد أن تكون تستيفاي الثانية من اليسار ولكن لم تكن ثمة وسيلة للتأكد لأن الرفوف كانت غير مرقّمة. انتهت رحلة الاستطلاع، وأخرج الملفَين المطلوبَين، تاركًا الورقتَين الخضراوين في الرف المعدنيّ المخصص لهما.

«لن تكون هناك ملفات كثيرة، أنا واثق»، كان سمايلي قد أخبره، كما لو أن التعامل مع الملفات الأصغر حجمًا أسهل. «ولكن لا بد من أن يوجد شيء ما، حتى لو كان ذلك لمجرد المظهر». كان هذا أمرًا آخر لا يحبّه غويلام فيه: كان يتحدّث كما لو كان يتبع حدسه، وكما لو كان يسكن داخل عقله طوال الوقت.

جالسًا، متظاهرًا بالقراءة، ولكنه يُضيّع الوقت مفكّرًا بكاميلا. ما الذي كان يفترض به أن يفعل بشأنها؟ باكرًا هذا الصباح، حينما كانت مستلقية بين ذراعيه، أخبرته أنّها كانت متزوجة من قبل. أحيانًا كانت تتحدّث هكذا: كما لو أنها كانت قد عاشت عشرين حياة. كانت الخطوة خاطئة، لذا تراجعا عنها.

«ما الذي حدث؟».

«لا شيء. لم نكن مناسبَين لبعضنا».

لم يصدّقها غويلام.

«هل تطلّقت؟».

«أعتقد ذلك».

«لا تكوني سخيفة إلى هذا الحد، لا بد أن تعلمي ما إذا كنت مطلّقة أم لا!».

تولّى والداها الأمر، قالت؛ كانت أجنبية.

«هل يرسل إليك مالًا؟».

«لِمَ ينبغي عليه ذلك؟ هو لا يدين لي بشيء».

ثم الفلوت مجددًا، في الغرفة الاحتياطيّة، نوتات طويلة تأمّلية في الغرفة نصف المضاءة وغويلام يحضّر القهوة. هل هي زائفة أو مَلاك؟ فكّر على نحو نصف جديّ بالبحث عن اسمها في السجلات. كان لديها درس مع ساند بعد ساعة.

مجهّزًا بقصاصة خضراء مع إحالة تحت رقم أربعة-ثلاثة، أعاد الملفَين إلى مكانهما ووقف قرب الكوّة المجاورة لملفات تستيفاي.

«هروب بسيط هادئ»، فكّر.

لا تزال الفتاة على السلم. اختفى أليتسن ولكنّ السلة لا تزال في مكانها. كانت شبكة التدفئة قد أرهقت أستريد لذا جلس بقربها يقرأ الصن. كان الرقم على القصاصة هو أربعة-ثلاثة أربعة-ثلاثة، فوجد الملف مباشرة لأنه كان قد حدّد مكانه من قبل. كان بغلاف ورديٍّ كغلاف تستيفاي. وكان باليًا بالقدر الذي كان عليه ملف تستيفاي. وضع القصاصة الخضراء على الرف. تحرك متراجعًا عبر الممر، تفقّد أليتسن والفتيات، ثم مد يده إلى ملف تستيفاي واستبدله بسرعة بالملف الذي يحمله.

قال سمايلي: «اعتقد بأنّ الأمر الحاسم يا بيتر ليس ترك فراغ. لذا فما أقترحه هو حصولك على ملف مشابه، مشابه شكليًا، أعني، لتضعه في الفراغ الذي يتركه...».

«فهمتك»، قال غويلام.

حاملًا ملف تستيفاي على نحو لا يلفت الانتباه في يده اليمنى، مُديرًا العنوان ناحية جسده، عاد غويلام إلى غرفة القراءة وجلس على مقعده مجددًا. رفعت يال حاجبيها وتمتمت بكلمة ما. أومأ غويلام برأسه أنّ كل شيء على ما يرام، معتقدًا أنها كانت تسأله، ولكنها أومأت له بالاقتراب. شعر بالذعر للحظة. هل آخذ الملف معي أم أتركه؟ ما الذي أفعله عادة؟ تركه على المقعد.

همست سال: «جولييت ستُحضر قهوة هل ترغب بفنجان؟».

وضع غويلام شلنًا على الكاونتر.

نظر إلى ساعة الجدار، ثم إلى ساعته. يا إلهي، توقف عن النظر إلى ساعتك اللعينة! فكّر بكاميلا، فكر بها وهي تبدأ درسها الآن، فكّر بتينك

الخالات اللواتي لم تقضِ العطلة معهنّ، فكر بالطريقة التي ستُلهيه فيها عن النظر في حقيبتك. فكر بأي شيء ما عدا الوقت. ثماني عشرة دقيقة من الانتظار. «بيتر، لو كان لديك أدنى تحفّظ، لا ينبغي عليك المضيّ في الأمر حقًا. ليس ثمة ما هو أهم من هذا». عظيم، وكيف بوسعك تمييز التحفّظ فيما ثلاثون فراشة صغيرة تحلّق في معدتك، والعرق يبدو كمطر خفيّ داخل قميصك؟ أبدًا، أقسم، لم يكن الوضع يومًا أسوأ من الآن.

فتح ملف تستيفاي، وحاول قراءته.

لم يكن صغيرًا كما يبدو للوهلة الأولى، ولكنّه لم يكن سميكًا كذلك. بدا مثل مجلّد تذكاريّ، كما قال سمايلي: سلسلة الأوراق الأولى متعلقة بتوصيف ما هو مفقود. الملاحق من 1 إلى 8 عند محطة لندن، الإحالة إلى إليس جم، بريدو جم، هاجيك فلاديمير، كولينز سام، هابولت ماكس ... والعم توم كوبلي والجميع. «من أجل هذه الملفات، راجع مدير محطة لندن أو م م»، أي مدير السيرك والسكرتيرات الأمهات. لا تنظر إلى ساعتك، انظر إلى ساعة الجدار ، وقم بالحسابات أيها الأحمق. ثماني دقائق. من الغريب النبش في ملفات سلف المرء. من الغريب أن يكون جِمْ سلفًا لأحد، لو فكّرت بالأمر مليًّا، وسكرتيرة تُبقي عمله دائرًا من دون أن تذكر اسمه. الأثر الحي الوحيد الذي وجده غويلام عنه، بخلاف اسمه الحركيّ على الملفات، كان مضرب الاسكواش المحشور خلف خزنته في المكتب، مع حرفي ج. ب. محفورة باليد على القبضة. أراه لإيلين، وهي عجوز صارمة قد تجعل من ساي فانهوفر مجرد تلميذ مقارنةً بها، فانفجرت بطوفان دموع، لذا لفّه وأرسله إلى مدبّري المنزل في العربة التالية مع ملاحظة شخصيّة إلى الدولفين مصرًّا على إعادته إليه «لو كان ذلك ممكنًا». كيف تمارس ألعابك اليوم يا جِمْ مع رصاصتين تشيكيتين في عظم كتفك؟

لا يزال الوقت عالقًا عند ثماني دقائق.

قال سمايلي: «ولو كان بوسعك تدبّر الأمر، أعني إن لم يسبّب لك

هذا الكثير من الإزعاج، أن تأخذ سيارتك من أجل عمل في كراجك. استخدام هاتفك في المنزل لتحديد موعد، على أمل أن يكون توبي يتنصّت بالطبع...».

على أمل. يا إلهي. وكل تلك الأحاديث الحميمة مع كاميلا؟ ثمان دقائق أيضًا.

بدا ما تبقى من الملف عبارة عن تلغرافات مكتب الخارجية، قصاصات من صحف تشيكية، تقارير المراقبة على إذاعة براغ، مقتطفات من ملف إداري بشأن تسوية وضع وإعادة تأهيل العملاء الذين اكتُشف أمرهم، مسوَّدات إيصالات للخزينة، ورسالة من أليلاين تُفتح بعد وفاته يلقي اللوم فيها على كونترول بشأن الحادثة. آمل أن يكون أوانك قبل أواني يا جورج.

في عقله، بدأ غويلام قياس المسافة من مقعده إلى الباب الدوّار حيث كان يقبع آلوين في مكتب الاستقبال. خمّن أنّها خمس خطوات كبيرة، فقرر القيام بحركة تكتيكية. على بعد خطوتين من الباب توجد خزانة مخططات تبدو مثل بيانو أصفر كبير. كانت تغصّ بملاحق الإحالات: خرائط ضخمة، نسخ من كتاب سير الشخصيات الشهيرة، وكتبًا قديمة للدليل السياحي. وضع قلم رصاص بين أسنانه، وحمل ملف تستيفاي، وتوجه إلى الصندوق، واختار دليل هاتف لوارسو وبدأ كتابة الأسماء على قصاصة ورق. يدي! صرخ صوت داخله: يدي ترتجف طوال الوقت، انظر إلى هذه الأرقام، أبدو كسكران! لمَ لم يلاحظ أحد ذلك؟ جاءت الفتاة جولييت مع صينيتها ووضعت فنجانًا على مقعده. أرسل إليها قبلة متوترّة. ثم اختار دليل هاتف آخر، وضعه قرب الأول. وعندما جاء آلوين عبر الباب لم يكلّف نفسه عبء رفع رأسه.

«هاتف يا سيدي»، تمتم.

« من هو؟ فليذهب إلى الجحيم»، قال غويلام دافنًا رأسه في الدليل.

«خط خارجي يا سيدي. شخص صارم. الكراج كما أعتقد، بخصوص سيارتك. قال إنّ لديه أنباء سيئة لك»، قال آلوين وقد بدا شديد الابتهاج.

كان غويلام يحمل ملف تستيفاي بكلتا يديه، بحيث بدا وكأنّه يقارن المعطيات مع الدليل أمامه. كاد يدير ظهره إلى سال وبوسعه التقاط ارتعاش ركبتيه تحت بنطاله، وكان القلم لا يزال محشورًا بين أسنانه. تابع آلوين طريقه، وأمسك الباب له، ثم عبره وهو لا يزال يقرأ الملف: كطفل لعين في الكورس، فكر. انتظر البرق كي يصعقه، وسال كي تقتله، وبن العجوز السوبر جاسوس كي تعود إليه الحياة فجأة، ولكن لم يحدث أي شيء. شعر بشيء من التحسّن: آلوين حليفي، أثق به، كلانا متّحدان ضد الدولفين، بوسعي التحرك. أُغلق الباب الدوار، فنزل الدرجات الأربع، حيث كان آلوين هناك أيضًا يمسك الباب المفتوح لحجرة الهاتف. كان الجزء السفليّ مسيّجًا فيما كان القسم العلويّ زجاجيًا. رفع السماعة ورمى الملف عند قدميه وسمع مندل وهو يخبره أنّه يحتاج إلى صندوق عدة جديد، وأنّ هذا قد يكلّف مئة جنيه. كانا قد اختلقا هذا الحديث في حال كان مدبّرو المنزل أو أيّ شخصٍ آخر سيستمع إلى السجلات الهاتفية، وانغمس غويلام في الحديث على نحو رائع إلى أن عاد آلوين وراء مكتبه، منصتًا كنسر. الخطة تعمل، فكر، أنا أطير، لقد نجحت الخطة في نهاية الأمر. سمع نفسه وهو يقول: «حسنًا، على الأقل اتصل بالعملاء الأساسيين واعلم مدى الوقت الذي سيستغرقونه لتأمين الشيء اللعين. هل لديك رقمهم؟» ثم بغضب: «انتظر».

وارب الباب مبقيًا السماعة خلف ظهره لأنه كان شديد القلق أن لا يظهر هذا الجزء على الشريط. «آلوين، أحضر لي تلك الحقيبة لو سمحت».

جلبها آلوين بحرص، مثل رجل الإسعاف في مباراة كرة قدم. «هل هذا جيد سيد غويلام، سيدي؟ هل أفتحها لك؟».

«ضعها هناك فحسب، شكرًا».

كانت الحقيبة على الأرض خارج الحجرة. توقف الآن، وسحبها إلى الداخل وفتحها. في الوسط، بين قمصانه وكومة الجرائد، كان ثمة ثلاث ملفات زائفة، أصفر، وأخضر، ووردي. أخرج الورديّ ودفتر عناوينه واستبدلهما بملف تستيفاي. أغلق السحّاب، نهض وأعطى مندل رقم هاتف، هو الرقم الصحيح فعلاً. أغلق السماعة، أعطى آلوين الحقيبة وعاد إلى غرفة القراءة مع الملف الزائف. توقف عند خزانة المخططات، وتناول دليلين آخرين ثم دخل إلى غرفة الأرشيف مع ملفّه الزائف. كان أليتسن عالقًا في روتين كوميدي، حيث يجرّ سلة الغسيل ثم يعاود دفعها.

«بيتر، هل لك أن تساعدنا لو سمحت، أنا عالق هنا».

«نصف ثانية».

مستعيدًا ملف أربعة-ثلاثة من كوّة ملف تستيفاي، استبدله بالزائف، وأعاده إلى مكانه الصحيح في الكوّة أربعة-ثلاثة وأزال القصاصة الخضراء من الرف. الرب في سمائه وكانت حصيلة الليلة الأولى رائعة. كان بوسعه الصياح عاليًا: الرب في سمائه ولا يزال بإمكاني الطيران.

أخذ القصاصة إلى سال، التي وقّعتها وغرزتها في مخْرَز أمامها كما تفعل دائمًا. في وقت لاحق اليوم ستفقد الأوراق. لو كان الملف في مكانه الصحيح ستُتلف القصاصة الخضراء والقصاصة الأخرى من الصندوق، ولن يكون بمقدور حتى الذكية سال تذكّر أنّه كان بجانب الكوّة أربعة-أربعة. كان على وشك العودة إلى الأرشيف لمساعدة العجوز آليتسن عندما وجد نفسه يحدّق مباشرةً بالعينين البنيّتين الجلفتين لتوبي إيسترهيز.

قال توبي بلهجته الإنكليزية العكرة: «بيتر، آسف جدًا لإزعاجك ولكن لدينا مشكلة صغيرة ويريد بيرسي أليلاين التحدث إليك على نحو عاجل. هل بإمكانك القدوم الآن؟ سيكون هذا من لطفك». وعند الباب، عندما شيّعهما آلوين: «يريد رأيك فعلًا، يريد استشارتك بشأن أمر ما»، أشار بفضول رجل صغير الشأن ولكن ينتظره مستقبل صاعد.

في لحظة إلهام يائسة التفت غويلام إلى آلوين وقال: «ثمة سيارة نقل ستتجه إلى بركستون في الظهيرة. هل لك أن تتصل بعمّال النقل لينقلوا الغرض من أجلي، لو سمحت؟».

«سأفعل يا سيدي، سأفعل. انتبه لنفسك يا سيدي».

وصلِّ من أجلي، فكر غويلام.

21

«وزير خارجيّتنا في حكومة الظل»، خاطبه هايدن. وكان الحرّاس يسمّونه بياض الثلج بسبب شعره. كان توبي إيسترهيز يرتدي ثيابًا أنيقة كعارض أزياء ولكن في اللحظة التي يُخفض فيها كتفيه أو يُغلق قبضتيه الضئيلتين، كان يبدو على هيئة مقاتل. لاحقًا به في ممر الطابق الرابع، ملاحظًا آلة القهوة مجددًا، وصوت لاودر ستركلاند المفسّر بأنّه كان صعب الملاحقة، فكر غويلام: «يا إلهي، ها قد عدنا إلى برن وعادت المطاردة».

كان على وشك قول هذا لتوبي، ولكنه رأى أنّ المقارنة غير حكيمة.

كلما كان يفكر بتوبي، كان هذا ما يفكر به: سويسرا منذ ثماني سنوات، عندما كان توبي مجرّد مراقب عاديّ ذي سمعة متعاظمة بكونه يتقن التنصّت على نحو غير رسمي. كان غويلام في طريقه إلى شمال أفريقيا، لذا أرسلهما السيرك معًا إلى برن من أجل عملية سريعة لإفشال عمل تاجرَيْ سلاح بلجيكيين كانا يستغلان السويسريين لنشر بضاعتهما في اتجاهات غير مطروقة. استأجرا فيلا بجوار المنزل المستهدَف وفي الليلة ذاتها شغّل توبي علبة اتصالات وأعاد ترتيب الأشياء بحيث أصبح بمقدورهما التنصّت على أحاديث البلجيكيين عبر هاتفهما. غويلام كان المسؤول والمخبر وكان يوصل أشرطة التسجيل مرتين يوميًا إلى العميل المقيم في برن مستخدمًا سيارة مستأجرة كعربة بريد. وبالسهولة ذاتها رشا

توبي ساعي البريد المحليّ ليسمح له بإلقاء نظرة على بريد البلجيكيين قبل تسليمه، وعاملة التنظيف لزرع ميكروفون في صالة الاستقبال حيث كانا يخوضان معظم نقاشاتهما. ولصرف الانتباه كانا يترددان على نادي شيكيتو حيث كان توبي يراقص الفتيات الصغيرات. وبين حين وآخر كان يجلب إحداهنّ إلى المنزل ويصرفها عند الصباح دومًا. وكان توبي يفتح النوافذ للتخلص من الرائحة.

عاشا على هذا المنوال ثلاثة أشهر ولكن غويلام لم يعرف عنه في نهاية الأمر أكثر مما كان يعرف عنه في اليوم الأول. لم يعرف البلد التي ولد فيها حتى. كان توبي خبيرًا يعرف أماكن الأكل واللهو. غسل ثيابه، واعتمر شبكة على شعره الأبيض الثلجي ليلًا، وفي النهار اقتحمت الشرطة الفيلا فقفز غويلام عبر الجدار الخلفي ليجد توبي في فندق بيلفو يأكل المعجّنات ويشاهد مسلسلًا. أنصت إلى غويلام، دفع ما عليه من نقود، ورشا رئيس الخدم ثم فرانز الحَمّال، ثم قطع طريقه عبر سلسلة من الممرات والسلالم وصولاً إلى الكراج تحت البناء حيث أمّن سيارة الهرب وجوازات السفر. وهناك أيضًا، وبكل دقة، دفع فواتيره. «لو كان عليك مغادرة سويسرا على عجل»، فكر غويلام. «ادفع فواتيرك أولًا». كانت الممرات لا نهائية، مع جدران بمرايا وثريات على طراز فرساي، بحيث بدا غويلام وكأنه لا يلاحق توبي واحدًا، بل مجموعة كاملة منه.

كانت تلك هي الذكرى التي استعادها الآن، بالرغم من أنّ الدرج الخشبيّ الضيق المُفضي إلى مكتب أليلاين كان مطليًا بالأخضر، فيما كان ثمة مصباح واحد شحيح بمثابة تلك الثريا في الذكرى.

«للنرَ المعلم»، قال توبي بنبرة جافة للحارس الشاب الذي أدخلهما بإيماءة هادئة. في حجرة الانتظار جلست أربع أمهات عجائز وراء أربع آلات كاتبة رماديّة مزينات بلآلئ وقلادات. أومأن لغويلام متجاهلات توبي. لافتة فوق باب توبي تقول «مشغول». وبجانبها، خزنة حديدية بارتفاع ست أقدام، جديدة. تساءل غويلام عن الكيفية التي احتملت بها

الأرض ثقل الخزنة. فوقها، كانت زجاجات شيري جنوب أفريقية مع كؤوس وصحون. الثلاثاء، تذكّر: اجتماع غداء محطة لندن غير الرسمي.

«لن أتلقّى اتصالات، أخبرهنّ»، صاح أليلاين عندما فتح توبي الباب.

«لن يتلقى المعلم أيّة اتصالات من فضلكنّ سيداتي»، قال توبي ناقلًا الرسالة، ممسكًا الباب كي يدخل غويلام، مضيفًا: «سنعقد اجتماعًا».

ردت إحدى الأمهات: «سمعنا هذا».

كانت حفلة حرب.

كان أليلاين جالسًا على كرسيّ فخم يقرأ مستندًا من صفحتين، ولم تتغير جلسته حين دخل غويلام. اكتفى بالتمتمة: «ابق مكانك. قرب بول. تحت الملح»،[1] وتابع قراءته بتركيز شديد.

كان الكرسي على يمين أليلاين خاليًا، وعرف غويلام من السنّادة المنحنية المربوطة به بخيط، أن الكرسي لهايدن. على يسار أليلاين جلس روي بلاند، يقرأ أيضًا، ولكنه رفع رأسه عند عبور غويلام وقال: «أهلًا بيتر»، ولاحقه وهو يمشي قرب الطاولة بعينيه الشاحبتين القاسيتين. بقرب كرسي بِل الخالي جلست مو ديلاوير، الرمز الأنثوي لمحطة لندن، بشعرها القصير وبزّتها البنيّة. بجانبها كان فل بورتيوس، رئيس مدبّري المنزل، وهو رجل ثريّ يملك منزلًا كبيرًا في الضواحي. عندما رأى غويلام أوقف قراءته كليًا، وأغلق الملف بتباهٍ، ووضع يديه الناعمتين فوقه وابتسم بتكلّف.

«تحت الملح يعني قرب بول سكوردينو»، قال فل، محتفظًا بابتسامته المتكلفة.

«شكرًا. فهمت ذلك».

---

(1) تحت الملح (Below the Salt): تعبير يدلّ على المكانة الدنيا. يعود أصل التعبير إلى القرون الوسطى حين كان الملح يوضع في منتصف طاولة الطعام، بحيث يكون السيّد وعائلته في رأس الطاولة «فوق الملح»، بينما يكون الخدم وذوو المكانة الدنيا «تحت الملح». [المترجم]

إلى جانب بورتيوس ستجد روسيَّيْ بِلْ، اللذين رآهما آخر مرة في تواليت الرجال في الطابق الرابع، نك دي سيلسكي وصديقه كاسبار. كانا عاجزَيْن عن الابتسام وعلى حد علم غويلام كانا عاجزَيْن عن القراءة أيضًا إذ لم تكن ثمة أوراق أمامهما؛ كانا الوحيدَيْن بلا أوراق. جلسا مسندَيْن أيديهما الغليظة على الطاولة كما لو أنّ أحدًا يهددهما بمسدس خلف رأسَيْهما، وكانا يكتفيان بالتحديق فيه بعيونهما البنّية.

بعد بورتيوس جلس بول سكوردينو، الذي يُشاع الآن بأنه رجل روي بلاند بشأن شبكات الأقمار الصناعية بالرغم من أن آخرين قالوا إنه الصبي المطيع لبِلْ. كان بول نحيلًا ودنيئًا في الأربعين من عمره بوجه بني مرقّط وذراعين طويلتين. وكان غويلام قد اشتبك معه مرة في دورة تدريبية في الحضانة وكاد كل منهما يفتك بالآخر.

أزاح غويلام الكرسي وجلس، فيما جلس توبي قربه وكأنه النصف الآخر من الحارس الشخصي. ما الذي يتوقعون مني فعله بحق الجحيم؟ فكر غويلام: أناشدهم من أجل حريتي؟ كان الجميع يراقب أليلاين وهو يملأ غليونه عندما جاء بِلْ هايدن. انفتح الباب ولكن لم يدخل أحد، ثم سُمعت قرقعة هادئة ليظهر بل حاملًا فنجان قهوة بكلتا يديه والصحن فوق الفنجان. كان يتأبط ملفًا ضخمًا مقلّمًا وكانت نظارته على أنفه كنوع من التغيير، لذا لا بد أنه كان يقرأ في مكان ما. كانوا منهمكين في القراءة جميعًا ما عداي، فكر غويلام، ولا أعلم ما الذي يقرونه. تساءل ما إذا كان الملف ذاته الذي كان إيسترهيز وروي يقرآنه البارحة، وقرر بلا دليل أنّ هذا هو الملف؛ وأنّه وصل البارحة؛ وأن توبي أحضره لروي، وأنه أزعجهما بزيارته وشوَّش على إثارتهما؛ لو كانت الإثارة تعبّر عن الموقف.

كان أليلاين لا يزال مطرِقًا. وعبر الطاولة كل ما كان بوسع غويلام رؤيته هو شعره الأسود الكثيف وكتفان عريضتان قويتان. وكانت مو ديلاوير تلعب بخصلة من ناصية شعرها أثناء القراءة. بيرسي كان قد تزوج مرتين، كما يتذكر غويلام، حين اقتحمت كاميلا مخيلته مرة أخرى، وكانت

كلتاهما كحوليتين، ما يدل على شيء ما بكل تأكيد. لم يلتق إلا بالنّسخة اللندنية من زوجتيه فقط. كان بيرسي يؤسس نادي داعميه ويقيم حفلات كوكتيل في شقته ذات الأعمدة العشوائيّة في ضواحي قصر باكنغهام.

وصل غويلام متأخرًا، وحين كان يخلع معطفه في الصالة، اقتربت منه امرأة شقراء شاحبة مادة يديها. ظنّ أنها الخادمة التي ستعلّق معطفه. «أنا جوي»، قالت بصوت مسرحيّ، كما لو أنها تقول «أنا فيرتشو» أو «أنا كونتينانس». لم تكن تريد معطفه، بل كانت ترغب بقبلة. مقتربةً منه، استنشق غويلام عبق جو روفيان وجرعة كبيرة من الشيري الرخيص.

«حسنًا الآن يا بيتر غويلام» – قال أليلاين – «هل أنت مستعد لي الآن أو أنّ لديك اتصالات أخرى لتجريها بشأن منزلي؟». كان قد رفع رأسه قليلًا فانتبه غويلام إلى مثلثين صغيرين من الفرو على وجنتيه الكامدتين. «ما الذي تعمل عليه في الريف هذه الأيام؟»، – قلب صفحة – «بخلاف مطاردتك للعذارى المحليات، لو كان تبقّى منهنّ في بركستون وهذا ما أشك به جدًا – لو غفرت لي حريتي في الحديث يا مو – وتبديد المال العام على ولائم غداء فاخرة؟».

كانت هذه المزحة أداة أليلاين الوحيدة لفتح حديث، قد تكون ودودة أو عدائيّة، منفّرة أو مرحّبة، ولكن في نهاية المطاف كانت بمثابة نقر متكرّر على البقعة ذاتها.

«ثمة عميلان عربيّان يبدوان مبشّرين. ولدى ساي فانهوفر خيط قد يقود إلى دبلوماسي ألماني. هذا كل شيء».

«عرب»، كرر أليلاين، مزيحًا الملف وساحبًا غليونًا خشنًا من جيبه. «يمكن لأي أحمق لعين أن يُحرِق مخططات العرب، صحيح يا بل؟ اشترِ حكومة عربيّة لعينة كاملة بشلنين لو أردت ذلك». ومن جيب آخر أخرج أليلاين كيس تبغ، رماه بخفة على الطاولة. «سمعت أنك تتسكع مع أخينا المغفور له تار. كيف حاله هذه الأيام؟».

عبرت أمور كثيرة عقل غويلام حينما سمع نفسه وهو يردّ بأنّ المراقبة على شقته لم تبدأ إلا الليلة الماضية، هذا ما كان واثقًا منه. وأنّه خلال العطلة كان خارج نطاق المراقبة ما لم يكن فاون المربّي ذو وجهين، وهذا ما سيكون وقعه عليه صعبًا. وأنّ ثمة تشابهًا كبيرًا بين روي بلاند والراحل ديلان توماس، إذ كان روي يذكّره دومًا بشخص ما لم يكن قادرًا على تحديده بدقّة حتى هذه اللحظة التي حدّدت الصلة، فقد كان لديلان توماس عينا روي الزرقاوان الشاحبتان الغريبتان. وأنّ مو ديلاوير كانت تفي بالغرض كامرأة بسبب استرجالها الأسمر فحسب. وأنّ توبي إيسترهيز كان يُخرج سيجارة من علبته الذهبية، وأنّ أليلاين كان عادةً لا يسمح بتدخين السيجارة بل بالغليون فقط، لذا يبدو أنّ علاقة توبي بأليلاين تمضي على نحو ممتاز. وأنّ بل هايدن كان يبدو شابًا على نحو غريب وأنّ شائعات السيرك عن حياته العاطفية لم تكن مضحكة إلى هذا الحد في نهاية المطاف: قالوا إنه ينام مع الجنسين. وأنّ بول سكوردينو يستند بيد سمراء على الطاولة فيما الإبهام منتصب بطريقة جعلت السطح الخارجيّ لليد قاسيًا. كما فكر بحقيبته الكانفاس: هل وضعها آلوين في عربة النقل؟ أم انشغل بغدائه تاركًا إياها في مكتب التسجيل، منتظرًا أن يتم تفتيشه من أحد أولئك الحراس الشبّان الجدد الطامحين بترقية؟ وتساءل غويلام، بحيث لم يكن تساؤله هذا للمرة الأولى، عن الوقت الذي كان فيه توبي يتسكّع في مكتب التسجيل قبل أن يصادفه.

انتقى غويلام نبرة عابثة: «هذا صحيح يا معلم. أتناول الشاي برفقة تار في مقهى فورتنام كل ظهيرة».

كان أليلاين يمجّ غليونه المطفأ ليختبر عَبَق التبغ. قال بلهجته المميزة عامدًا: « بيتر غويلام، قد لا تكون متنبّهًا لهذا، ولكنني ذو طبيعة متسامحة على نحو كبير. تثيرني النية الحسنة في الواقع. كل ما أطلبه هو معرفة موضوع أحاديثك مع تار. لست أطلب رأسه، أو أي جزء آخر من جسده اللعين، وسأكبح هياجي كيلا أخنقه. أو أخنقك». أخذ عود ثقاب وأشعل

غليونه متسبّبًا بلهب ضخم. «بل وقد أصل إلى درجة إلباسك سلسلة ذهبية حول عنقك وإحضارك إلى القصر هنا بدلًا من بركستون الكريهة».

«في هذه الحالة سأتحرق شوقًا لرؤيته»، قال غويلام.

«وثمة عفو مجانيٌّ لتار حتى أضع يدي عليه».

«سأخبره. سيطير من الفرح».

سحابة كبيرة من الدخان طافت فوق الطاولة.

«خبا أملي بك جدًا يا بيتر العزيز. إذ تصغي إلى الافتراءات الشنيعة ذات الطبيعة الماكرة والخبيثة. أدفع لك مالًا شريفًا فتطعنني في الظهر. أعتبر ذلك مكافأة حقيرة جدًا مقابل إبقائك على قيد الحياة، على النقيض مع توصيات مستشاريّ، لو تعلم هذا».

لدى أليلاين الآن عادة جديدة، كان غويلام قد لاحظها معظم الأحيان في الرجال الفارغين ذوي الأعمار المتوسطة: إمساك الجلد تحت الذقن، وتدليكه بين السبّابة والإبهام على أمل الإخضاع.

قال اليلاين: «أخبرنا المزيد عن ظروف تار حاليًا، أخبرنا عن حالته العاطفية. لديه ابنة، أليس كذلك؟ ابنة صغيرة اسمها داني. هل يتحدث عنها؟».

«كان يفعل من قبل».

«أنرنا ببعض التفاصيل عنها».

«لا أعرف أيّة تفاصيل. كان مولَعًا بها. هذا كل ما أعرفه».

ارتفع صوته غضبًا فجأة. «مولَعًا بها! لم هذا الاستخفاف؟ لِمَ تستخف بي إلى هذه الدرجة بحق الجحيم؟ أتحدث عن منشقّ من قسمك اللعين، وأتهمك بلعب الهوكي معه دون علمي، وبالتآمر معه في ألعاب صبيانية حمقاء لا تعلم عواقبها ومخاطرها، وكل ما تفعله هو رفع كتفيك استخفافًا.

هناك قانون يا بيتر غويلام، بشأن عدم التعاطف مع عملاء العدو. ربما لم تكن تعلم هذا. يخطر لي الآن قذف الكتاب إلى رأسك!».

ردّ غويلام بنبرة غاضبة بدت وكأنها ستنقذه: « ولكنني لم أكن ألتقي به، لست أنا من كان يلعب ألعابًا صبيانية. إنه أنت. لذا اتركني وشأني».

في اللحظة ذاتها أحس بالارتياح يعمّ الطاولة، مثل شعور ضئيل بتحوّل الموقف إلى ملل، مثل اعتراف عام بأنّ أليلاين تخلّى عن جميع حصاناته وطوّح اتهاماته على هدف غير محدد. كان سكوردينو يتلهّى بقطعة صغيرة من العاج بمثابة فأل حسن يحملها معه دائمًا. عاد بلاند إلى القراءة، فيما كان بل هايدن يشرب قهوته التي وجدها شنيعة الطعم ما دفعه إلى تكشير وجهه أمام مو ديلاوير، ووضع الفنجان جانبًا. توبي إيسترهيز، بذقنه المستندة إلى كفه، رفع حاجبيه محدقًا بالسيلوفان الأحمر المحيط بقضبان النافذة. وحدهما الروسيان تابعا التحديق به من دون أن يرمشا، ككلبَيْ تيرير لا يريدان تصديق أنّ الصيد قد انتهى.

«إذًا، اعتدتما الحديث عن داني، ها؟ وأخبرك بأنه يحبها»، قال أليلاين، وقد عاود النظر في الملف الذي أمامه. «من هي أم داني؟».

«فتاة أوراسية».

نطق هايدن للمرة الأولى. «أوراسية بلا شك، أو لعلّها تبدو من بلاد أقرب؟».

«يعتقد تار بأنها تبدو أوروبية بالكامل. ويعتقد بأنّ الطفلة كذلك».

قرأ أليلاين بصوت عال: «اثنا عشر عامًا، شعر طويل أشقر، عينان بنّيتان، نحيلة. هل هي داني؟».

«لا بد أن أعتقد أنها هي. تبدو السمات مشابهة لها».

خيّم صمت طويل لم يبدُ حتى هايدن ميّالًا إلى كسره.

تابع أليلاين، منتقيًا كلماته بحرص بالغ: «إذًا لو أخبرتك بأنّه كان

من المفترض أن تصل داني وأمها منذ ثلاثة أيام إلى مطار لندن في رحلة مباشرة من سنغافورة، أعتقد بأنك ستشاركنا حيرتنا».

«نعم صحيح».

«كما ستُبقي فمك مغلقًا حين تخرج من هنا. ولن تخبر أحدًا ما عدا أصدقائك المقرَّبين الاثني عشر؟».

وجاء صوت فل بورتيوس: «المصدر سري جدًا يا بيتر. قد تبدو معلومة خاصة برحلة عادية بالنسبة إليك، ولكنها ليست كذلك على الإطلاق. إنها فائقة الحساسية».

«آهه، حسنًا، في هذه الحالة سأحاول إبقاء فمي فائق الإغلاق»، قال غويلام لبورتيوس، وبينما تلوّن وجه بورتيوس، منحه بل هايدن ابتسامة صبيانية أخرى.

تابع أليلاين: «إذًا ما الذي يمكن أن تفعله بمعلومة كهذه؟ هيا يا بيتر» – النبرة المازحة مجددًا – «هيا، لقد كنت رئيسه في العمل، ومرشده، وفيلسوفه، وصديقه، أين خبرتك السيكولوجية بحق الآلهة؟ ما سبب عودة تار إلى إنكلترا؟».

«ليس هذا ما قلتَه على الإطلاق. قلت إنّ فتاة تار وابنتها كان من المفترض أن تصلا إلى لندن منذ ثلاثة أيام. ربما هي تزور أقارب لها. وربما أصبح لديها عشيق جديد. كيف لي أن أعرف؟».

«لا تكن بليدًا يا رجل. ألا يخطر لك بأنّ تار سيكون دومًا في المكان الذي تكون فيه ابنته؟ إن لم يكن قد وصل إلى هنا أساسًا، وهذا ما أميل إليه، وهو أقرب إلى طبيعة الرجل الذي يأتي أولًا، تاركًا معوّقاته لاحقًا. اعذريني يا مو ديلاوير، هذا انحطاط».

للمرة الثانية سمح غويلام لنفسه بشيء من الغضب في نبرته: «حتى الآن لم أفهم شيئًا، لا. حتى الآن يُعامَل تار بوصفه منشقًا. وأمره تابع

لمدبّري المنزل منذ سبعة أشهر، صحيح أم لا يا فل؟ كان تار في موسكو، ولا بد أنّ كل ما يعرفه أصبح الآن مكشوفًا. صحيح فل؟ كما اعتُبر هذا سببًا كافيًا لإيقاف العمل في بركستون، ولإعطاء قسم من عملنا لمحطة لندن، وقسمًا آخر لحَمَلة مصابيح توبي. ما الذي سيفعله تار الآن: يعاود انشقاقه إلينا؟».

رد أليلاين بسرعة، معاودًا النظر إلى الورقة أمامه. « العودة ستكون طريقة لعينة مريحة لتوصيف الأمر، سأخبرك بهذا بلا مقابل: اسمع. أنصت بحرص، وتذكّر. إذ ليس ثمة شك لديّ أنّك، كسائر عناصري، تملك ذاكرة غربال، فكلكم أيها الأمراء متشابهون. داني وأمها تسافران بجوازَيْ سفر بريطانيين مزوَّرين تحت اسم بول، مثل اسم الميناء. الجوازان مزوَّران في روسيا. وثمة جواز ثالث مع تار، الشهير مستر بول. تار في إنكلترا الآن ولكننا لا نعرف مكانه. غادر قبل داني وأمها وأتى إلى هنا عبر طريق مختلفة، ويقترح محقّقونا أن تكون الطريق غير رسمية. ثم أرشد زوجته أو عشيقته أو أيًا تكن -اعذريني مجددًا يا مو- كي تتبعاه خلال أسبوع، وهذا ما لم تفعلاه بعد، كما يبدو. وصلتنا المعلومة البارحة فحسب لذا أمامنا الكثير من الخيوط لتتبّعها. أخبرهما تار، أقصد داني وأمها، بأنّه في حال عجز عن التواصل معهما، عليهما وضع نفسيهما تحت رحمة شخص واحد هو بيتر غويلام. وهذا هو أنت كما أظن».

«إذا كان يُفترّض بهما الوصول منذ ثلاثة أيام، ما الذي حدث لهما؟».

«أجّلتا الرحلة. لم تلحقا بالرحلة. غيّرتا مخططاتهما. فقدتا بطاقتيهما... كيف لي أن أعلم بحق الجحيم؟».

«أو ربما المعلومة خاطئة». ردّ غويلام.

«ليست خاطئة»، عاجله أليلاين.

بنبرة استياء وحيرة قال غويلام: «حسنًا. الروس قلبوا تار. ثم أرسلوا عائلته إلى هنا – يعلم الله السبب، كنت سأفكّر بأنهم سيضعاهما في البنك

- ثم أرسلوه هو أيضًا! لم كل شيء يبدو مريبًا إلى هذا الحد؟ أي نبتة سيكون عليها عندما لن نصدق أيّ كلمة مما سيقول؟».

هذه المرة، لاحظ بابتهاج بأنّ جمهوره ثبّتوا نظراتهم على أليلاين الذي بدا لغويلام وكأنه ممزَّق بين أن يقدّم إجابة مرضية ولكن حمقاء، أو أن يجعل من نفسه أحمق.

«لا تكترث بنوعيته كنبتة. أحواض طينية. آبار سامة، ربما. ذلك النوع اللعين. ويُسحب البساط من تحتنا عندما نكون آمنين وجافّين». بدت رسائله على هذا النحو كذلك، فكر غويلام. مجازات تطارد بعضها بعضًا في الصفحات. «ولكن تذكّر هذا فحسب. عند أول نَفَس منه، بل قبل النَفَس الأول، عند أول همسة منه أو من زوجته أو ابنته، عليك - يا بيتر غويلام الصغير - أن تأتي إلى واحد منا نحن الناضجين. أي أحد ممن تراهم على الطاولة، وليس أيّ أحد لعين آخر. هل فهمت ما أقول جيدًا؟ إذ ثمة عجلات لعينة داخل عجلات أخرى أكثر مما بإمكانك تخيّله أو لك حق معرفته»...

أصبح الحديث فجأة حديثًا بالحركات. وضع بلاند يديه في جيوبه ومضى عبر الغرفة ليستند إلى الجدار البعيد. وأعاد أليلاين إشعال غليونه، حيث أطفأ عود الثقاب بحركة قوية من ذراعه وهو يحدّق بغويلام عبر الدخان. وقال: «من تغازل هذه الأيام يا بيتر، من هي السيدة الصغيرة المحظوظة؟» كان بورتيوس يمرّر ورقة عبر الطاولة ليوقّعها غويلام. «لك يا بيتر، لو سمحت». كان بول سكوردينو يهمس بأمر ما في أذن أحد الروسيّين، وكان إيسترهيز عند الباب يلقي أوامر سرية على الأمهات. وحدها عينا مو ديلاوير البنّيتان بقيتا مثبّتتين على غويلام.

«اقرأها أولًا، ألن تفعل؟»، نصحه بورتيوس بنعومة.

كان غويلام قد وصل نصف الاستمارة في تلك اللحظة: «أقرّ بأنّني أُعلمت اليوم بفحوى تقرير وتشكرافت رقم 308، المصدر ميرلين»،

كان يقول المقطع الأول. «أتعهد بأن لا أفشي أيًا من محتوى هذا التقرير لأعضاء آخرين في العمل، كما لن أتحدث عن وجود المصدر ميرلين. كما أتعهّد أيضًا بالإعلام مباشرةً عن أيّة مسألة قد تثير انتباهي في ما يتعلق بهذا الموضوع».

كان الباب لا يزال مفتوحًا، وحالما انتهى غويلام من التوقيع، دخل النسق الثاني من محطة لندن تتقدمهنّ الأمهات مع صواني السندويشات: ديانا دولفين، لاودر ستركلاند بدوا متوتّرَين إلى درجة الانفجار، الفتيات من قسم التوزيع مع خبير عجوز ممتعض يدعى هاغارد، والذي كان المسؤول الأعلى عن بن ثريكستن. غادر غويلام ببطء، عادًا الرؤوس لأنه يعلم أنّ سمايلي سيرغب بمعرفة من كان حاضرًا هنا. عند الباب، ولمفاجأته، وجد هايدن بصحبته، والذي يبدو أنه قرر أنّ الطقوس الأخرى لا تلائمه.

قال بِل ملوّحًا بغموض للأمهات: «ملهى غبيّ لعين، بات بيرسي لا يطاق على نحو متزايد كل يوم».

قال غويلام بصدق: «يبدو كذلك حقًا».

«كيف هو سمايلي هذه الأيام؟ هل تراه؟ كنت صديقه في ما مضى، أليس كذلك؟».

عالم غويلام الذي كان يُظهر إشارات – حتى الآن – ذات استقرار على سرعة معقولة، اندفع فجأة بسرعة هائلة. «لا للأسف»، لم يعد أحد يراه».

«لا تقل لي إنك انتبهت إلى ذلك الهراء»، قال بِل. كانا قد وصلا الدرج. تابع هايدن طريقه.

صاح غويلام: «ماذا عنك؟ هل تراه؟».

أكمل بل متجاهلًا السؤال. «آن غادرت العش، أغراها بحار أو نادل

أو أحد ما». كان باب غرفته مشرعًا، وكانت الملفات السريّة مكوّمة عليه.
«هل هذا صحيح؟».

«لا عِلمَ لي، يا لجورج المسكين».

«قهوة؟».

«أعتقد أنني سأعود، شكرًا».

«من أجل الشاي مع الأخ تار؟».

«هذا صحيح. في فورتنام. إلى اللقاء».

في قسم الأرشيف، كان آلوين قد عاد من الغداء. قال بمَرَح: «الحقيبة ذهبت يا سيدي، لا بد أنها وصلت إلى بركستون الآن».

قال غويلام مطلقًا رصاصته الأخيرة: «أوه، اللعنة،كان فيها شيء أحتاج إليه».

خاطرٌ مزعج باغته: بدا معقولًا وشديد الوضوح إلى حد أنه تساءل عن سبب تأخّره في اكتشافه. ساند كان زوج كاميلا. كانت تعيش حياة مزدوجة. والآن بدأت مشاهد الخداع ترتسم أمامه. أصدقاؤه وحبيباته، وحتى السيرك نفسه، تجمّعوا وأُعيد تشكيلهم في نماذج لانهائية من المكائد. استعاد جملة قالها مندل حينما كانا يشربان بيرة في حانة كئيبة في الضواحي: «ابتهج يا ولد يا بيتر. لم يكن لدى يسوع المسيح سوى اثني عشر، كما تعلم، وكان أحدهم مزدوجًا».

تار. فكَّرَ، ابن الحرام ذاك ريكي تار.

22

غرفة النوم طويلة وواطئة، فقد كانت من ما مضى غرفة الخادمة، محشورة في العليّة. كان غويلام يقف عند الباب، وتار يجلس على السرير دون حراك، رأسه مائل إلى الخلف ناظرًا إلى السقف، يداه إلى جانبيه مفرودتَي الأصابع وفوقه نافذة. ومن مكان وقوف غويلام كان بوسعه رؤية الأفق البعيد لريف سوفولك القاتم، حيث كان خط أشجار يطوّق السماء. كان ورق الجدران بنيًا مع أزهار حمراء كبيرة. وكانت اللمبة الوحيدة معلّقة بطوقٍ من خشب البلوط الأسود، وتضيء وجهيهما مخلّفةً أشكالًا هندسيّة غريبة، وعندما كان أحدهما يتحرك، تار على السرير أو سمايلي على الكرسي الخشبيّ، بدا وكأنهما يأخذان الضوء معهما في حركتهما لمسافة قبل أن يعاود الاستقرار.

لو تُرك على راحته كان غويلام سيكون شديد الصرامة مع تار، ليس لديه أدنى شك بهذا. كانت أعصابه متوتّرة إلى الحد الأقصى، بحيث كان يقود السيارة بسرعة تسعين قبل أن ينبّهه سمايلي بحدّة كي يمشي بهدوء. لو تُرك على راحته، كان سيوسع تار ضربًا، بل وكان سيجلب فون – لو اضطر الأمر – كي يساعده؛ أثناء القيادة، كانت أمامه صورة شديدة الوضوح يفتح فيها الباب الأمامي من مكان وجود تار ويبدأ بضربه على وجهه عدة مرات، مع تحيات كاميلا وزوجها السابق، أستاذ الفلوت البارز. وربما،

بفعل مشاركته توتر الرحلة، كانت الصورة ذاتها تنتاب سمايلي بالتخاطر إذ كان من الواضح أنّ ما قاله يريد منه تهدئة غويلام. «لم يكذب تار علينا يا بيتر. أبدًا. لقد فعل ما سيفعله أيّ عميل في هذا العالم: أخفق في رواية الحكاية كاملة لنا. ومن جهة أخرى، كان ذكيًا». بعيدًا عن مشاركة غويلام حيرته، بدا واثقًا على نحو غريب، بل مطمئنًا، إلى حدّ التلفّظ بمثل دارج وعظيّ من ستيد-آسبري؛ شيء يتعلّق بعدم السعي وراء الكمال، بل وراء انتهاز الفرصة، ما دفع غويلام مجددًا إلى التفكير بكاميلا. «دعانا كارلا إلى الدائرة الداخلية»، قال سمايلي، فحكى غويلام نكتة بذيئة عن تبديل الملابس في تشارنغ كروس. بعدها اكتفى سمايلي بإعطاء الاتجاهات مراقبًا المرآة الجانبية.

كانا قد التقيا في كريستال بالاس، وركبا الفان التي كان يقودها مندل. انطلقوا إلى بارنزبري، مباشرةً باتجاه ورشة تصليح سيارات في نهاية زقاق مرصوص يعجّ بالأطفال. وهناك استقبلهم ألماني عجوز وابنه، نزعا لوحات الفان قبل أن ينزلوا منها، ثم قادوهم إلى سيارة مدعّمة جاهزة للانطلاق من الباب الخلفي للورشة. بقي مندل في الخلف مع ملف تستيفاي الذي كان غويلام قد جلبه من بركستون في حقيبته؛ قال سمايلي: «ابحث عن أ 12». كان ازدحام المرور خفيفًا، ولكن قبل كولتشستر فوجئوا برتل شاحنات، ففقد غويلام صبره. اضطر سمايلي أن يأمره بتخفيف السرعة. كما التقوا عجوزًا يقود سيارته بسرعة عشرين في الخطّ السريع من الطريق. وحينما تجاوزوه، نظر إليهم بتوحّش، سكران ربما أو مريض، أو لعله خائف فحسب. وفي لحظة أخرى، من دون سابق إنذار، باغتهم الضباب الذي بدا وكأنه هبط عليهم من الأعلى. قاد غويلام السيارة ببراعة مخترقًا الضباب، خائفًا من ضغط المكابح بسبب الجليد. بعد كولتشستر التزموا الطرق الفرعية. على اللافتات كان ثمة أسماء مثل ليتل هوركسيلي، وورمنغفورد، بيورز غرين، ثم اختفت اللافتات بحيث أحسّ غويلام أنه في أرض مهجورة.

«إلى اليسار هنا، ثم إلى اليسار مجددًا عند ذلك المنزل. ابتعد قدر استطاعتك، ولكن اركن السيارة على مسافة قريبة من البوابة».

وصلوا إلى ما بدا وكأنه قرية صغيرة ولكن من دون أضواء، أو بشر، أو قمر. وحالما خرجوا من السيارة صفعهم البرد، فاشتمّ غويلام رائحة ملعب كريكيت، وخشب محروق، وكريسماس في آن معًا؛ وفكر انّه لم يكن يومًا في مكان أهدأ أو أبرد أو أبعد. كان برج كنيسة ينتصب فوقهم، وسياج أبيض يمتد على جانب واحد، وفوق التل انتصب ما اعتبره بيت القس، وهو منزل واطئ متعرّج، مسقوف بالقش؛ كان قادرًا على تمييز حافة الجزء المثلث الأعلى عن السماء. كان فون بانتظارهم؛ اتجه إلى السيارة وركب صامتًا في الخلف.

«ريكي أصبح أفضل اليوم يا سيدي»، بادر بالكلام. من الواضح أنه كان ينقل الكثير من المستجدات إلى سمايلي في الأيام القليلة الماضية. كان فتى هادئًا، لطيف الكلام، خدومًا، ولكن بدا باقي كادر بركستون وكأنهم يخافون منه، من دون أن يعلم غويلام السبب. «لم يعد شديد التوتر، بل أصبح مرتاحًا بشكل أكبر كما أعتقد. سبح هذا الصباح، ولقد أحبَّ ذلك، كما حفرنا خشب التنّوب هذه الظهيرة للآنسة إيلسا بحيث تستطيع القيادة إلى السوق. كما استمتعنا بلعب الورق هذا المساء، ونمنا باكرًا».

«هل خرج لوحده؟»، سأله سمايلي.

«لا سيدي».

«هل استخدم الهاتف؟».

«لا أبدًا سيدي، على الأقل أثناء وجودي، وأنا واثق أنّه لم يفعلها عنما كانت الآنسة إيلسا موجودة أيضًا».

كان زفيرهم قد شكّل ضبابًا على نوافذ السيارة، ولكنّ سمايلي لم يشغّل المحرك بحيث يعمل المدفئ أو مانع تشكّل الضباب.

«هل ذكر ابنته داني؟».

«ذكرها كثيرًا خلال العطلة. ويبدو أنّه اطمأن عليهما الآن. أعتقد أنه أزاحهما من تفكيره من الجانب العاطفيّ».

«لم يتحدّث عن رؤيتهما مجددًا؟».

«لا سيدي».

«لا شيء عن ترتيبات للقاء حين ينتهي كل هذا؟».

«لا سيدي».

«أو إحضارهما إلى إنكلترا».

«لا سيدي».

«أو تزويدهما بوثائق؟».

«لا سيدي».

اندفع غويلام بغضب: «إذًا ما الذي تحدّث عنه بحق الآلهة؟».

«السيدة الروسية يا سيدي. إيرينا. يحب قراءة مفكّرتها. يقول إنّه حين يتم الإمساك بالجاسوس، سيجعل المركز يستبدلها به. ثم ستتدبّر لها مكانًا جيّدًا سيدي، كمنزل الآنسة إيلسا ولكن في اسكتلندا حيث الطقس أجمل. يقول إنه سيتدبر أمري أيضًا. يمنحني وظيفة مرموقة في السيرك. وشجّعني على تعلم لغة أخرى لزيادة فرصتي».

لم يستطيعوا، من تلك النبرة الرتيبة في الظلام، معرفة ما فعله فون بهذه النصيحة.

«أين هو الآن؟».

«نائم سيدي».

«أغلق الأبواب بهدوء».

كانت إيلسا بريملي بانتظارهم في الممر الأمامي: سيدة في الستين بشعرٍ أشيب ووجه صارم ذكيّ. إنها من قدامى السيرك، كما قال سمايلي، إحدى مسؤولات التشفير التابعات للورد لانزبري أيام الحرب، وقد تقاعدت الآن ولكنها لا تزال مذهلة. صافحت غويلام وسألت «كيف حالك؟»، وفتحت الباب، ولكن حين استدار كانت قد اختفت. قادهم سمايلي إلى الأعلى. كان على فون الانتظار في الأسفل في حال احتاجوا إليه.

قرع باب تار وقال: «أنا سمايلي، أود التحدث إليك».

فتح تار الباب بسرعة. لا بد أنه سمع حركتهم، وكان ينتظر دخولهم خلف الباب. فتح الباب بيده اليسرى، حاملًا مسدسًا باليمنى، ناظرًا إلى الممر خلف سمايلي.

«إنه غويلام فقط»، قال سمايلي.

ردّ تار: «هذا ما أعنيه. الأطفال قادرون على العض».

دخلا. كان يرتدي ثوباً فضفاضًا ونوعًا من المعطف المالاويّ. وكانت الأوراق متناثرة على الأرض، وفي الجوّ رائحة كاري كان قد طبخه بنفسه.

قال سمايلي بنبرة مليئة بالصدق: «أعتذر عن مضايقتك، ولكن لا بد أن أسألك مجددًا عما فعلته بجوازَي السفر السويسريَّين اللذَين أخذتهما معك إلى هونغ كونغ».

«لماذا تسأل؟»، نطق تار أخيرًا.

كان المرح قد انتهى. لديه حارس على سجنه، وفقد شيئًا من وزنه، وكان يجلس على السرير فيما المسدس تحت الوسادة بجانبه. كانت عيناه تحدّقان بهما بتوتّر.

قال سمايلي: «اسمع. أود تصديق قصتك. لم يتغير أي شيء. حالما نعرف الإجابة سنحترم خصوصيتك. ولكن يجب أن نعرف. هذا مهم للغاية. يتوقف مستقبلك بأسره على هذا».

وأشياء أخرى كثيرة، فكر غويلام، وهو يراقبه؛ ثمة عمليات حسابية ملتوية كاملة معلّقة بخيط، لو كان غويلام يعرف سمايلي جيدًا.

«أخبرتك، لقد أحرقتهما. لم أكترث للأرقام. خمّنت أنها انكشفت. بل وقد يضعون لوحة حول عنقك: تار. ريكي تار. مطلوب، حين سأستخدم الجوازين».

كانت أسئلة سمايلي ترد ببطء شديد. حتى بالنسبة إلى غويلام، كان انتظارها مؤلمًا في صمت الليل المطبق.

«بم أحرقتهما؟».

«وما أهمية هذا بحق الجحيم؟».

ولكن بدا من الواضح أن سمايلي لا يميل إلى إعطاء أسباب لتساؤلاته، بل فضّل أن يدع الصمت يفعل فعله، وبدا واثقًا أنّه سينجح. كان غويلام قد شهد تحقيقات كاملة بهذا الأسلوب: سلسلة أسئلة منتقاة بعناية تحفر عميقًا في الأشياء الروتينية، ترتدي الصمت عندما تُكتب كل إجابة ببطء بحيث يضج عقل المشتبَه به بألف تساؤل بشأن أسئلة المحقّق؛ بحيث يضعف تأكيده على قصته تدريجيًا.

سأله سمايلي بعد فترة من الصمت، «عندما أحضرت جواز السفر البريطاني باسم بول، هل اشتريت جوازات سفر أخرى من المصدر نفسه؟».

«لم سأفعل هذا؟».

لم يكن سمايلي ميّالًا لإعطاء أسباب.

«لِمَ سأفعل هذا؟» كرر تار. «لست جامعًا لعينًا بحق الآلهة، كلّ ما أردته هو الخروج والهرب».

«وحماية طفلتك»، قال سمايلي بابتسامة متفهّمة. «وحماية أمها أيضًا، لو استطعت ذلك. متأكد من أنك فكّرت مليًا بشأن هذا»، وأضاف بنبرة إطراء: «إذ في نهاية الأمر، لم تكن لتتركهما تحت رحمة ذلك الفرنسيّ الفضوليّ، صحيح؟».

منتظرًا الرد، بدا وكأن سمايلي يتفحص القصاصات التي أمامه، قارئًا الكلمات طوليًا وجانبيًا. لم يكن ثمة ما هو مهم فيها: كانت كلمات عشوائية. كانت إحداها خطأ، كما لاحظ غويلام، «رسالة» ولكن مع قلب الحرفين الأخيرين. ما الذي كان يفعله في ذلك الفندق المقرف، تساءل غويلام؟ ما الخيوط القليلة المثمرة التي كان عقله يطاردها، وهو محبوس هناك مع علب الصلصة الصغيرة والمسافرين العابرين؟

قال تار بتجهّم: «حسنًا، لقد أمّنتُ جوازي سفر لداني وأمها. السيدة بول، والآنسة داني بول. ما الذي يجب أن نفعله الآن؛ نصرخ بانتشاء؟».

مجددًا ساد الصمت. ثم سأل سمايلي بنبرة أب خائب الأمل: «لم لم تخبرنا هذا من قبل؟ لسنا وحوشًا. ولا نتمنّى لهم سوءًا. لِمَ لم تخبرنا؟ إذ ربما كان بإمكاننا مساعدتك»، ثم عاد إلى تفحّص أوراقه. لا بد وأن تار استخدم رزمتين أو ثلاثًا، إذ كانت تبدو كنهر يسيل على السجادة. «لِمَ لم تخبرنا؟»، كرّر. «ليس هناك ما يعيب في الاهتمام بالناس الذين نحبهم».

لو سمحوا لك بذلك، فكر غويلام، حين خطرت له كاميلا.

ولمساعدة تار على الرد، كان سمايلي يقدّم اقتراحات مفيدة: «هل كان هذا لأنك صرفت أموال العمل في شراء جوازات السفر البريطانية تلك؟ هل هذا هو السبب؟ يا للسماوات، ليس ثمة هنا من هو قلق بشأن المال. لقد جلبت لنا معلومة مهمة. لِمَ علينا أن نتجادل بشأن ألفي دولار؟»، ومضى الوقت مجددًا.. فقال سمايلي:

«أم هل كان ذلك لأنك تشعر بالخزي؟»

تصلّب غويلام، وتلاشت مشكلاته كلها.

«خجل بشكل ما، كما أعتقد. لم يكن عملًا شهمًا، في نهاية المطاف، ترك داني وأمها مع جوازات سفر مزوّرة تحت رحمة ذلك الفرنسيّ الذي كان يسعى جاهدًا للعثور على السيد بول، صحيح؟ بينما لقيتَ أقصى درجات الراحة في رحلة هروبك؟ من الصعب تذكر هذا»، قال سمايلي

موافقًا، كما لو أنّ تار، وليس هو، من كان يتحدث. «من المرعب تذكّر المدى الذي يمكن أن يصل إليه كارلا بهدف الإبقاء على صمتك. أو خدماتك».

تفجّر العرق على وجه تار فجأة. قدر كبير منه، كما لو كان دموعًا تنهمر من كل مكان. لم يعد سمايلي مكترثًا بالأوراق، إذ التقطت عيناه لعبةً أخرى. كانت لعبة صغيرة من قضيبين معدنيين كطرفَيْ ملقط. كانت الغاية هي دحرجة كرة معدنية عليهما. تكسب نقاطًا أكثر كلما دحرجتها في وقت أطول قبل أن تقع في إحدى الفتحتين.

«السبب الآخر لعدم إخبارنا، كما أعتقد، هو أنّك أحرقتهما. أعني جوازَيْ السفر البريطانيَّين، لا السويسريَّين».

اهدأ يا جورج، فكر غويلام، وتحرك بهدوء مقتربًا ليغطي المسافة بينهما. اهدأ فحسب.

«علمت أن بول قد انكشف، لذا أحرقت جوازات سفر بول التي كنت قد أحضرتها لداني وأمها، ولكنك أبقيت جواز سفرك لأنك لم تكن تملك غيره. ثم قمت بالحجز لهما باسم بول كي تقنع الجميع بأنّك لا تزال واثقًا بجوازات سفر بول. وأعني بالجميع، كما أعتقد، قطّاع الطرق التابعين لكارلا، صحيح؟ تلاعبت بجوازَيْ السفر السويسريَّين، الأول لداني والثاني لأمّها، على أمل أن يلاحظ أحد اختلاف الأرقام، ثم قمتَ بترتيبات هرب أخرى لم تخبر أحدًا عنها. ترتيبات كانت نتائجها ستتبيّن قبل نتائج ترتيبات جوازات سفر بول. كيف سينجح هذا؟ البقاء في الشرق مثلًا، ولكن في مكان آخر، مثل جاكرتا: مكان لك فيه أصدقاء».

حتى من مكان وقوفه كان غويلام بطيئًا جدًا. كانت يدا تار قد طوّقتا عنق سمايلي، فقد اختلّ الكرسيّ ووقع تار معه. من بين تلك الفوضى، أمسك غويلام ذراع تار اليمنى ولواها خلف ظهره بحيث أوشكت على الكسر. ظهر فون فجأة وأخذ المسدس من تحت الوسادة واتجه نحو تار كما لو كان سيساعده.

كان سمايلي ينفض سترته، وتار قد عاد إلى السرير، ماسحًا طرف فمه بمنديل. قال سمايلي: «لا أعلم أين هما. كل ما أعرفه هو أنهما بخير. أنت تصدق هذا، أليس كذلك؟».

كان تار يحدّق به منتظرًا. وكانت عيناه متّقدتين بالغضب، ولكن كان ثمة هدوء يحفّ سمايلي، فعلم غويلام أنّه التأكّد الذي كان يسعى إليه.

«ربما ينبغي عليك الانتباه أكثر لزوجتك وترك زوجتي وشأنها»، همس تار، ويده تغطي فمه. هجم عليه غويلام ولكنّ سمايلي منعه. ثم تابع:

«طالما أنّك لن تحاول التواصل معهما،أعتقد بأنّ من الأفضل أن لا أعرف. إلا إذا أردت مني فعل شيء لهما. مال أو حماية أو أي وسيلة مساعدة أخرى؟».

هزّ تار رأسه. كان ثمة دم في فمه، الكثير منه، وأدرك غويلام أن فون قد ضربه من دون أن يستطيع تحديد متى تم ذلك.

أخيرًا، قال سمايلي: «لن يستغرق الأمر طويلًا، أسبوعًا ربما. وسأحاول ان تكون المدة أقصر. حاول أن لا تشغل نفسك بالتفكير كثيرًا».

عندما غادروا، كان تار يبتسم مجددًا، لذا ظنّ غويلام أن الزيارة، أو الإهانة التي وجّهها إلى سمايلي، أو اللكمة على وجهه، قد ساعدته كثيرًا.

حين ركبوا السيارة، قال سمايلي بهدوء لفون: « كوبونات رهان كرة القدم تلك، لا تنشر نتائجها أبدًا، حسنًا؟».

«لا سيدي».

«حسنًا، لندعُ الله أن لا يربح»، قال سمايلي في بادرة مزاح غير معتادة، فانفجر الجميع بالضحك.

تمارس الذاكرة ألعابًا غريبة في العقل المرهق والمثقل بالأفكار. حينما بدأ غويلام القيادة، كان جزء من عقله الواعي على الطريق، فيما كان

الجزء الآخر لا يزال عالقًا في تهويمات من الشكوك الفظّة بكاميلا، بحيث مرت صور غريبة لهذا اليوم وغيره من الأيام الطويلة المرهقة في ذاكرته. أيام الرعب الشديد في المغرب حين سقط أحد عملائه المحليين ميتًا أمامه، فصار كل صوت وقع أقدام على الدرج يدفعه لتفقّد النافذة؛ وأيام التبطّل في بركستون حين كان يراقب العالم المنزلق أمامه متسائلًا عن المدة التي ستمر قبل أن يدخله. وفجأة ظهر التقرير المكتوب أمامه على مكتبه: منسوخًا على الورقة الكربونية الزرقاء، أي أنه منقول، والمصدر غير معروف وعلى الأرجح لا يمكن الاعتماد عليه، وجاءت كل كلمة فيه وكأنها تسقط عليه من الأعلى:

بحسب سجين أُطلق سراحه حديثًا من لوبيانكا، أجرى مركز موسكو إعدامًا سريًا في مبنى العقوبات في تموز/ يوليو. كان الضحايا ثلاثة من عملاء المركز. أحدهم امرأة. وقد أعدم الثلاثة برصاصة في مؤخرة الرأس.

«كان عليها ختم: داخلي»، قال غويلام بفتور. كانوا توقفوا عند نزل مزيّن بأضواء برّاقة. «شخص ما من محطة لندن خربش على الورقة: «هل يمكن لأيّ شخص التعرف على الجثث؟»»

تحت انعكاس الأضواء، راقب غويلام وجه سمايلي يتقلّص اشمئزازًا.

«نعم»، وافق أخيرًا. «نعم، المرأة الآن هي إيرينا، أليس كذلك؟ وهناك إيفلوف، وأخيرًا بوريس زوجها، كما أظن». بقيت نبرته عمليةً للغاية، وتابع، كما لو أنّه ينفض الكسل: «كوبونات رهان كرة القدم تلك، من المهم ألا يعرف أيّ شيء عن هذا. يعلم الله ما سيفعله، لو علم أنّ إيرينا ماتت». للحظات، لم يتحرك أيّ منهما؛ ربما لأسباب مختلفة خاصة بكل منهما، لم يجد أيّ منهما القوّة ليتحرك.

«لا بد أن أجري اتصالًا»، قال سمايلي، ولكنه من دون أن يبدي إشارة لمحاولة الخروج من السيارة.

«جورج؟».

تمتم: «لديّ مكالمة يجب أن أجريها».

«أجرها إذًا».

مقتربًا منه، فتح غويلام الباب. خرج سمايلي، مشى عدة خطوات، ثم بدا وكأنه غيّر رأيه فعاد.

عبر النافذة، قال بالنبرة الساهمة ذاتها: «تعال لنأكل شيئًا، لا أظنّ بأنّ رجال توبي سيتعقّبوننا إلى هنا».

كان المكان مطعمًا يومًا ما، ولكنه الآن كافتيريا للعابرين مع بقايا أبّهة قديمة. كانت لائحة الطعام مغلّفة بجلد أحمر مبقّع بالدهن. والفتى الذي جلبها كان نصف نائم.

«سمعت أنّ النبيذ يُعتمَد عليه دومًا»، قال سمايلي باذلًا جهدًا ضئيلًا للمرح، حينما عاد من كابينة الهاتف في الزاوية. وبصوت أخفض، بالكاد يُسمَع: «قل لي، ما مدى معرفتك بكارلا؟».

«القدر ذاته الذي أعرفه عن وتشكرافت، والمصدر ميرلين، وكل ما هو مذكور في الورقة التي وقعتها لبورتيوس».

«آه حسنًا، تلك إجابة جيدة جدًا، كما هي. قلتها بنبرة تعنيف كما أتوقّع، ولكن كما هي، تبدو المقارنة ملائمة». عاد الفتى، مؤرجحًا زجاجة بورغوندي كما لو كان في ملهى هنديّ.

«هل تسمح بأن تتركها تتنفس قليلًا؟»، حدّق الفتى بسمايلي كما لو كان مجنونًا.

قال غويلام بفظاظة: «افتحها واتركها على الطاولة».

لم يروِ سمايلي الحكاية بأكملها. إذ لاحظ غويلام عدة ثغرات لاحقًا. ولكنّها كانت تكفي لرفع معنوياته من حالة الركود والفتور التي كان عليها.

23

«إنّ من واجبات مدرّبي العملاء تحويل أنفسهم إلى أساطير»، بدأ سمايلي، كما لو كان يلقي محاضرة تدريبية في الحضانة. «يقومون بهذا كي يُبهروا عملاءهم أولًا. ثم يحاولون ذلك مع زملائهم، ومن خلال تجربتي الشخصية، هم لا يقومون بتقييم ذاتيّ إلا نادرًا بالنتيجة. وتشطّ قلةٌ منهم بعيدًا بحيث يجرّبون ذلك على أنفسهم. أولئك هم المشعوذون، وهؤلاء يجب التخلّص منهم سريعًا، ليس ثمة سبيل آخر».

ومع ذلك، خُلقت الأساطير وكارلا إحداها. حتى عمره كان سرًا. وعلى الأغلب لم يكن كارلا اسمه الحقيقيّ. عقود من حياته بقيت مجهولة، ولعلها ستبقى كذلك، بما أنّ الناس الذين عمل معهم كانوا يموتون أو يُبقون أفواههم مغلقة.

«هناك قصة تقول إنّ والده كان في أوكرانيا ثم عاود ظهوره في تشيكو. لا أعتقد أنها حقيقية ولكن قد تكون كذلك. هناك قصة أخرى تقول إنّه عمل كصبي مطبخ في قطار مصفّح ضد قوات الاحتلال اليابانيّ في الشرق. وقيل إنه تعلّم مهاراته الاحترافية هناك على يد بيرغ - بل كان بمثابة ابنه في الواقع - وهذا يشبه تعلم الموسيقا على يد ... أوه، سمِّ موسيقيًا عظيمًا. ما يهمني في الأمر هو أنّ عمله بدأ في إسبانيا عام ستة وثلاثين، أو على الأقل هذا بحسب الوثائق. قدّم نفسه بوصفه صحافيًا روسيًا أبيض في قضية الجنرال فرانكو وجنّد مجموعة من العملاء الألمان. كانت عملية

شديد الدقة، بل كانت مذهلة بالقياس إلى عمره آنذاك. ظهر لاحقًا في القوات السوفياتيّة ضد سمولينسك في خريف عام واحد وأربعين كضابط استخبارات تحت إدارة كونيف. كان يتولى مهمّة إدارة شبكات المناصرين لهم داخل الحدود الألمانية. أثناء ذلك، اكتشف أنّ عامل الراديو لديه قد انقلب عليهم وبدأ ينقل رسائل إلى العدو. قلبه مجددًا ليبدأ لعبة راديو معهم جعلتهم يدورون في جميع الاتجاهات».

كان ذلك جزءًا آخر من الأسطورة، قال سمايلي: في يلنيا، بفضل كارلا، قام الألمان بقصف خطهم الأمامي.

«وبين هاتين اللحظتين، بين عامَيْ ستة وثلاثين وواحد وأربعين، زار كارلا بريطانيا، ونعتقد انّه بقي هنا ستة أشهر. ولا نعلم إلى اليوم - أعني أنا لا أعلم - الاسم الذي كان يحمله. هذا لا يعني أن جيرالد لا يعلم. ولكن من غير المرجح أن يخبرنا جيرالد بهذا، ليس على نحو مقصود على الأقل».

لم يتحدث سمايلي إلى غويلام بهذه الطريقة من قبل أبدًا. لم يكن ميالًا إلى المكاشفة أو إلقاء محاضرات طويلة؛ كان غويلام يعرفه رجلًا خجولًا، لا يكترث للتفاخر، وليس ميالًا إلى التواصل.

«عام ثمانية وأربعين، وبعد خدمة وطنه بإخلاص، قضى كارلا فترة حكم في السجن، ثم في سيبيريا لاحقًا. لم يكن ثمة ما هو شخصيّ في هذا. تصادف - بكل بساطة - أن كان في أحد أقسام استخبارات الجيش الأحمر التي انتهت بسبب حملة تطهير ما.

وبالتأكيد - تابع سمايلي - وبعد عودته إلى عمله في حقبة ما بعد ستالين، ذهب إلى أميركا؛ إذ عندما اعتقلته السلطات الهنديّة في صيف عام خمسة وخمسين بسبب غرامات هجرة عادية، كان قد وصل إلى الهند من كاليفورنيا. ربطه خبراء السيرك لاحقًا مع فضائح الخيانة الكبرى في بريطانيا والولايات المتحدة.

كان سمايلي يعرف ما هو أكثر من هذا: «كان كارلا تحت تأثير العار مجددًا. وكانت موسكو تطالب به. واعتقدنا بأننا ستتمكّن من إقناعه بالانشقاق. ولهذا سافرتُ إلى دلهي. للدردشة معه».

صمتا لبرهة حين عاد الفتى الضجِر ليستفسر ما إذا كان كل شيء على ما يرام. فأكّد له سمايلي بأنهما مسروران من الخدمة.

ثم تابَعَ: «قصة لقائي مع كارلا، تنتمي كثيرًا إلى الجوّ المخيم على تلك الفترة. في منتصف الخمسينات كان مركز موسكو على حافة الانهيار. تم إعدام، أو اعتقال، الضباط الكبار، فيما أصيب الموظفون من الدرجات الدنيا ببارانويا جماعية. كنتيجة أولى، حدثت سلسلة انشقاقات بين موظفي المركز المعينين في الخارج. في كل مكان، سنغافورة، نيروبي، استوكهولم، كانبيرا، واشنطن، وأماكن أخرى. كانت تردنا الرسالة ذاتها من العملاء المقيمين: لا يقتصر الأمر على العملاء الكبار، بل القَتَلة، السائقين، موظفي الشيفرة، المنضّدين. وكان علينا أن نستجيب بشكل من الأشكال - لا أعتقد أنه قد تم الإدراك بعد كيف تحفّز الصناعة تضخّمها الخاص - وخلال فترة وجيزة أصبحت أشبه بمندوب تجاريّ يطير اليوم إلى عاصمة، وفي اليوم التالي إلى مدينة حدودية كئيبة - بل وتوجّهت في إحدى المرات إلى سفينة مبحرة - لتجنيد الروس المنشقّين. أرتّب الأولويات، أنظّم العمل، أعقد تفاهمات، أنهمك في استخلاص المعلومات وفي التنظيم النهائيّ للأمور».

كان غويلام يراقبه طوال الوقت، ولكن حتى تحت الوهج القاسي لأضواء النيون لم تكشف تعابير سمايلي عن شيء بخلاف تركيز مشوب بقليل من التحفّز.

«أنشأنا، لو جاز القول، ثلاثة أنماط من التعاقد مع أولئك الذين كانت قصصهم يُعوَّل عليها. وعندما لا يكون وضع الزبون مثيرًا للاهتمام

كنا نعمد إلى نقله إلى بلد آخر وننسى أمره. نقايضه بثمن بخس، يمكن لك القول، كما يفعل صيّادو الرؤوس اليوم. أو قد نعيده إلى روسيا: هذا بافتراض أنّ انشقاقه لم يُكشف بعد. وإذا كان محظوظًا، كنا نأخذه؛ ننفض عنه كلّ ما يعرفه ونُسكنه في الغرب. لندن كانت تقرر هذا الأمر عادة، لا أنا. ولكن تذكر هذا: آنذاك كان كارلا، أو غيرستمن، كما كان يسمّي نفسه، مجرد زبون آخر. أخبروني بقصته بالتفصيل؛ لن أحاول أن أبدو خجولًا أمامك، ولكن ينبغي أن تضع في ذهنك الآن بشأن كل ما حدث بيننا، أو لم يحدث وهذا أشدّ صلة بالموضوع، أنّ كل ما كنا نعرفه أنا أو أي أحد آخر في السيرك، عندما سافرت إلى دلهي، هو أن ثمة رجلًا يدعى غيرستمن كان يشرف على إنشاء اتصالات إذاعية بين رودنيف، مدير الشبكات غير القانونية في مركز موسكو، ومؤسسة يديرها المركز في كاليفورنيا كانت بمثابة وسيلة اتصال لا أكثر. هذا كل شيء. كان غيرستمن قد هرّب أداة اتصال عبر الحدود الكندية وبقي ثلاثة أسابيع في سان فرانسيسكو يجهّز آلة التشغيل الجديدة. هذا ما كان عليه الافتراض، وكانت ثمة أجهزة اتصال تدعم هذه القصة».

من أجل تلك الاتصالات بين موسكو وكاليفورنيا، شرح سمايلي، كان يُستخدم كتاب شيفرة: «ثم أرسلت موسكو أمرًا مباشرًا في أحد الأيام...».

«عبر كتاب الشيفرة؟»، قاطعه غويلام مندهشًا.

«تمامًا. هذه هي النقطة الحاسمة. بفضل خطأ عابر من جهة موظفي الشيفرة عند رودنيف، تحقّقت لنا الأسبقية في اللعبة. استطاع خبراؤنا كسر الشيفرة، وبذا حصلنا على المعلومات. كان غيرستمن سيغادر سان فرانسيسكو مباشرة نحو دلهي لعقد لقاء مع مراسل وكالة تاس، وهو أحد مكتشفي المواهب كان قد عثر على خيط بشأن موضوع صيني مهم واحتاج إلى توجيه مباشر. أمّا لِمَ أرسلوه من سان فرانسيسكو إلى دلهي، ولِمَ كان كارلا وليس سواه، فتلك قصة لمناسبة أخرى. كانت النقطة المهمة هي أنّ غيرستمن وصل إلى موعده في دلهي، وأعطاه مراسل تاس بطاقة طائرة

وأخبره بوجوب السفر حالًا إلى موسكو. بلا أسئلة. كان الأمر من رودنيف شخصيًا. وكان موقّعًا باسم رودنيف الحركيّ، كما كان فظًا حتى بالنسبة إلى التعاملات الروسية».

ومع مغادرة المراسل، بقي غيرستمن واقفًا على الرصيف مع جعبة مليئة بالأسئلة وثمانٍ وعشرين ساعة قبل الإقلاع.

«لم يُطِل وقوفه هناك قبل أن تعتقله السلطات الهندية بناء على طلبنا وتنقله إلى سجن دلهي. وبحسب ما أتذكّر، كنا قد وعدنا الهنود بحصة من العملية. أعتقد أنّ الصفقة كانت بهذا الشكل...». بدا كمن بوغت فجأة بخيانة ذاكرته له، فصمت ووزع نظرات تائهة في أرجاء الغرفة. «أو ربما قلنا إنّ بإمكانهم الحصول عليه عندما سننتهي منه. أوه يا إلهي».

«هذا ليس مهمّا»، قال غويلام منتظرًا بقية الحكاية.

تابع سمايلي بعد رشفة نبيذ امتعض لها وجهه. «لمرة واحدة في تاريخ حياة كارلا، كان السيرك متفوقًا عليه، لم يكن يعلم هذا، ولكن شبكة سان فرانسيسكو التي كان يديرها كانت قد انكشفت كليًا في اليوم الذي غادر فيه إلى دلهي. وحالما علم كونترول بالقصة من خبراء فك الشيفرة، أعلم الأميركيين، بعد أن فقدوا أثر غيرستمن، كي يقضوا على ما تبقّى من الشبكة. كان غيرستمن قد غادر إلى دلهي من دون أن يعرف بأي تفصيل من هذا، بل ولم يكن قد علم شيئًا قبل أن أقابله في سجن دلهي كي أعرض عليه التأمين، بحسب تعبير كونترول. كان خياره شديد البساطة. لم يكن ثمة أدنى شك بأنّ رأس غيرستمن كان مطلوبًا في موسكو، إذ بغية إنقاذ نفسه كان على رودنيف إلصاق تهمة تدمير شبكة سان فرانسيسكو به. كانت القضية قد انتشرت في الولايات المتحدة، وغضبت موسكو بسبب تلك العَلانية. كان بحوزتي صور الصحف الأميركية عن عملية الاعتقال؛ بل وحتى صور الراديو الذي كان قد هرّبه كارلا مع الخطط التي كان قد جهّزها قبل سفره. تعلم السرعة التي ينبغي علينا التحرك بها عندما تصل الأمور إلى الصحافة».

كان غويلام يدرك ذلك؛ وتذكّر فجأة ملف تستيفاي الذي تركه مع مندل هذا المساء.

«باختصار، كان كارلا يتيم الحرب الباردة المشهور. كان قد غادر الوطن لأداء مهمة في الخارج. انفجرت المهمة في وجهه، ولكن لم يعد بإمكانه العودة: كان الوطن أكثر عدائية من الخارج. لم تكن لدينا سلطة اعتقال دائم، لذا كان الأمر منوطًا بكارلا كي يطلب الحماية. لا أعتقد بأنّني صادفت قضية انشقاق بمثل هذا الصفاء. كان عليّ إقناعه بشأن اعتقال شبكة سان فرانسيسكو - أخرج قصاصات الصحف والصور من حقيبتي وألوّح بها أمامه - أتحدث إليه قليلًا عن المؤامرات العدائية التي يحيكها الأخ رودنيف في موسكو، ثم أتصل بالمحقّقين في سارات، وأعود إلى لندن في نهاية الأسبوع على الأكثر. بل فكّرت أنّه كان يتوجّب عليّ حجز بطاقتَيْن لحضور عرض سادرلرز ويلز. كانت تلك سنة الباليه العظيمة بالنسبة إلى آن».

نعم، كان غويلام قد سمع عن هذا أيضًا، أبولو الويلزي الذي يبلغ العشرين، والذي كان قد أشعل لندن لشهور من الترقّب.

«كان الحر شديدًا في السجن»، تابع سمايلي. «وكانت الزنزانة تضم طاولة معدنية في المنتصف، وحلقات تشبه حلقات ربط الماشية على الجدار. أحضروه مقيّدًا، وهو أمر بدا سخيفًا لأنه كان شديد الهدوء. طلبت منهم فكّ قيود يديه، وحين فعلوا، وضع يديه على الطاولة أمامه يراقب عودة الدم إليهما. لا بد وأنّ القيد كان مؤلمًا ولكنه لم ينبس بكلمة. كان محتجَزًا منذ أسبوع، وكان يرتدي رداءً مرقّطًا. أحمر. نسيت مغزى اللون الأحمر. أحد طقوس السجن». ارتشف قليلًا من النبيذ، فكشّر وجهه ممتعضًا مرة أخرى، ثم ارتخى ذلك التعبير مع عودة الذكريات إلى مخيلته:

«حسنًا، للوهلة الأولى، انطلى الأمر عليّ قليلًا. كان من الصعب عليّ تصديق وجود سيّد الخداع الذي سمعنا عنه في رسالة إيرينا جالسًا أمامي، يا للمسكينة. أعتقد كذلك أنّ أعصابي كانت مشدودة بسبب المقابلات

المماثلة التي كنت قد أجريتها في الشهور الماضية، وبسبب السفر، وكذلك بسبب، بسبب... بسبب مسائل منزلية».

طوال الوقت الذي عرفه فيه غويلام، كان يشهد في تلك اللحظة سمايلي وهو يعترف بمشاكله مع آن.

«لسببٍ ما، كان الأمر مرهقًا». كانت عيناه مفتوحتين، ولكنّ نظراته كانت مثبّتةً على عالم داخليّ. ارتخى جلد حاجبيه ووجنتيه كما لو كان هذا بفعل الذكريات؛ ولكن لم يكن ثمة شيء يمكن أن يخفي على غويلام شعور الوحدة الذي حرّضته تلك اللحظات. تابع سمايلي، بهدوء أكبر: «لدي نظرية أعتقد بأنها لاأخلاقية. لدى كلٍّ منا مقدار من العاطفة، لكن لو سلّطنا اهتمامنا على كل قط تائه، فلن يعود بمقدورنا التركيز على جوهر الأشياء. ما رأيك؟».

«ما مواصفات كارلا الجسدية؟»، سأله غويلام، معتبرًا السؤال السابق مجازيًا.

«خاوٍ. متواضع وخاوٍ. كان يبدو أقرب إلى كاهن - ذلك المظهر الحكيم المتواضع الذي يراه المرء في البلدات الإيطالية الصغيرة. فَكٌّ صغيرٌ مدَبَّبٌ، وشعرٌ أشيب، وعينان بنّيّتان لامعتان، إضافة إلى تجاعيد كثيرة- أو مدير مدرسة، يمكن أن يكون مدير مدرسة: صارم، أيًا يكن معنى هذا، وذكيًا ضمن حدود عمله: مع بقاء سمات المظهر على حالها. لم يُبدِ أيّ حركة أخرى، ما عدا نظرته التي كانت مثبّتةً عليّ منذ بداية حديثنا. هذا إذا كان بوسعك اعتباره حديثًا، إذ لم ينطق بأيّ كلمة. ولا كلمة، طوال الوقت الذي كنت فيه معه؛ ولا أيّ حرف. وكذلك كان الحر خانقًا، وكنت مرهقًا من السفر».

بدافع اللباقة لا الشهية، بدأ سمايلي تناول الطعام حيث تناول بضع لُقَيْمات بلا استمتاع قبل أن يتابع حديثه. «هذا يكفي»، تمتم، كي لا يشعر الطباخ بالإهانة. في الحقيقة كانت لديَّ صورة مسبقة عن السيد

غيرستمن. لدى كل واحد منا تحيّزاته، وأنا متحيّز ضد عمّال الاتصالات. إنهم -بحسب خبرتي- متعِبون جدًا، سيئون في العمل الميداني ومفرطو الحساسية، ولا يمكن التعويل عليهم في العمل. وقد بدا غيرستمن لي فردًا آخر من تلك العصابة. ربما كنت أبحث عن أعذار بشأن التعامل معه بقدر أقل من» – تردَّد – «من الاهتمام، والحذر، مما كان يُفترّض بي فعله». ثم قويت نبرته فجأة. «بالرغم من أنني لا أظن بأنني أحتاج إلى أعذار».

هنا، أحسّ غويلام بنبرة غضب غير معتادة، مشفوعة بشبح ابتسامة على شفتَيْ سمايلي الشاحبتين. تمتم: «اللعنة على الأمر كله».

انتظر غويلام محتارًا.

بعد رشفة نبيذ وتكشيرة أكمل سمايلي: «أتذكر أنني اعتقدت أنّ السجن قد أثّر عليه طوال تلك الأيام السبعة. فقد كان يغطيه ذلك الغبار الأبيض، ولكن لم يكن يتعرق مع أنني كنت أتعرّق بغزارة. عرضت ما في جعبتي، كما فعلت عشرات المرات في ذلك العام، باستثناء عدم الطلب منه العودة إلى روسيا كعميل لنا بالطبع. «أمامك البديل. الكرة في ملعبك. تعال إلى الغرب وسنمنحك حياة محترمة، ضمن المعقول. وبعد الاستجواب، الذي يُفترَض أنك ستتعاون فيه، سنساعدك للبدء بحياة جديدة، اسم جديد، عزلة، قدر جيد من المال. من جهة أخرى، بإمكانك العودة إلى الوطن، وأفترض أنهم سيعدمونك أو يرمونك في معسكر اعتقال. في الشهر الماضي أرسلوا بايكوف، وشور، ومورانوف. والآن، ما رأيك أن تقول لي اسمك؟»، شيء من هذا القبيل. ثم أرحت ظهري إلى الكرسي ومسحت العرق منتظرًا أن يقول لي «موافق، شكرًا لكم». ولكنه لم يفعل. لم يقل شيئًا. اكتفى بالجلوس صامتًا وهادئًا تحت المروحة التي لا تعمل، ناظرًا إليّ عبر عينيه البنيتين الراقصتين. أصابعه شديدة الصلابة مفرودة أمامه. أتذكر أنني فكرت أنه كان علي سؤاله عن العمل اليدويّ الذي يقوم به. أبقاها – بهذا الشكل – أمامه على الطاولة، الراحتان إلى الأعلى، والأصابع مثنيّة قليلًا، كما لو أنه لا يزال مقيّدًا».

حركة سمايلي بأصابعه جعلت الفتى يظن أنه يطلب منه شيئًا فاندفع نحوهما مسرعًا، ولكن سمايلي أكّد له أنّ كل شيء رائع، بما في ذلك النبيذ بالذات، وتساءل حقًا من أين أتوا به؛ فغادر الفتى مبتسمًا تحفّه البهجة، وصفقَ قطعة القماش التي يحملها على طاولة مجاورة.

«حينها فحسب، كما أعتقد، بدأ ينتابني شعور غريب من القلق. كان الحر قد سيطر عليّ كليًا. وكانت الرائحة النتنة شنيعة، وأتذكّر سماعي لصوت سقوط قطرات العرق مني على السطح المعدني. لم يكن ذلك بفعل صمته فحسب؛ كان هدوئه قد بدأ يزعجني فعلًا. أوه، لطالما عرفت منشقّين استغرقوا شيئًا من الوقت قبل أن يتحدثوا. إنه عبء كبير، بالنسبة إلى شخص اعتاد السرية حتى على أقرب المقربين إليه، أن يفتح فمه ليفشي الأسرار إلى العدو. كما خطر لي بأنّ إدارة السجن ظنّوا أنّ عليهم القيام بالواجب لكسر إرادته قبل إرساله إلي. أكّدوا أنّهم لم يفعلوا ذلك، ولكن لا يمكن للمرء أن يكون واثقًا إلى هذه الدرجة بالطبع. لذا اعتبرت أنّ صمته كان بفعل الصدمة بدايةً. ولكن هذا الصمت، هذا الهدوء والثبات الحادّينْ كانا أمرًا مختلفًا. خاصة وأنّ كل ما في داخلي كان مضطربًا بشدة: آن، ضربات قلبي، آثار الحرارة، السفر ...».

«أتفهّم هذا»، قال غويلام بهدوء.

«أيمكنك هذا؟ الجلوس فعلٌ بليغ، أيّ ممثل سيقول لك هذا. إننا نجلس تبعًا لطبائعنا. ننبطح ونفرشخ، ونرتاح كالملاكمين بين الجولات، نتململ، ننفخ، نجثم، نصالب ساقينا، نفردهما، نفقد صبرنا، نفقد احتمالنا. ولكن غيرستمن لم يفعل أيًا من هذا. كانت وضعيته ثابتة ونهائية، وبدا جسده الضئيل وكأنه تمثال حجري؛ كان بإمكانه البقاء على وضعيته تلك طوال اليوم، من دون أن يتحرك أبدًا. بينما أنا...» قطع سمايلي كلامه بضحكة عصبية غريبة، ثم تذوق النبيذ مجددًا، ولكن من دون أن يتحسّن الطعم- «بينما أنا كنت أريد أيّ شيء أمامي، أوراقًا، كتابًا، تقريرًا. أعتقد أنني إنسان ملول؛ نيّق، متقلّب. هذا ما اعتقدته آنذاك على أيّ حال. شعرت

بأنّني أفتقر إلى الهدوء الفلسفيّ. أفتقر إلى الفلسفة، إذا أحببت. كان عملي يضغط عليّ أكثر مما كنت أظن؛ حتى الآن. ولكن في تلك الزنزانة الحمقاء شعرت بالاستياء فعلًا. شعرت أنّ المسؤولية الكاملة عن المواجهة في الحرب الباردة كانت واقعة على كاهلي. كان هذا تافهًا بالطبع، ولكنني كنت مرهَقًا، ومريضًا بعض الشيء». ثم شرب مجددًا.

«صدقني»، أصرّ، وقد عاودته تلك النبرة الغاضبة من نفسه. «لم يكن أحد ليعتذر عما فعلته».

«وما الذي فعلته؟» سأله غويلام ضاحكًا.

تابع سمايلي متجاهلًا السؤال: «بكل الأحوال أصبحت لدينا تلك الفجوة، بعيدًا عن غيرستمن لأنه كان فجوةً بحد ذاته؛ كان ذلك بسببي آنذاك. قلت ما عليّ قوله؛ أخرجت الصور، ولكنه تجاهلها، بل قد أقول إنّه كان مستعدًا تمامًا لتلقّي نبأ تدمير شبكة سان فرانسيسكو. أعدت الطرح من هذه الزاوية، ثم من زاوية مختلفة، أجريت عدة تنويعات على كلامي، ثم أنهيت ما في جعبتي في النهاية. أو بالأحرى جلست هناك متعرقًا كخنزير. أيّ أحمق كان سيعرف أنّه في مثل هذا الموقف، كان عليه أن ينهض ويخرج: هل تقبل أم ترفض، تقول. أراك في الصباح؛ أي شيء. اذهب وفكر لمدة ساعة».

«ولكن، كل ما أعلمه هو أنني بدأت التحدث عن آن». لم يترك مجالًا لتعجّب غويلام. أكمل: «أوه ليست آني أنا. بل عن آنه. افترضت أنّ لديه زوجة. سألت نفسي، بتراخٍ دون شك، ما الذي يمكن للمرء أن يفكر فيه في موقف مماثل، ما الذي كنت سأفكر فيه؟ وجاء عقلي بإجابة ذاتية: امرأته. هل يسمّى هذا إسقاطًا أم استبدالًا؟ أمقت تلك المصطلحات ولكنّني واثق أنّ أحدها يصلح هنا. استبدلت وضعي بوضعه، هذا كل ما في الأمر، وكما أدرك الآن، بدأت باستجواب نفسي – لم ينطق بحرف، هل تتخيل هذا؟ كان ثمة إضافات محددة، هذا صحيح، طعّمت بها كلامي. بدا مرتبطًا؛ بدا وكأنه يفتقد إلى شريكة؛ بدا أكثر اكتمالًا من أن يكون وحيدًا طوال حياته.

ثم لدينا جواز سفره، حيث قيل فيه إنّ غيرستمن متزوج؛ وهي عادة لدينا جميعًا أن نجعل قصص التخفّي الخاصة بنا، شخصيتنا المفترضة، موازية للواقع على الأقل». ثم غرق مجددًا في لحظة تأمل. «غالبًا ما أفعل هذا. بل وقلتها لكونترول: يجب أن نأخذ قصص التخفّي لخصومنا بجديّة أكبر. كلما ازداد عدد هويات المرء، سيزداد مقدار تعبيرها عن الشخص الذي تحاول إخفاءه. ابن الخمسين الذي يُنقص خمس سنوات من عمره. المتزوج الذي يقول إنّه أعزب؛ من ليس أبًا ويدّعي امتلاكه طفلين ... أو المحقّق الذي يُدخل ذاته في حياة شخص لا يتكلم. قلة هم البشر الذين يقاومون التعبير عن رغباتهم عندما يخلقون صورةً متخيّلةً عن أنفسهم».

كان قد ضاع مجددًا، لذا انتظر غويلام عودته بصبر. لوهلة كان سمايلي يصبّ تركيزه على كارلا، وغويلام على سمايلي؛ وحينها كان مستعدًا للذهاب معه إلى أيّ مكان، والتجوّل في كل الأركان كي يبقى معه ليسمع باقي القصة.

«علمتُ من تقارير المراقبة الأميركية أنّ غيرستمن كان مدخّنًا شرهًا: سجائر ماركة الجمل. لذا طلبت شراء عدة باكيتات - باكيتات هي الكلمة الأميركية؟ - وأتذكر أنني أحسست بشعور غريب جدًا حين أعطيت الحارس مالًا. أحسست أنّ غيرستمن رأى شيئًا رمزيًا في انتقال المال بيني وبين الحارس الهنديّ. كنت أرتدي حزامًا أضع فيه النقود. وكان عليّ فرد الحزام لأستخرج ورقة من الرزمة. تحديقة غيرستمن جعلتني أشعر وكأنني مضطهِد إمبريالي من الدرجة الخامسة». ابتسم. «وأنا لست هكذا، أؤكد لك. بل، لو أردت. بيرسي. ولكن لست أنا». نادى الفتى كي يبعده: «هل يمكن أن تحضر لنا ماء؟ إبريق وكأسان؟ شكرًا». ثم عاود الحديث: «سألته عن السيدة غيرستمن».

«سألته: أين هي؟ كان سؤالًا أتوق للإجابة عنه بخصوص آن. لا رَدّ باستثناء العينين الثابتتين. على جانبيه، الحارسان، وعيونهما بَدَوا خفيفين

بالمقارنة معه. لا بد أن تبدأ هي حياة جديدة، قلت؛ ليس ثمة حل آخر. أليس لديه صديق يمكن أن يعتمد عليه بشأن الاعتناء بها؟ ربما كان بوسعنا التوصل إلى طريقة سرية للتواصل معها؟ أعلمته أن عودته إلى موسكو لن تفيدها بشيء. كنت أنصت لنفسي، تابعت، من دون أن يكون بإمكاني التوقف. ربما لم أكن أرغب بذلك. كنت أفكر فعلًا بترك آن، واعتقدت أن الوقت قد حان. العودة ستكون قرارًا دونكيخوتيًا، كما أخبرته، لن تشكّل قيمة فعلية لزوجته، أو أي أحد آخر، بل على العكس تمامًا. سيتم نفيها في أفضل الأحوال؛ وقد يُسمح لها برؤيته قليلًا قبل إعدامه. بالمقابل، لو ألقى ما في جعبته إلينا، قد نكون قادرين على تهريبها؛ كان لدينا الكثير من التعاملات آنذاك، كما تتذكر، وبعضها كان يذهب إلى روسيا كمقايضات؛ بالرغم من أن سبب الدخول في تلك المقايضات كان خارج نطاق معرفتي. بالتأكيد، قلت له، كانت ستفضّل بقاءه سليمًا وآمنًا في الغرب، مع فرصة جيدة بأن تلحق به، بدلًا من الإعدام أو الموت جوعًا في سيبيريا. عزفت على وترها بشدة: شجّعني تعبيره الجامد. كنت سأقسم أنني بدأت أؤثر عليه، لو أنني عرفت مكان الصدع في درعه: بينما، بالطبع، كل ما كنت أفعله - كل ما أفعله هو جعله يشاهد صدعي. وعندما ذكرت سيبيريا، لامست شيئًا ما. شعرت بهذا، كوَرَم في حنجرتي، أحسست ببوادر انقلاب في موقف غيرستمن. شعرت بهذا طبيعيًا»، علّق سمايلي بفظاظة؛ «إذ كان نزيلًا هناك منذ فترة وجيزة. أخيرًا، جاء الحارس بالسجائر، ما يكفي منها ليحمله بكلتا ذراعيه، ثم رماها على الطاولة. عددت الباقي، وأعطيته بقشيشًا، فلاحظت ذلك التعبير مجددًا في نظرات غيرستمن؛ تخيلت أنني أرى استمتاعًا، ولكن حقيقةً لم أكن في حالة تتيح لي التحديد. انتبهت إلى أنّ الفتى رفض البقشيش؛ أفترض أنّه كان يكره الإنكليز. فتحت علبة وعرضت سيجارة على غيرستمن. وقلت: «هيا»، إنك مدخن شره، الجميع يعلم هذا. وهذا نوع سجائرك المفضل». بدا صوتي مرهقًا وسخيفًا، ولكن لم يكن بوسعي فعل شيء حيال هذا. نهض غيرستمن وأشار بتهذيب إلى الحراس كي يعيدوه إلى زنزانته».

بتمهّل، أزاح سمايلي صحنه نصف الممتلئ، حيث تجمّعت ندف الدهن فوقه كصقيع موسميّ.

«وهو يغادر الزنزانة غيَّر رأيه، ومدّ يده إلى علبة سجائر والولّاعة التي على الطاولة، ولّاعتي، هدية من آن. «إلى جورج من آن مع كل الحب». لم أكن لأحلم أبدًا بأنّني سأتركه يأخذها بالطريقة الاعتياديّة؛ ولكن لم تكن تلك طريقة اعتيادية. في الحقيقة فكّرت أنّ من الملائم أن يأخذ ولاعتها؛ اعتبرتها، فليساعدني الرب، تعبيرًا عن العلاقة بيننا. وضع الولاعة والسجائر في جيب ردائه الأحمر، ثم دسّ يديه في الأصفاد. قلت: أشعل سيجارة الآن لو أحببت. قلت للحراس: دعوه يشعل سيجارة لو سمحتم. ولكنه لم يبادر بأيّ حركة. فقلت: النية هي أن نرحّلك في طيارة الغد إلى موسكو ما لم توافق على شروطنا. ربما لم يسمعني. راقبت الحراس وهم يخرجونه، ثم اتجهت إلى فندقي. أوصلني أحدهم، وإلى اليوم لست قادرًا على تذكّر من كان هذا الشخص. لم أعد أذكر شعوري آنذاك. كنت شديد الارتباك، وأشدّ مرضًا مما اعترفت به، حتى لنفسي. تناولت عشاء خفيفًا، شربت كثيرًا، وارتفعت حرارتي على نحو كبير. استلقيت على السرير وأنا أتعرّق، وأحلم بغيرستمن. وددت كثيرًا لو أنه يبقى. مخمورًا، صممت حقًا على العمل على إبقائه، وضبط حياته، وجمعه بزوجته في ظروف ملائمة. أن أمنحه حريته؛ أُخرجه من الحرب إلى الأبد. كنت أود منه أن لا يعود إلى حد اليأس». نظر مع تعبير من السخرية الذاتية. «ما أعنيه يا بيتر: كان سمايلي، لا غيرستمن، هو من خرج من النزاع تلك الليلة».

«كنتَ مريضًا»، أكّد غويلام.

«لنقل مرهَقًا. مريضًا أو مرهقًا؛ طوال الليل بين الأسبرين وشراب الكينين ورؤى غريبة عن زواج غيرستمن. كانت رؤيا متكررة. كانت عن غيرستمن جالسًا على حافة السطح يحدّق في الشارع بعينيه البنيتين الثابتتين: وانا أحدّثه، مرارًا وتكرارًا: ابق، لا تقفز، ابق. غير مدرك – بالطبع – أنني كنت أرى اضطرابي، لا اضطرابه. في الصباح الباكر أعطاني

الطبيب حقنًا لتخفيض الحرارة. كان ينبغي بي أن أعتذر عن المهمة، وأن أطلب بديلًا عني. كان ينبغي أن أتمهّل قبل الذهاب إلى السجن، ولكن كل ما كان يشغلني هو غيرستمن: كنت أتوق إلى سماع قراره. عند الساعة الثامنة، كنت قد وصلت إلى السجن. كان يجلس متصلبًا كتمثال على مقعد معدني؛ للمرة الأولى استطعت ملاحظة الجنديّ الذي فيه، وكنت أعلم بأنه – مثلي – لم ينم طوال الليل. لم يحلق ذقنه، وكان ثمة خط من الشعر الأشيب تحت ذقنه أكسبه مظهر رجل عجوز. على المقاعد الأخرى كان الهنود نائمين، وقد بدا بردائه الأحمر وهذا الشيب المضيء أكثر بياضًا بينهم. كان يحمل ولاعة آن في يده؛ فيما علبة السجائر بجانبه، لم تُمَس. كنت أظن أنه قضى الليل يدخن تلك السجائر ليقرر ما إذا كان سيواجه السجن والتحقيق، والموت. نظرة واحدة أنبأتني أنّه قرر إظهار قدرته على المواجهة. لم أناشده. لم يكن ليغيّر رأيه بفعل العبارات المبهرجة. كانت طائرته ستقلع في الصباح؛ لا تزال لدي ساعتان. أنا أسوأ محام في العالم ولكن حاولت في تلك الساعتين إيجاز جميع الأسباب التي أعرفها من التي قد تجعله يغيّر رأيه عن السفر إلى موسكو. اعتقدت أنني رأيت شيئًا في وجهه كان أكبر من مجرد العقيدة الجامدة الصرفة؛ من دون أن أدرك أنّ هذا كان انعكاس نفسي عليه. كنت قد أقنعت نفسي أنّ غيرستمن كان طيّعًا في نهاية المطاف لحجج الناس الاعتياديين التي تصدر من رجل بمثل سِنّه وعمله و .. قدرته على الاحتمال. لم أعده بالثروة والنساء وسيارات الكاديلاك والمداهنات الرخيصة، إذ أدركت أنّ تلك الأشياء لا تغريه. بقي الذكاء بجعبتي فحسب وذلك، على الأقل، كي أحاول طرح موضوع زوجته بوضوح. لم أُلقِ خطابات بشأن الحرية، أيًا يكن معناها، أو النية الحسنة للغرب: إذ لم تكن أيامًا مناسبة لترويج تلك القصص، كما لم أكن في وضع أيديولوجي واضح. اخترت موضوع القرابة. وقلت: اسمع، إننا نقترب من شيخوختنا، وقد قضينا حياتنا ننبش نقاط الضعف كلٌ منّا في نظام الآخر. أتفهّم القيم الشرقية كما تتفهّم القيم الغربية. كلانا، كما أنا متأكد، عايشَ حالات الرضا التام في هذه الحرب البائسة حتى الثمالة.

ولكن فريقك الآن سيعدمك. ألا تعتقد بأنّ الوقت قد حان لتدرك أنّ القيمة هي ذاتها عند فريقك كما هي عند فريقي؟ وتابعت الكلام: اسمع، في عملنا، ليس لدينا سوى الرؤى السلبية. بهذا المعنى، ليس لدى أي منا مهرب. كلانا، عندما كنا في سن أصغر، كان مهووسًا بالرؤى العظيمة...» أحسست بأنني ضربت على وتر حساس لديه - سيبيريا - «ولكن ليس بعد الآن، صحيح؟». ألححت عليه كي يجيبني بشأن هذه النقطة فحسب: ألم يخطر له بأنني وهو قد وصلنا إلى الخلاصات ذاتها في الحياة برغم اختلاف طريقينا؟ حتى لو كانت خلاصاتي ليست متحررة كما سيدعوها، ولكن تصرفاتنا كانت متطابقة؟ ألم يؤمن، مثلًا، أنّ المبادئ السياسية غير ذات جدوى؟ وأنّ ما هو خاص فحسب هو ما تبقّى ذو قيمة بالنسبة إليه؟ وأنّ معالجات السياسيين لا تُفضي إلّا إلى صيغ جديدة من البؤس القديم ذاته؟ وأنّ إنقاذ حياته من حَلَبَة صراع عبثية أخرى أكثر أهمية - أخلاقيًا وقيميًا - من معنى الواجب، أو الالتزام، أو أيًا يكن ذاك الذي يُبقيه على هذه الطريق الحالية من تدمير الذات؟ وألم تخطر له المساءلة - بعد كل رحلات حياته - أن يشكّك في نزاهة النظام الذي قرر تصفيته بدم بارد بسبب أخطاء لم يرتكبها؟ توسّلت إليه - أجل ناشدته أن يفكّر بما يؤمن به حقًا؛ ما إذا كان الإيمان بالنظام الذي خدمه لا يزال يرحب به فعلًا الآن».

لبرهة، بقي سمايلي صامتًا.

«كنت قد طوّحتُ بعِلم النفس أدراج الرياح، وهو كل ما لديّ؛ وكذلك عملي. بوسعك تخيّل ما قاله كونترول. قصّتي كانت مسليّة له، تمامًا؛ كان يحب الاستماع إلى نقاط ضعف البشر. نقاطي بالذات، لسبب ما». كان قد تابع طريقته في الكلام. «إذًا ها نحن ذا. عندما وصلت الطائرة، صعدت معه، وطرت قسمًا من الطريق: لم تكن جميع الطائرات نفاثة آنذاك. كان ينسلّ من بين أصابعي وكنت عاجزًا عن فعل أي شيء لإيقافه. كنت قد توقفت عن الكلام، ولكنني كنت هناك في حال قرر تغيير رأيه. ولم يفعل. كان يفضّل الموت على أن يعطيني ما أردت؛ كان يفضّل الموت على خيانة

النظام السياسي الذي كان ملتزمًا به. آخر ما رأيت منه، على ما أذكر، كان وجهه الجامد عبر نافذة قمرة الطائرة، مراقبًا إياي وأنا أبتعد. كان ثمة رجلان ذوي ملامح عصابات روسية قد انضمّا إلينا وجلسا خلفه، لذا لم يعد ثمة جدوى من بقائي. عدت إلى الوطن، وقال كونترول: «أدعو الله أن يعدموه»، وعوّضني بفنجان شاي. ذلك الشاي الصيني المقرف الذي يشربه، ياسمين بالليمون أو أيًا يكن، حيث يشتريه من المتجر عند الزاوية. اعني كان يشتريه. ثم أرسلني في إجازة لثلاثة أشهر دون أن يترك لي خيار الرفض. «أحب أن أجد لديك شكوكًا»، قال. «إذ تنبئني عن موقفك الفعليّ. ولكن لا تتبنّاها وإلا ستكون مملًا للغاية». كان ذلك تحذيرًا. استوعبت هذا. كما طلب مني التوقف عن التفكير بالأميركيين كثيرًا؛ أكّد لي بأنّه نادرًا ما يعيرهم انتباهًا».

حدّق غويلام به، منتظرًا نهاية القصة. «ولكن ما الذي نلته؟»، طالب بنبرة من تمّ خداعه في النهاية. «هل فكر كارلا حقًا بالبقاء؟».

«أنا متأكد أن ذلك لم يخطر على باله مطلقًا»، قال سمايلي بنبرة اشمئزاز. «تصرفت كغرّ أحمق. المثال النموذجي عن الليبراليّ الغربيّ الرخو. ولكنني أفضّل أن أكون على هذا النوع من الحماقة بدلًا من أن أكون من نوعه هو. أنا واثق». كرر سمايلي بقوة. «إذ لم تكن حججي أو مصيره في موسكو سيليّن مواقفه في نهاية المطاف. أعتقد أنه قضى الليل في التفكير بشأن الطريقة التي سينتقم فيها من رودنيف. مات رودنيف برصاصة بعد شهر، عن طريق الخطأ. وحصل كارلا على منصب رودنيف وعاود تنظيم شبكات عملائه القدامى. من بينهم جيرالد، بلا أدنى شك. من الغريب التفكير أنّه طوال الوقت الذي كان ينظر فيه إليّ، كان يفكّر بجيرالد. أعتقد أنّهما ضحكا كثيرًا على تلك الحادثة».

كان للقصة نتيجة أخرى، قال سمايلي. «منذ تجربته في سان فرانسيسكو، لم يقم كارلا بمسّ أيّ راديو مهرّب. كان يكتب بخط يده. اتصالات السفارة أمر مختلف. ولكن في الميدان كان من المحظّر على عملائه الاقتراب منه. كما لا يزال يحتفظ بولاعة آن».

«ولاعتك»، صحّح له غويلام.

تابع عندما أخذ النادل حسابه: « نعم. ولاعتي، نعم. بالطبع. قل لي هل كان تار يقصد أحدًا بعينه عندما نطق تلك العبارة المسيئة بشأن آن؟».

«أخشى أنه كان كذلك. نعم».

تساءل سمايلي. «الإشاعة انتشرت إلى هذا الحد؟ حتى إلى تار؟».

«نعم».

«وماذا تقول الإشاعة بالضبط؟».

«أنّ بل هايدن هو عشيق آن»، قال غويلام، وقد أحسّ بتلك البرودة تطوّقه، وهي عنصر حمايته حين ينقل أخبارًا سيئة، كما مثلًا: لقد كُشفت؛ لقد وقعت في الفخ؛ أنت تحتضر.

«آه فهمت. نعم. شكرًا».

خيم صمت مُربِك.

«وهل كان هناك وجود للسيدة غيرستمن؟» سأله غويلام.

«سبق لكارلا أن تزوّج بفتاة في لينينغراد، طالبة. انتحرت بعد نفيه إلى سيبيريا».

تساءل غويلام أخيرًا: «إذًا كارلا محصّن تمامًا؟ لا يمكن شراؤه أو إخضاعه؟».

في طريق العودة إلى السيارة تمتم سمايلي: «لا بد أن أعترف بأنّ ما تناولناه كان باهظًا، هل تعتقد أن النادل سرقني؟».

ولكن لم يكن غويلام ميّالًا للتحدث بشأن أسعار الوجبات السيئة في إنكلترا. عاود قيادة السيارة ليمسي اليوم مرةً أخرى بمثابة كابوس، ارتباك كليّ من الأخطار والشكوك.

«إذًا من هو المصدر ميرلين؟» سأل. «من أين يمكن لأليلاين أن يحصل على تلك المعلومات، إن لم يكن من الروس أنفسهم؟».

«أوه، يحصل عليها من الروس حسنًا».

«ولكن بحق الآلهة، لو كان الروس قد أرسلوا تار ...».

«لم يفعلوا ذلك. كما لم يستخدم تار جوازات السفر البريطانية، هل فعل؟ فهم الروس ذلك بشكل خاطئ. ما امتلكه أليلاين هو البرهان على أن تار خدعهم. هذه هي الرسالة الجوهرية التي تعلمناها من هذه الزوبعة في فنجان».

«إذًا، بحق الجحيم، ما الذي كان كان يقصده بيرسي بـ «الأحواض الموحلة»؟ لا بد وأنه كان يقصد إيرينا، بحق الآلهة».

وافقه سمايلي، وأضاف: «وجيرالد».

ثم تابعا القيادة بصمت، وبدت الهوّة بينهما فجأة غير قابلة للجَسْر.

قال سمايلي بهدوء: «اسمع، لست على طبيعتي يا بيتر، ولكن أوشك على أن أكون. كارلا قلب السيرك رأسًا على عقب؛ أتفهم هذا، وأنت أيضًا. ولكن ثمة عقدة أخيرة، وأنا عاجز عن حلّها. بالرغم من أنّني أنوي هذا. ولو أردت عِظة، كارلا ليس محصّنًا لأنّه متعصّب. ويومًا ما، لو قُدِّر لي أن أشهد ذلك، سيكون هذا الافتقار إلى الاعتدال هو مقتله».

كانت تمطر عندما وصلا محطة ستراتفورد؛ مجموعة من الركاب ينتظرون تحت المظلة.

«بيتر، أريدك أن تهدأ من الآن فصاعدًا».

«إجازة لثلاثة أشهر من دون خيار رفض؟».

«أرح مجدافيك قليلًا».

مغلقًا باب الراكب خلفه، خطر لغويلام فجأة أن يتمنى ليلة سعيدة

لسمايلي أو حتى حظًا سعيدًا، لذا مال عبر المقعد وأنزل النافذة وجهّز نفسه ليناديه. ولكن سمايلي كان قد اختفى. لم يعرف طوال حياته شخصًا يتمكّن من الاختفاء بهذه السرعة بين الحشود.

خلال ما تبقّى من تلك الليلة، لم ينطفئ الضوء في غرفة السيد باراكلوك في فندق آيلاي. من دون أن يغيّر ملابسه، او يحلق ذقنه، بقي سمايلي منكبًّا على طاولة الميجور، يقرأ، ويقارن، ويعلّق، ويُطابق بهوَسٍ إلى درجة أنه لو كان يراقب نفسه لتذكّر بلا شك أيام كونترول الأخيرة في الطابق الخامس في سيرك كيمبردج. مقلّبًا الأوراق، قارن مع أذون المغادرة والإجازات المرَضيّة التي أحضرها غويلام خلال العام الماضي، ووضعها مقابل جدول السفر المعلن للملحق الثقافي ألكسي ألكساندروفتش بولياكوف، ورحلاته إلى موسكو، ورحلاته خارج لندن بحسب تقارير مكتب الخارجية وإدارة الحدود. قارن المعطيات مرارًا، من دون أن يعلم سبب فعله ذلك، ثم أخرج تقارير وتشكرافت التي كانت متعلقة بالموضوع على نحو مباشر، وتلك التي سبقتها بشهر، ثم شهرين، إما عن طريق ميرلين أو عن طريق عملائه، بهدف ملء الفجوات الزمنية: تقارير الخبراء، ودراسات شخصيات الأعضاء البارزين في الإدارة، ومقتطفات من تسريبات الكرملين التي تم حفظها للحظة مناسبة. بعد تنظيم التقارير ذات الصلة، كتب تواريخها في عمود وتجاهل كل ما تبقّى. هنا، كان يمكن مقارنة ذهنه بذهن عالم يعرف بالغريزة أنّه على وشك اكتشاف ما، وينتظر اللحظة التي سيتوصل فيها إلى الصلة المنطقية. لاحقًا، في محادثة مع مندل، سمّى وضعه «وضع كل شيء في أنبوب اختبار وترقّب ما إذا كان سينفجر». أكثر ما أثار اهتمامه، كما قال، هي النقطة التي أشار إليها غويلام بشأن تحذيرات بيرسي الغامضة بشأن الأحواض الموحلة: كان يبحث، بمعنى آخر، عن «العقدة الأخيرة» التي ربطها كارلا بهدف إبعاد الشكوك المحددة التي أومأت إليها رسالة إيرينا.

توصّل إلى خلاصات أولية غامضة. أولًا، في المرات التسع التي كان ميرلين يرسل فيها تقريرًا ذا صلة، إما أن بولياكوف كان في لندن أو كان توبي إيسترهيز في رحلة خارجية. ثانيًا، خلال الفترة الحاسمة التي تلت مغامرة تار في هونغ كونغ تلك السنة، كان بولياكوف في موسكو بسبب استشارات ثقافية عاجلة؛ وبعدها بفترة وجيزة أرسل ميرلين أهم تقاريره بشأن «الاختراق الأيديولوجي» للولايات المتحدة، بما فيها تقييم عن تغطية المركز للأهداف الاستخباراتية الأميركية الأساسية.

معيدًا التدقيق مرة أخرى، اكتشف أنّ العكس صحيح أيضًا: التقارير التي تجاهلها على أساس عدم وجود صلة وثيقة لها بالحوادث الأخيرة كانت في معظمها هي التقارير التي وُزّعت عندما كان بولياكوف في موسكو أو خارج لندن.

ثم استنتج الأمر.

لا إلهام مفاجئًا، لا بارقة ضوء، لا صرخة «وجدتها»، أو مكالمات مع غويلام وليكون، «سمايلي بطل العالم». أمامه، في السجلات التي تفحّصها والملاحظات التي جمعها، كان تعزيز النظرية التي رآها سمايلي وغويلام وريكي تار بوضوح ذلك اليوم، كلٌّ من زاوية مختلفة: بين الجاسوس جيرالد والمصدر ميرلين كان يوجد ارتباط لا يمكن نكرانه؛ وتعدد وجوه ميرلين البارز أتاح له العمل كأداة لكارلا علاوة على كونه أداة لأليلاين. أم أنّ عليه القول، كما فكر سمايلي – واضعًا منشفة على كتفيه ومتجهًا نحو الممر من أجل حمّام احتفاليّ – إنه عميل كارلا؟ وأنّ، في قلب هذه الحبكة، ثمة حيلة شديدة البساطة إلى حد أنها جعلته مبهورًا جدًا بتناسقها. بل إنّ لها حضورًا متجسّدًا: هنا في لندن، يوجد منزل، تُدفع تكاليفه من الخزينة، ستة آلاف جنيه؛ وغالبًا ما يطمع به، من دون أدنى شك، الكثير من دافعي الضرائب عاثري الحظ الذين يمرون يوميًا بجانبه، واثقين أنّهم لن يتمكّنوا من دفع تكاليفه أبدًا، ومن دون أن يعلموا أنّهم يدفعون تكاليفه أساسًا. كانت ذات طبيعة أخفّ مما قد عرفه خلال الشهور الكثيرة التي تولّى فيها موضوع الملف المسروق عن عملية تستيفاي.

24

من جهتها، كانت ماترون قلقةً بشأن روتش طوال الأسبوع، منذ أن وجدته وحيدًا في الحمّام، بعد عشر دقائق من مغادرة جميع زملائه في المهجع لتناول طعام الإفطار، حيث كان لا يزال مرتديًا بنطلون البيجاما، مستندًا إلى مغسلة ينظّف أسنانه. عندما سألته تجنّب النظر إلى عينيها. أخبرت ثيرزغود: «إنه والده البائس، إنه يؤثّر سلبًا عليه مجددًا». ويوم الجمعة: «يجب أن تكتب رسالة إلى الأم لتُعلمها أنه يعاني من مشكلة».

ولكن حتى ماترون، برغم كل عنايتها الأمومية، لم تكن لتخمّن التشخيص المرعب.

ما الذي يمكن له أن يفعل، هذا الطفل؟ كان هذا ذنبه. كان هذا هو الخيط الذي يعود مباشرة إلى الحظ العاثر لوالديه. كانت تلك هي الورطة التي ألقت على كتفيه المحدَوْدِبتَيْن المسؤولية الدائمة عن حفظ سلام العالم. روتش المراقب - «أفضل مراقب في الوحدة اللعينة بأسرها»، لو استخدمنا كلمات جِمْ بريدو الأخيرة - نجح أخيرًا في المراقبة على نحو ممتاز. كان سيضحّي بكل شيء يملكه: نقوده، والألبوم الجلدي لصور عائلته، وكل ما يعطيه قيمة في هذا العالم، لو كان هذا سيشتري له الراحة مما عرفه منذ مساء الأحد.

يوم الأحد ليلًا، بعد ساعة من انطفاء الأضواء، اندفع بضجة إلى المغاسل، تنحنح، غرغر بفمه ثم تقيأ. ولكن مراقب المهجع، الذي كان يُفترض به أن يستيقظ ويطلق التنبيه – «ماترون، روتش مريض» – كان نائمًا بعمق طوال تلك الأحداث. جرّ روتش جسده بتثاقل إلى السرير. من كابينة الهاتف خارج غرفة الكادر التدريسي في ظهيرة اليوم التالي، اتصل بالمطعم وهمس على نحو غريب في السماعة على أمل أن يسمعه أحد المشرفين ويعتبره مجنونًا. لم يُعِره أحد اهتمامًا. حاول مزج الحقيقة بالأحلام متأمّلًا أن يستحيل ذلك الحدث الذي شاهده إلى مجرد خيال؛ ولكن كل صباح، وبعد أن يقطع المنحدر، كان يرى جسد جِمْ المنحني منكبًّا على الرفش تحت ضوء القمر؛ رأى الظل الأسود لوجهه تحت حافة قبّعته القديمة، وسمع آهات الجهد وهو يحفر.

لم يكن ينبغي عليه أن يكون هناك. ذلك أيضًا كان ذنبه: إن المعرفة تُكتَسَب بالخطايا. بعد درس تشيلو في الجانب الآخر من القرية، كان قد عاد إلى المدرسة ببطء متعمَّد ليتأخر عن إيفنسونغ وعن عيني السيدة ثيرزغود الغاضبتَين. كانت المدرسة بأسرها تطيع ما عداه هو وجم: سمعهم ينشدون التسبيحة المريَمية وهو يعبر الكنيسة، مختارًا الطريق الأطول بحيث يمر بالمنحدر حيث كان ضوء جِمْ متّقدًا. واقفًا في مكانه المعتاد، راقب روتش ظل جِمْ وهو يتحرك ببطء عبر النافذة المغطاة بستارة. إنه ينام مبكرًا، قال لنفسه، وهو يرى الضوء وقد انطفأ فجأة؛ بما أن جِمْ كان يغيب كثيرًا مؤخرًا، يقود سيارته الألفيس متجولًا ثم يعود بعد أن يكون روتش قد خلد للنوم. ثم انفتح باب الكارافان وأُغلق، ليجد جِمْ وقد وقف عند مسكبة الخضار وبيده رفش، بحيث بدأ روتش بالتساؤل بدهشة كبيرة عما يريد البحث عنه حفرًا في الظلام. خضار لعشائه؟ للحظة وقف جِمْ ساكنًا، منصتًا للتسبيحة المريمية، ثم دار بنظره ببطء مثبتًا إياه على مكان روتش، بالرغم من أنه كان خفيًا عن الأنظار بفعل ظلمة التلال. فكر روتش بمناداته؛ ولكنه أحس بالذنب لأنه لم يكن في الكنيسة.

أخيرًا بدأ جِمْ بالقياس. هذا على الأقل ما بدا لروتش. بدلًا من الحفر، انحنى على زاوية من تلك البقعة ووضع رفشه على الأرض، كما لو كان يحاذيه بشيء كان روتش عاجزًا عن رؤيته: برج الكنيسة مثلًا. بعد أن انتهى، اندفع جِمْ بسرعة إلى حيث مكان شفرة الرفش، وعلّم البقعة بضربة من كعب حذائه، ثم رفع الرفش وبدأ الحفر بسرعة، حيث عدّ روتش اثنتي عشرة ضربة، ثم نهض، وشرع بالقياس مجددًا. خيم الصمت من اتجاه الكنيسة؛ ثم بدأت الصلوات. انحنى بسرعة، رفع جِمْ صندوقًا عن الأرض، دفنه مباشرة بين طيات معطفه الصوفي. بعد ثوان، وبأقصى سرعة ممكنة، انصفق باب الكارافان، ليُضاء المصباح مرة أخرى. وفي أكثر لحظات حياته جرأة تقدم روتش على أطراف أصابعه نازلًا المنحدر حتى وصل إلى مسافة ثلاثة أقدام عن النافذة المغلقة بستارة، مستخدمًا انحدار الأرض لإعطاء جسده الطول الملائم الذي يحتاجه كي ينظر نحو الداخل.

وقف جِمْ عند الطاولة. على الحافة خلفه تكوّمت دفاتر التلاميذ، وزجاجة فودكا وكأس فارغة. لا بد أنّه وضعها هناك ليُفسح بعض المجال. كانت سكين الجيب جاهزة في يده من دون أن يستخدمها. لم يكن جِمْ ليقطع خيطًا لو كان بإمكانه تجنّب ذلك. كان الصندوق بطول قدم ومصنوعًا من مادة صفراء تشبه كيس التبغ. فتحه، وأخرج منه ما بدا وكأنه مفتاح إنكليزي ملفوف. ولكن من يدفن مفتاحًا إنكليزيًا، حتى لو كان هذا من أجل أفضل سيارة صنعتها إنكلترا؟ كانت البراغي أو المسامير في مغلف أصفر منفصل؛ نثرها على الطاولة وفحص كل واحد منها. ليست براغي: رؤوس أقلام. ليست رؤوس أقلام أيضًا؛ ولكنها اختفت عن مجال رؤيته.

وليس مفتاحًا إنكليزيًا، أو مفتاح ربط، أو أيّ شيء ذي صلة بالسيارة على الإطلاق.

تخبّط روتش بشدة. كان يجري بين التلال شاقًا طريقه، ويركض بسرعة أبطأ مما اعتاد؛ يركض عبر الرمال والمياه العميقة والأعشاب

الكثيفة، يستنشق هواء الليل ثم يزفره بقوة. يركض متعثّرًا مثل جم، يضرب بهذه القدم، ثم بالأخرى، مندفعًا برأسه إلى الأمام لاكتساب سرعة أكبر. لم يكن يعلم أين سيتجه. كل تركيزه كان خلفه؛ مثبّتًا على المسدس الأسود وكيس جلد الشاموا؛ على رؤوس الأقلام التي تحولت إلى رصاصات يدسّها جِمْ باحتراف في البكرة، ووجهه الشاحب مصوَّبٌ باتجاه الضوء، بنظرات حادّة برّاقة.

25

حذّره الوزير بنبرته المميزة: «لن أدلي بتصريح يا جورج، لا محاضر، ولا تسريبات. لديّ ناخبون يجب علي التعامل معهم. بينما ليس لديك. ولا لدى أوليفر ليكون، هل لديك يا أوليفر؟».

لديه ذلك الولع بالتشدّق كذلك، فكر سمايلي: «صحيح، أعتذر بشأن هذا».

«ستكون أشد أسفًا لو كان لديك جمهور الناخبين الذين لديّ»، أكد الوزير.

كما هو متوقع، كانت مسألة المكان الذي يتوجّب عليهم اللقاء فيه قد أثار شجارًا سخيفًا. أشار سمايلي لليكون بأنّه سيكون من غير الحكمة اللقاء في مكتبه في بناء مكاتب الحكومة إذ إنّه خاضع لمراقبة موظفي السيرك، سواء الحرّاس الذين يوصلون البريد أو حتى بيرسي أليلاين الذي سيمرّ لمناقشة شؤون أيرلندا. وفيما رفض الوزير خيارَي فندق آيلاي أو شارع بايووتر لكونهما غير آمنَين. كان قد ظهر مؤخرًا على التلفزيون، وكان فخورًا بكونه قد أصبح معروفًا. وبعد عدة مكالمات اتفقوا على بيت مندل الموقّت في ميتشم حيث سيبدو الوزير هناك مع سيارته كإبهام متورّم. وها هم جالسون هناك، ليكون وسمايلي والوزير، في الغرفة الأمامية ذات الستائر الشبكية وشطائر السلمون الطازج، بينما بقي مضيفهم في الطابق

العلوي ليراقب المداخل. في موقف السيارات، كان الأطفال يحاولون إقناع السائق كي يخبرهم لحساب مَنْ يعمل.

وراء رأس الوزير كانت مجموعة كتب عن النحل. إنه شغف مندل، كما يتذكر سمايلي: كان يستخدم مفردة «إكزوتيك» لتوصيف النحل غير القادم من مدينة سوريه. كان الوزير لا يزال شابًا، بفكّ أسود بدا وكأنه ضُرب عدة مرات في شجار غريب. كان أصلع في أعلى رأسه، ما أعطاه مظهرًا غير مضمون من النضج، ونبرة إيتونية شنيعة. «حسنًا، ما هي قراراتكم؟». كان يمتلك كذلك فن الحوار الخاص بالمتنمّرين.

قال سمايلي: «حسنًا، بداية - كما أفترض - عليك إيقاف أي مفاوضات كنت تخوضها مع الأميركيين. كنت أفكر بالملحق السري الخالي من العنوان الذي تحتفظ به في خزنتك، ذلك الذي يناقش الاستغلال الإضافي لموارد وتشكرافت».

«لم أسمع به مطلقًا».

«أتفهّم الدوافع، بالطبع؛ من المغري دومًا الحصول على زبدة الخدمة الأميركية الهائلة، وبوسعي إدراك الحجج المؤيدة لمقايضتها مع وتشكرافت بالمقابل».

«وما هي الحجج المعارضة إذًا؟» تساءل الوزير كما لو كان يتحدث مع سمسار بورصة.

فكّر سمايلي أنّ من بين جميع أقربائها، قالت آن مرة بتباهٍ إنّ مايلز سيركومب هو الوحيد الذي يخلو من أيّ سمة تهرّبية. للمرة الأولى، تأكد سمايلي أنها على حق. لم تبدُ حمقاء فحسب، بل ضائعة.

بدأ سمايلي الكلام: «لو كان الجاسوس جيرالد موجودًا فعلًا، وهذا ما أفترض بأنّنا نتشارك في قبوله». انتظر تعليقًا، ولكن لم ينفِ أحد كلامه، فأكمل: «لو كان الجاسوس موجودًا»، كرر، «لن يكون السيرك وحده من سيضاعف فوائده من الصفقة الأميركية. مركز موسكو سيكسب أيضًا،

لأنهم سيحصلون من الجاسوس على كل ما ستشتريه من الأميركيين».

بإيماءة إحباط صفق الوزير يده على طاولة مندل، مخلّفًا طبعةً نديّة على السطح. وصاح:

«لعنة الله على هذا، أنا لا أفهم، بضاعة وتشكرافت تلك رائعة جدًا! منذ شهر كانت تتيح لنا شراء القمر. والآن نختفي في جحورنا لنقول إن الروس يطبخون لنا شيئًا. ما الذي يحدث بحق الجحيم؟».

«حسنًا، لا أظن أنّ الأمر لا منطقيّ كما يبدو عليه في الحقيقة. إذ قبل كل شيء، كنا ندير الشبكة الروسية من حين لآخر، وبالرغم من تحفّظاتي الخاصة إلا أننا نديرها على نحو ممتاز. أعطيناهم أفضل بضاعة نمتلكها، صناعة الصواريخ والتخطيط الحربي. أنت في ضوء هذا كله» - كانت العبارة الأخيرة موجّهة إلى ليكون الذي وافقه بإيماءة. «اعطيناهم عملاء يمكن لنا الاستغناء عنهم، ومنحناهم وسائل اتصالات جيدة، وقمنا بتأمين خطوط اتصالهم، وأخلينا الجو لإشاراتهم بحيث يكون بإمكاننا التنصّت عليها. كان هذا هو الثمن الذي دفعناه من أجل إدارة المعارضة - ماذا كان تعبيرك؟ - «كي نعرف كيفية تواصلهم مع مفوّضيهم». وأنا واثق أنّ كارلا سيفعل الكثير من أجلنا لو كان هو من يدير شبكاتنا. بل سيفعل ما هو أكثر- أليس كذلك، لو كانت عينه مسلّطة على السوق الأميركية أيضًا؟». توقف ونظر إلى ليكون. «صلة أميركية، أعني حصة أميركية كبيرة، ستحرّك الجاسوس جيرالد إلى الطاولة العليا مباشرةً. والسيرك أيضًا بالوكالة طبعًا. كروسيّ، سيقدّم المرء كل شيء تقريبًا للإنكليز لو ... حسنًا، لو كان بوسع المرء شراء الأميركيين بالمقابل».

«شكرًا»، قال ليكون بسرعة.

غادر الوزير، آخذًا معه سندويشتين ليأكلهما في السيارة من دون أن يودّع مندل، ربما لأنه ليس أحد الناخبين.

بقي ليكون الذي قال أخيرًا: «طلبتَ مني أن أبحث عن أي شيء

بخصوص بريدو. وجدت بأننا نمتلك أوراقًا قليلة بشأنه في نهاية المطاف».

تصادفَ أنه كان يبحث في عدة ملفات بشأن الأمن الداخلي للسيرك، كما فسّر، «ليطمئن قلبي فحسب». وخلال ذلك، عثر على تقارير تدقيق قديمة، يتعلق أحدها ببريدو.

«لم يكن ثمة شيء بشانه على الإطلاق. ولا أي أثر صغير. ومع ذلك»، - تغيّر غريب في نبرة صوته جعلت سمايلي ينظر إليه - «أعتقد بأن هذا سيهمك. ثمة أقاويل بشأن دراسته في أوكسفورد. كنا جميعًا ميّالين إلى شيء من الأفكار الراديكاليّة آنذاك».

«نعم بالفعل».

عاد الصمت الذي لم يكسره سوى وقع الأقدام الخافت لمندل في الطابق العلويّ.

«بريدو وهايدن كانا مقرّبَين حقًا، كما تعلم»، اعترف ليكون. «لم أكن أدرك هذا».

أصبح فجأة في عجلة من أمره للمغادرة. مد يده في حقيبته وأخرج مظروفًا كبيرًا، دسّه في يد سمايلي وعاد إلى العالم البراق لمكاتب الحكومة؛ وعاد السيد باراكلوك إلى فندق آيلاي، حيث عاود قراءته لملفات عملية تستيفاي.

26

كان وقت الغداء في اليوم التالي. كان سمايلي قد انهمك في القراءة ثم نام قليلًا، تابع القراءة واستحمّ ثم صعد درج ذلك البيت اللندني الجميل وشعر بالشرور لأنه يحب سام.

البيت من الطوب البني على الطراز الجورجيّ، بعد ساحة غروسفينور بقليل. خمس درجات ثم جرس الباب النحاسيّ في فجوة تشبه المحار. كان الباب أسود ومطوّقًا بعمودين على جانبَيْه. ضغط الجرس، وبدا وكأنه ضغط الباب كذلك، إذ انفتح مباشرة. دخل إلى صالة دائرية تضم بابًا في نهايتها، ورجلَيْن ضخمَين ببدلتَيْنْ سوداوَين أشبه بحُجّاب كنيسة وستمنستر. على المدفأة الرخامية تمثالان صغيران لحصانيَن متقابلَين. وقف أحد الحارسَين بجانبه وهو يخلع معطفه؛ وقاده الآخر إلى مكتب ليوقّع في السجل.

«هيبدن»، تمتم سمايلي وهو يكتب اسمًا حركيًا كان يمكن لسام أن يتذكره. «أدريان هيبدن».

كرر الرجل الذي يحمل معطفه الاسم عبر هاتف داخليّ: «السيد هيبدن، السيد أدريان هيبدن».

«هل يمكن أن تنتظر دقيقة لو سمحت يا سيدي»، قال الرجل الجالس

وراء المكتب. لم يكن ثمة موسيقا، وكان لدى سمايلي شعورٌ بأنّه كان لا بدّ من موسيقا؛ ونافورة كذلك.

قال سمايلي: «أنا صديق للسيد كولنز في الحقيقة لو كان السيد كولنز موجودًا. أظن بأنّه قد يكون بانتظاري».

تمتم الرجل عبر الهاتف «شكرًا» وأعاد تعليق الهاتف بجانبه. وقاد سمايلي إلى الباب الداخلي وفتحه. لم يصدر الباب صوتًا على الإطلاق، ولا حتّى صوت حفيف على السجادة الحريرية.

تمتم باحترام: «السيد كولنز هناك يا سيدي، المشروبات على حسابنا».

كانت غرف الاستقبال الثلاث مرتبطة في ما بينها، وثمة أعمدة وأقواس تقسمها بصريًا، مع ألواح من خشب الماهوغاني. في كل غرفة توجد طاولة واحدة، وكانت الغرفة الثالثة على بعد ستين قدمًا. كانت الأضواء مسلّطةً على لوحة خالية من المعنى لفواكه في إطار ذهبيّ ضخم، وعلى المفارش الخضراء للطاولات. كانت الستائر مسدلة، وثلث الطاولات مشغول تقريبًا، أربعة أو خمسة لاعبين على كل منها، جميعهم رجال، وكان الصوت الوحيد هو دحرجة الكرة على العجلة، ورنين الفيشات وهي توزَّع، والهمهمة الخفيضة لمديري الطاولات.

قال سام كولنز، بنبرة مبتهجة: «أدريان هيبدن، مرَّ وقت طويل من دون أن نراك».

«مرحبا سام»، قال سمايلي، وتصافحا.

«تعال إلى مخبئي»، قال سام مومئًا إلى الرجل الآخر الوحيد الواقف في الغرفة، رجل ضخم مفعم بالحيوية بوجه رقيق. أومأ الرجل الضخم أيضًا.

«هل أحببت المكان؟» تساءل سام وهما يعبران ممرًا بستائر من الحرير الأحمر.

ردّ سمايلي بتهذيب: «إنه مذهل جدًا».

«هذه هي الكلمة، مذهل. هذا هو التوصيف».

كان سام يرتدي جاكيتًا خفيفًا. وكانت غرفته على الطراز الإدوارديّ، ومكتبه ذو سطح رخاميّ وقوائم تنتهي بكرة مطوّقة بمخلب، ولكن الغرفة ذاتها كانت صغيرة جدًا، وسيئة التهوئة. أشبه بالغرف الخلفية في المسرح، المؤثثة ببقايا أثاث الديكور، فكّر سمايلي.

«وقد يجعلونني أدفع عدة بنسات من جيبي، أعطهم سنة أخرى. إنهم صارمون ولكن مجدّون، كما تعلم».

قال سمايلي: «أنا واثق».

«كما كنا في الأيام الخوالي».

«هذا صحيح».

كان أنيقًا ومهذبًا، وله شارب أسود جميل. لم يكن سمايلي قادرًا على تخيّله من دون الشارب. لعله كان في الخمسين من عمره. كان قد قضى وقتًا طويلًا في الشرق، حيث عمل مرةً بمواجهة عميل اتصالات صينيّ. كان لا يزال، رغم بشرّته وشعره، يبدو في الخامسة والثلاثين. كانت ابتسامته دافئة، بحيث يبث شعورًا محببًا من الألفة. ويُبقي كلتا يديه على الطاولة كما لو كان يلعب الورق وينظر إلى سمايلي بحنان تملّكي بدا أبويًا أو بَنَويًا أو كليهما معًا.

قال محافظًا على ابتسامته: «إذا تطوّرت الأمور مع تشامي، أعلمني يا هاري، لو سمحت. وإلا أبقِ فمك الكبير مغلقًا، لأنني أدردش مع صديقي الملك». كان يتحدث عبر جهاز على مكتبه. «أين هو الآن؟».

«متفوق بثلاثة»، قال صوت أجش. خمّن سمايلي بأنه صوت الرجل الضخم ذي الوجه الرقيق.

قال سام بلا مبالاة: «إذًا أمامه ثمانية ليخسر، أبقِهِ على الطاولة، هذا كل ما في الأمر. اجعل منه بطلًا». ثم أنهى حديثه مبتسمًا وبادله سمايلي الابتسامة.

أكّد سام: «إنها حياة عظيمة حقًا، أفضل من بيع الغسالات على أيّ حال. مع أنّ من الغريب، بالطبع، ارتداء الجاكيت المسائيّ الساعة العاشرة صباحًا. هذا يذكّرني بالتخفّي الدبلوماسيّ». ضحك سمايلي. فأضاف سام من دون أن تتغير ملامح وجهه: «بكل صراحة، صدق أو لا تصدق، نحصل على المساعدة التي نحتاج إليها عبر عِلم الحساب».

قال سمايلي بتهذيب شديد مجددًا: «أنا واثقٌ أنك قادر على هذا».

«ما رأيك ببعض الموسيقا؟».

كانت موسيقا مسجّلة صادرة من السقف. رفع سام الصوت إلى أقصى حد يمكن لهما احتماله.

«إذًا، بمَ يمكنني مساعدتك؟» سأل سام وقد اتسعت ابتسامته.

«أود التحدث معك بشأن الليلة التي أصيب فيها جِمْ بريدو. فقد كنتَ الضابط المناوب».

كان سام يدخّن سجائر بنّية لها رائحة سيجار. أشعل واحدة، وأبقى النار على طرف السيجارة، ثم راقب تحوّله إلى جمرة.

«هل تكتب مذكراتك يا فتى؟».

«إننا نعيد فتح القضية».

«ما دلالة ضمير الجماعة هذا يا فتى؟»

«أنا، ونفسي، ومحسوبك، ليكون يجذب والوزير يرخي».

«كل أنواع السلطة تُفسد المرء، ولكن لا بد للبعض أن يحكم، وفي هذه الحالة فإنّ الأخ ليكون سيزحف تدريجًا نحو أعلى القمة».

«لم يتغير الأمر»، قال سمايلي.

تأمل سام سيجارته. وانتقلت الموسيقا إلى عبارات لنويل كوورد.

قال سام كولنز عبر الضجة: «هذا حلمي في الحقيقة، في أحد الأيام يدخل بيرسي أليلاين عبر ذلك الباب بحقيبة بنّية بالية ليبدأ رهانه. يراهن بكل ما يملكه على الأحمر ويخسر».

قال سمايلي: «تم العبث بالسجلات، لا بد من التوجه إلى الناس وسؤالهم عما يتذكرونه. لم يتبق شيء تقريبًا في الملف على الإطلاق».

«لست متفاجئًا»، رد سام. وعبر الهاتف طلب سندويشات. «أعيش عليها»، فسّر. «سندويشات وشطائر كانابي. أحد هذين الخيارين».

كان يصب قهوة عندما أضاء مصباح صغير بينهما على الطاولة.

«تشامي متعادل»، قال الصوت الأجش.

قال سام: «إذًا ابدأ بالعد»، وأنهى المكالمة.

روى القصة بوضوح ودقة، كما يستعيد الجنديّ الجيد وقائع معركة، لا كي يفوز أو يخسر بعد الآن، بل لمجرد التذكّر. كان قد عاد للتو من الخارج، كما قال، مهمة استغرقت ثلاث سنوات في فيينتنان. أعلَمَ شؤون الموظفين بعودته وأنهى عمله مع الدولفين؛ لم يبدُ أنّ أحدًا سيوكّله بأي عمل لذا كان يفكر بالرحيل إلى جنوب فرنسا في إجازة لمدة شهر عندما رآه في الممر ماكفاديان، الحارس القديم الذي كان المُستخدم الشخصيّ لكونترول عمليًا، ورافقه إلى مكتب كونترول.

سأل سمايلي: «متى كان هذا بالضبط؟».

«19 تشرين الأول/ أكتوبر».

«الخميس».

«الخميس. كنت أفكر بالسفر إلى نيس يوم الاثنين. كنتَ في برلين. أردت أن أدعوك لنشرب كأسًا ولكن أخبرتني الأمهات أنك مشغول، وحين راجعت موظّفي شؤون التنقلات أخبروني أنك سافرت إلى برلين».

قال سمايلي ببساطة: «أرسلني كونترول إلى هناك».

ليتخلص مني، كان سيضيف؛ كان هذا شعورًا يسيطر عليه حتى في ذلك الوقت.

قال سام، متحاشيًا النظر في عيني سمايلي: «بحثت عن بِلْ ولكنه كان غائبًا أيضًا. كان كونترول قد أرسله إلى مكان ما في البلاد».

تمتم سمايلي: «في مطاردة شرسة، ولكنه عاد».

هنا، استرق سام نظرةً استفسارية حادة باتجاه سمايلي، ولكنه لم يضف شيئًا بشأن رحلة بل هايدن.

«بدا المكان بأسره ميتًا. كدت أحجز في أول طائرة عائدة إلى فيينتيان».

«كان ميتًا إلى حد بعيد»، اعترف سمايلي، وفكر: باستثناء وتشكرافت.

تابع سام: «وبدا كونترول كما لو أنه مصاب بحمى مدة خمسة أيام. كان محاطًا ببحر من الملفات، وكانت بشرته شاحبة، وكان يقطع كلامه كل عدة لحظات ليمسح جبينه بمنديله. كاد ينسى وجود المروحة نهائيًا، ولم يهنئه على مهمته الناجحة التي استغرقت ثلاث سنوات، أو يمازحه بشأن حياته الخاصة التي كانت فوضوية آنذاك؛ كل ما قاله هو أنّه يريد منه، هو سام، أن يناوب في عطلة نهاية الأسبوع بدلًا من ماري ماسترمان، وسألني: هل بإمكانك فعل هذا يا سام؟

«بالطبع يمكنني ذلك»، قلت. «لو أردت مني أن أكون الضابط المناوب، سأكونه». وقال إنه سيوافيني بباقي تفاصيل القصة يوم السبت. وفي هذه الأثناء، عليَّ عدم إخبار أحد بأي شيء. يجب ألّا أعطي أي تلميح في أي مكان من المبنى، طلب مني هذا الأمر فحسب. كان بحاجة إلى شخص جيد ليدير غرفة التحكم في حال حدوث مشكلة، ولكن ينبغي أن يكون هذا الشخص من محطة خارجية أو شخصًا مثلي كان بعيدًا عن المكتب الرئيسيّ فترة طويلة. ويجب أن يكون موظفًا قديمًا».

لذا توجّه سام إلى ماري ماسترمان وأقنعها بقصة حظه العاثر حيث لن يتمكن من إخراج المستأجر من شقته قبل يوم الاثنين؛ ماذا لو ناوب عنها ليوفّر أجرة الفندق؟ استلم النوبة الساعة التاسعة من صباح يوم السبت جالبًا فرشاة أسنانه وست علب بيرة في حقيبة لا تزال تحمل لصاقات شجر النخيل على جانبها. وكان ينبغي على جف أغيت تسلّم النوبة منه مساء الأحد.

مرة أخرى عبّر سام عن درجة الموت التي كان عليها المكان. في الأيام الخوالي، كان يوم السبت كأي يوم آخر، كما قال. وكانت معظم المحطات الفرعية تدع موظفًا مناوبًا في العطل، بل وكان في بعضها كادر ليليّ، لدرجة أنك حين تتجول في المبنى ستحسّ بأنّ هذا كله ليس سوى مظهر خارجيّ لعمل جاد يجري في الخفاء. ولكن في صباح السبت ذاك، بدا المبنى وكأنه قد أُفرغ من موظفيه، كما قال سام؛ وقد حصل هذا فعلًا إلى حد ما كما سمع لاحقًا – بناء على أوامر من كونترول. ثمة حارسان في الطابق الثاني، كانت غرفة الاتصالات والشيفرة في حالة استراحة ولكن الفتيان كانوا يعملون بجد على أية حال. بخلاف هذا، قال سام، كان الصمت مطبقًا. جلس منتظرًا اتصال كونترول ولكن لم يحصل ذلك الاتصال. أمضى ساعة أخرى في تبادل المزاح مع الحارسَين اللذين خمّن أنهما من أسوأ دفعة مرت على السيرك. تفقد لوائح الحضور الخاصة بهما ووجد عاملَي طباعة وموظفًا مناوبًا آخر موجودًا بالاسم ولكنه غائب، فوضع رئيس الحرس، وهو فتى جديد يدعى ميلوز، مكانه. ثم اتجه أخيرًا إلى الطابق العلويّ ليرى ما إذا كان كونترول هناك.

«كان يجلس وحيدًا، ما عدا ماكفاديان. لا أمهات، وأنت غائب، فقط ماك العجوز يجلب شاي الياسمين والتعاطف. هل أطلت في الحديث؟».

«لا، تابع لو سمحت. بأدق التفاصيل كما تتذكرها».

«إذًا، عندئذ أزاح كونترول غطاءً آخر. نصف غطاء. فهناك مَنْ كان يقوم بمهمة خاصة من أجله كما قال. كانت ذات أهمية كبيرة للسيرك. تابع

قول هذا: للسيرك. لا لمكاتب الحكومة أو الإسترليني أو أسعار السمك، بل لنا فقط. وحتى عندما سينتهي الأمر يجب ألا أتفوه بكلمة. ولا حتى لك. أو بِل أو بلند أو أي أحد آخر».

«ولا حتى أليلاين؟».

«لم يذكر بيرسي أبدًا».

«لا»، وافقه سمايلي. «لم يفعلها إلا بشق الأنفس في نهاية المطاف».

«لا بد أن أشكره على تلك الليلة كمدير للعمليات. ينبغي أن أعتبر نفسي كصلة وصل بين كونترول وأيًا يكن ما يحدث في ما تبقّى من المبنى. لو وصل أي شيء، إشارة، اتصال هاتفي، بصرف النظر عن مدى تفاهته، كان ينبغي عليّ الانتظار كي يخلو الطريق، ثم أندفع بسرعة لأعطيه لكونترول. يجب ألّا يعرف أحد، الآن أو لاحقًا، أنّ كونترول كان الرجل القابع وراء السلاح. كما يجب ألّا أتصل به أو أتواصل معه بأيّ شكلٍ أو حال؛ حتى الخطوط الداخليّة كانت محرّمة. هذه هي الحقيقة يا جورج»، قال سام، وقضم قضمة من سندويشته.

قال سمايلي بتأثر: «أوه أنا أصدّقك حقًا».

لو كان ينبغي إرسال تلغرافات، كان على سام أن يتصرف بوصفه مفوّضًا من كونترول. يجب عليه ألّا يتوقّع حدوث شيء كبير تلك الليلة؛ حتى حينئذ بدا من الأرجح أنّ شيئًا لن يحدث. أما بخصوص الحرّاس وما شابههم، كما قال كونترول، كان على سام بذل أقصى طاقته كي يتصرَّف على نحو طبيعي كما لو كان مشغولًا.

مع انتهاء الجلسة، عاد سام إلى غرفة التحكم. طلب جريدة المساء، وفتح علبة بيرة، واختار خط هاتف خارجيّ وخلع قميصه. كان هناك خبر بشأن سباق ضاحية لم يتابعه منذ سنوات. مع بداية المساء، تجوّل مجددًا في أرجاء المبنى وتفقّد أجهزة الإنذار في غرفة السجلات الرئيسية. ثلاثة من أصل خمسة عشر كانت معطلة، وخلال هذا الوقت كان الحارسان قد

استلطفاه فعلًا. أعدّ وجبة بَيْض، وبعد أن أنهى طعامه، صعد إلى الأعلى ليحيّي العجوز ماك ويعطيه علبة بيرة.

«كان قد طلب مني المراهنة بجنيه على حصان يمتلك ثلاث قوائم يسرى. دردشت معه عشر دقائق، وعدت إلى غرفتي. كتبت عدة رسائل، وشاهدت فيلمًا سخيفًا على التلفزيون، ثم توجهت إلى السرير. جاء الاتصال الأول عندما أوشكت على النوم، في الحادية عشرة وعشرين دقيقة بالتحديد. ولم تتوقف الهواتف عن الرنين طوال العشر ساعات اللاحقة. ظننت أنّ لوحة التحكّم ستنفجر في وجهي».

«أركادي متأخر بخمسة»، قال صوت عبر الجهاز.

«اعذرني»، قال سام بابتسامته المعتادة، تاركًا سمايلي مع الموسيقا المنسابة من السقف.

وحيدًا، أخذ سمايلي يراقب سيجارة سام البنية وهي تحترق في المنفضة. انتظر، ولكن سام لم يعد، تساءل ما إذا كان عليه إطفاؤها. التدخين ممنوع أثناء العمل، فكّر؛ قواعد المنزل.

«كل شيء على ما يرام»، قال سام.

كانت المكالمة الأولى من الموظف المقيم في مكتب الخارجية على الخط المباشر، قال سام. في مكاتب الحكومة، يبدو دومًا وكأن لمكتب الخارجية الحظ الأكبر.

«مدير وكالة رويترز في لندن كان قد اتصل به للتو بشأن حادثة إطلاق نار في براغ. جاسوس بريطاني توفي بعد إطلاق الرصاص عليه من قِبل رجال أمن روس، وكان الاستفسار بشأن المتعاونين معه وما إذا كان مكتب الخارجية على علم بالأمر؟ كان الموظف ينقل هذه الرسالة لنا كمعلومة. قلت إنها بدت هراء وأنهيت المكالمة، فأتى مايك ماكين ليخبرني أنّ

بوابات الجحيم فُتحت في التشيك: كان نصف الرسالة مشفّرًا والنصف الآخر عاديًا. وبقي يتحدث عن أقاويل بشأن حادثة إطلاق نار قرب برنو. براغ أو برنو؟ سألته. أم في كلتيهما؟ برنو فحسب. بقيت أنصت له، ثم بدأت الهواتف الخمسة بالرنين. ومع مغادرتي للغرفة، كان الموظف المقيم قد عاود الاتصال. كان مراسل رويترز قد صحح معلوماته، كما قال: إذ قرأ براغ على أنها برنو. أغلقت الباب وبدا الأمر وكأنك قد تركت عش دبابير في غرفتك. كان كونترول يقف قرب مكتبه حين دخلت. وكان قد سمع خطواتي وأنا أصعد. هل وضع أليلاين سجادًا على ذلك الدرج بالمناسبة؟».

«لا»، رد سمايلي. كان هادئًا تمامًا. «جورج مثل طائر السويفت»، كانت آن قد أخبرت هايدن مرة بحضوره. «يُخفض درجة حرارة جسده إلى أن تتناغم مع درجة حرارة المحيط. وبذا لا يضيّع طاقة على التأقلم».

«تعرف مدى سرعته حين ينظر إليك. نظر إلى يدي ليرى ما إذا كنت أحمل تلغرافًا له، وقد كنت أتمنى ذلك، ولكن كانت يداي خاويتَين. «أخشى أن هناك جوًا من الهلع»، قلت. أعطيته زبدة الموضوع، فنظر إلى ساعته، أعتقد أنه كان يحاول تخيّل ما حدث لو كان الأمر يجري كما هو مخطط له. قلت: «هل يمكن أن أحصل على تصريح منك؟». جلس، ولم أتمكن من رؤيته بوضوح، لم يكن هناك ضوء باستثناء ذلك المصباح الأخضر الصغير على مكتبه. فقلت مجددًا: «أحتاج إلى تصريح. هل تريدنا أن ننكر؟ لمَ لا أستدعي أحدًا ما؟». لا إجابة. لا بد أن أذكّرك بعدم وجود أي شخص قريب، ولكن لم أتذكر هذا. «لا بد من تصريح». كان بإمكاننا سماع وقع أقدام في الأسفل، وعلمت أنّ الفتيان في غرفة الاتصالات كانوا يحاولون العثور عليّ. «هل تريد النزول ومعالجة الأمر بنفسك؟» قلت. ذهبت إلى الجانب الآخر من المكتب، داعسًا على تلك الملفات المفتوحة في مواضع مختلفة حتى تكاد تظنّ أنه يجمع موسوعة. بعضها كان من أيام ما قبل الحرب. وكان يجلس هكذا».

ضم سام أصابعه، وضع أطرافها على جبهته وحدّق بالمكتب. كانت يده الأخرى مبسوطة، بافتراض أنها تحمل ساعة كونترول ذات السلسلة. «قل لماكفاديان أن يجلب لي تاكسي ثم أبحث عن سمايلي». «وماذا عن العملية؟» سألته. كان عليّ انتظار الليل بطوله لأحصل على إجابة. «إنها قابلة للإنكار»، رد. «كلا الرجلين كانا يحملان مستندات أجنبية. لم يكن أحد ليعرف أنهما بريطانيان في هذه المرحلة». «إنهم يتحدثون عن رجل واحد فحسب»، قلت، ثم تابعت، «سمايلي في برلين». هذا ما أعتقد أنني قلته على أية حال. لذا بقينا صامتَيْن لدقيقتَيْن إضافيتَين. «يمكن لأي شخص تولّي المهمة. لن يشكّل هذا فرقًا». كان ينبغي عليّ أن أشعر بالأسف تجاهه كما أعتقد، ولكن لم يكن بإمكاني إظهار تعاطف حينها. كان عليّ تولّي المشكلة من دون أن أعلم أي تفصيل لعين عنها. لم يكن ماكفاديان في الجوار لذا خمّنت أنّ على كونترول إيجاد التاكسي بنفسه، وعندما وصلت نهاية الدرج في الأسفل لا بد وأنني بَدَوت مثل غوردون في الخرطوم. الموظفة الحيزبون في قسم المراقبة كانت تلوّح لي بنشرات كأنها رايات، حارسان كانا يصيحان بحثًا عني، وفتى الاتصالات يرسل عدة إشارات، والهواتف ترن، لا هواتفي فحسب، بل ربما نصف الخطوط المباشرة لهواتف الطابق الرابع. اتّجهت مباشرة إلى غرفة المناوبة وأطفأت كل الخطوط وحاولت تهدئة نفسي. المراقبة - ماذا كان اسم تلك المرأة بحق السماء، تلك التي اعتادت لعب البريدج مع الدولفين؟».

«بيرسل. مولي بيرسل».

«هي. كانت قصتها معقولة على الأقل. كان راديو براغ يعد ببث بلاغ خلال نصف ساعة. وقد مضت ربع ساعة. كان البلاغ بشأن انتهاك شائن لإحدى الحكومات الغربية، انتهاك لسيادة تشيكوسلوفاكيا، وغضب متّقد لدى جميع مناصري الحريات من جميع أنحاء العالم. بعيدًا عن هذا»، قال سام بنبرة جافة، «سيكون الأمر هزليًا حقًا. اتصلت بشارع بايووتر بالتأكيد، ثم أرسلت إشارة إلى برلين كي يبحثوا عنك ويعيدوك إلى هنا. وأعطيت

ميلوز أرقام الهواتف الأساسية وأرسلته ليجد خطًا خارجيًا وليبحث عن كل من هو موجود من أصحاب الرتب العليا. بيرسي كان في اسكتلندا يقضي عطلته وكان خارج المنزل يتناول العشاء. أعطت الطباخة رقمًا لميلوز، اتصل به، وتحدث إلى مضيفه. بيرسي كان قد غادر للتو».

«آسف لمقاطعتك»، قال سمايلي. «تتصل بابيووتر لأي سبب؟» كان يمسك شفته العليا بين إبهامه وسبابته ويمطّها كما لو كانت تشوّهًا، فيما كان يحدّق في منتصف المسافة بينهما.

«في حال عدتَ باكرًا من برلين»، قال سام.

«وهل عدتُ؟».

«لا».

«مع من تحدّثت إذًا؟».

«مع آن».

قال سمايلي: «آن ليست هنا الآن. هل لك أن تذكّرني بما حدث، في المكالمة؟».

«سألت عنك وقالت إنك في برلين».

«هذا كل شيء؟».

«كنا في أزمة يا جورج»، قال سام بنبرة تحذيرية.

«المعنى؟».

«سألتها ما إذا تصادفَ أن كانت تعلم مكان بل هايدن. كان الأمر اضطراريًا. عرفت أنه في إجازة ولكن خمّنت أنه سيكون في الجوار. أخبرني أحدهم أنهما قريبان، وإنه صديق للعائلة، كما فهمت».

«نعم، صحيح. ماذا قالت؟».

«أعطتني «لا» غاضبة وأنهت المكالمة. آسف بشأن هذا يا جورج. الحرب حرب».

«كيف بدت؟» سأله سمايلي بعد أن ترك لهذه الحكمة المأثورة أن تأخذ حيّزها بينهما.

«أخبرتك: غاضبة».

كان روي في جامعة ليدز يبحث عن مواهب، قال سام، ولم يكن متواجدًا.

بين المكالمات، كان سام يبدو وكأن الأمر بأسره أُلقي على كاهله وحده. لعله غزا كوبا أيضًا: «كان العسكريون يضجّون بشأن تحرّكات الدبابات التشيكية قرب الحدود النمساوية، ولم يكن رعاة البقر قادرين على سماع أفكارهم بفعل ضجيج المراسلات في برنو، أما مكتب الخارجية فإنّ الموظف المناوب بدا كمن أصابته الهستيريا والحمّى الصفراء في آن. جاء ليكون أول، ثم الوزير، وعند الساعة الثانية عشرة والنصف صدر البلاغ التشيكي الموعود، وقد تأخر عشرين دقيقة عن الموعد المقرر، ولكن لم يكن ليكون أكثر سوءًا. جاسوس بريطاني يدعى جِمْ إليس، يسافر بهوية تشيكية مزوّرة بمساعدة من المتمردين التشيكيين المعارضين، حاول خطف جنرال تشيكي لم يُعلن عن اسمه في الغابة قرب برنو، وتهريبه عبر الحدود النمساوية. أُطلق الرصاص على إليس ولكن لم يعلنوا وفاته، كما أُعلن عن عدة اعتقالات أخرى. بحثت عن اسم جِمْ إليس في السجلات ليتبين أنه جِمْ بريدو. وفكّرت، كما كان كونترول قد فكّر: بما أنّ جِمْ أصيب برغم أوراقه التشيكية، كيف عرفوا اسمه الحركيّ، وكيف علموا أنه بريطاني؟ ثم وصل بِلْ هايدن، شاحبًا كورقة بيضاء. كان قد علم ببعض تفاصيل القصة عبر التلغراف في ناديه، فعاد مباشرة إلى السيرك».

سأل سمايلي عابسًا على نحو غريب: « في أي وقت حدث هذا بالضبط؟ لا بد وأن الوقت كان متأخرًا قليلًا».

بدا سام وكأنه يتمنى لو كان بوسعه جعل الأمر أسهل. «الواحدة والربع»، قال.

«وهو وقت متأخر، أليس كذلك، لقراءة التلغرافات؟».

«لا أعرف يا فتى».

«بل كان في النادي، صحيح؟».

«لا أعلم»، قال سام بعناد. ثم ارتشف من القهوة. «كان منظره ممتعًا، هذا كل ما يمكنني قوله. كنت أعتبره من ذلك النمط الغريب من الشياطين. ولكن ليس تلك الليلة، صدقني. حسنًا، كان مصدومًا. ومن لم يكن كذلك؟ وصل ليعرف أنّ هناك حفلة إطلاق نار شنيعة، هذا كل شيء. ولكن حين أخبرته أنّ من أصيب هو جم، نظر إليّ كمجنون. فظننت أنّه سيضربني. «رصاص. كيف؟ هل مات؟» دسست البلاغات في يده فبدأ بقراءتها تباعًا...».

قاطعه سمايلي، بنبرة هادئة: « ألم يكن يعرف ذلك من التلغراف أساسًا؟ ظننت أنّ الأخبار كانت قد انتشرت حينها: أُصيب إليس. تلك كانت القصة الرئيسية، صحيح؟».

رد سام بلا مبالاة: «هذا يعتمد على البلاغ الذي كان يقرأه، كما أعتقد. على أيّ حال، تولّى أمور غرفة التحكّم وعند الصباح كان قد ضبط ما تبقّى من أعصابه وبدا أقرب إلى الهدوء. طلب من مكتب الخارجية الهدوء، ثم عثر على توبي إيسترهيز وأرسله لاعتقال عميلين تشيكيين، طالبين في مدرسة لندن للاقتصاد. كان بِل قد تركهما ليتكاثرا، وكان قد قرر استمالتهما ليعيد إرسالهما إلى التشيك. أحضرهما حَمَلة مصابيح توبي ووضعوهما في سارات. ثم اتصل بِل بكبير العملاء المقيمين في لندن وتحدث معه كعسكري: هدده بكشف كل شيء عنه إلى درجة أنه سيصبح أضحوكة العاملين في الاستخبارات، لو مُسّت شعرة من جِمْ بريدو. وطلب منه إيصال هذا إلى رؤسائه. أحسست وكأنني أشاهد حادثًا مروريًا وكان بِل هو الطبيب الوحيد. اتصل بصحافيّ يعرفه وأخبره بثقة تامة أنّ إليس مرتزق تشيكي بعقد أميركي؛ وأنّ بإمكانه نشر هذه القصة بلا تردد. وقد ظهرت

القصة فعلًا في الطبعات المسائية. وبأقصى سرعة، اندفع إلى منزل جِمْ ليتأكد من أنه لم يترك خلفه أيّ شيء قد يثير شهية أي صحافي يكون ذكيًا بما يكفي لربط الصلة بين إليس وبريدو. أعتقد أنّه قام بمهمة تنظيف كاملة. كل من له صلة بجم».

«ليس ثمة من له صلة»، قال سمايلي. «بخلاف بل، كما أعتقد»، أضاف هامسًا.

أنهى سام حكايته:

«في الساعة الثامنة وصل بيرسي أليلاين، كان قد استقلّ طائرة خاصة تابعة لسلاح الجو. كان يبتسم طوال الوقت. لم أعتبرها حركة ذكية منه، إذا أخذنا مشاعر بِلْ بالاعتبار، ولكن هذا ما حدث. كان يريد أن يعرف لمَ كنت مناوبًا لذا سردت له القصة ذاتها التي تذرّعت بها أمام ماري ماسترمان: لا شقّة. استخدم هاتفي ليطلب موعدًا مع الوزير وكان لا يزال يتحدث عندما وصل روي بلاند وهو يقفز كالمجنون لأنه يريد معرفة من كان يلعب بأجهزته، وكان يتهمني عمليًا. قلت: «يا للسماء يا رجل، وماذا بشأن جم؟ بإمكانك أن تشعر بشيء من الشفقة وأنت مشغول بأمورك»، ولكن روي صبي جائع ويحب الحياة أكثر من الموت. سلّمته غرفة التحكم بكل حب، ثم اتجهت إلى الكافتريا لتناول الإفطار وقراءة جرائد يوم الأحد. وقد كانت معظمها قد تناولت قضية البلاغات التشيكية وإنكار مكتب الخارجية».

قال سمايلي أخيرًا: «وبعدها اتّجهت إلى جنوب فرنسا؟».

«لشهرين رائعين».

«هل سألك أحد لاحقًا - عن كونترول مثلًا؟».

«ليس قبل عودتي. كنت قد خرجت من الخدمة حينها، وكان كونترول مريضًا في المستشفى». ثم خفت صوت سام قليلًا: «لم يقم بأي تصرّف سخيف، أليس كذلك؟».

«مات فحسب. ماذا حدث؟».

«بيرسي كان يتصرف بوصفه المدير. استدعاني وأراد أن يعرف لمَ

كنت مناوبًا بدلًا من ماسترمان وما الأحاديث التي تبادلتها مع كونترول. التزمت بقصّتي، فكذّبني بيرسي».

«إذًا هذا ما اتّهموك به: الكذب؟».

«شرب الكحول. كان الحراس قد وشوا بي. رأوا خمس علب بيرة في سلة مهملات مكتب المناوبة، ورفعوا تقريرًا إلى مدبّري المنزل. ثمة قانون دائم: لا شرب أثناء الخدمة. خلال هذا الوقت اعتبرتني اللجنة التأديبية مذنبًا بشأن التسبّب بحريق في الميناء، لذا نُقلت إلى الأعمال المكتبية. ماذا حدث لك؟».

«أوه، الأمر ذاته تقريبًا. يبدو أنني لم أكن قادرًا على إقناعهم أنني لم أكن متورّطًا».

قال سام حين رآه وقد غرق في التفكير وعينه على الباب الجانبي للمكتب، « حسنًا، لو أردت قتل أحد ما، أعلمني». كان سمايلي لا يزال غارقًا في أفكاره. وتابع سام: «ولو أردت أن تدللني، أحضر بعضًا من أصدقاء آن الأذكياء».

«اسمع سام. كان بل عند آن تلك الليلة. لا اسمع. أنت اتصلت بها، وأخبرتك بأن بل ليس موجودًا. وما إن أنهت المكالمة، طردت بِلْ ليظهر في السيرك بعد حوالى الساعة ويعلم أنّ هناك إطلاق نار في تشيكو. لو كنت ستروي لي القصة بصراحة - على بلاطة - هذا ما كنت ستقوله؟».

«تقريبًا».

«ولكنك لم تُخبر آن بشأن تشيك عندما اتصلت بها ــــــــ».

«مرّ على ناديه في طريقه إلى السيرك».

«لو كان مفتوحًا: إذًا، لم يعلم بأنّ جِمْ بريدو قد أصيب؟».

في ضوء النهار كان سام يبدو عجوزًا، بالرغم من أنّ الابتسامة لم تفارق وجهه. بدا على وشك قول شيء، ثم غيّر رأيه. بدا غاضبًا، ثم مُحبَطًا، ثم خاليًا من أيّ انفعال مجددًا. ثم عاد إلى الليل الدائم لعمله الحاليّ.

24

عندما غادر سمايلي آيلاي باتجاه ساحة غروسفينور ذلك الصباح، كانت الشوارع غارقةً في ضوء الشمس الحاد، وكانت السماء زرقاء. والآن، وهو يقود الروفر المستأجرة عبر الواجهات الكريهة لإيدجوير رود، كانت الرياح قد اشتدّت، واسودّت السماء مع احتمال هطول مطر بينما كان ما تبقّى من الشمس ينشر لونًا أحمر على الأسفلت. توقف في طريق وود عند سان جورج، أمام بناء برجيّ جديد ذي واجهة زجاجية، من دون أن يدخل الموقف. عبر بجانب منحوتة كبيرة لا تعبّر عن شيء، كما رأى، سوى نوع من الفوضى الكونيّة، وشقّ طريقه عبر بركة متجمّدة نحو درج صاعد مع لافتة «مَخْرج فقط». كانت مجموعة الدرجات الأولى من الرخام ودرابزين من خشب الساج الأفريقي. تحته، تناقص سخاء متعهّد البناء. وحلّ الجص القاسي محلّ الرفاهية السابقة، مع ركام من النفاية التي خنقت الهواء. كانت مشيته أقرب إلى الحذر منها إلى التسلّل، ولكن حين وصل الباب الحديدي توقّف قبل أن يضع يديه على القبضة الطويلة، وشدّ قامته كما لو كان يواجه محنة. انفتح الباب بمقدار قدم، ثم توقّف بعد ارتطامه، لتندفع صرخة غضب تكرر صداها كما لو كانت صرخة في مسبح.

«هيه، لم لا تكلّف نفسك عبء النظر؟».

دخل سمايلي عبر الكوّة. كان الباب قد توقف مجددًا عند مصدّ سيارة شديدة اللمعان، ولكن لم يكن سمايلي ينظر إلى السيارة. عبر الكراج كان ثمة رجلان يرتديان أوفرول يغسلان سيارة رولز رويس داخل قفص. وكانا ينظران نحوه.

سأله الصوت الغاضب ذاته: «لمَ لم تأتِ من الباب الآخر؟ هل أنت مستأجر هنا؟ لمَ لا تستخدم مصعد المستأجرين؟ هذا الدرج مخصَّص للحريق».

لم يكن ممكنًا تبيّن المتحدث بينهما، ولكن بصرف النظر عن هذا، كانت اللهجة سلافية ثقيلة. كان الضوء في القفص وراءهما. وكان الرجل الأقصر يحمل الخرطوم.

تابع سمايلي تقدّمه، متنبّهًا لأن يترك يديه خارج جيوبه. عاد الرجل ذو الخرطوم إلى عمله، ولكن بقي الطويل يراقبه عبر الضوء الشحيح. كان يرتدي أوفرولًا أبيض وقد رفع ياقته ما أعطاه مظهرًا خليعًا. وكان شعره مصفّفًا إلى الخلف.

قال سمايلي: «لست مستأجرًا، ولكن أتساءل ما إذا كان بإمكاني التحدث مع شخص ما لاستئجار مكان لركن السيارة. اسمي **كارمايكل**»، فسّر بصوت أعلى: «اشتريت شقّة في هذا الشارع».

قام بحركة كما لو كان سيُخرج بطاقة؛ كما لو كانت الوثائق ستتحدث بشكل أفضل من مظهره المريب. وقال: «سأدفع مقدمًا، وسأوقّع عقدًا أو كل ما يلزم، أؤكد لك. أفضّل أن يكون الأمر شرعيًا بالطبع. بوسعي إعطاء أسماء للمراجعة، وسأدفع دفعة مقدّمًا، أي شيء ضمن المعقول. طالما أنّ الأمر مشروع. إنها روفر. جديدة. لن أخدع الشركة لأنني لا أؤمن بالغش. ولكن سأفعل أيّ شيء آخر ضمن المعقول. لقد أحضرتها معي، ولكن لم أرغب بالاستمرار. وكذلك – أعلم أن الأمر سخيف – لم أحبّ شكل المنحدر. إنها جديدة، كما قلت».

خلال هذه المحادثة التي أدّاها بشيء من القلق الضمنيّ، بقي سمايلي في ضوء مصباح برّاق معلّق بالرافدة. بدا شخصًا رقيقًا، ويمكن رؤيته بوضوح في المساحة الفارغة المضاءة. للموقف آثاره. ترك القفص، واتجه الشخص الأبيض نحو كشك بواجهة زجاجية مبنيّ بين عمودين حديديين، وأومأ إلى سمايلي كي يتبعه. ومع تحرّكه، خلع قفازيه. كانا من الجلد المطرّز باليد الباهظ الثمن.

حذّره بالصوت العالي واللهجة الثقيلة ذاتهما: «حسنًا، عليك أن تفكّر بشأن الباب لو أردت استخدام المصعد، تفهمني، أو ربما تدفع عدة جنيهات. تستخدم المصعد لا مشاكل».

قال سمايلي حالما أصبحا داخل الكشك: «ماكس، أريد التحدث إليك، لوحدك، بعيدًا من هنا».

كان ماكس قويّ الجسد مفعمًا بالحيوية، ووجهه وجه طفل شاحب، وبشرته متغضّنة كبشرة عجوز. لكن كان وسيمًا وعيناه ثابتتان.

«الآن؟ تريد التحدث الآن؟».

«في السيارة. إنها في الخارج. لو مشيت إلى أعلى المنحدر ستراها أمامك».

واضعًا يده على جانب فمه صاح ماكس عبر الكراج. كان أطول من سمايلي وصوته أشبه بقرع الطبول. لم يتمكن سمايلي من التقاط الكلمات. ربما كانت بالتشيكية. لم يكن ثمة رد ولكن ماكس كان يحلّ أزرار أوفروله.

قال سمايلي: «الموضوع بشأن جِمْ بريدو».

«أكيد»، قال ماكس.

اتجها إلى هامستيد وجلسا في الروفر البراقة يراقبان الأطفال يكسرون جليد البركة. كان المطر قد توقف؛ ربما لأن الجو كان قارس البرودة.

في الخارج كان ماكس يرتدي بدلة زرقاء وقميصًا أزرق. وكانت ربطة عنقه زرقاء ولكن منتقاة بعناية بحيث كانت مختلفة عن كل درجات الأزرق: كان قد عانى كثيرًا للحصول عليها. وكان يضع عدة خواتم، وينتعل بوطًا ضخمًا بسحّاب على الجانبين.

«لم أعد في الخدمة أبدًا. هل أخبروك بهذا؟»، سأل سمايلي. رفع ماكس كتفيه نفيًا. فتابع سمايلي: «اعتقدت أنهم أخبروك».

«كان ماكس يجلس منتصبًا؛ لم يكن يستخدم المقعد للاستناد، إذ كان شديد الاعتداد بنفسه. لم ينظر إلى سمايلي. كانت عيناه مثبّتتين على البركة حيث كان الأطفال يمرحون ويتدحرجون على الثلج.

«هم لا يخبرونني بأي شيء»، قال.

قال سمايلي: «تم صرفي من العمل.أعتقد بأن هذا كان متزامنًا مع صرفك من الخدمة أيضًا».

بدا ماكس وكأنه توتّر قليلًا ولكنه عاد إلى استقراره. «مؤسف جدًا يا جورج. ما الذي تفعله: تسرق النقود؟».

«لا أريد أن يعرفوا يا ماكس».

«أنت سرّي، أنا سرّي أيضًا»، قال ماكس، وأخرج سيجارة من علبة ذهبية، عرضها على سمايلي ولكنه رفضها.

«أريد أن أسمع ما حدث. أردت أن أعرف ذلك قبل أن يصرفوني ولكن لم يكن ثمة وقت».

«ولهذا صرفوك؟».

«ربما».

«لا تعرف الكثير، ها؟» قال ماكس، من دون أن يزيح نظراته عن الأطفال.

كان سمايلي يتحدث بهدوء، متنبّهًا طوال الوقت في حال ماكس لم يفهم. كان بإمكانهما التحدث بالألمانية ولكن لم يكن ماكس سيقبل، كان يعلم هذا. لذا تحدث بالإنكليزية مراقبًا وجه.ماكس.

«لا أعرف شيئًا يا ماكس. لم يكن لي دور في الموضوع على الإطلاق. كنت في برلين عندما حدث هذا، ولا أعلم شيئًا عن التخطيط أو الخلفية. اتصلوا بي، ولكن عندما وصلت إلى لندن كان قد فات الأوان».

كرر ماكس: «تخطيط! يا له من تخطيط». تغضّن فكّه ووجنتاه فجأة وضاقت عيناه بتعبير قد يكون اشمئزازًا أو ابتسامة. «إذًا لديك الآن ما يكفي من الوقت، ها جورج؟ يا للسماء، يا له من تخطيط».

«كان جِمْ بصدد تنفيذ مهمة خاصة. وطلب مساعدتك».

«أكيد. جِمْ يطلب من ماكس أن يعتني به».

«كيف تواصل معك؟ هل جاء إلى آكتون وتحدث مع توبي إيسترهيز وقال: توبي أريد ماكس؟ كيف تواصل معك؟».

كانت يدا ماكس على ركبتيه. كانتا صقيلتين وناعمتين. الآن، ومع ذكر إيسترهيز، أدار الراحتين إلى الداخل مشكّلًا قفصًا صغيرًا منهما كما لو كان قد التقط فراشة، وقال:

«بحق الجحيم؟» .

«ما الذي حدث إذًا؟».

«كان سريًا. جِمْ سرّي، وأنا سرّي. مثل الآن».

قال سمايلي: «هيا رجاءً».

تحدث ماكس على نحو اعتيادي كما لو كان أي موضوع آخر: عائلة أو عملًا أو حُبًا. كان مساء الاثنين منتصف تشرين الأول/ أكتوبر، أجل، السادس عشر. كان وقتًا مملًا، لم يكن قد سافر إلى الخارج منذ أسابيع،

فكاد ينفجر. كان قد قضى اليوم بطوله في استكشاف بيت في بلومزبري حيث سيعيش طالبان صينيان كان حملة المصابيح يفكّرون بشنّ هجوم على منزلهما. كان على وشك العودة إلى المغسلة في آكتون لكتابة تقريره عندما رآه جِمْ في الشارع في ما بدا مصادفة عادية وأخذه إلى كرستال بالاس حيث جلسا في السيارة وتحدثا، كما نفعل الآن، ما عدا أنهما تحدّثا بالتشيكية. قال جِمْ إنّ هناك مهمة خاصة تجري الآن، مهمة كبيرة، سرية جدًا إلى درجة أنّه لا يُسمح لأحد في السيرك، حتى توبي إيسترهيز، بمعرفة أنها تحدث. أتت أوامرها من أعلى القمة، وكانت خطرة. هل ماكس مهتم؟».

«قلت: «أكيد يا جم. ماكس مهتم». ثم طلب مني: «خذ إجازة. اذهب إلى توبي وقل: توبي، أمي مريضة، ولا بد أن آخذ إجازة.. ليس لدي أي أم. ومع ذلك قلت: أكيد، آخذ إجازة. ما المدة يا جم؟»».

لم يكن يفترَض أن تستغرق المهمة أكثر من عطلة نهاية الأسبوع. يجب أن يبدآ السبت وينتهيا الأحد. ثم سأل ماكس ما إذا كانت لديه أيّ بطاقات هويّة حاليًا: من الأفضل أن تكون نمساوية، تجارة صغيرة، مع شهادة سواقة تلائم البطاقة. لو لم يكن لديه أي منها في آكتون، سيتدبّر جِمْ الأمر في بركستون».

قلت: «لديّ هارتمان، رودي، من لنتس، مهاجر سويدي».

وبذلك روى ماكس لتوبي قصة عن فتاة واقعة في ورطة في برادفورد، فألقى توبي محاضرة لمدة عشر دقائق عن العادات الجنسيّة للإنكليز؛ يوم الخميس التقى جِمْ وماكس في منزل آمن يديره صيّادو الرؤوس في تلك الأيام، مكان قديم رث في لامبث. كان جِمْ قد أحضر المفاتيح. عملية تستغرق ثلاثة أيام، كرّر جم، مؤتمر سرّي خارج برنو. كان لدى جِمْ خارطة كبيرة بدآ تفحّصها. سيسافر جِمْ بوصفه تشيكيًا، وماكس بوصفه نمساويًا. ثم سيفترقان حين يصلان برنو. سيطير جِمْ من باريس إلى براغ، ثم يستقل القطار من براغ. لم يقل ما الأوراق التي سيسافر بها ولكن افترض ماكس أن

تكون تشيكية لأنّ التشيكية كانت الجانب الآخر لجم، وكان ماكس قد رآه يستخدمها من قبل. ماكس كان هارتمان، رودي، يتاجر بالزجاج والأفران. كان عليه عبور الحدود النمساوية بالفان قرب ميكولوف، ثم الاتجاه شمالًا نحو برنو، معطيًا نفسه الكثير من الوقت لإجراء موعد على الساعة السادسة والنصف مساء السبت في شارع جانبي قرب ملعب كرة القدم. كانت تُقام مباراة كبيرة ذلك المساء عند الساعة السابعة. كان جِمْ سيختلط بالحشود إلى أن يصل إلى الشارع الجانبي قبل أن يركب في الفان. اتفقا على الوقت، والأماكن الاحتياطية والخطوات المعتادة؛ وكذلك، قال ماكس، كان كل منهما يحفظ خط كتابة الآخر غيبًا.

ما إن يخرجا من برنو، كان عليهما التوجّه معًا بالسيارة عبر طريق بيلوفايس وصولًا إلى كرتيني، ثم يتجهان شرقًا إلى راسيس. في نقطة ما في طريق راسيس كانا سيعبران على يسار سيارة سوداء، فيات على الأغلب. سيكون ثمة رقما تسعة في لوحة السيارة، بينما السائق مشغول بقراءة جريدة. سيتوقفان ليتوجه ماكس ويسأله ما إذا كان كل شيء على ما يرام. سيجيب الرجل بأنّ الطبيب منعه من القيادة أكثر من ثلاث ساعات متواصلة. وكان ماكس سيجيب أنّ الإنسان يميل إلى الرحلات الطويلة بالغريزة. سيريهما السائق عندئذ المكان الذي سيركنان الفان فيه ثم يأخذهما إلى الموعد بسيارته.

«مع من كان اللقاء يا ماكس؟ هل أخبرك جِمْ بهذا؟».

لا، هذا كان كل ما قاله جم.

حالَ وصولهم إلى برنو سارت الأمور كما كان مخططًا لها، قال ماكس. وحين كان يقود الفان من ميكولوف كان ملاحَقًا لبعض الوقت من شخصين مدنيين على دراجتين ناريتين يبدلان موقعيهما كل عشر دقائق، ولكنه اعتبر أنّ ذلك كان بسبب لوحة السيارة النمساوية ولم يكترث لهذا. وصل إلى برنو منتصف الظهيرة، ولكي يُبقي الأمور بحسب الخطة حجز في الفندق وشرب فنجان قهوة في المطعم. التقى به عميل وحدّثه ماكس

عن صعوبات تجارة الزجاج وعن صديقته التي تركته لترحل مع رجل أميركي. فوّت جِمْ الموعد الأول ولكنه ذهب إلى الموعد الاحتياطي بعد ساعة. اعتقد ماكس بدايةً أن القطار تأخر ولكن قال له جم: «قد ببطء»، حينها عرف أن هناك مشكلة.

هذا ما سيكون عليه الأمر، قال جم. سيكون هناك تغيير في الخطة. كان على ماكس البقاء خارج الموضوع. وإيصال جِمْ قبل مكان الموعد بقليل، ثم يتابع طريقه إلى برنو حتى صباح الاثنين. لم يكن سيتصل بأيٍّ من عملاء السيرك: لا أحد من أغرافات، أو بلاتو، وبطبيعة الحال لا أي اتصال مع العميل المقيم في براغ. وإذا لم يظهر جِمْ في الفندق الساعة الثامنة صباح الاثنين، كان على ماكس الهرب بأسرع وقت. ولو حضر جِمْ في الموعد، كانت مهمة ماكس تنحصر في إيصال رسالة جِمْ إلى كونترول: ستكون الرسالة بسيطة، ولن تتجاوز كلمة واحدة. وعند وصوله إلى لندن، عليه التوجه إلى كونترول شخصيًا بعد حجز موعد عن طريق ماكفاديان ليوصل إليه الرسالة، هل هذا واضح؟ أما إذا لم يظهر جم، فعلى ماكس تدبّر أموره وإنكار كل شيء، داخل السيرك وخارجه على حد سواء.

«هل قال جِمْ سبب تغيير الخطة؟».

«كان جِمْ قلقًا».

«إذًا حدث أمرٌ ما معه وهو في طريقه إليك؟».

«ربما. قلت لجم: «اسمع يا جم، آتي معك. أنت قلق وأنا أرعاك، أقود السيارة، أطلق الرصاص، بحق الجحيم؟» ولكن جِمْ غضب، أوكي؟».

ردّد سمايلي: «أوكي».

ذهبا إلى طريق راسيس، ووجدا السيارة واقفة وأضواؤها مطفأة بمواجهة حقل، سيارة فيات سوداء، تسعة تسعة على لوحتها. أوقف ماكس الفان وخرج جم. وما إن تحرك جِمْ فتح السائق الباب بمقدار بوصة ليتبادلا العبارات المتّفق عليها. كان يقرأ جريدة ويسندها على المقوَد.

«هل تمكّنت من رؤية وجهه؟».

«كان في الظلام».

انتظر ماكس، لا بد أنهما تبادلا العبارات المشفّرة. ركب جم، وابتعدت السيارة، من دون أن يشعلوا الأضواء. عاد ماكس إلى برنو. كان يشرب شنابس في المطعم عندما عمت الفوضى المدينة بأسرها. ظن بدايةً أنّ الصوت قادم من الملعب، ثم أدرك أنها أصوات شاحنات. قافلة كاملة تغطي الطريق. سأل النادلة عما حدث فأخبرته أن إطلاق نار حصل في الغابة، وأنّ متمردي المعارضة هم المسؤولون. خرج باتجاه الفان، شغّل الراديو وسمع البلاغ الذي تبثه إذاعة براغ. كانت تلك المرة الأولى التي سمع فيها عن وجود جنرال. خمّن أنهم يطوّقون كل مكان، وبجميع الأحوال كانت تعليمات جِمْ تنصّ على وجوب البقاء في الفندق حتى صباح الاثنين.

«ربما يرسل جِمْ لي رسالة. ربما يأتي إليَّ شخص من المقاومة».

قال سمايلي بهدوء: «بهذه الكلمة الوحيدة».

«أكيد».

«ولم يقل لك شيئًا عن هذه الكلمة؟».

«أنت مجنون»، رد ماكس. كانت الجملة استنكارية أو استفسارية.

«كلمة تشيكية أو إنكليزية أو ألمانية؟».

لم يأت أحد، قال ماكس، من دون أن يكلّف نفسه عبء الرد على الجنون.

يوم الاثنين أحرق جواز السفر الذي دخل به، وغيّر لوحة السيارة، واستخدم جواز السفر الألماني الغربي. وبدلًا من التوجه جنوبًا، انطلق إلى جنوب الغرب، تخلّص من الفان، وعبر الحدود بالحافلة إلى فرايشتات لأنها آلأمن طريق يعرفه. في فرايشتات شرب كأسًا وقضى الليلة مع فتاة

لأنه كان يحس بالارتباك والغضب وأراد التقاط أنفاسه. وصل إلى لندن ليل الثلاثاء، وعلى الرغم من تعليمات جِمْ ظنّ أنّ من الأفضل محاولة الاتصال بكونترول: «وكان هذا صعبًا للغاية»، علّق.

حاول الاتصال هاتفيًا ولكنه لم يصل أبعد من الأمهات. لم يكن ماكفاديان موجودًا. فكّر بكتابة رسالة ولكنه تذكر جم، وتعليماته بوجوب عدم معرفة أحد في السيرك عن الموضوع. قرر أن الكتابة بالغة الخطورة. والإشاعات في مغسلة آكتون تقول إنّ كونترول مريض. حاول معرفة المستشفى من دون جدوى.

«هل كان الفتيان في المغسلة يعرفون أين كنت؟».

«كنت أتساءل عن هذا».

كان لا يزال يتساءل عندما أرسل مدبّرو المنزل بطلبه وطلبوا منه جواز سفر رودي هارتمان. قال ماكس إنه أضاعه، الأمر الذي كان أقرب إلى الحقيقة في نهاية المطاف. لمَ لم يبلّغ عن ضياعه؟ لا يعلم. متى حدث هذا؟ لا يعلم. متى شاهد جِمْ بريدو آخر مرة؟ لا يتذكر. تم إرساله إلى الحضانة في سارات ولكن كان ماكس يشعر بالنشاط والغضب، وبعد يومين أو ثلاثة ملّ المحققون منه، أو ربما طلب منهم أحد ما التوقف.

«عدت إلى مغسلة آكتون. أعطاني توبي إيسترهيز مئة جنيه وقال لي أن أذهب إلى الجحيم».

صراخ فرح عمّ البركة. كان طفلان قد تمكّنا من إغراق قطعة ضخمة من الجليد، فبدأ الماء بالتدفق في الفجوة.

«ماكس، ما الذي حدث لجم؟».

«بحق الجحيم؟».

«أنت تسمع هذه الأمور. تدور في أحاديث المهاجرين. ما الذي حدث له؟ من عالجه، وكيف تمكّن بل هايدن من إعادته؟».

«لم يعد المهاجرون يتحدثون إلى ماكس».

ولكنك لا بد سمعت شيئًا ما، صحيح؟».

هذه المرة كانت اليدان البيضاوان من تحدثنا إليه. رأى سمايلي انفراد الأصابع، خمسة في يد، وثلاثة في الأخرى، وشعر بالغثيان قبل أن يتحدث ماكس.

«أطلقوا عليه الرصاص من الخلف. ربما كان جِمْ يهرب، بحق الجحيم؟ زجّوا بجم في السجن. وهذا ليس أمرًا جيدًا جدًا لجم. ولا لأصدقائي. ليس جيدًا». ثم باشر العد: «بريبيل»، بدأ ملامسًا إبهامه. «بوكوفا ميريك، من طرف زوجة بريبيل، أخوها». لامس السبابة. «وزوجة بريبيل أيضًا». الوسطى، ثلاثة: «كولين جيري وأخته، ميتان على الأرجح. تلك كانت شبكة أغرافات». بدّل إلى اليد الأخرى. «بعد شبكة أغرافات حان دور شبكة بلاتو. جاء دور المحامي رابوتين، والكولونيل لاندكرون، وموظفتي الطباعة إيفا كرايغلوفا وهانكا بيلوفا. ميتون على الأرجح أيضًا. هذا ثمن لعين باهظ يا جورج» - ملوّحًا بالأصابع الناعمة أمام وجه سمايلي - «هذا ثمن لعين باهظ بالنسبة إلى إنكليزي برصاصة في ظهره». كان يفقد أعصابه. «لم تكترث يا جورج؟ لم يكن السيرك جيدًا مع التشيكيين. الحلفاء ليسوا جيدين مع التشيكيين. لا يقوم أي غني بإخراج أي فقير من السجن! هل تريد أن تعرف شيئًا من التاريخ؟ كيف تترجم «*Märchen*»، رجاءً يا جورج».

«حكاية خرافية»، قال سمايلي.

«أوكي، لا تروِ لي مزيدًا من الحكايات الخرافية اللعينة عن اندفاع الإنكليز إلى مساعدة التشيكيين، أبدًا!».

قال سمايلي بعد برهة صمت: «ربما لم يكن جم».

«ربما كان شخص آخر هو المسؤول عن كشف الشبكات. وليس جم».

كان ماكس يفتح الباب. «بحق الجحيم؟» قال.

«ماكس»، قال سمايلي.

«لا تقلق يا جورج. لا أملك أحدًا لأبيعك له. أوكي؟».

«أوكي».

جالسًا بصمت في السيارة، راقبه سمايلي وهو يوقف تاكسي. أشار للتاكسي كما لو كان ينادي نادلًا. أعطى العنوان من دون أن يكلّف نفسه عبء النظر إلى السائق. ثم ركب وقد استعاد جلسته المنتصبة مجددًا، محدّقًا إلى الأمام، كما يتجاهل الملوك الرعيّة.

ومع اختفاء التاكسي، ظهر المفتش مندل من وراء المقعد في الحديقة، أغلق جريدته واتجه إلى الروفر.

قال: «لا غبار عليك، لا شيء يعكّر ظهرك، ولا شيء يعكّر ضميرك».

من دون أن يكون واثقًا جدًا، سلّمه سمايلي مفاتيح السيارة ثم تابع مشيه إلى محطة الحافلات، قاطعًا الطريق متّجهًا نحو الغرب.

28

كانت وجهته في شارع فليت، مخزنًا للخمور في الطابق الأرضيّ مليء ببراميل النبيذ. في مناطق أخرى كانت الساعة الثالثة والنصف ستكون وقتًا متأخرًا قليلًا بالنسبة لتناول كأس قبل الغداء، ولكن عندما دفع سمايلي الباب بهدوء أدار أكثر من عشرة أشخاص عيونهم نحوه من البار. وعند طاولة في الزاوية، غير مميزة كما الأقواس البلاستيكية في السجن أو الزينة المزيّفة على الجدران، جلس جيري وسترباي يشرب كأسًا كبيرة جدًا من الجن الورديّ.

«فتاي العزيز»، قال جيري وسترباي بخجل، بصوت بدا وكأنه صادر من الأرض. «فلتحل اللعنة عليّ. مرحبا يا جيمي!». وضع يده الضخمة ذات العضلات القوية على ذراع سمايلي فيما كان يومئ للنادل بالأخرى من أجل إحضار كأس.كان جيري سابقًا لاعب دفاع في فريق كريكيت محليّ. وعلى عكس اللاعبين الآخرين، كان ضخمًا، ولكن كتفيه ما تزالان تحافظان على رفع جسده، فيما كانت يداه منخفضتين. كان له شعر أشيب ووجه أحمر، وكان يرتدي ربطة عنق زاهية الألوان على قميص حريريّ بلون الكريم. كانت رؤية سمايلي قد سبّبت له سعادةً مباشرة، خاصة وأنه كان يستمتع بالشرب.

«فلتحل اللعنة عليّ. من بين جميع الأشياء المذهلة. هيه، ما الذي

تفعله هذه الأيام؟» - جارًا إياه بقوة نحو المقعد المجاور - «تجفف بصاقك على السقف؟ هيه. ماذا تشرب؟».

طلب سمايلي بلو دي ماري.

«ليست هذه مصادفة تامة يا جيري»، اعترف سمايلي. كان ثمة هنيهة صمت بينهما بدا جيري فجأة وكأنه مهتم لرتقها.

«اسمع، كيف زوجتك الشيطانة؟ أهي على ما يرام؟ هذا ما نحن عليه. كانت تلك إحدى أكثر الزيجات نجاحًا، دائمًا ما كان يقال هذا».

كان جيري وسترباي قد تزوّج عدة مرات، ولكن نادرًا ما كان يشعره بالسعادة.

«سأعقد معك صفقة يا جورج»، عرض، دافعًا كتفه باتجاهه: «سأتزوج آن وأبصق على السقف، وتأخذ وظيفتي في كتابة مغامرات النساء. ما رأيك؟ على بركة الله».

«بصحتك»، قال سمايلي بمرح.

اعترف جيري على نحو غريب بعد أن تورّد وجهه: «لم أر أحدًا من الفتيان أو الفتيات منذ مدة، في الحقيقة. بطاقة كريسماس من توبي العام الماضي، هذا كل شيء. أعتقد بأنهم وضعوني على الرف كذلك. لا يمكن أن ألومهم». داعب حافة كأسه. «الكثير من هذا الشراب، هذا كل شيء. يظنون بأنني ثرثار. سأخرف».

«أنا واثق أنهم لا يعتقدون هذا»، قال سمايلي، فخيّم الصمت عليهما.

«عقود الصَّدَف الكبيرة ليست جيدة للشجعان»، قال جيري بهدوء. لسنوات كانوا يتداولون هذه النكتة عن الهنود الحمر، فتذكرها سمايلي بحزن.

قال سمايلي: «صحّتك».

ردّ جيري، «صحّتك». وشربا.

أضاف سمايلي بنبرة هادئة. « أحرقت رسالتك حالما قرأتها، في حال كنت تتساءل. لم أخبر أحدًا عنها أبدًا. وصلت متأخرة على أيّ حال. كان الأمر قد انتهى».

عندئذ، استحالت بشرة جيري المفعمة بالحيوية إلى أحمر قرمزيّ.

تابع سمايلي بالنبرة الهادئة ذاتها: «لم تكن الرسالة التي كتبتها لي هي التي جعلتهم يبعدونك، لو كان هذا ما تفكر به. وبكل الأحوال، أنت كنت قد أعطيتني إياها باليد».

تمتم جيري: «هذا لطف منك، شكرًا. لم يكن عليّ كتابتها أصلًا. هذا مخالف للقواعد».

قال سمايلي وهو يطلب كأسين آخرَيين: «هراء، فعلت هذا من أجل مصلحة المؤسسة».

بينه وبين نفسه، حين قال هذا، بدا سمايلي مثل ليكون. ولكن الوسيلة الوحيدة للتفاهم مع جيري كانت هي التحدث معه على شاكلة جريدة جيري: جمل قصيرة؛ وآراء فصيحة.

زفر جيري بعض الهواء والكثير من دخان السجائر. وتذكر وقد عاوده المرح: «المهمة الأخيرة، منذ عام إيصال بضاعة صغيرة في بودابست. لم يكن شيئًا مهمًا. مجرد بريد. الحافة إلى الأعلى. تركتها هناك. لعبة أطفال. لا تعتقد بأنّني أدّيت العمل كغرّ. قمت بحساباتي، كالمعتاد. إشارات أمان. «الصندوق جاهز للتفريغ. قم بعملك». كما علّمونا. ومع ذلك، فتيانك أكثر خبرة، صحيح؟ أنتم طيور البوم. يقوم كلٌّ بعمله، هذا كل شيء. لا يمكنك فعل ما هو أكثر. كل واحد مسؤول عن جزء من النموذج. التصميم».

قال سمايلي معزّيًا: «سيقرعون بابك قريبًا. أتوقع أنهم يريحونك لبعض الوقت. هذا ما يفعلونه، كما تعلم».

«آمل هذا»، أجاب جيري بابتسامة صادقة شديدة الاتساع. وارتعشت كأسه قليلًا وهو يشرب.

سأله سمايلي: «هل كانت هي تلك الرحلة التي قمتَ بها قبل أن تكتب لي؟».

«أكيد. الرحلة ذاتها فعلًا، بودابست، ثم براغ».

«وسمعتَ القصة حين كنتَ في براغ؟ القصة التي أشرت إليها في رسالتك لي؟».

على البار كان ثمة رجل متورّد الوجه يرتدي الأسود، ويتوقع الانهيار الوشيك للأمة. منحنا ثلاثة أشهر، كما قال، ثم أسدل الستار على خطبته.

قال جيري: «فتى عجيب، توبي إيسترهيز».

علّق سمايلي: «ولكنه جيد».

«أوه يا إلهي، يا فتاي، من الدرجة الأولى. رائع، بحسب رأيي. ولكن عجيب، كما تعلم. صحة». شربا مجددًا، ثم أسند جيري وسترباي إصبعه خلف رأسه، مثل ريشة هندي أحمر».

كان الرجل المتورد على البار يقول، بعد أن تابع شربه: «المشكلة أننا لن نعرف أنّ هذا قد حدث أساسًا».

قررا تناول الغداء مباشرة لأن جيري كانت لديه تلك القصة لجريدة الغد: ضارب الكرة في فريق ويست بروم نقر قبّعته. اتجها إلى مطعم كاري حيث كانت إدارته تقدّم البيرة عند موعد الشاي، واتفقا، في حال التقيا بشخص ما، أن يقوم جيري بتقديم سمايلي بوصفه مديره في البنك، وقد كانت تلك فكرة أضحكته عدة مرات خلال تناول طعامه. كان ثمة موسيقا في الخلفية وصفها جيري بأنها طيران التناسل الخاص بالبعوض، وأوشكت أحيانًا على حجب النبرة الخفيضة من صوته الأجش؛ وربما كان هذا أمرًا جيدًا. أبدى سمايلي إشارة حماس شجاعة بشأن الكاري، ما دفع

جيري، بعد تمنّعه السابق، للبدء بقصة مختلفة، تتعلق بجم إليس: القصة التي رفض العزيز توبي إيسترهيز السماح بنشرها.

* * *

كان جيري وسترباي ذلك الشخص النادر إلى حد بعيد، الشاهد الكامل. لم يكن صاحب خيال، أو مكر، أو رأي شخصي. معظم الأحيان كان الأمر عجيبًا. لم يكن قادرًا على إزاحة القصة من رأسه، كما لم يتحدث إلى توبي منذئذ.

حدّق بتمعّن شديد بالمروحة الكهربائية: «فقط هذه البطاقة، «ميلاد مجيد، توبي»، - صورة لشارع ليدنهول في الثلج. ما من سمة خاصة بشارع ليدنهول، أليس كذلك يا فتاي؟ ليس منزل جواسيس أو مكانًا للقاء أو أيّ شيء آخر، صحيح؟».

قال سمايلي ضاحكًا: «ليس على حد علمي».

«لم أعرف لمَ اختار شارع ليدنهول لبطاقة كريسماس. أمر عجيب، ألا تعتقد؟».

ربما أراد صورة للندن في الثلج، اقترح سمايلي؛ توبي، في نهاية المطاف، كان أجنبيًا في كثير من النواحي.

«طريقة عجيبة للتواصل، لا بد أن أقول. اعتاد أن يرسل إليَّ صندوق ويسكي. عادة دقيقة كالساعة». عبس جيري وارتشف من كأسه، وفسّر بِحَيْرةٍ غالبًا ما كانت تظلّل الرؤى العظمى في حياته، «لم أكن مكترثًا للويسكي، بإمكاني شراء الويسكي متى أحببت. كل ما في الأمر هو أنك حين تكون خارج اللعبة تبدأ بالاعتقاد أنّ لكل شيء معنى، لذا تكون الهدايا مهمّة، هل تفهم قصدي؟».

قال جيري وسترباي، كان هذا منذ عام، في كانون الأول/ ديسمبر. كان مطعم سبورت في براغ، كان بعيدًا قليلًا عن متناول الصحافيّ الغربي

الاعتيادي. كان معظمهم يجولون في كوزمو أو الإنترناشيونال، متحدثين بتمتمات خفيضة، ويبقون معًا لأنهم سريعو الغضب. ولكن مطعم جيري كان سبورت ومنذ أن اصطحب هولوتك، حارس المرمى، معه إثر فوزهم بمباراة ضد التارتار، كان جيري يُعامَل معامَلة خاصة من البارمان الذي كان اسمه ستانيسلوس أو ستان.

«ستان أمير حقيقيّ. لا يفعل إلا ما يبهجك تمامًا. يجعلك تظنّ أحيانًا بأنّ تشيكو بلد حر».

مطعم، كما شرح، تعني البار. بينما البار في تشيكوسلوفاكيا يعني النادي الليلي، وهذا أمر عجيب. وافقه سمايلي بأنّ هذا مُربِك حقًا.

في جميع الأحوال، كان جيري يُبقي أذنه مشرعةً حين يكون هناك، إذ إنها تشيكو في نهاية المطاف، وسيكون قادرًا مرة أو اثنتين على نقل حديث غريب لتوبي أو وضعه على مسار شخص ما.

«حتى لو كان الأمر مقتصرًا على تصريف عملة، أو أمور متعلقة بالسوق السوداء. كله سيُطحَن في المطحنة، كما يقول توب. هذا الفُتات سيتجمّع في النهاية. هذا ما كان يقوله توب».

صحيح تمامًا، وافقه سمايلي. تلك كانت طريقة العمل.

«توب كان البومة، ها؟».

«أكيد».

«اعتدت العمل لصالح روي بلاند مباشرة. ثم تم طرد روي إلى الطوابق العليا فاستلمني توبي. شيء من الفوضى عمليًا. التغييرات. بصحتك».

«كم كان مضى عليك تعمل مع توبي عندما جاءت الرحلة؟».

«سنتان تقريبًا، لا أكثر».

خيّم الصمت حين جاء الطعام، ومُلئ الكأسان مجددًا، عندها فتّت جيري بيديه الضخمتين خبز البوبادوم على الكاري الأشد لذوعة في قائمة الطعام، ثم وضع صلصة حمراء فوق الخليط. الصلصة كي تساعد على المضغ، كما أوضح لسمايلي: «يعدّها خان العجوز لي خصيصًا، ويخزّنها في وعاء عميق».

ثم تابع: «تلك الليلة في بار ستان كان هناك ذلك الفتى ذو قصة الشعر الشبيهة بزبديّة الحلوى، وفتاة جميلة تتأبط ذراعه. ففكرت: انتبه يا جيري، تلك قصّة شعر عسكريّة. صحيح؟».

«صحيح»، ردّد سمايلي، وهو يفكّر بأنّ جيري بومة أخرى على نحو ما.

تبيّن أنّ الفتى ابن أخ ستان وشديد التباهي بلغته الإنكليزية: «مدهش ما سيعطونك إياه الناس لو أتحت لهم فرصة لاستعراض تمكّنهم من اللغات». كان في إجازة من عمله العسكريّ، وكان قد وقع في غرام هذه الفتاة قبل ثمانية أيام فأحسّ بأنّ العالم بأسره صديق له، بما فيه جيري. جيري بالذات، في الحقيقة، لأن جيري كان من يدفع ثمن المشروب.

«وبهذا كنا جالسَين ندردش على الطاولة الكبيرة عند الزاوية: طلاب، وفتيات جميلات، وأناس من كل الأنواع. كان ستان قد خرج من خلف البار، وتولّت فتاة مهمّة تقديم الشراب. الكثير من المودّة، والكثير من الخمر، والكثير من الضجيج».

شرح جيري كم كانت الضجة مهمة، لأنها كانت تتيح له التحدث مع الفتى بغفلة عن الجميع. والفتى يجلس بجانب جيري، إذ كان قد استلطفه منذ البداية. وكان يطوّق الفتاة بذراع، ويطوّق جيري بالأخرى.

«هو أحد أولئك الفتيان الذين يمكنهم لمسك من دون أن يثيروا فيك شعورًا غريبًا. لا أحب أن يتم لمسي عمومًا. اليونانيون يفعلون ذلك. أكره هذا شخصيًا».

عبّر سمايلي عن كرهه ذلك أيضًا.

«بالمناسبة، كانت الفتاة تشبه آن بدرجة ما، ماكرة، هل فهمت قصدي؟ عينا [غريتا] غاربو، وقدر كبير من الفتنة».

إذًا، وفيما كان الجميع يتابع الغناء والشرب والمرح، هذا الفتى سأل جيري ما إذا كان يجب معرفة الحقيقة بشأن جِمْ إليس.

«ادّعيت بأنني لم أسمع به من قبل»، وقلت: «أود ذلك. مَن هو جِمْ إليس في الوطن؟». نظر الفتى إليّ كما لو كنت معتوهًا وقال: «جاسوس بريطاني». لم يسمعه أحد غيري، إذ كانوا مشغولين بالصراخ وترديد أغانٍ بذيئة. كان يُسند رأس الفتاة على كتفه، ولكنها كانت قد ثملت ووصلت إلى السماء السابعة، لذا تابع حديثه، متباهيًا بإنكليزيته».

همهم سمايلي: «فهمت».

صرخ في أذني: «جاسوس بريطاني قاتل مع المتمردين التشيكيين في الحرب. جاء إلى هنا باسم هاييك، وأصيب برصاص الاستخبارات الروسية». رفعت كتفيّ بلا مبالاة وقلت: «هذا خبر جديد يا فتى». ولم ألحّ عليه. لا يجب أن أكون لحوحًا، أبدًا. هذا سيخيفهم».

«أنت محقٌّ تمامًا»، قال سمايلي بودّ، ثم تحمّل فسحةً إضافية من دفعة أسئلة أخرى بشأن آن، وماهيّة الحب، ومعنى أن تحبّ الشخص الآخر طوال حياتك.

قال الفتى: «أنا في الخدمة الإلزامية، عليّ أن أخدم في الجيش وإلا لن أستطيع دخول الجامعة. وأخبرني أنه في تشرين الأول/ أكتوبر، اشترك في مناورات عسكريّة تدريبية في الغابة المتاخمة لبرنو. دائمًا كانت هناك نشاطات عسكرية في الغابة؛ في الصيف أُغلقت المنطقة بأسرها لشهر كامل أمام العموم. كان في تدريب ممل يُفترَض أن يستمر أسبوعين ولكن

أُلغي في اليوم الثالث من دون إبداء أسباب وأُعيدت القوات إلى المدينة. كان هذا هو الأمر: أوقفوا كل شيء وعودوا إلى الثكنات. وكان ينبغي الانسحاب من الغابة مع حلول الظلام».

تابع جيري: «خلال ساعات، انتشرت كل أنواع الإشاعات. أحدهم قال إنّ محطة الأبحاث الباليستية في تسنوف قد انفجرت. وقال آخر إن الكتائب التدريبية تمرّدت وبدأت إطلاق النار على الجنود الروس. بداية انتفاضة في براغ، وقد استولى الروس على الحكومة، وهجم الألمان، ويعلم الله ما الذي لم يحدث بعد. تعرف طبيعة الجنود. هم أنفسهم في كل مكان. ثرثرة إلى أن تعود الأبقار إلى منازلها».

تلك الإشارة إلى الجيش حرّضت جيري ويسترباي للسؤال عن معارف قديمين من أيام خدمته العسكرية، أناس كان يعرفهم سمايلي على نحو طفيف، وقد نسيهم. ثم تابع حديثه:

«فكّكوا المخيم، حضّروا الشاحنات، وجلسوا بانتظار تحرّك القافلة. كانوا قد ابتعدوا نصف ميل عندما توقف كل شيء مجددًا ليصدر أمر للقافلة بترك الطريق. كان على الشاحنات التراجع بين الأشجار. علقت في الطين، والحفر، وكل شيء. فوضى كما هو واضح».

كان أولئك هم الروس، قال وسترباي. كانوا قادمين من اتجاه برنو في عجلة من أمرهم وكان على كل شيء تشيكي أن يبتعد عن الأضواء أو يتحمل العواقب.

«جاءت بدايةً مجموعة دراجات نارية مندفعة عبر الطريق بأضواء عالية فيما السائقون يصيحون. ثم سيارة عسكرية مع مجموعة مدنيين، خمّن الفتى أنّهم ستة مدنيين. ثم شاحنتان من المقاتلين المسلّحين حتى حواجبهم، ويرتدون لباس القتال. وأخيرًا، شاحنة مليئة بكلاب التعقّب. كان المشهد مرّوعًا. لم أتسبب لك بالملل، أليس كذلك يا فتاي؟».

مسح وسترباي العرق عن وجهه بمنديل، وبدأ يغمز كمن استفاق للتو. كان العرق يغرق قميصه الحريري أيضًا حتى بدا كأنه خارج من

الحمّام. وبما أنّ الكاري لم يكن طعامه المفضل، طلب سمايلي كأسين آخرَيَين ليطرد ما تبقّى من النكهة.

«إذًا هذا كان الجزء الأول من القصة. انسحاب القوات التشيكية وتدخّل القوات الروسيّة. أوكي؟».

أكّد سمايلي أنّ عقله يتابع القصة بتفاصيلها.

«في برنو أُلحقت قافلتهم بقافلة أخرى، وبدأوا يجولون في الريف ابتداء من الليلة التالية من ثماني إلى عشر ساعات دون وجهة واضحة. اتجهوا غربًا إلى تريبيك، وتوقفوا بانتظار تعليمات من قسم الإشارة، ثم انطلقوا في الجهة الجنوب-شرقيّة إلى مشارف زنويمو عند الحدود النمساوية، مرسلين إشارات كالمجانين أينما ذهبوا؛ لم يعرف أحد مصدر أوامر اختيار الطريق، ولم يفسّر لهم أحد شيئًا. في لحظة كانوا يتلقون أوامر بتركيب الحراب، وفي لحظة أخرى نصب الخيام، ثم تفكيك المخيم والانطلاق من جديد. هنا وهناك كانوا يلتقون بوحدات أخرى: قرب أراضي بريكلاف، كانت الدبابات تتحرك باتجاه دائري. وفي كل مكان كانت القصة هي ذاتها: نشاط فوضوي بلا هدف واضح. قال أصحاب الرتبة الأكبر إن هذا كان عقابًا روسيًا لكونهم تشيكيين. مع عودتهم إلى برنو من جديد، سمع الفتى تفسيرًا آخر: الروس في أعقاب جاسوس بريطاني يدعى هايك كان يتجسس على محطة الأبحاث وحاول خطف جنرال، فأطلق الروس النار عليه».

بعد جرعة قال جيري: «تساءل الفتى، الشيطان الصغير الغرّ، فسأل الرقيب الأول: «لو كان هايك قد أصيب، لمَ علينا التجوال في الريف لنبث الهلع؟». فأجابه الرقيب: «لأن هذا هو الجيش. هكذا هم الرقباء في كل مكان، ها؟»».

سأله سمايلي بهدوء شديد: «إننا نتحدث عن ليلتين يا جيري. في أي ليلة تحرك الروس في الغابة؟».

تورّد وجه جيري وسترباي بالارتباك. «هذا ما أراد الفتى إخباري إياه، يا جورج. هذا ما كان يحاول نقله في بار ستان. عمّ كانت تدور الإشاعات كلها. تحرك الروس يوم الجمعة. ولكنهم لم يطلقوا النار على هاييك حتى يوم السبت. لذا كان يقول الحكماء: ها نحن ذا، كان الروس بانتظار وصول هاييك. كانوا يعلمون أنه قادم. يعرفون كل شيء. قصة سيئة، كما ترى. سيئة لسمعتنا، هل تفهم ما أقصد؟ سيئة للمعلم الكبير. سيئة للعشيرة. صحة».

«صحة»، ردّ سمايلي.

«هذا ما كان يشعر به توبي أيضًا. رأينا الأمر بالطريقة نفسها، ولكن كانت ردود الأفعال مختلفة».

قال سمايلي بهدوء، وهو يمرر صحنًا من الشوربة إلى جيري: « إذًا، أخبرت توبي بكل شيء. كان عليك مقابلته على أية حال لإخباره بأنك أوصلت الطرد له في بودابست، لذا أخبرته قصة هاييك أيضًا».

حسنًا، هذا ما حدث، قال جيري. كان هذا هو الأمر الذي أزعجه، الأمر الذي رأيته عجيبًا، ودفعني لأن أكتب إلى جورج فعليًا. «قال توب إن الأمر كان مزعجًا، وأصبح مقرفًا. كان متحمّسًا في البداية، ويربّت على ظهري ويسمّيني العمدة جيري. ثم عاد إلى المتجر ليرمي الكتاب في وجهي في الصباح التالي. لقاء عاجل. يقود السيارة بي حول الحديقة، ويصرخ ويشتم. قال إنني كنت مخمورًا إلى حدّ أنني لم أكن أميّز الخيال عن الواقع. وما إلى ذلك. جعلني غاضبًا قليلًا».

قال سمايلي بتعاطف: «أتوقّع أنك تساءلت عن الشخص الذي تحدث معه بين لقاءيكما؟ لكن ما الذي قاله بالضبط»، سأله، على نحو غير انفعاليّ، بل كمن أراد تصفية الأمور في ذهنه.

«أخبرني أن من الأرجح أن الموضوع كان حيلة مدبَّرة. وأن الفتى كان مجرّد إلهاء. مهمة تعطيل لجعل السيرك يطارد ذيله. ومزّق طبلتَيْ أذنيّ بشأن ترويج إشاعات غير أكيدة.

قلت: «توب، أنا أنقل الخبر فحسب. لا داعي للغضب. البارحة كنت

تعتبرني شارب القط. لا داعي للتراجع وقتل الرسول. لو قررت أنك لم تحبّ القصة، هذا شأنك». لكنه لم يعد يستمع لما أقوله على الإطلاق، هل فهمتني؟ كان غير منطقيّ، يغضب في لحظة ويهدأ في أخرى. لم يكن أفضل أداءاته، لو فهمت ما أقصد؟».

بيده اليسرى حكّ جيري جانب رأسه، كتلميذ يتظاهر بالتفكير. «أوكي دوكي»، قلت له: «انس الأمر. سأكتبه للجريدة. لا الجزء المتعلق بدخول الروس أولًا. بل الجزء الآخر. الأعمال القذرة في الغابة، وما إلى ذلك». وشرحت، «طالما أن هذا غير جيّد للسيرك، سيكون جيّدًا للجريدة». فانفجر غاضبًا مرة أخرى. وفي اليوم التالي يتصل بوم بالعجوز. أبعد القرد وستربايي عن قصة إليس. امسح وجهه بملاحظة تنبيهية: تحذير رسمي. «كل الأمور المتعلقة بجم إليس المعروف باسم هاييك، تعدّ أمورًا تعارض المصلحة القومية، لذا افصلوه موقّتًا». هيا، فلنعد إلى مغامرات النساء. بصحتك».

«ولكنك كنت قد كتبت لي في ذلك الوقت»، ذكّره سمايلي.

احمرّ جيري خجلًا على نحو فاضح. وقال: «آسف بشأن هذا، كنت قد غرقت في الفوبيا والشك. ربما جاء هذا من سفري إلى الخارج: لا تثق بأصدقائك المقربين. ثق بهم، حسنًا، بدرجة أقل من ثقتك بالغرباء». ثم حاول مجددًا: «اعتقدت بأنّ توب قد جنّ قليلًا فحسب. لم يكن ينبغي عليّ فعل هذا، أليس كذلك؟ هذا مخالف للقواعد». ورغم الحرَج تمكّن من رسم ابتسامة مؤلمة. وأكمل: «ثم سمعت من خلال مصدر سرّي أنّ الشركة قد طردتك، لذا أحسست بأنني أحمق لعين على نحو أكبر. لا تصطاد منفردًا، أليس كذلك يا فتى؟ لست ...». ترك السؤال من دون أن يطرحه؛ ولكن، ربما، ليس من دون إجابة.

مع افتراقهما، شدّ سمايلي على يده بلطف.

«لو تواصل توبي معك، أعتقد بأن من الأفضل ألا تخبره بلقائنا اليوم. إنه شخص جيد ولكنه يميل لتخيّل أن الناس يتآمرون ضده».

«لن أفكر بهذا يا فتاي».

تابع سمايلي: «ولو تواصل معك في الأيام القليلة القادمة»،- كانت نبرته تومئ إلى بُعْد هذا الاحتمال - «بإمكانك تحذيري فعلًا. سأتمكن من دعمك حينها. لا تتصل بي، لا تفكر بهذا، بل اتصل بهذا الرقم».

فجأة بدا جيري ويسترباي متعجّلًا؛ تلك القصة عن ضارب الكرة في وست بروم لا يمكن أن تنتظر أكثر. ولكن حين أخذ بطاقة سمايلي سأله وهو يصوّب نظرة غريبة محرَجة بعيدًا عنه: «لا شيء مريبًا، أليس كذلك يا فتى؟ لا ألعاب قذرة؟». كانت الابتسامة مضطربة حقًا. «لم تندلع ثورة في العشيرة أو ما يشبه هذا؟».

ضحك سمايلي، ووضع يده برفق على كتف جيري الضخمة المنحنية على نحو طفيف.

فقال وسترباي: «في خدمتك في أي وقت».

«سأتذكر هذا».

«ظننت أنك أنت: أنت من اتصلت بالعجوز».

«لم أكن أنا».

«ربما كان أليلاين».

«أتوقّع هذا».

«أنا آسف. محبتي لآن». بدا أنه يريد قول شيء، لكنه تردَّد.

قال سمايلي: «هيا يا جيري. لا بأس عليك».

«لدى توبي قصة عنها. أخبرته أن يدفن قصته في جيب قميصه. ليس ثمة أمر كهذا، صحيح؟».

«شكرًا جيري. وداعًا. صحة».

قال جيري وهو يضج بالبهجة، رافعًا إصبعه كريشة هنديّ أحمر، «علمت أنّ القصة كاذبة»، وتابع مشيه إلى منزله.

29

منتظرًا تلك الليلة، وحيدًا في سريره في فندق آيلاي غير قادرٍ على النوم، تناول سمايلي الملف الذي أعطاه إياه ليكون في منزل مندل. كان تاريخه يعود إلى أواخر الخمسينات، عندما كان السيرك، كجميع أقسام مكاتب الحكومة، قد دخل المنافسة في تفقّد ولاء موظّفيه. معظم الصفحات كانت روتينية: تسجيلات هاتفية، تقارير مراقبة، مقابلات مع لوردات، وأصدقاء، ومحكّمين منتخَبين. ولكن ثمة وثيقة جذبت سمايلي كمغناطيس؛ كانت رسالة، معنونة على نحو سيىء في الفهرس «من هايدن إلى فانشاوي، 3 شباط/ فبراير 1937». على نحو أدق، كانت رسالة بخط اليد، من الطالب المتخرج بِل هايدن إلى أستاذه فانشاوي، ملتقط مواهب تابع للسيرك، يقدّم فيها جِمْ بريدو كمرشّح مناسب للتجنيد في الاستخبارات البريطانية. كانت مصدَّرةً بتحليل متعصّب ساخر، «من أبناء الطبقة الراقية المنتمين إلى نادي كنيسة يسوع، من الإيتونيين القدامى أساسًا»، كتب المؤلف المجهول. فانشاوي (ب. ر. دو ت. فانشاوي) كان المؤسس، وهايدن كان في ذلك العام أهم أفرادها (إحالات لا حصر لها). كان التوجّه السياسي للمتعصبين، الذين كان والد هايدن ينتمي إليهم أيضًا، محافظًا على نحو فاضح. فانشاوي، الميت منذ زمن بعيد، كان رجلًا مهووسًا بالإمبراطورية وكان «المتعصبون فرقته المنتقاة من أجل اللعبة الكبرى»، يقول التصدير.

على نحو غامض، تذكّر سمايلي فانشاوي من ماضيه: رجل نحيل متحمّس بنظّارة من دون إطار، ومظلة نوفيل شامبرلين وتورّد غريب في وجنتيه. كان ستيد-آسبري يدعوه الجد الخيالي.

«عزيزي فان، أقترح أن تحرّض نفسك بشأن بضع استفسارات عن الشاب المرفق اسمه في الملف الملحق». [حاشية المحققين غير الضرورية: بريدو]. «لعلك تعرف جِمْ - وربما لم تتعرف إليه أبدًا - فهو رياضيّ صاحب إنجازات. وما لا تعرفه، ولكن ينبغي أن تعرفه، هو أنه لغويّ إلى درجة جيدة، وليس أحمق على الإطلاق ...».

[يتبعها ملخص سيرة معّدّ بدقّة مفاجئة: ... ثانوية لا كانال في باريس، ولد في إيتون ولم يذهب إلى هناك أبدًا، ابتدائية جيزويت في براغ، فصلان دراسيان في ستراسبورغ، الوالدان يعملان في مجال البنوك الأوروبية، أرستقراطية صغيرة، يعيشان منفصلين ...].

«وبذلك، يملك جِمْ معرفة واسعة بالأطراف الأجنبية، عدا عن وضعه الأسريّ، انفصال الوالدين، أجده شديد الإغراء للتجنيد. بالمناسبة: بالرغم من تكوّنه ونشأته في أجزاء متعددة من أوروبا، لا تقترف أخطاء: النسخة الكاملة هي لنا بالكامل. حاليًا، هو مكافح ومحتار، إذ تنبّه للتو بأن ثمة عالمًا لا يدرك حدوده، وأن هذا العالم ملك لي.

«ولكن لا بد أن تعرف بدايةً كيفية معرفتي به.

«كما تعلم، إن من عادتي (بحسب أوامرك) بين حين وآخر ارتداء زيّ عربيّ والتجوّل في البازارات، فأجلس بين الوسخين، وأنصت لآرائهم التي قد أفنّدها لاحقًا. البعبع ذلك المساء أتى من قلب الأم روسيا بذاتها: أكاديمي يدعى خليبنيكوف، وهو ملحق حديثًا بالسفارة السوفياتية في لندن، وهو شخص ضئيل الجسد مرح ولكن مُفسِد، استطاع فعل أمور ذكية حقًا من بين الهراء المعتاد. البازار المقصود كان ناديًا للمناظرات يدعى بوبيولارز، وهو منافسنا، عزيزي فان، ومعروف لك من الغارات الأخرى

التي كنت أقوم بها أحيانًا. بعد الترحيب جرى تقديم قهوة بروليتارية إلى حد بعيد، إلى جانب قهوة ديمقراطية، وانتبهت إلى ذلك الشخص الضخم الجالس وحيدًا في نهاية الغرفة، الذي يبدو من الواضح أنه شديد الخجل في التجمّعات. كان وجهه مألوفًا على نحو ما من حقل الكريكيت؛ تبيّن بأنّ كلينا لعب في فريق تافه من دون أن نتبادل أيّ أحاديث. لا أعرف حقيقةً كيف بوسعي وصفه. إنه يملك الموهبة يا فان. أنا شديد الجديّة».

هنا صارت الكتابة التي كانت حياديّة تأخذ منحًى شخصيًّا:

«هو يمتلك ذلك الهدوء الرزين الذي يسيطر على المرء. لكنه عنيد. أحد أولئك الهادئين الذين يقودون الفريق على نحو خفيّ. فان، أنت تعرف مقدار معاناتي في التصرّف. عليك تذكيري طوال الوقت، تذكيري فكريًا، أنني لن أدرك غوامض الحياة ما لم أخض أخطارها. ولكن جِمْ يتصرف بالغريزة ... إنه عمليّ ... هو نصفي الآخر، وأنا وهو نشكّل كائنًا رائعًا، ما عدا أنّ كلينا لا يحسن الغناء. فان، تعرف ذلك الشعور عندما يكون عليك الخروج لتجد شخصًا جديدًا، أو عالمًا يموت من أجلك؟».

عادت الكتابة إلى حياديّتها مجددًا.

«يافاس لاغلو»، قلت، والكلمة - على حد علمي - هي المرادف الروسيّ لعبارة لاقني في الغابة أو ما يشبه هذا، ليقول هو «أوه أهلًا»، والتي أعتقد أنه كان سيقولها للملاك جبرائيل لو تصادفَ عبوره بجانبه.

قلت له: «ما مشكلتك؟».

بعد برهة تفكير، قال: «لا مشكلة لديّ».

قلت: «إذًا ما الذي تفعله هنا؟ إن لم تكن لديك مشكلة، لماذا جئت إلى هنا؟».

«منحني تلك الابتسامة العريضة، واتّجهنا إلى خليبنيكوف العظيم، صافحنا كفّه الصغيرة ثم ذهبنا إلى منزلي. حيث شربنا. وشربنا. فان، شربنا

كل ما كان في متناولنا. أو ربما أنا من فعل هذا، نسيت. حلّ الفجر، هل تعلم ما فعلنا؟ سأخبرك يا فان. تمشينا بصمت في الحديقة، وجلست على مقعد وبيدي ساعة رياضية، ليبدأ جِمْ الاندفاع في الركض وينهي عشرين دورة. عشرون. أما أنا فقد أُرهقت من مجرّد المراقبة».

«بإمكاننا المجيء إليك في أي وقت، هو لا يطلب أكثر من أن يكون برفقتي، و أن يكون أحد أصدقائي الشريرين. باختصار، جعلني بمثابة ميفستوفيليس بالنسبة إليه، وقد أسعدتني هذه المجاملة. بالمناسبة، هو غرّ، طوله ثمانية أقدام تقريبًا، ونشأ في المؤسسة ذاتها التي نشأ فيها ستونهدج. لا تفزع».

انتهى الملف مجددًا. عدّل سمايلي جلسته وبدأ وراح يقلّب الأوراق بنزق، باحثًا عن الطريدة الأفضل. معلّمو الرجلَين صرّحوا (بعد عشرين عامًا) بأن من غير المعقول أن تكون العلاقة بين الرجلين «أكثر من مجرد صداقة صرفة» ... لم يتم تقديم دليل بشأن هايدن ... ولكن معلّم جِمْ يتحدث عنه بوصفه «شره للمعرفة بعد جوع طويل» - مقصيًا أيّ إشارة إلى كونه «راديكاليًا». تبدأ المواجهة في سارات باعتذارات طويلة، بخاصة ما يتعلق بسجل جِمْ الحربي المذهل. تُبدي إجابات جِمْ صراحة مبهجة بعد الإفراط الذي كان في رسالة هايدن. أحد طرفَيْ المنافسة حاضر، ولكن نادرًا ما يُسمَع صوته. لا، لم يقابل جِمْ خليينيكوف مرة أخرى أو أيّ شخص آخر قد يعتبر مبعوثًا له... لا، لم يتحدّث إليه بعد تلك المناسبة. لا، لم يكن له أي تواصل آخر مع الشيوعيين أو الروس آنذاك، بل كان عاجزًا عن تذكّر اسم أيٍّ من أعضاء التجمعات الشعبية اليسارية...

س: (أليلاين) لا ينبغي أن تعتبر أن هذا يزعجك، صحيح؟

ج: لا ، حقيقةً لا. (ضحك)

أجل كان أحد أعضاء التجميع الشعبيّ بالطريقة ذاتها التي كان فيها

عضوًا في نادي الدراما في كليته، ونادي جمع الطوابع، وجمعية اللغات الحديثة، وجمعية تاريخ الأمة، والجمعية الأخلاقية، ونادي دراسة رودولف شتاينر ... كانت وسيلة لحضور محاضرات مهمة، وللقاء الناس؛ بخصوص الأمر الثاني. لا لم يسبق له أن وزّع أدبيات يساريّة، بالرغم من أنه كان مواظبًا لفترة على قراءة سوفييت ويكلي [الأسبوعية السوفياتيّة] ... لا، لم يدفع أيّ اشتراكات إلى حزب سياسي، لا أيام أوكسفورد ولا بعدها، بل لم يسبق له أن أدلى بصوته في انتخابات على الإطلاق ... وكان أحد أسباب انضمامه إلى تجمعات كثيرة في أوكسفورد هو أنه، بعد مسيرة دراسية فوضوية في الخارج، لم يكن لديه أقران إنكليز في المدرسة...

الآن، أصبح صوت المحققين موحّدًا، وجميعهم في جانب جم؛ الجميع في الجانب ذاته ضدّ الإشكاليّة وتبعاتها البيروقراطيّة.

س: (أليلاين) بدافع الاهتمام، بما أنّك عشت في الخارج كثيرًا، هل تمانع لو أخبرتنا أين أجدت لعب الكريكت؟ (ضحك)

ج: أوه، كان لديّ عَمّ يملك منزلًا خارج باريس. كان مهووسًا بالكريكت. كان يمتلك الشبكة وكامل تجهيزات اللعبة. وحين كنت أذهب إلى هناك كان يرغمني على اللعب طوال الوقت.

[حاشية المحققين: كونت هنري دو سينت، كانون الأول/ ديسمبر 1941، PF. AF64-7.] نهاية المقابلة. ممثل اللجنة يودّ استدعاء هايدن كشاهد، ولكن هايدن خارج البلاد وغير موجود. التثبيت مؤجَّل إلى أجل غير مسمّى ...

كان سمايلي قد نعس مع قراءة الوثيقة الأخيرة في الملف، التي أُدرجت عشوائيًا بعد وقت طويل من القبول الرسمي لجم من اللجنة. كانت قصاصة من جريدة أوكسفورديّة فيها مراجعة لهايدن عن معرض فني فردي في تموز/ يوليو 1938 بعنوان واقع أم ما-فوق واقعي؟ مراقب

أوكسفورديّ. وبعد التشريح القاسي السلبي للمعرض، خلص الناقد إلى هذه الملاحظة المرحة: «نفهم أن السيد جيمس بريدو البارز اقتطع وقتًا من لعب الكريكت ليعلّق الكانفاس. كان بإمكانه فعل ما هو أفضل، لكي يبقى في بانبري رود. على أيّ حال، بما أنّ دوره كفرس الفن كان الأمر الوحيد المؤثّر في هذه المناسبة، ربما من الأفضل لنا ألا نهزأ إلى هذه الدرجة...».

كان قد نعس، وضجّ ذهنه بمجموعة من الشكوك، والهواجس واليقينيات. فكّر بآن، وغرق في تأمّل عمقها، توّاقًا لأن يغطّي هشاشتها بهشاشته. وكفتي، همس باسمها وتخيّل وجهها الجميل يحفّه في الضوء الشحيح، فيما كانت البابا غراهام تصرخ بالتحريمات عبر ثقب الباب. فكر بتار وإيرينا، وغرق بيأس في الحب والإخلاص؛ فكر بجم بريدو وما سيحمله الغد. كان متنبّهًا لشعور ضئيل بانتصار قادم. كان منقادًا لوقت طويل، وقد أبحر جيئة وذهابًا؛ غدًا، لو حالفه الحظ، قد يبصر يابسةً ما: جزيرة صغيرة آمنة، مثلًا. لم يسبق لكارلا أن عرفها أو سمع بها. جزيرة له ولآن فحسب. ثم غرق في النوم.

القسم الثالث

30

في عالَم جِمْ بريدو، مضى الخميس كأي يوم آخر، عدا أنه في الساعات القليلة من أوّل اليوم، كان جرح كتفه قد بدأ ينزّ، واعتقد أنّ هذا كان بسبب إجهاد العمل ظهيرة يوم الأربعاء. أيقظه الألم، وكانت رطوبة الصديد تغرق ظهره. حين حدث هذا من قبل، جرّ جسده إلى مستشفى تاونتن العموميّ ولكنّ الممرضات اكتفين بإلقاء نظرة عليه قبل أن يحوّلنه إلى قسم الطوارئ لينتظر الدكتور فلان وينتظر نتيجة الأشعة، لذا ارتدى ملابسه وخرج. كان قد سئم من المستشفيات ومن الأدوية. مستشفيات إنكليزية، مستشفيات أجنبية.. سئم من هذا كله. كانوا يسمّون الصديد أثرًا.

لم يكن بوسعه الوصول إلى الجرح لمعالجته، ولكن بعد المرة الأخيرة اشترى ضمادات مثلّثة الشكل، وخيوطًا جراحيّة. وبعد أن وضع هذه الأدوات على الطاولة وجهّز نفسه، غلى الماء، وأضاف نصف علبة ملح، وكافأ نفسه بدشّ مرتجل كي يصل الماء إلى ظهره. نقع الضمادات في الهيبيتين ومرّرها على ظهره، ربط طرفها وغمس الضمادة في الفودكا. خفّ الألم وانتعش قليلًا، ولكن علم أنّه لو استسلم لهذا الشعور فسينام

طوال اليوم، لذا أخذ زجاجة الفودكا إلى النافذة وجلس على الطاولة يصحّح أوراق اللغة الفرنسية للصف الخامس، الشعبة الثانية، فيما كان الضوء يغمر المنحدر، لتبدأ الطيور تغريدها.

أحيانًا كان يعتبر الجرح ذكرى ليس بإمكانه نسيانها. حاول قصارى جهده كي يدفنها وينساها، ولكن حتى قصارى جهده لم يكن كافيًا دومًا.

استمر بالتصحيح ببطء لأنه يحب هذا، ولأن التصحيح يبقي ذهنه في المواقع الصحيحة. في السادسة والنصف، السابعة، كان قد انتهى، لذا ارتدى شيئًا من ملابسه القديمة وجاكيتًا رياضيًا ومشى بهدوء باتجاه الكنيسة التي لم تكن تغلق أبوابها أبدًا. هناك ركع للحظة في الممر الأوسط للكنيسة أمام المذبح الذي كان صرحًا عائليًا لتكريم الموتى خلال حربين، ونادرًا ما كان يدخله أحد. أثناء ركوعه، تسللت أصابع جِمْ تحت المقعد إلى أن ارتطمت أطرافها بشبكة من الشريط اللاصق؛ ثم بعدها علبة معدنية باردة. انتهت مراسم التعبّد، واتجه عبر طريق كومب إلى قمة التل، مهرولًا قليلًا كي يصيبه عرق الركض، لأن الدفء كان يفعل العجائب له حين يستمر، كما أنّ الإيقاع المنتظم لخطواته هدّأ من توتّره. بعد ليلته المسهّدة، وفودكا الصباح الباكر، كان يشعر بدوار خفيف، لذا حين رأى الأحصنة في المرعى وهي تنظر إليه بوجوهها البليدة، صرخ: «توقفوا عندكم! أيها الحمقى اللعينون، أبعدوا نظراتكم السخيفة عني!» - قبل أن يعود عبر الطريق مجددًا ليشرب القهوة ويغيّر ضماداته.

أول درس بعد الصلوات كان الصف الخامس، الشعبة الثانية، وهناك كان جِمْ قد فقد أعصابه: فرض عقوبة سخيفة على كليمنتس، ابن تاجر الألبسة، ثم تراجع عنها في نهاية الحصّة. في الغرفة المشتركة دخل في روتين آخر، من النمط الذي اتّبعه في الكنيسة: بسرعة، من دون اكتراث، وبلا ارتباك، ثم خرج. كانت فكرة كافية، تفقّد البريد، ولكنها نجحت. لم يسمع بأيّ أحد استعملها من قبل، من بين المحترفين، ولكن المحترفين لا يتحدثون بشأن لعبتهم. كان سيقول: «هكذا، لو كان خصمك يراقبك، فمن

الأكيد أنه سيراقب بريدك، لأن مراقبة البريد هي الأسهل على الإطلاق. وستكون المهمة أسهل لو كان الخصم هو فريقك ذاته ويمتلك حرية الدخول إلى خدمة البريد. إذًا ما الذي ستفعله؟ كل أسبوع، من صندوق البريد ذاته، في الوقت نفسه، بالمعدل نفسه، ترسل مغلّفًا لنفسك ومغلّفًا آخر لطرف بريء على العنوان ذاته. ضع فيه شيئًا من الهراء - بطاقة كرسماس خيريّة، دعوة إلى السوبر ماركت المحلّي - وتأكد من أنّ المغلّف مغلق، ثم قارن بين تاريخَيْ الوصول. لو تبيّن بأن رسالتك قد تأخرت أكثر من رسالة الطرف الآخر، ستحسّ بأنّ ثمة من هو في أعقابك، وسيكون توبي في هذه الحالة».

بمفرداته الغريبة المبتكرة، سمّاها جم: تفحّص الماء. ومرة أخرى كانت الحرارة ضمن معدّلها الطبيعي. كانت الرسالتان تصلان في التاريخ ذاته، ولكن تأخر جِمْ في استلام المغلف المُرسَل إلى ماغوريبانكس، حيث كان دوره قد حان ليكون الشريك المغفل. لذا، وبعد أن وضع جِمْ رسالته في جيبه وغرق في قراءة دايلي تلغراف، تمتم مارجوريبانكس «أوه إلى الجحيم» بنزق ثم مزّق دعوة مطبوعة للانضمام إلى عضوية قراءة الكتاب المقدس. ومن هناك، دفعه روتين المدرسة مجددًا إلى مباراة الصغار مع فريق سانت إرمين، والتي كان قد فُوِّض بتحكيمها. كانت مباراة سريعة، وحين انتهت عاوده ألم ظهره، لذا شرب فودكا حتى قُرِع الجرس الأول، حيث كان قد وعد الشاب إلويس بتولّي المهمّة عنه. كان عاجزًا عن تذكّر سبب وعده ذاك، ولكن كان أفراد الكادر الأصغر سنًا، والمتزوجين منهم على نحو خاص، يعتمدون عليه بشأن تلك الأعمال الغريبة، وكان ينفّذها عنهم. كان الجرس ناقوس سفينة قديم، وهو أمر ابتكره والد ثيرزغود وأصبح الآن جزءًا من التقاليد. عندما قرعه جم، كان قد انتبه إلى بل روتش الصغير واقفًا على يمينه، ينظر إليه بابتسامة شاحبة، يريد لفت انتباهه كما كان يفعل عدة مرات يوميًا.

«مرحبا يا جامبو، ما الذي يسبّب وجع رأسك هذه المرة؟».

«رجاءً أستاذ، رجاءً».

«هيا يا جامبو. تكلم».

روتش: «أستاذ، هناك من سأل عن مكان سكنك». قال

أنزل جِمْ الجرس من يده.

قال بلطف وقد انحنى ليصبح بطول روتش:«كيف هو هذا الشخص يا جامبو؟ هيا، لن أعضّك، هيا، ... هيا! ما شكله؟ رجل؟ امرأة؟ بعبع؟ هيا يا بطل! لا داعي للبكاء. ما المشكلة إذًا؟ حرارتك مرتفعة؟». أخرج منديلًا من كمّه. «ما شكل الشخص؟» كرر بالنبرة الهادئة ذاتها.

«سأل السيدة ماكولوم. قال إنه صديقك. ثم عاد إلى سيارته، إنها مركونة في ساحة الكنيسة، أستاذ». دفعة أخرى من الدموع. «إنه يجلس فيها».

«انقلعوا لعنة الله عليكم!»، صرخ جِمْ بمجموعة من الصبية الأكبر سنًا كانوا واقفين عند الباب. «انقلعوا!» ثم استدار باتجاه روتش. «صديق طويل؟ صديق طويل وسخ يا جامبو؟ حاجبان وحدبة؟ شخص نحيل؟ برادبري تعال إلى هنا وأوقف مشاغبتك! تعال لتأخذ جامبو إلى ماترون!». سأل مجددًا بهدوء، ولكن بنبرة حازمة: «شخص نحيل؟».

ولكن روتش عجز عن الكلام. لم يعد قادرًا على تذكّر أيّ شيء، لا حجم ولا مظهر؛ كانت موهبته في تمييز عالم الكبار قد اختفت. رجال ضخام، رجال ضئيلون، عجائز، شبان، أحدب، منتصب القامة، كانوا جميعًا جيشًا واحدًا من الأخطار المتماثلة. وأن يقول لا لجم كان أمرًا يفوق قدرته: وأن يقول نعم يعني حمل كامل المسؤولية البغيضة بشأن تخييب أمله فيه.

رأى عينيّ جِمْ مصوّبتين نحوه، رأى أن الابتسامة اختفت وأحسّ بوطأة يدٍ كبيرة قاسية على ذراعه.

«جامبو يا فتى. ليس ثمة من يراقب أفضل منك، صحيح؟».

ساندًا رأسه بيأس على كتف براد بري، أغلق بل روتش عينيه. وعندما فتحهما رأى عبر دموعه أنّ جِمْ كان قد قطع نصف الدرج.

شعر جِمْ بالهدوء؛ بل وبشيء من اللامبالاة. منذ عدة أيام وهو يحس أنّ هناك مَن يلاحقه. كان هذا جزءًا من روتينه: مراقبة الأماكن التي من المعتاد أن يقصدها المراقبون للسؤال. الكنيسة، حيث مدّ وجزر السكان المحليين أمر بديهيّ؛ صالة البلدية؛ سجل الناخبين؛ أصحاب الحِرَف، إذا كانوا يحتفون بسجل عن الزبائن؛ الحانات، لو لم يستغل وجودها الشخص المطارَد أولًا. في إنكلترا، كان يعلم أنّ الحانات هي الفخاخ الطبيعية التي يجول فيها المراقبون أوتوماتيكيًا قبل أن يطبقوا عليك. وليتأكد تمامًا، كان قبل يومين في تاونتن، أثناء دردشة لطيفة مع موظف المكتبة، قد وجد طبعة القدم التي يبحث عنها. غريب، قادم من لندن على الأرجح، كان مهتمًا بالأقاليم الريفية، نعم، رجل مهتم بالسياسة - بل لو كنت متبحّرًا في الأبحاث السياسية ستجد أنه محترف - وبأحد الأشياء التي كان يبحث عنها، كان السجل المحدَّث لقرية جم، أجل لائحة الناخبين، إذ كانوا يفكّرون بإجراء مسح للمجتمع المحليّ عبر التجوال الشخصيّ على البيوت. نعم هذا عملٌ متقَن، أقرّ جم، ومن ثم بدأ ينظّم ترتيباته. اشترى بطاقات قطار إلى أماكن متعددة: تاونتن إكستر، تاونتن لندن، تاونتن سويندن، وجميعها صالحة لمدة شهر؛ لأنه كان يعرف، في حال كان قيد المطارَدة مجددًا، أنّ البطاقات ستكون صعبة المنال. تخلّص من بطاقات الهويّة القديمة ومسدسه وأخفاها فوق الأرض بحيث تكون في متناول يده؛ دفن حقيبة مليئة بالملابس عند باب الألفيس، وأبقى خزّان الوقود ممتلئًا. كانت تلك الاحتياطات تغطّي جميع الاحتمالات؛ أو كانت ستغطّي، قبل أن يعاوده ألم ظهره.

«أستاذ، من فاز، أستاذ؟».

بريبل، ولد جديد، بثياب النون وفرشاة أسنان، في طريقه إلى المغاسل. أحيانًا كان الصبيان يتحدثون مع جِمْ من دون أي سبب، كان حجمه وحدبته سببين كافيين لخوض التحدي.

«أستاذ، المباراة أستاذ، ضد سانت إرمين».

صاح صبي آخر: «سانت فيرمينز. نعم أستاذ، من فاز؟»

صاح بهم جم: «أستاذ هم فازوا، أستاذ. هذا ما كنتم ستعرفونه أستاذ، لو كنتم تشاهدون المباراة أستاذ»، ولوّح بقبضته نحوهم بحركة لكم بطيئة، فهرب الصبيان عبر الممر باتجاه صيدلية ماترون.

«تصبح على خير أستاذ».

«وأنتم بخير يا أولاد»، رد جم، ثم مشى بالاتجاه المعاكس إلى جناح المرضى ليلقي نظرة على الكنيسة والمقبرة. لم يكن جناح المرضى مضاءً، وقد كان منظره ورائحته يصيبانه بالقرف. اثنا عشر صبيًا يقبعون في الظلام موزّعين بين غرفة العشاء وغرفة ارتفاع الحرارة.

قال صوت أجش: «من هذا؟».

وقال آخر. «إنه رينو. مرحبا رينو، من فاز ضد سانت فيرمينز؟».

كان ممنوعًا عليهم مناداة جِمْ باسم الدلع، ولكن الصبيان في جناح المرضى شعروا بحريّة ستُعفيهم من العقاب.

صاح بهم جِمْ وهو يحشر نفسه بين سريرين. «رينو؟ مَن رينو بحق الجحيم؟ لا أعرفه. لا أتذكر أحدًا بهذا الاسم. أطفئ هذا المصباح، ممنوع. انتصار سهل. ثمانية عشر مقابل لا شيء، لصالح فيرمينز». كانت تلك النافذة تكاد توازي الأرض. وكان ثمة حاجز معدنيّ يبعد الصبيان عنها. «فوضى وارتباك كثيران عند خط الثلاثة أرباع»، تمتم وهو يسترق النظر.

قال صبي يدعى ستيفن: «أكره المباريات».

كانت الفورد الزرقاء مركونة في ظل الكنيسة، بالقرب من أشجار الدردار. من الطابق الأرضي، كانت ستبدو خفيّة عن الأعين، ولكنها لم تكن مخفيّة. وقف جِمْ بهدوء وصمت، بعيدًا بعض الشيء عن النافذة، متفحّصًا إياها. كان ضوء النهار ينحسر بسرعة ولكنّ نظره كان جيّدًا، كما كان يعرف ما الذي يبحث عنه: هوائيّ مخفيّ، مرآة داخليّة ثانية، علامات احتراق تحت العادم.

أحسّ الصبيان بالتوتّر عند الأستاذ فاندفعوا إلى المرح:

«أستاذ، هل هي عصفورة، أستاذ؟ هل هي جميلة أستاذ؟».

«أستاذ، هل سنحترق؟».

«أستاذ ما شكل ساقيها؟».

«يا إلهي يا أستاذ، لا تقل إنها الآنسة آرونسون؟». بعد هذه الجملة انفجر الصبيان بالضحك لأنّ الآنسة آرونسون كانت عجوزًا قبيحة.

صاح جِمْ بشيء من الغضب: «اخرسوا، خنازير وقحة، اخرسوا».

في الطابق السفليّ كان ثيرزغود يجري التفقّد المسائيّ.

آبيكرومبي؟ حاضر. آستور؟ حاضر. بلاكيني؟ مريض، أستاذ.

استمرّ في المراقبة. رأى جِمْ باب السيارة وهو يُفتَح ليخرج منه جورج سمايلي بحذر، مرتديًا معطفًا سميكًا.

سُمع وقع خطوات ماترون في الممر. سمع صرير كعبها المطاطيّ وقرقعة موازين الحرارة في العلبة.

«رينو عزيزي، ما الذي تفعله في جناح المرضى؟ أسدل تلك الستارة أيها الصبي المشاغب، سيموتون جميعهم بسبب ذات الرئة. وليم ميريدو، انهض حالًا».

كان سمايلي يغلق باب السيارة. وكان وحيدًا ولا يحمل شيئًا، ولا حتى حقيبة.

«إنهم يبحثون عنك في غرنفيل يا رينو».

رد جِمْ بسرعة: «سأذهب، سأذهب. تصبحون على خير جميعًا»، ثم شقّ طريقه باتجاه مهجع غرنفيل حيث كان قد وعد جون بوشان بإنهاء قصة له. كان يقرأ بصوت مرتفع، ولاحظ أنّ ثمة حروفًا لم يكن قادرًا على نطقها بوضوح، إذ كانت تعلق في مكان ما في حنجرته. عرف أنه يتعرَّق، وخمّن أنّ ظهره قد غرق، وحالما انتهى كان هناك تصلُّب في فكه لم يكن بفعل القراءة بصوت مرتفع. ولكن جميع هذه الأمور كانت عوارض صغيرة مقارنةً بالغضب الذي كان يتأجّج في داخله وهو يخرج إلى هواء الليل القارس. للحظة، عند الباحة الخارجيّة، تردّد وهو يحدّق باتجاه الكنيسة. سيستغرق الأمر منه ثلاث دقائق، أو أقل، لينزع الشريط اللاصق عن المسدس تحت المقعد، ويدسّه في حزامه على خصره..

ولكنّ غريزته نصحته بالتراجع عن هذا، لذا انطلق مباشرة نحو الكارفان وهو يغنّي بأعلى ما يتيحه له صوته النشاز.

31

في غرفة الموتيل، كانت حالة الاضطراب مستمرة. حتى حين تكون حركة المرور في الخارج في أدناها، كانت النافذة تستمر بالاهتزاز. في الحمّام، تهتزّ كأس فرشاة الأسنان أيضًا، فيما كان بوسعهما سماع الموسيقا من الجدارَيْن على جانبيهما ومن السقف، عدا عن شذرات من الكلام أو الضحك. وحين تتوقف سيارة ما، كان يبدو انصفاق الباب وكأنه داخل الغرفة، ووقع الأقدام أيضًا. أما الأثاث، فقد كان متناغمًا كليًا. الكراسي الصفراء تشبه الصور الصفراء والسجادة الصفراء. وكانت الرسومات على ملاءات السرير تماثل الدهان البرتقاليّ على الأبواب، وبالمصادفة ماركة زجاجة الفودكا. كان سمايلي قد أعدّ كل شيء على نحو ملائم. كان قد وسّع بين الكرسيّين ووضع الفودكا على الطاولة الواطئة، والآن وفيما كان جِمْ ينظر إليه كان يُخرج صحن السلمون المدخّن من الثلاجة الصغيرة، بينما كان الخبز البنيّ المدهون بالزبدة جاهزًا. كان مزاجه رائقًا، على عكس مزاج جم، وكانت حركاته سلسة وفعالة.

«اعتقدت أنّ من الأفضل أن نكون مرتاحين»، قال بابتسامة صغيرة، وهو يضع كل شيء على الطاولة. «متى ينبغي عليك أن تعود إلى المدرسة؟ هل هناك وقت محدد؟» ومن دون ان يتلقى ردًا، جلس. «كيف هو التدريس معك؟ أتذكر بأنك عملت فيه لفترة قصيرة بعد الحرب، صحيح؟ قبل أن

يستدعوك إلى العمل مرة أخرى؟ هل كانت تلك مدرسة ابتدائية أيضًا؟ لا أعتقد أنني أتذكر هذا».

«انظر إلى الملف. لا تأتِ إلى هنا لتلعب معي لعبة القط والفأر يا جورج سمايلي. لو أردت معرفة أي شيء، انظر إلى ملفي».

مدّ سمايلي يده عبر الطاولة وصبّ كأسَين، وناول إحداهما لجم.

«ملفك الشخصي في السيرك؟».

«خذه من مدبّري المنزل. خذه من كونترول».

قال سمايلي بنبرة شك: «أعتقد بأنّ عليّ ذلك، لكن المشكلة أن كونترول مات، وقد طردوني قبل وقت طويل من عودتك. ألم يكلّف أحد نفسه كي يخبرك بهذا حين أعادوك إلى الوطن؟».

ارتاحت ملامح جِمْ قليلًا بعد سماع هذا، وأومأ ببطء بإحدى تلك الحركات التي كانت تسلّي الأولاد في مدرسة ثيرزغود. وتمتم: «يا إلهي، إذًا رحل كونترول»، ومرّر يده اليسرى على شاربه، ثم على شعره. «يا للشيطان العجوز المسكين. ما سبب الوفاة يا جورج؟ القلب؟ قلبه قتله؟».

«ألم يخبروك بهذا أيضًا أثناء الاستجواب؟».

عند ذكر الاستجواب، تصلّب جِمْ وعاوده التوتر.

وأضاف سمايلي.: «نعم، كان قلبه».

«مَن تسلّم منصبه؟».

ضحك سمايلي. «يا إلهي، يا جم، ما الذي تحدثتم بشأنه في سارات إذًا، إن لم يخبروك بهذا الأمر؟».

«اللعنة، من تسلّم المنصب؟ لم تكن أنت، أليس كذلك، لقد طردوك! من تسلّم المنصب يا جورج؟».

«أليلاين»، قال سمايلي مراقبًا جِمْ بانتباه شديد، ملاحظًا كيف تجمّد

ساعده الأيمن على ركبتيه. «من أردتَ أن يتسلّمه؟ كان لديك مرشّح، أليس كذلك يا جم؟». ثم بعد هنيهة صمت: «كما لم يخبروك بشأن ما حدث لشبكة أغرافات؟ لبريبيل، ولزوجته، وصهره؟ أو شبكة بلاتو؟ لاندكرون، إيفا كريغلوفا، هانكا بيلوفا؟ لقد جنّدتَ بعضهم، أليس كذلك، في الماضي قبل روي بلاند؟ بل إنّ لاندكرون عمل لحسابك أثناء الحرب».

كان ثمة ما هو شنيع حينئذ في الطريقة التي لم يكن فيها جِمْ قادرًا على الانحناء إلى الأمام أو الرجوع إلى الخلف. امتقع وجهه الأحمر بالارتباك، كما كان العرق قد أغرق حاجبيه البنيين الكثّين.

«فليلعنك الله يا جورج، ما الذي تريده بحق الشيطان يا جورج؟ لقد خططت مسارًا جديدًا. هذا ما طلبوه مني: عِش حياة جديدة، وانسَ كل ما حدث».

«من تقصد بـ «هم» يا جم؟ روي؟ بل، بيرسي؟» انتظر، هل قالوا لك ما حدث لماكس، أيًا يكن هؤلاء؟ ماكس بخير، بالمناسبة». ثم نهض وملأ كأس جم، وعاود الجلوس.

«حسنًا، هيا، ما الذي حدث للشبكتَين؟».

«لقد كُشفنا. وتقول الحكاية إنك أنت من كشفتهما لتنقذ نفسك. أنا لا أصدّق هذا. ولكن لا بد أن أعرف ما حدث. أعلم بأن كونترول جعلك تقسم بكل ما هو مقدّس، ولكن هذا قد انتهى الآن. وأعلم أنّك استجوبت حتى الموت وأعلم أنك اختلقت الكثير من الأشياء بحيث بات يصعب عليك استعادتها مرة أخرى أو تمييز الحقيقيّ عن الخطأ. وأنك حاولت بناء حياة جديدة لتقنع نفسك أنّ هذا لم يحدث... حسنًا، بعد هذه الليلة بإمكانك رسم مسارك. أحضرت رسالة من ليكون، ولو أردت الاتصال به فهو ينتظر. لا أريد إخراسك. بل أفضّل أن تتحدث. لمَ لم تأتِ لرؤيتي في المنزل بعد عودتك؟ كان بإمكانك فعل هذا. حاولتَ رؤيتي قبل أن تسافر، إذًا لمَ لم تفعلها بعد عودتك؟ لم تكن القواعد فقط هي ما منعتك».

«ألم يستطع أحد النجاة؟».

«لا. يبدو بأنّهم أُعدموا جميعًا».

اتصلا بليكون، وقد جلس سمايلي الآن يرتشف شرابه. كان بإمكانه سماع صوت تدفق المياه والتأوّهات من الحمام حيث كان جِمْ يغسل وجهه.

«بحق الآلهة فلنذهب إلى مكان يمكننا التنفس فيه»، همس جم، كما لو كان هذا شرطًا للتحدث. حمل سمايلي الزجاجة ومشى بجانبه عبر المدخل باتجاه السيارة.

قادا السيارة مسافة عشرين دقيقة؛ تولّى جِمْ القيادة. عندما توقفا كانا قد أصبحا على الهضبة، حيث كانت القمة خالية من الضباب، وتطل على الوادي حيث تظهر أضواء مبعثرة عبر المسافة. جلس جِمْ ساكنًا كقطعة حديد، كتفه اليمنى مرتفعة، وكفّاه متشابكتان، يحدّق عبر النافذة نحو ظلال التلال. كانت السماء صافية بحيث انعكس الضوء بحدّة على وجهه. جعل سمايلي أسئلته الأولى قصيرة. كان الغضب قد غادر صوت جم، بحيث بات يتحدث تدريجًا بشيء من اليسر. بل إنه ضحك مرةً حين كانا يتحدثان عن كونترول، ولكن سمايلي لم يكن مرتاحًا، بل كان حذرًا كمن يرافق طفلًا في الشارع. عندما كان جِمْ يتوتر أو يضطرب أو يُظهر لمحة غضب، كان سمايلي يهدّئه بلطف ويعيده إلى ما كانا عليه. وحين كان جِمْ يتردد، كان سمايلي يحثّه على المتابعة. بدايةً، بمزيجٍ من الغريزة والحدس، كان سمايلي قد ألقمَ جِمْ قصته فعليًا.

بخصوص لقاء جِمْ الأول مع كونترول، سأل سمايلي، هل اتفقا على اللقاء خارج السيرك؟ نعم. أين؟ في شقة تابعة للمؤسسة في شارع سان جيمس، بناء على اقتراح كونترول. هل كان أحد آخر موجودًا؟ لا. وللتواصل مع جِمْ أول مرة، هل استعان كونترول بماكفاديان، حارسه الشخصي؟ نعم، كان ماكفاديان في سيارة بركستون يحمل رسالة لجم

بشأن لقاء تلك الليلة. ممنوع استخدام الهاتف، حتى الخط الداخلي، لمناقشة الترتيبات. أنبأ جِمْ ماكفاديان بموافقته ووصل في تمام الساعة السابعة.

«بدايةً، كما أظن، حذّرك كونترول؟».

«أخبرني ألا أثق بأحد؟».

«هل سمّى أناسًا محددين؟».

«لاحقًا. لم يكن ذلك منذ البداية. بدايةً، اكتفى بقول: لا تثق بأحد. خصوصًا الناس الأقرب. جورج؟».

«نعم».

«قتلوا جميعهم، أليس كذلك؟ لاندكرون، كرايغلوفا، وعائلة بريبيل؟ إعدام مباشر؟».

«اعتقلت الاستخبارات الشبكتين في الليلة ذاتها. بعدها، لا يعرف أحد ما حدث، ولكن تم إعلام الأقارب بأنهم ماتوا. وعادةً هذا يعني أنهم ماتوا حقًا».

إلى يسارهم، كان ثمة خط من أشجار الصنوبر بدا أشبه بجيش ساكن ينبع من الوادي.

«بعدها، كما أظن، سألك كونترول عن بطاقات الهوية التشيكية التي لديك. صحيح؟».

نطق جِمْ أخيرًا: «أخبرته بشأن هاييك. فلاديمير هاييك، صحافي تشيكي يعيش في باريس. سألني كونترول عن مدى صلاحية تلك الأوراق. قلت: لا يمكنك التخمين أبدًا. قد تُكشَف أحيانًا بعد رحلة واحدة». ارتفعت نبرة صوته فجأة، كما لو أنه فقد توازنه. «أصمّ كأفعى، كان كونترول، حين كان يريد أن يكون كذلك».

«إذًا، عندئذ أخبرك بما يريده منك».

فقال جم: «ناقشنا بدايةً القابلية للإنكار. نبّهني - في حال كُشف أمري - أن أدعه خارج الموضوع. مهمة خاصة بصياد رؤوس، شبه مشروع شخصي. حتى حينذاك فكرت: من بحق الجحيم سيصدِّق هذا؟ كانت كل كلمة تصدر منه ترشح دمًا». طوال اللقاء كنت أستشعر عدم رغبته بقول أيّ شيء لي. لم يكن يريد مني أن أعرف، بل أراد أن أكون على اطلاع. «لديّ عرض خدمات»، قال كونترول. «مسؤول رفيع، الاسم الحركيّ تستيفاي». سألته: «مسؤول تشيكي؟». فقال: «من الجانب العسكريّ، وأنت ذو عقلية عسكرية يا جم، وستنسجمان كليًا أنتما الاثنان معًا». هذا ما جرى عليه الأمر، هذا ما حدث».

قال سمايلي: «إن لم تكن راغبًا بإخباري، لا تفعل، ولكن أوقف ارتباكك».

بعد قليل من المراوغة، قال جِمْ إن كونترول أخبره أنّ تستيفاي كان جنرالًا تشيكيًا في سلاح المدفعية. كان اسمه ستيفستش؛ معروف بوصفه أحد الصقور القريبين من السوفيات في وزارة الدفاع في براغ، أيًا تكن أهميته فعلًا؛ كان قد عمل في موسكو، وكان أحد التشيكيين القلائل ممن يثق بهم الروس. كان ستيفستش قد نقل لكونترول، عبر وسيط قابله كونترول شخصيًا في النمسا، رغبته بالتحدث مع مسؤول رفيع في السيرك بشأن مسائل ذات مصلحة مشتركة. لا بد أن يتقن المبعوث التشيكية، ويكون شخصًا قادرًا على اتخاذ القرار. يوم الجمعة، 20 تشرين الأول/ أكتوبر، سيقوم ستيفستش بتفقد محطة أبحاث التسليح في تسنوف، قرب برنو، على مسافة خمسين ميلًا تقريبًا شمال الحدود النمساوية. ومن هناك سيتجه إلى كوخ للصيد أثناء العطلة، وحيدًا. كانت بقعة مرتفعة في الغابة ليست بعيدة عن راسيس. وسيكون مستعدًا لاستقبال المبعوث مساء يوم السبت 21 تشرين الأول/ أكتوبر. كما سيؤمّن مرافقة للمبعوث من وإلى برنو.

سأله سمايلي: «هل كان لدى كونترول أيـة أفكار بشأن دافع ستيفستش؟»

«عشيقة»، قال جم. «طالبة كان يخرج معها، ويقضي معها ربيعًا أخيرًا، قال كونترول: عشرون عامًا بين عمريهما. كانت قد أصيبت برصاصة أثناء انتفاضة عام ثمانية وستين. حتى ذلك الحين، كان ستيفستش قد أخفى مشاعره المناهضة للروس بفضل عمله. وضعت وفاة الفتاة نهاية لكل هذا: كان يجهّز انتقامًا منهم. لأربع سنوات كان يستميلهم ويسرّب معلومات تؤذيهم إلى حد بعيد. وسرعان ما أعطيناه ضمانات، وجهّزنا طرق التواصل، وقد كان جاهزًا للبيع».

«هل تأكد كونترول من أيّ من هذه المعطيات؟».

«قدر استطاعته. كان ستيفستش مجهَّزًا بوثائق كافية. جنرال شديد الطموح ذو لائحة طويلة من المناصب. تكنوقراط. وحين لا يكون ثمة عمل له، كان يسنّ أسنانه في الخارج: وارسو، موسكو، بيجين لمدة عام، ملحق عسكري في أفريقيا، ثم موسكو مجددًا. كان شابًا بالنسبة إلى رتبته».

«هل حدّد لك كونترول نوع المعلومات الذي ستحصل عليه؟».

«مسائل دفاعية. صواريخ».

«أي شيء آخر؟»، قال سمايلي، ممرّرًا الزجاجة.

«شيء من السياسة».

«أي شيء آخر؟».

ليس للمرة الأولى، كان ثمة إحساس يؤرق سمايلي بأنّ ما يحدث ليس جهلًا من جم، بل رغبة واعية منه بعدم التذكر. في الظلام، أصبح تنفّس جِمْ بريدو فجأة عميقًا وصعبًا. كان قد وضع كفّيه على مقوَد السيارة مسندًا ذقنه عليهما، محدّقًا من دون اتجاه محدد عبر الواجهة المضبّبة.

«كم من الوقت بقوا في الاعتقال قبل قتلهم؟»، طالب جِمْ بالإجابة.

«أخشى أنهم بقوا فترة أطول منك»، اعترف سمايلي.

«يا إلهي الرحيم»، قال جم. ثم أخرج منديلًا من كمّه ومسح عرقه وكل ما كان يسيل على وجهه.

«كان كونترول يأمل بتهريب ستيفستش»، قال سمايلي حاثًا جِمْ على الكلام ولكن برفق.

«هذا ما سألوني بشأنه أثناء الاستجواب؟».

«في سارات؟».

هزّ جِمْ رأسه. «هناك». أومأ برأسه باتجاه التلال. «كانوا يعلمون بأنها عملية كونترول منذ البداية. لم يكن ثمة شيء أقوله لأقنعهم بأنها عملية خاصة بي. كانوا يضحكون».

مرة أخرى، انتظر سمايلي بصبر كي يكون جِمْ جاهزًا للمتابعة.

ثم تكلّم جم: «ستيفستش. كان كونترول يكرر هذا الاسم: ستيفستش سيقدم الإجابة. ستيفستش لديه المفتاح. «أي مفتاح؟» سألته. «أي مفتاح؟» أمسك حقيبته، تلك الحقيبة البنية القديمة. أخرج أوراقًا، جميعها مكتوبة بخط يده. أوراق بألوان كتابة مختلفة. وقال: «هذا هو الشخص الذي ستقابله». سيرة ستيفستش المهنية عامًا إثر عام: جعلني أراها كلها. أكاديميات عسكرية، أوسمة، زوجات. وقال: «إنه شغوف بالأحصنة. وأنت تركب الأحصنة أيضًا يا جم. أمر آخر مشترك، تذكّر هذا». فكرت: سيكون هذا ممتعًا، أجلس في تشيكو تطاردني الكلاب فيما أتحدث عن ترويض الفرس الأصيلة». ثم أطلق صحكة غريبة، وكذا فعل سمايلي.

«كانت الإشارات باللون الأحمر تدل على عمل ستيفستش وعلاقته بالسوفيات. والخضراء لعمله الاستخباراتي. كان لستيفستش إصبع في كل مجال. رابع رجل في الاستخبارات العسكرية التشيكية، والمسؤول عن التسليح، وسكرتير لجنة الأمن الداخليّ القومي، ومستشار عسكري

للبرلمان، ورئيس القسم الأنغلو-أميركي في الاستخبارات العسكرية التشيكية. ثم وصل كونترول إلى هذه الحادثة منتصف الستينات، مرحلة ستيفستش الثانية في موسكو، وكانت ملوّنة بالأحمر والأخضر مناصفةً. من الواضح أنّ ستيفستش كان مرتبطًا بالكادر المسؤول عن حلف وارسو بصفته العسكرية، ولكن كان هذا مجرد غطاء، كما قال كونترول. «لم تكن له أدنى علاقة بكادر حلف وارسو. كان عمله الحقيقيّ في قسم الشؤون الإنكليزية في مركز موسكو. وكان يعمل بالاسم الحركي مينين، وكانت مهمته تنسيق الجهود التشيكية مع المركز. هذا هو الكنز»، قال كونترول. «ما يريد ستيفستش بيعنا إياه فعليًا هو اسم جاسوس مركز موسكو داخل السيرك».

قد تكون مجرد كلمة، فكَّر سمايلي، متذكّرًا ماكس، وشعر مجددًا بموجة من القلق. في نهاية المطاف، كان يعلم، أن هذا كل ما في الأمر: اسم للجاسوس جيرالد، صرخة في الظلام.

قال لي كونترول: « هناك تفاحة عفنة يا جم، وستنقل العدوى إلى الآخرين». كان قد تصلّب صوت جم، وكذا حركاته. ويتحدث عن الاستئصال، وكيف كان يستقصي ويبحث ويكاد يصل إلى نتيجة. كان ثمة خمسة احتمالات، كما قال. لا تسألني عن الكيفية التي نبشهم فيها. «إنه أحد الخمسة الكبار»، قال. «خمس أصابع ليد». قدَّمَ لي كأسًا، وجلسنا هناك كتلميذين يتبادلان الشيفرة، أنا وكونترول. استخدمنا لعبة سمكريّ خيّاط. جلسنا هناك في الشقة نجمع الخيوط، ونشرب الشيري القبرصي الرخيص الذي يقدّمه دومًا. إن لم أتمكن من النجاة، لو كان ثمة مشكلة ستحصل بعد مقابلتي لستيفستش، لو كان عليّ الاختباء، يجب عليّ إيصال الكلمة الوحيدة له حتى لو اضطررت أن أذهب إلى براغ وأخطّها بالطبشور على باب السفارة أو أتصل بالعميل المقيم في براغ وأصرخ الكلمة في أذنه. سمكري، خياط، جندي، بحّار [تِنْكَر، تايلور، سُولْجَر، سيلور]. أليلاين كان السمكري، هايدن الخياط، بلاند الجندي، وتوبي إيسترهيز

كان الفقير [بورمان]. حذفنا كلمة بحّار لأنها تشبه لفظ خيّاط. أنت كنت المتسوّل [بيغرمان]»، قال جم.

«كنت كذلك حقًا؟ وما كان رأيك بشأن نظرية كونترول يا جم؟ كيف بدت لك الفكرة بمجملها؟».

«سخيفة جدًا. هراء».

«لماذا؟».

كرر بنبرة عناد عسكريّ: «سخيفة وكفى. فأن أشك بكون أحدكم جاسوسًا - جنون!».

«ولكن هل صدّقتها؟».

«لا! بحق الرب يا رجل، ولكن هل أنت...».

«لم لا؟ منطقيًا، لطالما قبلنا أن هذا الاحتمال سيحدث عاجلًا أو آجلًا. دائمًا كنّا نحذّر بعضنا بعضًا: كن متيقّظًا. قمنا بقلب ولاءات كثير من الاستخبارات الأجنبية: روس، بولنديين، تشيكيين، فرنسيين. بل حتى الأميركيين. ما الشيء الاستثنائيّ الذي ظهر في البريطانيين فجأة؟».

بعد أن أحسّ باضطراب جم، فتح سمايلي بابه وسمح للهواء بالدخول. وقال:

«ما رأيك أن نتمشّى؟ لا معنى للبقاء محبوسين هنا بينما بإمكاننا التجوّل في الخارج».

مع الحركة، كما توقع سمايلي، اكتسب جِمْ قدرة جديدة على الكلام.

كانوا على الحافة الغربية من الهضبة، حيث بضع شجرات لا تزال واقفة فيما كانت البقية على الأرض. كان ثمة مقعد متجمّد متوفّر، ولكنهما تجاهلاه. لم تكن هناك رياح، وكانت النجوم شديدة الصفاء، وحالما تابع جِمْ قصته، مَشَيا متجاورَين، بحيث كان جِمْ يلتزم مسار سمايلي دومًا، من

دون أن يبتعدا عن السيارة كثيرًا، ثم يعودان. أحيانًا، كانا يتوقفان متجاورين، يتأملان الوادي تحتهما.

بدايةً، تحدث جِمْ عن طلبه مساعدة ماكس، والإجراءات التي اتخذها كي يخفي مهمته عن باقي أعضاء السيرك. سرّب معلومة بأن لديه خيطًا قويًا يوصله إلى موظف شيفرة سوفياتي في استوكهولم، وحجز لنفسه إلى كوبنهاغن باسمه الحركي القديم إليس. ولكن، بدلًا من ذلك، سافر إلى باريس، وغيّر أوراقه ليصبح هاييك وحطّت طائرته كما خطّط في مطار براغ الساعة العاشرة من صباح يوم السبت. مضى عبر الحواجز بسلاسة أغنية، وأكّد حجز قطاره في المحطة، ثم تمشّى قليلًا لأنّ أمامه ساعتين وفكّر أنّ عليه التأكد من حماية نفسه قبل أن يتجه إلى برنو. في ذلك الخريف، كان الجو غريبًا وسيئًا. كان الثلج على الأرض، ويستمر بالتساقط.

في تشيكو، قال جم، لم تكن المراقبة مشكلة عادةً. لم تكن أجهزة الأمن تعرف شيئًا عن المراقبة في الشارع، وربما لأنه لم يسبق لجهاز استخبارات، في الذاكرة المعروفة، أن شعر بالخجل وحاول إخفاء نفسه. كان الميل لا يزال موجودًا، كما قال جم، لتفجير السيارات وقتل عملاء صغار الشأن، كما في زمن آل كابوني، وكان هذا ما يبحث عنه جم: سيارات سكودا سوداء، ومجموعات ثلاثية من القتلة. في الطقس البارد، لم يكن التقاط مثل هذه المشاهد أمرًا صعبًا لأن حركة المرور خفيفة، فكان الناس يمشون أسرع متدثّرين حتى أنوفهم. وعلى أية حال، إلى أن وصل إلى محطة ماساريك، أو المركزية كما يحبّون تسميتها الآن، لم تكن لديه أدنى ذرة من القلق. ولكن في ماساريك، قال جم، أتاه حدس، بدافع الغريزة لا بسبب شيء ملموس، بشأن امرأتين اشترتا تذكرتين قبله.

هنا، وبسرعة المحترفين، عاد جِمْ أدراجه. وداخل ممر تسوّق مغلق قرب ساحة ونسيسلاس، فاجأته ثلاث نسوة، كانت الوسطى تدفع عربة أطفال أمامها. كانت المرأة الأقرب إلى الحاجز الحجري على الرصيف تحمل حقيبة بلاستيكية حمراء، أما المرأة الأخيرة فقد كان برفقتها كلب

يمشي أمامها. بعد عشر دقائق، تقدّمت امرأتان أُخريان باتجاهه، متأبّطتي الأذرع، بخطى سريعة، فخطر على ذهنه أنه لو كان توبي إيسترهيز هو من يدير العمل، ستحمل ترتيبات كهذه توقيعه؛ تغيير هيئة سريع من عربة الأطفال، إلى سيارات احتياطية تقف على مسافة دارة اتصال قصيرة، مع فريق آخر مستعد في حال فشل الفريق الأول. في ماساريك، عندما كان ينظر إلى المرأتين الواقفتين أمامه في طابور التذاكر، أحسّ جِمْ بأنّ هذا ما يحدث الآن. ثمة لباس واحد لا يملك المراقب الوقت أو النية لتغييره، دع عنك أن يتم هذا في طقس سيىء، ألا وهو الحذاء. من بين زوجَيْ الأحذية اللذين شاهدهما أمامه في طابور التذاكر، ميّز جِمْ أحدهما: بلاستيك بخطوط من الفرو، لونه أسود، مع سحّاب على الجانب الخارجيّ ونعل بنيّ سميك يكاد لا يلامس الثلج. كان قد شاهد هذا الحذاء من قبل هذا الصباح، في شارع ستيربا، مع ملابس مختلفة ترتديها امرأة مرّت بقربه مع عربتها. ابتداء من تلك اللحظة، لم يعد جِمْ يشك. كان يعلم، كما كان سمايلي سيعلم.

عند كشك الكتب في المحطة، اشترى جِمْ صحيفة رود برافو وانطلق باتجاه قطار برنو. لو كانوا يريدون اعتقاله كانوا سيفعلونها الآن. لا بد أنهم يسعون خلف الخطوط الفرعية: أي، كانوا يلاحقون جِمْ ليعرفوا الأشخاص الذين سيتواصل معهم. لم يكن هناك مغزى للبحث في الأسباب، ولكن خمّن جِمْ بأنّ هويّة هاييك قد كُشفت وأنهم جهّزوا الفخ منذ حجز لنفسه على الطائرة. وطالما أنهم لم يعرفوا بأنه كشفهم، لا يزال يملك زمام المبادرة، قال جم؛ للحظة كان سمايلي قد عاد بذكرياته إلى ألمانيا المحتلة، أيام عمله كعميل ميداني، يعيش مع الرعب حتى الثمالة، مكشوفًا أمام نظرات كل العابرين.

كان من المفترض أن يستقل قطار الواحدة وثماني دقائق الذي سيصل برنو الساعة الرابعة وسبعًا وعشرين دقيقة. أُلغيت الرحلة لذا استقل قطارًا متوقفًا رائعًا، خاص بمباراة كرة القدم التي كانت أخبارها تملأ كل مكان،

ووجد أن عليه معرفتها. وكل لحظة كان جِمْ يشعر بأنه سيلتقي بمراقبيه. كانت النوعية مختلفة. في تشوسين، في بقعة صغيرة تشبه اسطبل حصان، لو سبق لك رؤيته، خرج واشترى سجقًا، وكان هناك ما لا يقل عن خمسة، جميعهم رجال، منتشرين على المنصة الصغيرة وأيديهم في جيوبهم، يتظاهرون بالدردشة في ما بينهم جاعلين من أنفسهم حمقى.

قال جم: «إن كان هناك ما يميّز المراقب الجيد عن السيىء، فهو فن جعل الأمور تبدو مُقْنعةً».

في سفيتافي، دخل رجلان وامرأة مقصورته وراحوا يتحدثون عن المباراة. بعد لحظات، انضمّ جِمْ إلى الحديث: كان قد قرأ التفاصيل في الصحيفة. كانت مباراة الإياب، لذا كان الجميع متحمسًا بشأنها. مع وصوله برنو، لم يحدث شيء، لذا خرج للتجوّل في المتاجر والمناطق المزدحمة حيث كان عليهم البقاء قريبين منه كيلا يضيعوه.

أراد معابثتهم، والتظاهر بأنه لم يشكّ بشيء. كان يعلم الآن أنه الهدف في ما كان توبي سيدعوها عملية تسجيل هدف ساحق في البيسبول (غراند سلام). أثناء التجوّل مشيًا، كانوا يشكّلون مجموعات من سبعة. كانت السيارات تتغير على نحو سريع لا يُتيح له عدّها. كانت إدارة المراقبة تتم من فان أخضر باهت يقوده غوريلا. كان في الفان هوائيّ مخفيّ ونجمة من الطبشور مرفوعة إلى الأعلى بحيث لا يتمكن الأطفال من الوصول إليها. كانت السيارات، حيث استطاع التقاطها، تُعرَّف إلى بعضها عبر حقيبة نسائية على رف القفازات، مع إنزال حافة الحماية من الشمس عند مقعد الراكب. خمّن بأن ثمة إشارات أخرى، ولكن تلك الإشارتين كانتا كافيتين له لتمييزهم. عرف مما أخبره به توبي أنّ عملًا كهذا قد يضم مئة شخص، ولكنها لن تكون عملية لو فرّ الطريدة. كان توبي يكرهها لهذا السبب.

ثمة متجر كبير واحد في ساحة برنو الرئيسية يبيع كل شيء، قال جم. عادة يكون التسوق في تشيكو مضجرًا لأن هناك القليل من الأغراض التي تُباع بالمفرّق ولكنّ هذا المكان كان جديدًا ومدهشًا. اشترى ألعاب

أطفال، ووشاحًا، وسجائر، وجرّب بعض الأحذية. خمّن أنّ مراقبيه لا يزالون ينتظرون اتصاله السرّي. سرق قبعة فرو، ومعطفًا مَطَريًا بلاستيكيًا وكيسًا ليضعهما فيه. تباطأ في قسم الرجال بما يكفي ليتأكد من أنّ المرأتين اللتين شكّلتا الفريق الأول لا تزالان خلفه. كانتا مترددتين في الاقتراب منه على نحو كبير. وخمّن أنهما أرسلتا إشارة للرجال وبقيتا في مهمة المراقبة. في حمّام الرجال، تصرف بسرعة كبيرة. ارتدى المعطف الأبيض فوق معطفه، ودسّ الكيس في جيبه وارتدى قبعة الفرو. تجاهل مشترياته ثم ركض كمجنون عبر درج الطوارئ، وحطّم باب الحريق، ونزل في ممر، ثم آخر باتجاه واحد. ثم وضع المعطف الأبيض في الكيس، واندفع إلى متجر آخر كان على وشك الإغلاق، فاشترى معطفًا أسود ليستبدله بالأبيض. مستغلًا خروج موظفي المتجر كغطاء، اندسّ في ترام مزدحم، وبقي فيه حتى المحطة ما قبل الأخيرة، ثم مشى مدة ساعة ولحق بالموعد الاحتياطي مع ماكس بدقة.

هنا سرد جِمْ حواره مع ماكس وكيف أنهما كانا على وشك الشجار.

سأله سمايلي: «ولم يخطر على بالك أبدًا الانسحاب من المهمة؟».

«لا. أبدًا»، ردّ جِمْ على الفور، وارتفعت نبرة صوته.

قال سمايلي: «مع أنك، منذ البداية، اعتبرتَ الفكرة مجرد هراء؟»، قال ذلك بنبرة تحمل الاحترام. لا تقريع، ولا انتقاد: فقط رغبة بمعرفة الحقيقة، واضحةً تحت سماء الليل. «تابعت تقدّمك. مع أنك رأيت ما وراءك، واعتقدت أنّ المهمة عبثية، ولكنك تابعت برغم هذا، أعمق وأعمق في الغابة».

«نعم».

«لم تغيّر رأيك بشأن المهمة. لكن هل ساورك الشك في نهاية المطاف؟ أم أنك أردت بشغف معرفة هوية الجاسوس، مثلًا؟ أنا أتساءل فحسب يا جم».

«ما الفرق؟ ماذا يهم دافعي بحق الجحيم في فوضى كهذه؟».

كان نصف القمر مكشوفًا بلا غيوم وبدا شديد القرب. جلس جِمْ على المقعد. كانت الأرض مفروشة بالحصى، وبينما كان يتحدث كان يتسلى برمي حفنة من الحصى نحو الأجمة. جلس سمايلي بجانبه لا يرفع نظره عنه. ومرةً، لإشعاره بأنه بجانبه، شرب رشفة من الفودكا وتخيل تار وإيرينا يشربان على هضبتهما في هونغ كونغ. لا بد أنها عادة لدى محترفي هذه المهنة، قرر: إننا نتحدث على نحو أفضل حين نكون مطلّين على مشهد جميل.

وأكملِ جِمْ كيف أنه عبر نافذة سيارة الفيات المركونة، تم تبادل عبارات الشِّفرة من دون خطأ. كان السائق أحد أولئك المجريين التشيك الصلبين مفتولي العضلات ذوي الشارب الإدوارديّ والفم الذي يطلق رائحة ثوم. لم يحبّه جم، وفي كل حال لم يتوقع أنه سيحبه أساسًا. كان البابان الخلفيان مقفولَيْن، بحيث بدا كأنه قرار ضمنيّ بشأن مكان جلوسه. قال المجريّ إنّ من غير الآمن جلوسه في الخلف. كما أن الأمر غير ديمقراطيّ كذلك. فقال له جِمْ أن يذهب إلى الجحيم. سأله المجريّ إذا كان يحمل مسدسًا، وقال له جِمْ لا. وكان هذا غير صحيح، ولكن حتى لو لم يكن المجريّ قد صدّقه، لم يكن يجرؤ على قول هذا. سأل ما إذا كان جِمْ قد أحضر إرشادات للجنرال؟ وأجاب جِمْ بأنه لم يحضر شيئًا. لقد جاء لينصت فحسب.

قال جِمْ إنه شعر بشيء من التوتر، عندما تابعا طريقهما وكان المجريّ قد بدأ يشرح دوره. وأنه عندما سيصلان إلى الكوخ لن تكون ثمة أضواء أو أيّ دليل على وجود حياة. سيكون الجنرال في الداخل. وإن وجدا أيّة إشارة على وجود حياة، أو درّاجة، سيارة، ضوء، كلب، أو أيّة إشارة على أنّ هناك أحدًا في الكوخ، سينزل المجريّ أولًا، ويبقى جِمْ في السيارة منتظرًا. أما بحسب المخطط الأساسي، سينزل جِمْ وحده ويبقى المجري بانتظاره في السيارة. هل هذا واضح؟

لم لا ندخل معًا؟ سأل جم. لأن الجنرال لا يريد هذا، ردَّ المجريّ.

انطلقا بالسيارة مسافة نصف ساعة بحسب ساعة جم، متجهَين إلى الشمال الشرقيّ بمعدل ثلاثين كيلومترًا في الساعة. كانت الطريق متعرجة، وشديدة الانحدار، ومؤطرة بالأشجار. لم يكن ثمة قمر، وكان عاجزًا عن رؤية أي شيء باستثناء المزيد من أشجار الغابة عبر الأفق، ومزيدًا من قمم التلال. كان الثلج قد حلّ من الشمال، كما لاحظ؛ كانت تلك نقطة استفاد منها لاحقًا. كانت الطريق واضحة ولكن تغصّ بالشاحنات الثقيلة. مضيا بالسيارة من دون أضواء. كان المجري قد بدأ يروي قصة بذيئة وخمّن جِمْ أنّ هذا ما يلجأ إليه حين يكون متوترًا. كانت رائحة الثوم لا تطاق. بدا وكأنه كان يمضغه طوال الوقت. ثم من دون أي تحذير، أوقف المحرك فجأة. كانا يتجهان نزولًا ولكن ببطء أكبر. لم يكونا قد توقفا تمامًا عندما أمسك السائق فرامل اليد، وضرب جِمْ رأسه بحافة النافذة وأخرج مسدسه. كانا على حافة طريق جانبي. على بعد ثلاثين ياردة عن الطريق، حيث يوجد كوخ خشبي واطئ. لم تكن ثمة إشارة إلى وجود حياة.

أبلغ جِمْ للمجري ما ينبغي عليه فعله. طلب منه ارتداء قبعة الفرو والمعطف الخاصّين به، ثم يخرج بدلًا منه. ينبغي أن يفعل ذلك ببطء، مبقيًا يديه متشابكتَين خلف ظهره، وماشيًا في منتصف الطريق. ولو قام بأي من هذه الخطوات على نحو خاطئ، سيطلق عليه الرصاص. وعندما سيصل إلى الكوخ ينبغي عليه الدخول ليشرح للجنرال أن جِمْ فعل هذا كإجراء احترازيّ. ثم عليه العودة ببطء، لينقل إلى جِمْ أنّ كل شيء على ما يرام، وأن الجنرال مستعد لاستقباله.

لم يبد المجريّ سعيدًا جدًا بهذا، ولكن لم يكن لديه خيار آخر. وقبل أن يخرج، أرغمه جِمْ على الاستدارة بالسيارة بحيث تواجه الطريق. لو كان هناك أي تلاعب، شرح له جم، سيشعل الأضواء الأمامية ويطلق النار عليه، ولن يفعل ذلك مرة واحدة، بل عدة مرات. بدأ المجريّ سَيره. كان قد أوشك على الوصول إلى الكوخ عندما غُمرت المنطقة كلها بالضوء:

الكوخ، والطريق، ومساحة كبيرة حولهما. ثم حدثت عدة أشياء في آن. لم يرَ جِمْ كل شيء لأنه كان مشغولًا بتشغيل السيارة. رأى أربعة رجال يقفزون من الأشجار، وما إن هبط أحدهم على الأرض، حتى بدأ بضرب المجريّ بقسوة. بدأ التصوير، ولكن لم يكن أحد من هؤلاء الأربعة يعير اهتمامًا، كانوا واقفين في الخلف فيما كان أحدهم يلتقط الصور. بدا التصوير مصوَّبًا باتجاه السماء الصافية خلف الأضواء القوية. بدا الأمر مسرحيًا جدًا. فقد بدأت الانفجارات، وسطعت أضواء قويّة، ورصاص خطّاط، وحين انطلق جِمْ بالفيات نزولًا عبر الطريق كان لديه انطباع بأنه يترك مهرجانًا عسكريًا في ذروته. كان قد أوشك على النجاة - شعر حقًا بأنّه قد نجا - حين بدأ شخص من الغابة عن يمينه بإطلاق النار من رشّاش أوتوماتيكيّ من مسافة قريبة. أصابت الرشقة الأولى العجلة الخلفيّة وقلبت السيارة. أخيرًا استقرت السيارة في خندق على اليسار. كان الخندق بعمق عشر أقدام تقريبًا ولكنّ الثلج جعله يبدو أقل عمقًا. لم تحترق السيارة، لذا كمن وراءها منتظرًا، مفتّشًا عبر الطريق عن حامل الرشّاش. وجاءت الرشقة الأخرى من خلفه فرمته على السيارة. لا بد وأن الغابة كانت تغصّ بالقوات العسكرية. أصيب برصاصتين. أصابته الرصاصتان في الكتف اليمنى، كان مستلقيًا هناك يشاهد المهرجان، وقد بدا أمرًا مذهلًا بالنسبة إليه أن الرصاصتين لم تنتزعا ذراعه. سمع صوت زمّور سيارة، وربما اثنتين أو ثلاث. اقتربت سيارة إسعاف عبر الطريق، في حين كان إطلاق النار مستمرًا بما يكفي لإخافة المنطقة بأسرها لسنوات. ذكّرته سيارة الإسعاف بسيارات الإطفاء القديمة في هوليوود، إذ كانت شديدة اللمعان. كانت هناك معركة مندلعة ولكنّ الرجال الذين خرجوا من سيارة الإسعاف وقفوا يحدّقون به من دون أدنى اكتراث لما يحدث. كان يفقد وعيه حين سمع صوت وصول سيارة أخرى، وأصوات رجال، والتقاط صورٍ أخرى، ولكن للرجل الصحيح هذه المرة. وجّه أحدهم أوامر لم يفهمها جِمْ لأنها كانت بالروسيّة. كان شاغله الوحيد وهم يضعونه على النقالة فيما عيناه تغمضان، هو قلقه بشأن العودة إلى لندن. تخيّل نفسه في شقة

سان جيمس، مع الأوراق الملوّنة وكومة الملاحظات، يجلس على الكنبة ويشرح لكونترول كيف أنهما، بعد بلوغهما هذه السنّ، مشيا ليقعا في أكبر فخ في تاريخ المهنة. كان عزاؤه الوحيد أنهم أشبعوا المجريّ ضربًا، ولكن مع استعادة الأمر تمنّى جِمْ كثيرًا لو أنه كسر عنقه: كان أمرًا سيفعله بسهولة شديدة، ومن دون ندم.

32

كان وصف الألم، بالنسبة إلى جم، غفرانًا سيُحِلّه من خطاياه. أما بخصوص سمايلي، فقد كانت رصانته تحمل تعبيرًا رائعًا عنه، ولذا فهو يبدو غير منتبه له. وقد تبدّت الفجوات في القصة على نحو أكبر عندما فقد الوعي، كما قال. أخذته سيارة الإسعاف، بأقصى سرعة، باتجاه الشمال. عرف هذا من الأشجار عندما فتحوا الباب ليُدخلوا الطبيب: كان الثلج أسمك عندما نظر إلى الخلف. من خلال سطح الأرض خمّن أنهم في الطريق إلى هراديك. أعطاه الطبيب حقنة فغاب عن الوعي؛ أفاق في سجن في مستشفى حيث كانت النوافذ عالية ومدعّمة بقضبان حديد، إضافة إلى ثلاثة رجال ليراقبوه. ثم أفاق مجددًا بعد العملية في زنزانة مختلفة خالية من النوافذ، وظنّ أن الاستجواب الأول سيكون هناك، بعد اثنتين وسبعين ساعة من اعتقاله تقريبًا، فتقدير الزمن بدقة كان مشكلة بالطبع لأنهم أخذوا ساعته.

نقلوه كثيرًا. إما إلى غرف مختلفة بحسب ما كانوا سيفعلون به، أو إلى سجون أخرى بحسب من سيقوم باستجوابه. أحيانًا كانوا يعملون على إيقاظه، ويأخذونه في جولات ليلية في ممر الزنازين. كما نُقل بشاحنات أيضًا، ومرةً بطائرة نقل تشيكية، ولكنه لم يكن يقوى على تحمّل الطيران، لذا أغمي عليه فور الإقلاع. كان الاستجواب الذي تلا رحلة الطيران تلك

طويلًا جدًا. لم يكن واعيًا في الانتقالات من استجواب إلى آخر، فلم يعد يتذكر أين كان كل استجواب. أكثر أمر بقي عالقًا في ذاكرته كانت خطة الهجوم التي فكّر فيها أثناء انتظاره بداية الاستجواب الأول. أدرك أن الصمت سيكون مستحيلًا ، وأن عليه التصرّف بحنكة بحيث يبقى على قيد الحياة، لا بد من تقديم أجوبة مقنعة. فكّر أنه عليه إقناعهم بأنه قال لهم ما يعرفه، كل ما يعرفه. مستلقيًا في المستشفى حضّر ذهنه لخطوط الدفاع التي، في حال حالفه الحظ، سيزيلها مرحلة إثر أخرى إلى أن يعطيهم الانطباع بأنه قد هُزم. كان خطه الأمامي، والقابل للتضحية، هو العمود الفقري لعملية تستيفاي. وهنا لا بد من التخمين ما إذا كان ستيفستش فخًا، أو أنه تعرّض للخيانة. ولكن في شتى الأحوال، ثمة أمر يقيني وحيد: كان التشيكيون يعرفون عن ستيفستش أكثر مما يعرف جم. ولذا فإن اعتماده الأول سيكون على قصة ستيفستش، بما أنهم يعرفونها مسبقًا؛ ولكنه سيحاول جعلهم يسحبونها منه. بدايةً، سيُنكر كل شيء ملتزمًا بالقصة الزائفة. وبعد جولة قتال سيعترف بأنه جاسوس بريطاني وسيُعطي اسمه الحركي إليس، وبذلك لو قاموا بنشر القصة، سيعرف السيرك أنه على قيد الحياة ويحاول النجاة. كان لديه قليل من الشك بأن الفخ والصور الفوتوغرافية قد جلبت الكثير من الصخب. بعد ذلك، وبحسب اتفاقه مع كونترول، سيقول إنّ العملية خاصة به وحده، وقد نفّذها من دون علم رؤسائه، بحيث ظنًّا منه أن قيمته سترتفع لديهم بعدها. وسيدفن، بأعمق ما يستطيع بل أكثر، كل الأفكار بشأن وجود جاسوس في السيرك.

قال جِمْ للظلال السوداء للهضاب: «لا جاسوس».

«لا لقاء مع كونترول، ولا شقة في سان جيمس».

«لا سمكري، ولا خيّاط».

خط دفاعه الثاني سيكون ماكس. قرر بدايةً إنكار إحضاره لمساعد على الإطلاق. ثم سيقول إنه أحضر واحدًا ولكنه لا يعرف اسمه. بعدها، وبما أن الجميع يحبّون معرفة اسم ما، سيعطيهم اسمًا: الاسم الخاطئ

أولًا، ثم الاسم الصحيح. حتى ذلك الوقت، سيكون ماكس قد نجا، أو اختبأ، أو اعتُقل.

ثم خطرت في خيال جِمْ سلسلة من المواقف الأضعف: عمليات حديثة لصيادي الرؤوس، شائعات عن السيرك، أي شيء لمجرد أن يُقنع مستجوبيه بأنه كُسِرَ وبدأ يعترف بكل شيء يعرفه، وبأنهم حطّموا جميع تحصيناته. سينبش ذاكرته بشأن عمليات قديمة لصيادي الرؤوس، ولو اضطر سيعطيهم اسمًا أو اثنين لمسؤولين سوفيات أو من الدول التابعة ممن انشقوا أو أُحرقوا مؤخرًا؛ وأسماء آخرين ممن قاموا في الماضي بصفقة وحيدة، وبما أنهم لم ينشقّوا، سيكونون الآن على لائحة الحرق أو بانتظار ضربة أخرى. سيرمي إليهم بأيّ عظمة يمكن له تذكّرها، بل ويبيعهم -لو اضطر - إسطبل بركستون برمّته. وسيكون كل هذا بمثابة شاشة لإخفاء ما بدا لجم معلومته الاستخباراتية الأشد قيمة، بما أنهم سيتوقّعون حتمًا أنه يمتلكها: هوية أعضاء شبكتي أغرافات وبلاتو التشيكيّتين.

«لاندكرون، كرايغلوفا، بيلوفا، عائلة بريبيل»، قال جم.

تساءل سمايلي: لم اختار هذا الترتيب لأسمائهم؟.

منذ مدة طويلة لم يعد جِمْ مسؤولًا عن هاتين الشبكتين. منذ سنوات، قبل أن يتسلّم أمور بركستون، كان قد ساعد في تأسيس الشبَكتين، وجنّد بعض أعضائها المؤسسين؛ منذ ذلك الحين طرأ الكثير من التغيرات التي يكاد لا يعرف عنها شيئًا على أيدي بلاند وهايدن. ولكنه كان واثقًا أنه لا يزال يعرف ما يكفي لإسكات مستجوبيه. أكثر ما كان يقلقه هو خوفه من أن يكون كونترول، أو بِلْ، أو بيرسي أليلاين، أو أي أحد آخر ممن له القول الفصل هذه الأيام، شديد الطمع أو شديد البطء بحيث لا يعمل على تفكيك الشبَكتين في الوقت الذي لا يملك فيه جم، في ظروفه التي هو عاجز عن تخمين ما سيحدث فيها، أي خيار آخر سوى الانهيار.

قال جم، من دون أيّ مزاج للضحك: «تلك كانت النكتة. كانت الشبكتان آخر همّهم. طرحوا علي عدة أسئلة بشأن أغرافات ثم فقدوا الاهتمام بها. كانوا يعرفون تمامًا أن تستيفاي لم تكن من بنات أفكاري، وكانوا يعرفون كل شيء بشأن رغبة كونترول بشراء المعلومات من ستيفستش عبر فيينا. بدأوا بالضبط من حيث كنت سأنتهي: من اللقاء في شقة سان جيمس. لم يسألوني عن مساعدي، ولم يكونوا مهتمين أساسًا بالشخص الذي أوصلني إلى مكان اللقاء مع المجريّ. كل ما أرادوا معرفته كان نظرية كونترول بشأن التفاحة العفنة».

كلمة واحدة، فكر سمايلي مجددًا، قد تكون مجرد كلمة واحدة. قال: «هل كانوا يعرفون عنوان شقة سان جيمس حقًا؟».

«كانوا يعرفون نوع الشيري اللعين يا رجل».

سأله سمايلي بسرعة: «والأوراق الملوّنة؟ والحقيبة؟».

«لا». ثم أضاف: «ليس في البداية، لا».

بالتفكير على نحو مقلوب، كما كان ستيد-آسبري يقول. كانوا يعرفون لأن الجاسوس جيرالد أخبرهم، فكّرَ سمايلي. كان الجاسوس يعرف ما نجح مدبّرو المنزل في إنطاق ماكفاديان به. يعيش السيرك مرحلة ما بعد الموت: كارلا يستفيد من خلاصات السيرك بحيث يستخدمها ضد جم.

قال سمايلي: «وبذا أفترض أنك بدأت تعتبر كونترول محقًا: هناك جاسوس حقًا».

كان جِمْ وسمايلي يستندان إلى بوابة خشبية. كانت الأرض تنحدر تحتهم بحدة نزولًا إلى السهول والحقول. وتظهر قرية أخرى، على خليج يشبه ربطة عنق صغيرة من البحر الذي يضيئه القمر.

«اندفعوا مباشرة إلى لب الموضوع. «لمَ كان كونترول يعمل منفردًا؟ ما الذي كان يأمل بتحقيقه؟». قلت: «عودته إلى سابق عهده». ولكنهم بدأوا بالضحك: «عبر معلومات شحيحة عن تبديلات عسكرية في محيط برنو؟ هذا لن يؤمّن له ثمن وجبة غداء في ناديه». قلت: «ربما كان يفقد سلطته». قالوا: «لو كان كونترول يفقد سلطته، من الذي كان يزاحمه؟ أليلاين؟» قلت: «هكذا تقول الإشاعة؛ كونترول وأليلاين يتنافسان في جلب المعلومات. ولكن في بركستون كل ما نملكه هو الإشاعات».

«وما الشيء الذي ينتجه أليلاين ولا يستطيع كونترول إنتاجه؟»

«لا أعلم».

«ولكنك قلت للتو إن أليلاين وكونترول يتنافسان في جلب المعلومات».

«هذه إشاعة. لا أعلم».

عودة إلى التعذيب.

الزمن في هذه المرحلة، قال جم، كان قد ضاع كليًا. كان يعيش إما في ظلمة القبو، أو في الضوء القوي لغرف الاستجواب. لم يكن ثمة ليل أو نهار، وكي يجعلوا الأمر أكثر إلغازًا، كانوا يبقون الضجيج معظم الوقت.

كانوا يُدخلونه في مبدأ خط الإنتاج، كما شرح: لا نوم، أسئلة على مراحل، الكثير من التشويش، الكثير من التعذيب، إلى أن بدا الاستجواب لجم مثل سباق بطيء بين أن يُجنّ أو ينهار كليًا. من الطبيعي أنه كان يفضّل الجنون، ولكن هذا ليس خيارًا تحدده بنفسك، لأنّ لديهم وسائل لإعادتك إلى حيث كنت. معظم التعذيب كان بالكهرباء.

ها نحن نبدأ مجددًا: «كان ستيفستش جنرالًا مهمًا. لو طلب موظفًا بريطانيًا رفيعًا، كان سيتوقع منه أن يكون ملمًا بكل جوانب عمله. هل تريد إقناعنا بأنك لم تعلّم نفسك؟».

«أقول إنني أخذت معلوماتي من كونترول».

«هل قرأت ملف ستيفستش في السيرك؟»

«لا».

«هل قرأه كونترول؟»

«لا أعلم».

«ما الخلاصات التي استنتجها كونترول من التعيين الثاني لستيفستش في موسكو؟ هل تحدث كونترول معك بشأن دور ستيفستش في لجنة الارتباط مع حلف وارسو؟»

«لا. وعَلِقوا عند هذا السؤال، وأفترض بأنني علقت عند إجابتي لأنهم بعد عدة لاءات أصبحوا مجانين. بدوا وكأنهم يفقدون توازنهم. حين كنت أفقد الوعي كانوا يوقظونني ليعيدوا الاستجواب».

قال جم. كانت قصته ذات تقلّبات كثيرة. زنازين، ممرات، سيارات ... في المطار، معاملة خاصة قبل الركوب في الطائرة ... في الطائرة نمت فعوقبت على هذا: «أعادوني إلى الزنزانة مجددًا. زنزانة أصغر، من دون طلاء على الجدران. ظننت أحيانًا أنني في روسيا وأحيانًا أخرى في سارات، في دروس مقاومة الاستجواب».

تركوه وحيدًا عدة أيام. ذهنه مشوّش. وتعاوده ذكرى إطلاق النار في الغابة حيث شاهد المهرجان مجددًا، وحين بدأت الجلسة الكبرى أخيرًا، التي يذكرها لأنها تشبه الماراثون، كان يحس بأنه نصف مهزوم قبل أن يبدأ.

«بداعي الصحة قبل أي شيء»، فسّر وقد أصبح شديد التوتّر.

«بإمكاننا التوقف قليلًا لو أحببت»، قال سمايلي، ولكن حيث كان جِمْ ما من مجال للتوقف، وما يريده لم يعد مهمًا الآن.

تلك كانت الجولة الأطول، قال جم. في لحظة ما، خلالها، أخبرهم بشأن ملاحظات كونترول وأوراقه الملوَّنة. كانوا يعذّبونه وكأنه الشيطان، وتذكّر وجود متفرّجين، كلهم رجال، في نهاية الغرفة، يبدون كمسعفين يتمتمون في ما بينهم، لذا أخبرهم بشأن الألوان، كي يدفعهم إلى الكلام والتوقف عمّا يفعلونه لينصتوا. أنصتوا من دون أن يتوقفوا.

«عندما عرفوا بشأن الألوان، أرادوا معرفة معناها».

«ما دلالة الأزرق؟».

«لم يكن لديه لون أزرق».

«ما دلالة الأحمر؟ ما الذي يعنيه؟ أعطنا مثالًا عن الأحمر من الأوراق. ما الذي يعنيه الأحمر؟ ماذا يعني؟ ماذا يعني؟». ثم يُخلي الجميع الغرفة باستثناء حارسين وشخص بارد ضئيل الحجم، مشدود القامة، يبدو كأنه المسؤول عنهم. أخذني الحارسان إلى طاولة، فجلس هذا الضئيل بجانبي كقزم لَعين ويداه متشابكتان. أمامه قلمان، أحمر وأخضر، ومخطّط لسيرة ستيفستش المهنية».

لم يكن هذا ما كسر جِمْ بالضبط، بل سلب منه الابتكار. لم يعد قادرًا على التفكير بأي قصص أخرى فالحقائق التي كانت مدفونة عميقًا أمست الآن الأشياء الوحيدة التي تعرض نفسها بوضوح.

قال سمايلي: «إذًا أخبرتَه عن التفاحة العفنة، وأخبرته عن سمكري، خياط».

نعم، وافقه جم. وأخبره أن كونترول كان يجزم أنّ بإمكان ستيفستش تحديد الجاسوس داخل السيرك. وأخبره عن شفرة سمكري، خياط ودلالة كل واحدة منها، اسمًا اسمًا.

«وما ردة فعله؟».

«فكر قليلًا ثم عرض عليّ سيجارة. كرهت تلك السيجارة».

«لماذا؟».

«بدت أميركية. جمل».

«هل دخّن هو؟».

أومأ جِمْ برأسه. وقال: «مدخنة حقيقية»..

بدأ الزمن بعد ذلك يتدفق من جديد، قال جم. أخذوه إلى معسكر اعتقال خارج المدينة، وعاش في كوخ محاط بسياج مزدوج من الأسلاك الشائكة. وبمساعدة أحد الحراس بات قادرًا على المشي؛ بل ذهبا في أحد الأيام للتمشّي في الغابة. كان المخيم كبيرًا جدًا: وكان كوخه مجرد جزء صغير منه. ليلًا، كان بإمكانه رؤية أضواء المدينة شرقًا. كان الحراس يرتدون ملابس قطنية ولا يتحدثون، ولذا لم يجد أيّ وسيلة لمعرفة ما إذا كان في تشيكو أو في روسيا، ولكنه كان يراهن على روسيا بشكل أكبر، وحين جاء الطبيب ليتفقد ظهره استعان بمترجم عن الإنكليزية-الروسية ليعبّر عن ازدرائه لعمل الطبيب السابق. استمر الاستجواب في أوقات متفرقة، ولكن من دون عنف. عيّنوا فريقًا جديدًا ولكنهم كانوا قليلين مقارنة بالأحد عشر شخصًا السابقين. وفي إحدى الليالي أخذوه إلى مطار عسكريّ وسفّروه إلى إنفرنيس. ومن هناك أخذته طائرة صغيرة إلى إلستري، ثم فان إلى سارات؛ وكلها كانت رحلات ليلية.

كان غضب جِمْ يتزايد. وكان سيبدأ بقول ما حدث له في الحضانة عندما سأله سمايلي: «وذلك المسؤول، الضئيل البارد: ألم تره مجددًا؟».

مرة واحدة، قال جم؛ قبل أن يغادر.

«لماذا؟».

علت نبرته: «ثرثرة، الكثير من الأحاديث عن العاملين في السيرك، فعليًا».

«أي عاملين؟».

تملص جِمْ من الإجابة. كلام عمّن كان في الطابق العلوي، ومَن كان في الطابق السفلي. ومَن المرشح لتسلّم منصب المدير، قلت: «وكيف لي أن أعرف هذا؟الحراس اللعيونون يعرفون هذا قبل أن نعرفه في بركستون».

«إذًا من ورد ذكره على نحو أكبر في حديثكما بالضبط؟».

روي بلاند بشكل أساسيّ، ردَّ جِمْ ببرود. سألوني كيف واءم بلاند توجّهاته اليسارية مع عمله في السيرك؟ فقلت، لم يكن لديه توجّهات يسارية. لم كان بلاند في صف إيسترهيز وأليلاين؟ ما رأي بلاند بلوحات بل؟ ثم مقدار شرب بلاند وما الذي سيحدث له لو سحب بل دعمه؟. أعطى جِمْ إجابات غامضة لتلك الأسئلة.

«هل ذُكر أحد آخر؟».

قال جِمْ بالنبرة المتصاعدة ذاتها: «إيسترهيز، ذلك اللعين كان يريد معرفة كيف يكون بمقدور أي إنسان أن يثق بهنغاريّ».

بدا سؤال سمايلي التالي، حتى لنفسه، وكأنه سيلقي صمتًا مطلقًا على الوادي الأسود برمّته.

«وما الذي قاله عني؟» سأل. ثم كرر: «ما الذي قاله عني؟».

«أراني ولّاعة سجائر. قال إنها لك. هدية من آن. «مع حبي. واسمها منقوش».

«هل قال كيف حصل عليها؟ ما الذي قاله يا جم؟ هيا، لن أغضب لمجرد أن روسيًا قال نكتة بذيئة بشأني».

بدا رد جِمْ مثل أمر عسكري: «خمّن أنّ عليها، بعد علاقتها مع بل هايدن، أن تغيّر الإهداء». ثم نفض ذراعه باتجاه السيارة، وصاح بغضب: «قلت له مباشرة في وجهه المتغضن الصغير. لا يمكنك أن تتهم بِلْ بأشياء كهذه. للفنانين معايير مختلفة كليًا. يرون أشياء نعجز عن رؤيتها. يحسّون بأمور لا نحسّ بها». ضحك اللعين، وقال: «لم أكن أعلم أنّ تلك اللوحات

جيدة إلى هذا الحد». قلت له: «اذهب إلى الجحيم. اذهب إلى الجحيم اللعين. لو كان هناك بِلْ هايدن واحد في مؤسستك، سيكون بإمكانك حينها اعتبارها مضبوطة وجاهزة». ثم أضفت: «يا إلهي، ما الذي تديرونه هنا؟ عمل أم جيش خلاص؟».

«أحسنت القول»، قال سمايلي، كما لو أنه يعلّق على مناظرة. «ولم تره من قبل؟».

«من؟».

«الرجل الضئيل البارد. لم يكن مألوفًا لك – منذ زمن بعيد مثلًا؟ أنت تعرف عملنا. إننا مدرَّبون على رؤية الكثير من وجوه وصور أعضاء المركز، وأحيانًا قد تعلق صورة أو وجه. حتى لو كنّا عاجزين عن تحديد اسم له. وهذا الشخص لا اسم له أساسًا. كنت أتساءل فحسب. خطر لي أنه كان أمامك الكثير من الوقت للتفكير»، ثم تابع. «تكون هناك في النقاهة، منتظرًا عودتك إلى الوطن، ما الذي عليك فعله غير هذا، التفكير؟» انتظر. «إذًا، ما إذا فكرت به، أتساءل؟ المهمة. مهمتك، كما أظن».

«بين الحين والآخر».

«مع أيّ خلاصات؟ أمر مفيد؟ أيّ شكوك، حدس، تلميحات تعطيها لي لأتابع بها؟».

اندفع جِمْ بغضب: «شكرًا لك، اللعنة على كل شيء، تعرفني يا جورج سمايلي، أنا لست من أولئك السحرة، أنا...».

«عميل ميداني يترك للآخرين التفكير. برغم هذا: عندما تعرف أنك اقتُدت إلى فخ كبير، وتمت خيانتك، وأُطلق الرصاص عليك في ظهرك، وليس لديك أدنى شيء تفعله لشهور ما عدا الاستلقاء أو الجلوس، أو التجوّل في زنزانة روسية، أفترض بأنّه حتى أكثر الرجال انغماسًا في الميدان» – حرص في نبرته على إشارات المودة – «سيُجبر ذهنه على التفكير والتساؤل عن كيفية وقوعه في هذا الفخ. لنتحدث عن عملية

تستيفاي لدقيقة» - كان جِمْ ساكنًا أمامه كتمثال- «أنهت تستيفاي مسيرة كونترول المهنية. لحقه العار وكان عاجزًا عن ملاحقة الجاسوس، على افتراض أنه يوجد جاسوس. انتقلت إدارة السيرك إلى أيادٍ أخرى. في وقت مضبوط، مات كونترول. كما فعلت تستيفاي أمرًا آخر، لقد كشفت للروس - من خلالك فعليًا - المدى الدقيق لشكوك كونترول. بأن قلّص الاحتمالات إلى خمسة، لا أكثر. لا أقول إنه كان يتوجب عليك إدراك هذا كله في زنزانتك، وأنت تنتظر. في نهاية الأمر، لم يكن لديك علم، وأنت هناك، أنّ كونترول قد طُرد - بالرغم من احتمال أنه خطر على ذهنك أن الروس افتعلوا تلك المعركة في الغابة ليوتّروا الأجواء. صحيح؟».

«لقد نسيت الشبكتين»، قال جِمْ بصوت خافت.

«أوه، كان لدى التشيكيين علم بالشبكتَين منذ زمن طويل قبل ظهورك في المشهد. كل ما فعلوه هو أنهم ضبطوا التوقيت ليتأكدوا من هزيمة كونترول».

النبرة الاستطرادية، التي تكاد تكون مجرد دردشة، التي طرح فيها سمايلي هذه النظريات لم تلقَ تجاوبًا لدى جم. بعد أن انتظره من دون جدوى كي ينطق بأي حرف، تجاهل سمايلي الأمر. «حسنًا، لنتحدث الآن عن استقبالك في سارات، أوكي؟ حتى نقفل الموضوع؟».

في لحظة نادرة من النسيان شرب من زجاجة الفودكا أولًا قبل أن يمرّرها لجم.

بالحكم على نبرة جم، بدا أنه قد اكتفى من كل شيء. كان يتحدث بسرعة وغضب، بذلك الإيجاز العسكري الذي كان ملجأه من الدوامات الفكرية.

لأربعة أيام كانت سارات بمثابة لميبو، قال: «أكلت كثيرًا، شربت كثيرًا، نمت كثيرًا. تمشيت في ملعب الكريكت». كان سيسبح لو لم يكن الحوض قيد الصيانة، كما كان منذ ستة أشهر: عمّال لعينون غير كفوئين.

تلقّى عناية طبية، وشاهد التلفزيون في كوخه، ولعب قليلًا من الشطرنج مع كرانكو الذي كان مسؤولًا عن استقباله.

في هذه الأثناء، كان بانتظار ظهور كونترول، ولكنه لم يأتِ. أول من قام بزيارته من السيرك كان موظف إعادة التأهيل، الذي تحدّث عن وكالة للتأهيل، ثم جاء مسؤول ماليّ لمناقشة أمور معاشه التقاعديّ، ثم حضر الطبيب مرة أخرى. انتظر وصول المحققين ولكنهم لم يأتوا أبدًا، ما أشعره بارتياح لأنه لم يكن يعرف ما سيقوله لهم إلى حين وصول الضوء الأخضر من كونترول، عدا عن أنه قاسى الكثير من الاستجوابات. خمّن أنّ كونترول يؤخّرهم. بدا من الجنون أنّ عليه الإخفاء عن المحققين ما باح به أساسًا للروس والتشيكيين، ولكن إلى أن تصله رسالة من كونترول ما الذي بوسعه فعله غير الصمت؟ عندما بقي كونترول على صمته، أبدى رغبة بمقابلة ليكون ليخبره قصته. ثم جزم بأن كونترول كان ينتظره ليخرج من الحضانة قبل أن يحاول الاتصال به. انتكست صحته لبضعة أيام، وحين تعافى زاره توبي إيسترهيز ببدلة جديدة، وكأنه جاء ليصافحه ويتمنى له التوفيق. ولكنه كان قد جاء، في الحقيقة، ليخبره عمّا ستؤول إليه الأمور.

«يا له من شخص غريب ليرسلوه، ولكن بدا وكأنه قد أصاب حظًا في هذا العالم. ثم تذكرت ما قاله كونترول بشأن الاقتصار على استخدام رجال من المحطات الخارجية».

أخبره توبي أنّ السيرك أوشك على الانهيار بسبب تستيفاي، وأن جِمْ يُعتبر الآن المنبوذ الأكبر في السيرك. أصبح كونترول خارج اللعبة وتم إجراء إعادة تنظيم للأمور بهدف إرضاء الحكومة.

«ثم طلب مني ألّا أقلق»، قال جم.

«ألّا تقلق بأي معنى؟».

«بشأن مهمتي الخاصة. قال إن أشخاصًا قليلين يعرفون القصة الحقيقية، وليس عليّ أن أقلق إذ تمّ ضبط الأمور. جميع الحقائق كُشفت. ثم أعطاني ألف جنيه نقدًا لأضيفها إلى تعويضاتي المالية».

«ممن؟».

«لم يقل».

«هل ذكر نظرية كونترول بشأن ستيفستش؟ جاسوس المركز داخل السيرك؟».

ردّ جِمْ بنزق. « كانت الحقائق قد كُشفت. أمرني ألا أتواصل مع أحد أو أحاول نشر قصتي إذ تم التعامل مع الأمور من أشخاص على المستوى الأعلى، وأنّ أيّة حركة سأقوم بها قد تتسبّب بانهيار كل شيء. كان السيرك قد عاد إلى وضعه الطبيعي. بإمكاني نسيان سمكريّ، خياط وكامل تلك اللعبة اللعينة: الجواسيس، وكل شيء. «انس الموضوع، قال. أنت رجل محظوظ يا جم. كان يكرّر: لقد صدرت أوامر لك كي تنسى كل شيء». كان بإمكاني نسيان هذا، صحيح؟ أنساه. أتصرف وكأنه لم يحدث أبدًا» – ارتفعت نبرته كثيرًا– «وهذا ما كنت أفعله: أطيع الأوامر وأنسى!».

بدا المشهد الليلي لسمايلي جميلًا فجأة؛ بدا مثل قماشة كانفا ضخمة تخلو من أي تفصيل سيىء أو قاسٍ. حدّقا إلى الوادي عبر الأضواء التي تجمّعت عند الأفق. ثمة برج يبدو من بعيد، وللحظة بدا لسمايلي وكأنه إشارة غلى انتهاء الرحلة.

«نعم»، قال. «نعم، قمت ببعض النسيان أنا أيضًا. إذًا توبي ذكر لك حرفيًا قصة سمكري، خياط. كيف عرف بتلك القصة، ما لم ... ولم تسمع كلمة من بِل؟ ولا حتى بطاقة».

«كان بل مسافرًا».

«من أخبرك بهذا؟».

«توبي».

«إذًا لم تلتقِ بِلْ أبدًا: منذ تستيفاي، أقدم وأقرب صديق لك، اختفى».

«سمعتَ ما قاله توبي. كان من المحظّر الاتصال بي. كنت في عزلة».

«وبِلْ كان مولَعًا جدًا بالضوابط، أليس كذلك؟» قال سمايلي، بنبرة تذكّر.

«وأنت لم تعتبره يومًا إنسانًا مستقيمًا»، صاح جم.

قال سمايلي بعد هنيهة صمت: «آسف لأنني لم أكن موجودًا حين اتصلت بي قبل أن تسافر إلى تشيكو. كان كونترول قد أرسلني إلى ألمانيا ليخرجني من دائرة الضوء، وحين عدت – ما الذي كنت تريده بالضبط؟».

«لا شيء. اعتقدت أنّ رحلة تشيكو ستكون خطرة. فكرت بتوديعك».

صاح سمايلي بدهشة: «قبل المهمة؟ قبل مهمة خاصة كهذه؟» –لم يُظهر جِمْ أيّ إشارة بأنه قد سمع سؤاله– «هل ودّعتَ أحدًا أيضًا؟ أعتقد أننا كنا جميعًا مسافرين. توبي، روي... وبِل، هل حصل على وداع؟».

«لا أحد».

«كان بل في إجازة، صحيح؟ ولكنني أعتقد أنه كان موجودًا على أية حال».

«لا أحد»، أصرّ جم، حين داهمته موجة ألم أرغمته على رفع كتفه اليمنى وتدوير رأسه. «كان الجميع بعيدين»، قال.

قال سمايلي بالنبرة اللطيفة ذاتها: «هذا ليس من عادتك يا جم، أن تذهب لتودّع الناس قبل مهمات حاسمة. لا بد أنك أصبحت عاطفيًا مع تقدمك في السن. هذا ليس...» تردد. «لم تكن نصيحة، أو شيئًا كهذا كنت تريده، ها؟ في نهاية الأمر، كنت تعتقد بأن المهمة محض هراء، صحيح؟ وأنّ كونترول بدأ يجنّ. ربما شعرتَ بأنّ عليك نقل مشكلتك إلى طرف ثالث؟ كان الجو جنونيًا تمامًا، أتفق معك».

اعـرف الوقائع، كان ستيد-آسبري يقول، ثم جـرّب القصص كالملابس.

مع بقاء جِمْ في صمت مطبق، عادا إلى السيارة.

في الموتيل، أخرج سمايلي عشرين صورة فوتوغرافية بحجم البطاقة البريدية من معطفه السميك، ورتّبها في صفّين عبر الطاولة السيراميكية. كان بعضها ملتقطًا بكاميرا، وبعضها مرسومًا؛ جميعها كانت لرجال لا يحمل أيٌّ منهم ملامح إنكليزية. باشمئزاز اختار جِمْ اثنتين وأعطاها لسمايلي. كان واثقًا من الأول، تمتم، وأقل ثقة بخصوص الثاني. كان الأول هو القزم البارد المسؤول. وكان الآخر أحد أعضاء الجوقة التي كانت تراقب من العتمة حين كان أولئك الوحوش يعذّبون جم. أعاد سمايلي الصور إلى جيبه. وحين ملأ كأسَيهما قبل الوداع فكّر أنه لو كان جِمْ قد تعرّض لتعذيب أقل، كان سيلمس إحساسًا لا بالانتصار، بل بالاحتفال؛ كما لو كان الشراب يضع قفلًا على شيء ما.

«إذًا، متى رأيت بِل آخر مرة فعلًا؟ وتحدثت إليه»، سأله سمايلي كمن يسأل عن صديق قديم. كان من الواضح أنه أزعج جِمْ الغارق في أفكار أخرى، إذ استغرق لحظة ليرفع رأسه ويلتقط السؤال.

ثم قال بلا مبالاة. «في الوقت نفسه تقريبًا صادفته في الممرات كما أعتقد».

«والتحدث إليه؟». إذ كان جِمْ قد عاد ليغرق في أفكاره الأخرى.

لم يكن سيوصل جِمْ إلى المدرسة. كان على سمايلي إيصاله إلى ما قبل المدرسة بمسافة قصيرة، على حافة المنحدر الذي يقود إلى المقبرة قرب الكنيسة. فقد كان ترك بعض الدفاتر في الكنيسة، كما قال. لحظتها، شعر سمايلي برغبة في عدم تصديقه، ولكن لم يستطع معرفة السبب. ربما لأنه وصل إلى قناعة أنه بعد ثلاثين عامًا في الخدمة، لا يزال جِمْ سيئًا في

الكذب. وآخر ما رآه سمايلي منه كان ظله المتجه عبر درب نورمان فيما نقرات كعب حذاءه تبدو كرصاصات بين القبور.

اتجه سمايلي إلى تاونتن، ثم أجرى عدة اتصالات من فندق كاسل. وبالرغم من إرهاقه، كان نومه متقطّعًا حيث كان يحلم بكارلا وهو يجلس على طاولة جِمْ ومعه قلمان ملونان، فيما الملحق الثقافي بولياكوف المعروف بفكتوروف، بدافع من خوفه على أمن جاسوسه جيرالد، ينتظر بنزق انهيار جِمْ في حجرة الاستجواب. وكذلك، توبي إيسترهيز ذاهبًا إلى سارات بالنيابة عن بل هايدن الغائب، ناصحًا جِمْ أن ينسى كل شيء عن سمكري، خياط، وعن مكتشفه الذي مات، كونترول.

في الليلة ذاتها، اتجه غويلام بسيارته غربًا، إلى ليفربول، مع راكب وحيد، هو ريكي تار. كانت رحلة مملة في ظروف قاسية. إذ طوال الطريق كان تار يتبجّح بشأن المكافآت والترقية التي سينالها، حالَ عودته إلى العمل. كما بدأ التحدث عن فتياته: داني، وأمها، وإيرينا. إذ بدا وكأنه يتخيل مشهدًا تتعاون فيه المرأتان على رعاية داني، ورعايته.

«ثمة الكثير من عناصر الأمومة في إيرينا. هذا ما يرهقها، على نحو طبيعي». بوريس قد يُطرَد، وسيطلب من كارلا إبقاءه. ومع اقتراب وجهتهما، تغيّر مزاجه مجددًا وغرق في الصمت. كان الفجر باردًا بوجود الضباب. في الضواحي، كان عليهما تخفيف سرعتهما قرب مستنقع بسبب راكبي دراجات هوائية. رائحة المعدن والقذارة ملأت السيارة.

قال غويلام فجأة: «لا تُضِع الوقت في دبلن، هم يتوقعون بأنك ستسلك طرقًا فرعية لتتخفى. خذ أول طائرة».

«لقد ناقشنا هذا».

عاجله غويلام: «حسنًا، أنا أخوض النقاش مجددًا. ما الاسم الحركي لماكليفور؟».

«بحق الآلهة»، صاح تار، ثم أعطاه الاسم.

كان الظلام لا يزال مخيّمًا عندما أبحرت العبّارة الأيرلندية. كان ثمة جنود وشرطة في كل مكان: هذه الحرب، السابقة، والتي سبقتها. رياح شديدة تحرّك البحر بحيث يبدو قاسيًا. في الميناء، إحساس بالقرب غمر الحشد الصغير عندما اقتحمت أضواء السفينة العتمة بسرعة. امرأة بدأت البكاء في زاوية، وسكّير يحتفل بخلاصه في زاوية أخرى.

مضى في طريق العودة ببطء محاولًا ضبط نفسه: غويلام الجديد المندفع عبر الضجيج، لديه كوابيس، وهو ليس عاجزًا عن الإبقاء على فتاته فحسب، بل يختلق أسبابًا جنونية لعدم الثقة بها. تحدّاها بشأن ساند، والساعات التي تقضيها في الخارج، والسرّية التي تعيش فيها عمومًا. وبعد الإنصات، فيما عيناها البنّيتان مثبتتان عليه، أخبرته بأنه أحمق، وغادرت. «أنا أكون كما تظنّني عليه»، قالت، وأخذت أشياءها من غرفة النوم. ومن شقته الخاوية، اتصل بتوبي إيسترهيز، يدعوه إلى دردشة وديّة في وقت لاحق هذا اليوم.

33

جلس سمايلي في سيارة الرولز التابعة للوزير، وبجانبه جلس ليكون. لدى عائلة آن، كانت السيارة تسمّى نونيّة السرير، وكانت مكروهة لبهرجتها. كانوا قد أرسلوا السائق ليتناول إفطاره. جلس الوزير في الأمام، وكان الجميع ينظر إلى الأمام عبر الزجاج الأمامي، عَبَرَ النهر إلى أبراج محطة باتيرسي للطاقة الغارقة في الضباب. كان شعر الوزير كثيفًا في الخلف، ويرسم حلقات سوداء صغيرة عند الأذنين.

قال الوزير بعد برهة صمت جنائزية، «لو كنتم على حق، وأنا لا أقول إنكم على حق، ولكن في حال كنتم كذلك، ما كمية البورسلان التي سيكسرها مع نهاية اليوم؟».

لم يفهم سمايلي المعنى تمامًا.

«أتحدث عن الفضيحة. يسافر جيرالد إلى موسكو، أوكي، ثم ماذا يحدث؟ هل سيظهر على التلفزيون ليقهقه على العلن على جميع الناس الذين جعلهم يبدون حمقى هنا؟ أعني - يا إلهي - إننا جميعًا في المركب نفسه، صحيح؟ لا أفهم لمَ علينا السماح له بالذهاب بهذه السهولة بحيث يدمّر السقف اللعين فوق رؤوسنا، وتكتسح المنافسة المنظومة بأكملها؟».

حاول مرةً أخرى. «ما أريد قوله، أنه بمجرد أن يكون الروس عارفين بأسرارنا لا يعني أن الجميع يعرفونها. لدينا ما يكفي من السمك لشوائه بمعزل عنهم، صحيح؟ ماذا عن السياسيين: هل سيقرأون التفاصيل الشنيعة في أخبار والا-والا خلال أسبوع؟».

أو الناخبين، فكر سمايلي.

قال ليكون: «أعتقد أن هذا أمر كان يقبله الروس دومًا في نهاية المطاف، لو جعلت عدوك بمظهر الأحمق، ستضيع حجّته». ثم أضاف: «لم ينتهزوا أيًا من فرصهم السانحة حتى الآن، أليس كذلك؟».

«حسنًا، تأكّدوا من أنهم سيلتزمون. احصلوا على هذا مكتوبًا. لا، لا تفعلوا. نبّهوهم فحسب بأنهم لو تلاعبوا، سنقوم بدورنا أيضًا. لن نقوم بكشف أسرار مركز موسكو مبدئيًا، بحيث يمكنهم اللعب أيضًا، لمرة واحدة».

رافضًا التوصيلة، قال سمايلي إن المشي مفيد له.

كان ذلك يوم ثيرزغود في الإشراف، لذا شعر بالامتعاض. المديرون، بحسب رأيه، ينبغي أن يكونوا أرقى من ممارسة الواجبات الثانوية، بل عليهم إبقاء ذهنهم صافيًا للسياسة والقيادة. لمعان ثوب كيمبردج لم يخفّف عليه، حين كان واقفًا في صالة الألعاب يقرأ ملف الصبيان في الطابور الصباحي، وعيناه مثبتتان عليهم بنظرة تحمّلهم اللوم، إن لم تكن عدائية كذلك. كان مارجوربانكس من قام بالضربة القاضية.

«قال إنها أمّه»، شرح بتمتمة خافتة في أذن ثيرزغود اليسرى. «تلقّى تلغرافًا وطلب المغادرة حالًا. لن يبقى حتى لشرب فنجان شاي. وعدت أن أنقل الرسالة».

«هذا مؤسف، مؤسف حقًا»، قال ثيرزغود.

«سأتولّى دروس اللغة الفرنسيّة عنه لو أحببت. بإمكاننا دمج الصفين الخامس والسادس».

قال ثيرزغود: «أنا غاضب وعاجز عن التفكير. أنا غاضب جدًا».

«ويقول ايرفنغ إنه سيتولى تحكيم المباراة النهائية».

«يجب كتابة التقارير، وإجراء الامتحانات، والمباراة النهائية أيضًا. ما الذي أصاب تلك المرأة يا ترى؟ إنفلونزا فقط، كما أظن، إنفلونزا موسمية. جميعنا نصاب بها، وكذا أمهاتنا. أين تعيش أمّه؟».

«في الحقيقة ما فهمته من كلام سو هو أن المرأة تحتضر».

«حسنًا، هذا عذر لن يكون قادرًا على استخدامه مجددًا»، قال ثيرزغود، وهو لا يزال على غضبه، ثم أخرَسَ ضجيج الصبيان بصرخة واحدة، وبدأ قراءة الأسماء للتفقد.

«روتش؟».

«مريض، أستاذ».

هذا ما كان ينقصه ليشتعل غضبه إلى أقصاه. يعاني أغنى تلميذ في المدرسة من انهيار عصبي بسبب والديه البائسَين، وسيهدد الأب بإخراجه من المدرسة.

34

كانت الساعة توشك على الرابعة من مساء اليوم ذاته. البيوت الآمنة التي عرفتُها، فكر غويلام، أقرب إلى الشقق المعتمة. بإمكانه الكتابة عنها كما يفعل الرحّالة الذي يعمل في التجارة عن الفنادق: ابتداء بصالات الخمسة نجوم في مقاطعة بلغرافيا ذات الأعمدة الخزفية وأوراق الصنوبر المطلية بالذهب وصولًا إلى هذه الشقة ذات الغرفتين التي يستخدمها صيادو الرؤوس في ليكسام غاردنز، والعابقة بالغبار والرطوبة، مع مطفأة حريق بطول ثلاث أقدام في الصالة المعتمة. عند المدفأة، كانت الشمعدانات غارقة في القذارة. وعلى الطاولات أصداف بحر بمثابة منفضة سجائر، وفي المطبخ الرمادي كتب مجهول إرشادات بشأن التأكد من إطفاء البوتوغاز. كان يذرع الصالة عندما رنّ أنترفون البيت في الوقت المحدد بدقّة. رفع السماعة وسمع صوت توبي يفحّ عبرها. ضغط الزر وسمع رتاج القفل الكهربائيّ يصدح في ممر البناء. فتح الباب الأمامي وتركه مقفلًا بالسلسلة إلى أن تأكد أنّ توبي لوحده.

«كيف حالك؟»، قال غويلام بمرح، مفسحًا له المجال للدخول.

«جيد حقًا يا بيتر»، قال توبي وهو يخلع معطفه وقفازيه.

كان الشاي جاهزًا على الصينية مع الفناجين، فقد سبق لغويلام أن أعدّه. في المنازل الآمنة ثمة معيار محدد لتأمين الطعام والشراب. إما

لأنك تتظاهر بانك تعيش هناك فعليًا، أو لأنك تتأقلم مع أي ظرف؛ أو ببساطة لأنك تكون قد فكرت في كل شيء. في هذه المهنة، التأقلم فن حقيقيّ، قرر غويلام في نفسه. كان هذا أمرًا لم تقدّره كاميلا.

كما لو كان يحلل مزايا الطقس- لم تكن المحادثات في المنازل الآمنة لتكون أكثر من هذا- قال إيسترهيز: «إنه طقس غريب حقًا يمشي المرء بضع خطوات ثم يشعر بإنهاك تام. إذًا، نحن بانتظار بولندي؟» وأضاف وهو يجلس: «بولنديّ يعمل في تجارة الفرو تعتقد بأنه سيعمل لحسابنا؟».

«سيكون هنا في أيّ لحظة».

«هل تعرفه؟ فقد طلبت من رجالي أن يبحثوا عن الاسم، لكنهم لم يجدوا أيّ أثر».

رجالي، فكر غويلام: لا بد أن أتذكّر استخدام هذه الكلمة. قال: «كانت السلطات البولندية تطارده منذ عدة أشهر ولكنه استطاع الهرب، ثم وجده كارل ستاك بقرب المخازن فاعتقد بأنه سيكون مفيدًا لصيادي الرؤوس. أحببته، ولكن ما المغزى؟ ليس بوسعنا إشغال رجالنا أساسًا».

«بيتر، يا لك من كريم»، قال توبي باحترام، فعاد الشعور الساخر ليغمر غويلام مرة أخرى. ثم شعر بالارتياح عندما رنّ جرس الباب الأمامي فأخذ فون موقعه في الممر.

«آسف بشأن هذا يا توبي»، قال سمايلي، وهو يتنفس بشي من الصعوبة بسبب صعود الدرج. «بيتر، أين أعلّق معطفي؟».

مُديرًا إياه نحو الجدار، رفع غويلام يديّ توبي المستسلمتين ووضعهما عليه، ثم فتّشه بحثًا عن أسلحة، بهدوء وبطء. لم يكن توبي يحمل سلاحًا.

سأل غويلام: «هل جاء لوحده؟» أو ثمة صديق صغير ينتظر في الطريق؟».

ردّ فون: «لم يكن هناك أحد».

كان سمايلي عند النافذة يراقب الطريق. فقال: «أطفئ الضوء لدقيقة، لو سمحت».

«انتظر في الصالة»، أمر غويلام، فانسحب فون حاملًا معطف سمايلي.
«هل رأيت شيئًا؟» سأل سمايلي، ثم انضم إليه عند النافذة.

كانت ظهيرة لندن قد اكتسبت ألوان المساء الورديّة والصفراء الغارقة في الضباب. كانت ساحة فكتوريا؛ وفي المنتصف حديقة مسيَّجة، مظلمة أساسًا. «مجرد ظل، كما أعتقد»، قال سمايلي مبتسمًا، ثم التفت إلى إيسترهيز. كانت الساعة تعلن تمام الرابعة. لا بد أن فون كان قد أصلحها.

«أريد أن أطرح نظرية عليك يا توبي. فكرة عما يحدث، ممكن؟».

لم يتحرك إيسترهيز، ولا حتى عيناه. كانت كفاه الصغيرتان تستقران على الذراعين الخشبيتين للكنبة، يجلس بارتياح، ولكن بشيء من التوتر، وكان كعبا حذائه الملمَّع ملتصقَين.

«ليس عليك التحدث على الإطلاق. ما من مجازفة في الإنصات، أليس كذلك؟».

«ربما».

«كان هذا منذ سنتين. بيرسي أليلاين يريد منصب كونترول، ولكن لم يكن له دعم داخل السيرك. كان كونترول قد تأكد من هذا. كونترول مريض وقد كبر في السن من دون أن يستطيع بيرسي إزاحته. هل تتذكر هذا الوقت؟».

أومأ إيسترهيز بهدوء.

قال سمايلي بنبرته الواثقة: «أحد تلك المواسم الكاسدة، لم يكن هناك عمل كثير في الخارج، لذا رحنا ننبش داخل المؤسسة، ويتجسس كل منا على الآخر. بيرسي يجلس في مكتبه ذات صباح من دون أيّ عمل.

كان قد عُيّن مديرًا للعمليات، ولكن عمليًا كان مجرّد وسيط بين كونترول والمحطات الخارجية، في أفضل الأحوال. يُفتَح باب بيرسي ويدخل شخص. سندعوه جيرالد، هذا مجرد اسم. ويقول، «بيرسي، عثرت على مصدر روسي مهم. قد يكون منجم ذهب». أو ربما لم يقل شيئًا إلى أن خرجا، لأن جيرالد عميل ميدانيّ كبير، ولا يحب التحدث بوجود الجدران والهواتف. ربما تمشّيا في الحديقة أو تجوّلا بالسيارة. وربما تناولا الطعام في مكان ما. وفي هذه المرحلة لم يكن لدى بيرسي شيء ليفعله غير الإنصات. كانت خبرة بيرسي ضئيلة في المشهد الأوروبي، تذكر هذا، بخاصة ما يتعلق بتشيكو أو البلقان عمومًا. كان قد قضى حياته في أميركا الجنوبية ثم عمل في الأماكن المعتادة: الهند، والشرق الأوسط. لا يعرف الكثير عن الروس أو التشيكيين وما إلى ذلك، وكان يميل لاعتبار اللون الأحمر لونًا أحمر وكفى، صحيح؟».

زمّ إيسترهيز شفتيه وعبس قليلًا، كما لو أنه سيقول إنّه لم يناقش أيّ موظف أعلى منه أبدًا.

وأكمل سمايلي: «بينما جيرالد خبير في هذه الأمور. كانت حياته العملية عبارة عن تجوال في الأسواق الشرقية. بيرسي أوغل في المياه أبعد مما يحتمل جسده ولكنّه متحمِّس. جيرالد في ملعبه تمامًا. هذا المصدر الروسي، يقول جيرالد، قد يكون أعظم مصدر حصل عليه السيرك منذ سنوات. لا يوَدّ جيرالد قول الكثير ولكنّه يتوقع الحصول على عيّنات خلال يوم أو اثنين، وحين يفعل سيطلب من بيرسي إلقاء نظرة عليها للتأكد من جودتها. وسيتحدثان بشأن تفاصيل المصدر لاحقًا. يقول بيرسي: «ولكن لمَ أنا؟ وما الأمر؟». فيقول له جيرالد، «بيرسي. بدأ بعضنا، في المحطات الخارجية، يشعر بالقلق بسبب مستوى الإخفاقات العملياتية. يبدو أنّ هناك نحسًا. الكثير من الثرثرة داخل السيرك وخارجه. كثير من الأشخاص توقف عملهم. وفي الميدان، يواجه معظم العملاء طريقًا مسدودة، وشبكاتنا تضعف أو ما هو أسوأ، وكل حيلة جديدة تنتهي بحادث. ونريد

منك أن تعيد الأمور إلى نصابها». جيرالد ليس مندفعًا، بل هو حريص على ألّا يشير إلى وجود خائنٍ داخل السيرك يُحبط كل العمليات، لأنك وأنا نعرف أنّ كلامًا كهذا حالَ انتشاره سيتوقف العمل كليًا. وبكل الأحوال، آخر ما يسعى إليه جيرالد هو صيد الساحرات ومطاردة الأشباح. ولكنه يقول فعلًا إن المكان يَرْشَح من مفاصله، وأنّ تخلّف القيادة يُفضي إلى إخفاقات في القواعد. كلّ هذا يبدو بَلسَمًا في أذنيّ بيرسي. يبدأ جيرالد بتعداد الفضائح الأخيرة، ويكون حريصًا على التركيز على مغامرة أليلاين في الشرق الأوسط والتي كادت تكلفه عمله. ثم يطرح عرضه. هذا ما سيقوله. بحسب فَرَضيتي، يا توبي؛ إنها مجرد فرضية».

«أكيد يا جورج»، يقول توبي ويبلل شفتيه بلسانه.

«هناك فَرَضية أخرى هي أن يكون أليلاين هو جيرالد نفسه. ولكنني لا أصدّقها: لا أظن أن بيرسي قادر على الخروج لجعل نفسه جاسوسًا روسيًا يقود قاربه لوحده. أعتقد أنّه كان سيُفسد الأمر».

«أكيد»، قال توبي بثقة تامة.

«إذًا، بحسب فرضيتي، هذا ما قاله جيرالد لبيرسي: «نحن – أي أنا والأشخاص الحريصون المشاركون في هذا المشروع – نريد منك أن تكون قائدنا يا بيرسي. لسنا رجال سياسة، نحن رجال ميدان. لا نفهم متاهات غابة مكاتب الحكومة، ولكنك تفهمها. أنت ستشرف على اللجان، ونحن سنشرف على ميرلين. ولو قبلت، وحمَيْتَنا من العفن والتفسّخ، والذي يعني عمليًا انخفاض المعلومات عن العمليات إلى الحد الأدنى، سنزوّدك بالبضاعة». ثم يتناقشان بشأن الطرق والوسائل لتنفيذ هذا. ثم يغادر جيرالد ليترك بيرسي يفكر. أسبوع، شهر، لا أعلم. ما يكفي من الوقت كي ينهي بيرسي تفكيره. وفي أحد الأيام يأتي جيرالد ليعرض نموذجه الأول. وبالطبع سيكون جيدًا جدًا. جيدًا جدًا جدًا. معلومات تتعلق بالأساطيل البحرية كما يتبين، وهذا أكثر ما يلائم بيرسي لأنه خبير في شؤون الأميرالية، إذ إنّ نادي داعميه يتركز هناك. لذا يعطي بيرسي

أصدقاءه في البحرية لمحةً صغيرة عن البضاعة، فيغرقون في السعادة إلى أنوفهم. «من أين حصلتم على هذا؟ هل سيكون هناك المزيد؟». ويقول بيرسي: «هناك الكثير الكثير. أما بشأن هوية المصدر فإن هذا لغز كبير جدًا في هذه المرحلة، ولكن ينبغي أن يكون كذلك. سامحوني إن كانت التفاصيل شحيحة هنا أو هناك، ولكن كل ما أملكه هو هذا الملف كبداية».

تسبّب ذكر الملف، الإشارة الأولى التي قام بها سمايلي بحيث يكون أقرب إلى الواقع العمليّ، برد فعل واضح لدى توبي. كانت عادة بَلّ الشفتين قد ترافقت مع حَني للرأس وتعبير عن المعرفة الشديدة كما لو أن توبي - عبر جميع هذه الحركات - يحاول الإيماء إلى أنه قرأ هذا الملف أيضًا، أيًا يكن هذا الملف، ليتشارك مع سمايلي في خلاصاته. سمايلي كان قد توقف ليشرب الشاي.

«هل تريد المزيد يا توبي؟»، سأله.

رد غويلام بحزم خالٍ من العدائية: «حالًا، شاي يا فون»، نادى عبر الباب الذي فُتح مباشرة، حيث ظهر فون عند العتبة والفنجان في يده.

كان سمايلي قد عاد إلى النافذة. وأزاح الستارة بمقدار بوصة، ليحدّق باتجاه الساحة.

«توبي؟».

«نعم يا جورج؟».

«هل أحضرت مرافقة؟».

«لا».

«لا أحد؟».

«جورج، لِمَ سأحضر مرافقة إذا كنت قد خرجت لمقابلة غويلام وبولندي مسكين؟».

عاد سمايلي إلى كنبته وتابع: «ميرلين كمصدر، أين كنت؟ نعم، من الواضح أن ميرلين لم يكن مصدرًا واحدًا، كما شرح جيرالد شيئًا فشيئًا لبيرسي والشخصين الآخرين اللذين استطاع جذبهما إلى الدائرة السحرية. كان ميرلين عميلًا سوفياتيًا، ولكنه - مثل أليلاين - كان الناطق باسم مجموعة منشقّة. إننا نحب أن نرى أنفسنا في مواقف الآخرين، وأنا واثق أن بيرسي انجذب لميرلين منذ البداية. هذه المجموعة، هذه العصبة، التي كان يقودها ميرلين، كانت مكوّنةً، لنقل، من عدة مسؤولين سوفيات متقاربي الأفكار، كلٌ منهم يشكّل أهمية في موقعه. مع الوقت، كما أظن، أعطى جيرالد رجلَيه، وبيرسي، صورة أقرب عن هذه المصادر الفرعية، ولكنني لست متأكدًا تمامًا. كانت مهمة ميرلين تسريب معلوماتهم الاستخباراتية إلى الغرب، وخلال الشهور القليلة التالية كان قد أبدى براعةً ملحوظة في هذا الجانب. استخدم كل أنواع الوسائل، وكان السيرك شديد الشغف لتزويده بالمعدات. كتابة سرية، رسائل مجهرية تُطبع على علامات الترقيم في الرسائل بريئة المظهر، صناديق بريد في العواصم الغربية، يملأها روس يعلم الله مدى شجاعتهم، ويُفرغها صيادو الرؤوس الشجعان التابعون لتوبي إيسترهيز. لقاءات مباشرة حتى، ينظّمها ويشرف عليها المربّون التابعون لتوبي» - دقيقة صمت أخرى اتجه فيها سمايلي إلى النافذة ليلقي نظرة - «دفعتان من البريد في موسكو كان على العملاء المقيمين هناك الاعتناء بها، بالرغم من أنّه من المحظور عليهم معرفة المرسل. ولكن بلا أجهزة تواصل غير شرعية؛ لم يكن ميرلين مهتمًا بها. كان ثمة عرض قُدّم مرةً - إلى درجة أنه وصل إلى الخزينة - لإنشاء محطة اتصال بعيدة المدى في فنلندا، مكرَّسة لخدمته فقط، ولكن أُلغي المشروع عندما قال ميرلين: «ولا بأحلامكم». لا بد وأنه كان يتلقى دروسه على يدي كارلا، أليس كذلك؟ تعلمان كم يكره كارلا الاتصالات. الأمر العظيم هو أن ميرلين يمتلك حرية التنقل: تلك هي موهبته الأساسية. ربما هو في وزارة التجارة الروسية وبإمكانه استغلال التجّار المسافرين. في جميع الأحوال، كان يمتلك الموارد، ويمتلك صلات تربطه بخارج روسيا.

ولهذا استعان به شركاؤه للتعامل مع جيرالد وجعله يوافق على الشروط، الشروط المالية. لأنهم بحاجة إلى المال. الكثير من المال. كان يجب أن أذكر هذا. في هذا الجانب، الاستخبارات وزبائنها متشابهون في كل مكان، كما أخشى. هم يدفعون أكثر لما يكلّف أكثر، وميرلين يكلّف ثروة. هل سبق لكما أن اشتريتما لوحات مزيّفة؟».

«اشتريت واحدة مرة»، قال توبي بابتسامة شحيحة مرتبكة، ولكن لم يضحك أحد.

«كلما دفعت مبلغًا أكبر مقابلها، كلما تضاءل تشكيكك بها. أمر سخيف، ولكن هذا ما نحن فيه. ومن المريح للجميع كذلك معرفة أن ميرلين قابل للرشوة. هذا دافع نتفهّمه جميعًا، صحيح يا توبي؟ بخاصة في الخزينة. عشرون ألف فرنك شهريًا إلى بنك سويسريّ: حسنًا، لن نعرف من سيرفض لَيّ عدة مبادئ من أجل مبلغ كهذا. إذًا، كانت الحكومة تدفع له ثروة، وتعتبر معلوماته الاستخباراتية لا تقدَّر بثمن. وبعضها جيّد فعلا»، اعترف سمايلي. «جيد جدًا، كما أجزم، وهذا ما ينبغي أن تكون عليه. ثم يومًا ما، يعترف جيرالد لبيرسي بالسر الأكبر. لمجموعة ميرلين عضو في لندن. إنها البداية، لا بد أن أقول لكم: حبكة ذكية، ذكيّة جدًا جدًا».

وضع توبي فنجانه، ومسح جانبَيْ فمه بمنديل.

«بحسب جيرالد، هناك موظف في السفارة السوفياتية هنا في لندن مستعد وقادر على التصرف كممثل لميرلين في لندن. بل إنه في موقع استثنائيّ يمكّنه، في مناسبات نادرة، استخدام معدّات السفارة للتواصل مع ميرلين في موسكو، ولإرسال واستقبال الرسائل. ومع أخذ جميع الاحتياطات اللازمة، من الممكن لجيرالد أن يعقد لقاءات سرّية مع رجل العجائب، بين الحين والآخر، لاستقبال ونقل المعلومات، ولطرح استفسارات سيتلقى إجاباتها حالَ وصول السؤال. سندعو هذا المسؤول السوفياتي ألكسي ألكساندروفتش بولياكوف، وسندّعي بأنه أحد موظّفي القسم الثقافي في السفارة السوفياتية؟ هل أنت معي؟».

«لم أسمع أي شيء، لقد أصابنني الصمم». قال إيسترهيز.

«القصة إذًا هي أنه كان أحد أفراد سفارة لندن لفترة - تسع سنوات لو شئنا الدقة - ولكنّ ميرلين أضافه مؤخرًا إلى المجموعة. عندما كان بولياكوف في إجازة في موسكو، ربما؟».

«أنا لا أسمع أي شيء».

«أصبح بولياكوف مهمًا بسرعة شديدة، لأن جيرالد كان يعتبره المفصل الأساسي في عملية وتشكرافت علاوة على عمليات أخرى. كانت صناديق البريد في أمستردام وباريس، والأحبار السرية، والرسائل المجهرية: كلها كانت تعمل على خير ما يرام، ولكن من دون أن تحقّق الحد الأقصى. ومصادفة وجود بولياكوف عند عتبة الباب أكبر من أن تتم إضاعتها. كانت بعض أهم بضائع ميرلين تُهرّب إلى موسكو بالحقيبة الدبلوماسية: كل ما كان على بولياكوف فعله هو فتح المغلّفات وإعطاؤها إلى شركائه في السيرك: جيرالد أو أي شخص آخر يرشّحه جيرالد. ولكن يجب ألّا ننسى أن هذا الجزء من عملية ميرلين سِرٌّ خطير جدًا. لجنة وتشكرافت بذاتها سرية بالطبع أيضًا، ولكنها كبيرة. هذا أمر حتميّ. العملية كبيرة، الحصيلة كبيرة، والمعالجة والتوزيع وحدهما يحتاجان إلى حشد من العاملين: ناسخون، مترجمون، عمّال شيفرة، طابعون، مشرفون، ويعلم الله ماذا أيضًا. لم يكن أيٌّ من هذه الأشياء لتقلق جيرالد على الإطلاق بالطبع: بل كان يحب هذا في الحقيقة، لأن الفنّ في أن تكون جيرالد يعني أن تكون شخصًا ضمن حشد. هل تُدار لجنة وتشكرافت من الأسفل؟ أو من المنتصف؟ أو من الأعلى؟ أميل إلى توصيف كارلا للّجان، ماذا عنك؟ هل التوصيف صيني؟ اللجنة هي حيوان بأربع قوائم خلفيّة.

«ولكنّ عضو لندن - قائمة بولياكوف - هذا الجزء مقيَّد بالدائرة السحريّة الأصليّة. سكوردينو، دي سيلكي، وجميع أفراد هذه الجماعة: بإمكانهم العبّث كما يشاؤون في الخارج والتصرف كالمجانين لو كان ميرلين بعيدًا. ولكن هنا في لندن، العملية التي تتضمّن الأخ بولياكوف،

وطريقة ربط العقدة، كل هذا كان سرًا خاصًا جدًا، لأسباب شديدة الخصوصية. أنت، وبيرسي، وبِلْ هايدن، وروي بلاند. أنتم الأربعة تشكّلون الدائرة السحرية. صحيح؟ لنحاول الآن تصوّر كيفية عمل الدائرة، بالتفصيل. هناك منزل، كما نعلم جميعًا. في جميع الأحوال، كانت اللقاءات تُعقد هناك، بإمكاننا التأكد من هذا، صحيح؟ من يلتقي به يا توبي؟ مَنْ يتعامل مع بولياكوف؟ أنت؟ روي؟ بِلْ؟

أمسك سمايلي بالنهاية العريضة من ربطة عنقه، قلب البطانة الحريرية، وبدأ تنظيف نظارته. «الجميع يفعل هذا»، قال مجيبًا على سؤاله. «كيف هذا؟ أحيانًا بيرسي يقابله. سأفترض أنّ بيرسي يمثّل الجانب المؤسَّساتيّ السلطويّ معه: «ألم يحِنْ الوقت لتأخذ إجازة؟ هل عرفت أخبار زوجتك هذا الأسبوع؟» بيرسي بارع في هذه الأمور. ولكنّ لجنة وتشكرافت تستخدم بيرسي على نحو قليل. بيرسي هو السلاح الكبير ويجب أن يحافظ على قيمته. ثم لدينا بِلْ هايدن؛ بِلْ يقابله. كان هذا يحدث معظم الأحيان، كما أعتقد. لدى بِلْ تأثير على روسيا وله قيمة ممتعة. لديّ إحساس بأنّ بِلْ وبولياكوف متناغمان جدًا. أعتقد أنّ بِلْ يبرع في مسائل استخلاص المعلومات والاستفسارات، أليس كذلك؟ التأكد من أن الرسائل الصحيحة قد ذهبت إلى موسكو؟ أحيانًا كان يأخذ روي بلاند برفقته، وأحيانًا يرسل روي لوحده. أتوقّع أنّ هذا أمر كانا يتفقان بشأنه معًا. وروي خبير اقتصاديّ بالطبع، علاوة على كونه خبيرًا في الدول التابعة للسوفيات، إذًا سيكون هناك الكثير للتحدث بشأنه في هذا المجال أيضًا. وأحيانًا – أتصور، يا توبي، وجود حفلات عيد ميلاد، أو الكرسماس، أو مناسبات خاصة للشكر وتوزيع المال – هناك ثروة صغيرة توزّع للمصاريف الشخصية، دع عنك العلاوات – أحيانًا- كي تبقى الفرحة مستمرة، قد ترفعون أنتم الأربعة كؤوسكم لتشربوا نخب الملك الذي يمشي على الماء: إلى ميرلين، عبر مندوبه بولياكوف. وأخيرًا أتصوَّر أن توبي بنفسه لديه بعض الأحاديث ليتبادلها مع الصديق بولياكوف. هناك تجارة لا بدَّ من مناقشتها، والنتائج المفيدة التي تنتج عن دخول السفارة، والتي تكون

بمتناول حَمَلة المصابيح في عمليات المراقبة الاعتيادية الخاصة بهم ضد العملاء المقيمين. إذًا كان لتوبي جلساته الخاصة أيضًا. في نهاية المطاف، لا يجب أن نتجاهل إمكانيات بولياكوف المحلية، بمعزل تام عن دوره كممثل لميرلين في لندن. لا يحدث كل يوم أن تصادف دبلوماسيًا سوفياتيًا قريبًا منك في لندن ويعمل تحت أنظارنا. القليل من التدريب بالكاميرا، وسيكون بولياكوف مفيدًا جدًا على النطاق المحلي. طالما أننا جميعًا نتذكر أولوياتنا».

كانت نظرته مثبّتة على وجه توبي. وأكمل: «أتصور أنّ بولياكوف حصل على عدد من أشرطة الفيديو، أليس كذلك؟ وأن إحدى مهمات الشخص الذي يقابله، كائنًا من كان، أن يستكمل بضاعته: يوصل إليه طرودًا مختومة. طرودًا من الأفلام. أفلام غير محمَّضة طبعًا بما أنها قادمة من السيرك. قل لي يا توبي، هل لك لو سمحت أن تقول لي ما إذا كان اسم لوبان يعني شيئًا لك؟».

بَلّ الشفتين، عبوس، وحني للرأس: «أكيد يا جورج، أعرف لوبان».

«ومن أمر بإتلاف تقارير حَمَلة المصابيح عن لوبان؟».

«أنا يا جورج».

«بمبادرة شخصية منك؟».

اتّسعت الابتسامة قليلًا. وقال: «اسمع يا جورج، لقد صعدت عدة درجات على السلم في هذه الأيام».

«من قال إن على كوني ساكس الخروج من الوظيفة؟».

«اسمع، أعتقد أنه بيرسي، أوكي؟ لنقل إنه بيرسي، وربما بِلْ. تعلم ما قد ينتج عن العمليات الكبيرة. أحذية تحتاج إلى إصلاح، أوعية تحتاج إلى تنظيف، دائمًا يكون هناك أمر ما». ورفع كتفيه استخفافًا. «ربما كان روي، ها؟».

قال سمايلي بهدوء. «إذًا أنت تتلقى الأوامر منهم جميعًا، هذا استخفاف شديد بك يا توبي. يجب أن تعلم هذا».

لم يحب إيسترهيز هذه العبارة على الإطلاق.

«من طلب منك إبعاد ماكس يا توبي؟ هل كانوا هم الثلاثة أنفسهم؟ عليّ أن أرفع تقريرًا إلى ليكون فحسب، أوكي؟ لإنه يضغط عليّ كثيرًا للانتهاء من هذه القضية. يبدو أن الوزير هو من يحثّه. مَنْ كان يا توبي؟».

«جورج، أنت تتعامل مع الأشخاص الخطأ».

«واحد منا كان يفعل ذلك حقًا»، قال سمايلي بسرور. «هذا أكيد. كما يريدون معرفة وضع وستربراي: من حيّده. هل كان الشخص نفسه الذي أرسلك إلى سارات مع ألف جنيه وملاحظات يجب نقلها إلى جِمْ بريدو كي ينسى ما حدث؟ الحقائق هي ما أسعى وراءها يا توبي، لا الرؤوس. أنت تعرفني. لست من النمط الحقود. على أيّ حال، ما معنى أن نقول إنك لست شخصًا مخلصًا؟»، ثم أضاف: «هم يصرّون على معرفة كل شيء، كما تعلم. كما أن هناك حديثًا شنيعًا عن إدخال الخصم في المنافسة. لا يريد أحد فعل هذا، صحيح؟ هذا يشبه الذهاب إلى المحكمة بعد مجرد شجار مع زوجتك: خطوة نهائية غير قابلة للإلغاء. من طلب منك نقل الرسالة بشأن سمكري، خياط إلى جم؟ هل كنت تعرف معناها؟ هل حصلت عليها من بولياكوف مباشرة، هل كان الأمر على هذا النحو؟».

همس غويلام. « بحق الله، دعني أربّي هذا الوغد».

تجاهله سمايلي. وقال: «لنتابع حديثنا عن لوبان. ما كانت وظيفته هنا؟».

«كان يعمل لصالح بولياكوف».

«سكرتيره في القسم الثقافي؟».

«مخبره».

«ولكن يا عزيزي توبي: ما الذي يمكن أن يجمع ملحقًا ثقافيًا بمخبر؟».

كانت عينا إيسترهيز مثبّتتين على سمايلي طوال الوقت. بدا مثل كلب، فكَّرَ غويلام، لم يكن يعلم ما إذا كان سيحصل على عظمة أو رفسة. كانتا تنتقلان بين وجه سمايلي ويديه.

قال توبي بلا مبالاة: «لا تكن سخيفًا يا جورج، بولياكوف يعمل لصالح مركز موسكو. أنت تعرف هذا كما أعرفه». ثم صالب ساقيه الضئيلتين، وعاد إلى هدوئه السابق، حيث أعاد جسده ليستند إلى الكنبة وارتشف من الشاي البارد.

بينما بدا سمايلي، لعيني غويلام، وكأنه قد توقف للحظة؛ ما يعني بحسب فهم غويلام أنه كان يشعر بسعادة عظيمة دون شك. ربما لأن توبي بدأ التحدث أخيرًا. قال توبي:

«هيا يا جورج، لستَ طفلًا. فكر بالعمليات التي قمنا بها على هذا النحو. نشتري بولياكوف، أوكي؟ بولياكوف قريب من جماعته في موسكو، أوكي، ولكنه صديقنا. ولكن يجب عليه أن يتظاهر أمام قومه أنه يتجسس علينا. كيف يمكن أن يدبّر أموره بغير هذه الطريقة؟ كيف له أن يدخل ويخرج من ذلك المنزل بلا حراس أو مرافقة، ويكون كل شيء بغاية السهولة؟ يأتي إلى متجرنا ليأخذ إلى الوطن بعض الحاجيات. ولذا نعطيه الحاجيات. معلومات سطحية، بحيث يأخذها إلى بلده ويربّت كل مَنْ في موسكو على ظهره ويمتدحونه بكونه رجلًا عظيمًا، هذا يحدث كل يوم».

لو كان ذهن غويلام الآن يضج بشيءٍ من الدهشة الغاضبة، بدا سمايلي هادئًا بشدة.

«وهذه هي القصة المتفق عليها بينكم أنتم الأربعة؟».

«حسنًا، لا أعلم ما إذا كان متفقًا عليها»، قال إيسترهيز، بحركة هنغارية لكفّه حيث بسط راحتها وحرّكها بالاتجاهين.

«إذًا من هو عميل بولياكوف؟».

السؤال، كما رأى غويلام، كان يعني الكثير لسمايلي: كان قد قطع كل هذا الشوط الطويل ليصل إليه. ومع انتظار غويلام، كانت عيناه على إيسترهيز، الذي لم يعد شديد الثقة الآن، إذ أدرك وهو ينظر إلى وجه سمايلي الهادئ أنه هو أيضًا بدأ يفهم شكل عقدة كارلا الذكية، كما سمّاها سمايلي – وشكل اللقاء المرهق مع أليلاين.

ألحّ سمايلي: «ما أسألك إياه بسيط جدًا، نظريًا، من هو عميل بولياكوف داخل السيرك؟»، وأضاف: «يا للسموات يا توبي، لا تكن بليدًا. لو كان غطاء بولياكوف للقائكم هو أنه يتجسس على السيرك، لا بد وأن يكون لديه جاسوس داخل السيرك، صحيح؟ إذًا من هو؟ لا يمكن أن يأتي إلى السفارة بعد لقائكم، محمّلًا بتسجيلات المعلومات التافهة للسيرك، ليقول: «حصلت عليها من الشباب». يجب أن تكون هناك قصة، وقصة جيدة: تاريخ كامل من التعامل، والتجنيد، واللقاءات السرية، والمال، والدافع. أليس كذلك؟ يا إلهي، هذه ليست القصة التي تشكّل غطاء بولياكوف: إنها مسيرة حياته. لا بد أن تكون شاملة. لا بد أن تكون مُقْنعة؛ بل سأقول إنها التفصيل الأكبر في اللعبة. من هو إذًا؟» سأله سمايلي برفق. «أنت؟ توبي إيسترهيز يتخفى كخائن في السيرك ليُبقي عمل بولياكوف مستمرًا؟ يا إلهي يا توبي، هذا يساوي مجموعة كاملة من الأوسمة».

انتظرا ريثما ينهي توبي تفكيره.

قال توبي أخيرًا: «أنت في طريق طويلة لعينة يا جورج، ما الذي سيحدث لو لم تصل إلى غايتك؟».

«حتى مع وجود ليكون بجانبي؟».

«أحضِر ليكون إلى هنا. بيرسي أيضًا؛ وبِل. لم جئت إلى الرجل الصغير؟ اذهب إلى الكبار، اسألهم».

«اعتقدت أنك قد أصبحت أحد هؤلاء الكبار هذه الأيام. ستكون

خيارًا جيدًا لهذا الدور يا توبي. أصول هنغارية، تأفّف بشأن الترقيات، حرية دخول معقولة، ولكن ليس ... شديد الذكاء، يحب المال ... معك بحيث تكون عميله، ستكون لبولياكوف غطاءً معقولًا ويفي بالغرض. يعطيك الثلاثة الكبار المعلومات السطحية، وتسلّمها لبولياكوف، يعتقد المركز أن توبي رجلهم المخلص، الجميع سعيد، الجميع راضٍ. المشكلة الوحيدة ستكون لو تبيّن أنك كنت تسلّم بولياكوف جواهر التاج فيما كنت تحصل منه على معلوات سطحية. لو كانت تلك هي القصة الحقيقية، ستكون بحاجة إلى أصدقاء مقرّبين حقًا. مثلنا. هكذا تمضي فرضيتي – كي نكملها فحسب. جيرالد ذاك جاسوس روسيّ، يديره كارلا. وقد قلب السيرك رأسًا على عقب».

بدا إيسترهيز شاحبًا قليلًا وهو يقول: «جورج، اسمع. لو كنتَ مخطئًا، لا أريد أن أكون مخطئًا كذلك، هل تفهمني؟».

اقترح غويلام في مداخلة نادرة: «ولكن لو كان محقًّا، لأردتَ أن تكون محقًا أيضًا، وكلما أصبحتَ محقًا على نحو أسرع، ستزداد سعادتك بشكل أكبر».

«أكيد»، قال توبي، غافلًا عن السخرية التي في كلام غويلام. «أكيد. أعني يا جورج أنّ فكرتك رائعة، ولكن – يا إلهي – هناك جانبان لكل شخص يا جورج، بخاصة العملاء، ولعلك أنت من يكون على الجانب الخاطئ. اسمع: من سبق له أن اعتبر وتشكرافت معلومات سطحية؟ لا أحد. أبدًا. إنها الأفضل. تحصل على شخص واحد يتفوّه بالحماقات، فتسارع لحراثة نصف لندن. فهمتني؟ اسمع، أقوم بما يقولونه لي. أوكي؟ يقولون كن أضحوكة بولياكوف، فأكون. أعطه الفيلم، فأعطيه. أنا في وضع خطير جدًا. بالنسبة لي، وضع خطير جدًا حقًا».

قال سمايلي وهو ينظر من النافذة، حيث كان قد ازاح الستارة قليلًا ليراقب الساحة: «آسف لهذا. لا بد أن الأمر مقلق بالنسبة لك».

وافقه توبي، «للغاية أنا مصاب بالقرحة، وأعجز عن الأكل. مرض سيىء جدًا».

«توبي، أنت لم تكذب بشأن المرافقة، صحيح؟» سأله سمايلي، من دون أن يزيح عينيه عن النافذة.

«جورج، يدي على قلبي وأقسم لك».

«ما الذي تستخدمه لمهمة كهذه؟ سيارات؟».

«فنّانو الأرصفة. تضع كلًّا منهم عند إحدى محطات الحافلة. ثم تستبدل أماكنهم».

«كم عددهم؟».

قال بتذمّر: «ثمانية، عشرة. في هذا الوقت من السنة ستة ربما. بداعي المرض. إنه الكريسماس»..

«رجل واحد فقط؟».

«أبدًا. أنت مجنون. رجل واحد! هل تعتقد أنني أدير محل حلويات هذه الأيام؟».

ترك سمايلي النافذة، وجلس مجددًا.

كرر توبي: «اسمع يا جورج، ما قلته ليس سوى فكرة شنيعة، هل تعلم هذا؟ أنا رجل وطني، بحق الآلهة».

سأله سمايلي: «ما هو عمل بولياكوف في مقر العملاء المقيمين في لندن؟»

«بولي يعمل منفردًا».

«يدير جاسوسه الأساسي في السيرك؟».

«أكيد. يعفونه من العمل الاعتيادي، ويطلقون يده بحريّة بحيث يمكن له التعامل مع توبي، جاسوسه الأساسي. ونخطط كل شيء، لساعات معًا. «اسمع»، أقول له. «بل يشك بي، زوجتي تشك بي، طفلي مصاب

بالحصبة ولا أملك أجرة الطبيب». وكل هذا الهراء الذي يقوله العملاء، أقوله لبولي، على أمل أن ينقله إلى المركز».

«ومن هو ميرلين؟».

هزّ إيسترهيز رأسه.

قال سمايلي: «ولكنك سمعت على الأقل أنه مقيم في موسكو، وعضو في مؤسسة الاستخبارات السوفياتية، و... أيًا تكن مهماته الأخرى؟».

وافقه إيسترهيز: «هذا كل ما قالوه لي».

«وهذه هي طريقة تواصل بولياكوف معه. بما يهم السيرك طبعًا. سريًا، من دون أن يشك قومه؟».

«أكيد». تابع توبي ولولته، ولكن بدا سمايلي وكأنه ينصت إلى أصوات ليست موجودة في الغرفة معهم.

«وسمكريّ، خياط؟».

«لا أعلم معناها بحق الجحيم. أفعل ما يقوله لي بيرسي».

«وبيرسي طلب منك الاتفاق مع جِمْ بريدو؟».

«أكيد. ربما كان بِلْ، أو روي ربما؛ اسمع، كان هذا روي. أريد أن أعيش برفاهية يا جورج، هل تفهمني؟ لا أقطع عنقي بالاتجاهين، تفهمني؟».

«إنه الفخّ الكامل! أنت تدرك هذا يا توبي، أليس كذلك؟». أشار سمايلي إلى جهة بعيدة. «بافتراض أنه فخ. سيخطّئ كل من هو على حق: كوني ساكس، جيري وسترباي ... جِمْ بريدو ... وحتى كونترول. يُسكت المشكّكين قبل أن يجاهروا بشكوكهم ... التعديلات لا حصر لها، عندما تكون قد صدّقت الكذبة الأساسية. يجب أن يُسمَح لمركز موسكو في الاعتقاد بأنه يمتلك مصدرًا مهمًا في السيرك؛ ولا بدّ للحكومة البريطانية أن تؤمن بالفكرة ذاتها ولكن لصالحهم. امش بالأمر إلى نهاياته المنطقية

وستجد أن جيرالد سيدفعنا إلى خنق أطفالنا في أسرّتهم. سيكون الأمر جميلًا في سياق آخر». ثم وكأنه يحلم، «توبي المسكين: نعم، أفهمك. يا له من وقت هذا الذي تقضيه في الركض بينهم».

هيّأ توبي ردّه: «لو كان هناك أي شيء ذي طبيعة خاصة ينبغي علي فعله، فأنت تعرفني يا جورج، أنا مستعد دومًا للمساعدة، لا مشكلة. فتياني مدرَّبون جيدًا، قد تحتاج إلى استعارتهم، بإمكاننا الاتفاق على صيغة ما. عليّ أن أتحدث إلى ليكون أولًا. كل ما أريده هو أن ينتهي هذا المأزق. لأجل السيرك، أنت تعرف. هذا كل ما أريده. مصلحة المؤسسة. أنا رجل متواضع، ولا أريد شيئًا لنفسي، أوكي؟».

«أين هو المنزل الآمن الذي تقابلون بولياكوف فيه؟».

«خمسة، لوك غاردنز، كامدن تاون».

«هناك حارس؟».

«السيدة ماك كريغ».

«التي كانت في قسم التنصّت مؤخرًا؟».

«نعم».

«هل هناك دارة اتصال داخلية؟».

«ما رأيك؟».

«إذًا ميلي ماك كريغ تحرس المنزل وتشرف على معدات التسجيل».

أجل، قال توبي، رافعًا رأسه بكثير من الانتباه.

«خلال دقيقة، أريد منك الاتصال بها لتخبرها إنني سأقضي الليلة هناك، وإنني أريد استخدام المعدّات. أخبرها أنني في مهمة خاصة، وعليها أن تفعل كل ما أطلبه. سأكون هناك حوالى الساعة التاسعة. ما الإجراء المستخدم للاتصال ببولياكوف في حال أردت لقاءً عاجلًا؟».

«لدى فتياني غرفة في هافرستوك هل. بولي يقود سيارته قرب النافذة كل صباح في طريقه إلى السفارة، وكل ليلة في طريق عودته. إذا وضعوا ملصَقًا أصفر للاحتجاج على إدارة المرور، فتلك هي الإشارة».

«وليلًا؟ وفي العطل؟».

«مكالمة هاتفية خاطئة. ولكن لا يحب أحد هذا».

«هل تم استخدامها من قبل؟».

«لا أعلم».

«تعني أنك لا تتنصت على هاتفه؟».

لا جواب.

«أريد منك أن تأخذ إجازة في نهاية الأسبوع. هل سيسبّب هذا أي شك في السيرك؟» هزّ توبي رأسه بحماسة. «أنا واثق أنك تريد أن تكون خارج الموضوع بكل الأحوال، صحيح؟» أومأ توبي. «قل إن لديك مشكلة مع فتاة أو أي نوع من المشاكل التي تعاني منها هذه الأيام. ستقضي الليلة هنا، وربما ليلتين. سيعتني فون بِكَ، هناك طعام في المطبخ. ماذا عن زوجتك؟».

راقبه سمايلي وغويلام وهو يتصل بالسيرك ويطلب فل بورتيوس. قال ما لقّناه إياه تمامًا: قليل من الشفقة على نفسه، قليل من حس المؤامرة، قليل من الضحك. فتاة كانت مغرمة به، وهي الآن تهدّد بفضح علاقتهما لو لم يذهب ليتحدث معها ويهدئها.

«لا تقل شيئًا يا فل، أعلم أن هذا يحدث معك يوميًا. هيه، كيف هي سكرتيرتك الجديدة الجميلة؟ اسمع يا فل، لو اتصلت مارا، قل لها إنني في مهمة كبيرة، أوكي؟ تفجير الكرملين، وسأعود يوم الاثنين. اجعل الأمر بسيطًا وحاسمًا، ها؟ بصحتك فل».

أنهى المكالمة واتصل برقم شمال لندن. «سيدة كريغ مرحبا، أنا صديقك المفضل، هل ميّزتِ الصوت؟ جيد. اسمعيني. سأرسل إليك

زائرًا هذه الليلة. صديق قديم، قديم، ستُصدمين»، وقال لهما بعد أن وضع كفّه على السمّاعة: «إنها تكرهني». وأكمل: «يود تفحّص المعدّات، تفقّديها كلها، وتأكدي من أنها تعمل أوكي، لا نريد أخطاء، أوكي؟».

بنبرة غلّ قال غويلام موجّهًا كلامه إلى فون: « لو قام بمشاكل، قيّد يديه وقدميه».

عند درج المدخل، لمس سمايلي ذراعه برفق، وقال: «بيتر، أريد منك أن تحميني. هل ستفعل ذلك؟ أعطني دقيقتين، ثم الحق بي عند زاوية طريق مار لويس، المتجه شمالًا. ابق على الرصيف الأيسر».

انتظر غويلام، ثم خرج إلى الشارع. كان ثمة رذاذ خفيف في الهواء، يشعّ دفئًا لطيفًا كانفراجة حظ. عندما لمعت الأضواء تحوّل الرذاذ إلى غمام رقيق، ولكن في الظل لم يكن يراه أو يشعر به: مجرد ضباب يشوّش رؤيته، ويرغمه على تضييق عينيه قليلًا. أنهى جولة حول الحدائق ثم دخل شارعًا خلفيًا جنوب نقطة اللقاء. حال وصوله إلى طريق مار لويس اتجه إلى الرصيف الغربي، اشترى جريدة مسائية، وبدأ المشي بخطوات متوسطة السرعة بجانب الفيلات قرب الحدائق. كان يعدّ المارّة، راكبي الدراجات الهوائية، السيارات التي تمر أمامه، وأثناء تهاديه ببطء على الرصيف، لمح جورج سمايلي الذي كان يبدو النموذج المثالي للندنيّ في طريق عودته إلى المنزل. «هل هو فريق؟»، كان غويلام قد سأله. لم يكن سمايلي قادرًا أن يكون دقيقًا. قال: «بالقرب من فيلات أبينغدن، سأعبر، ابحث عن شخص بمفرده. ولكن راقب!».

بعد أن عاود غويلام مراقبته، انسحب سمايلي بسرعة، كما لو أنه تذكر أمرًا فجأة، وخطا باتجاه الشارع وحشر نفسه بين حشود المارّة الغاضبين ثم اختفى مباشرة داخل محل لبيع المشروبات الكحولية. وحين فعل هذا، رأى غويلام، أو ظنّ أنه رأى، شخصًا طويلًا منحني القامة يرتدي معطفًا

غامقًا يدخل خلفه، ولكن في تلك اللحظة مرت حافلة مخفية كلًا من سمايلي والرجل الذي يلاحقه؛ وبعد أن مرت، بدا وكأنها أخذت المُلاحِق معها، إذ إن الشخص الوحيد المتبقي على الرصيف كان رجلًا عجوزًا بمعطف مطر من النايلون وقبّعة قماشية يستند إلى عمود موقف الحافلات وهو يقرأ جريدته المسائية؛ وعندما خرج سمايلي من المحل مع حقيبته البنية، لم يرفع الرجل رأسه عن صفحات الرياضة. لبرهة قصيرة أخرى، مشى غويلام في أعقاب سمايلي عبر تفرّعات فيكتوريان كنسنغتون وهو ينسلّ من ساحة إلى أخرى بخفة، ويدخل في شوارع خلفية، قبل أن يعاود مشيه على الطريق الرئيسي. فقط لمرة، عندما نسي غويلام ملاحقة سمايلي والتفت إلى الخلف بدافع من الغريزة ساوره الشك بشأن رجل ثالث يمشي معهما: ظِلّ منعكس على جدران شارع فارغ، ولكن حين تابع مشيه، اختفى الظل.

كان لتلك الليلة جنونها بعد ذلك؛ تتابعت الأحداث بسرعة كبيرة بحيث عجز عن متابعة كلٍ منها على حدة. وبعد عدة أيام، أدرك أن هذا الرجل، أو ظله، بدا مألوفًا لذاكرته. حتى حينئذ، ولبعض الوقت، عجز عن تحديده. ثم ذات صباح باكر، وهو يمشي بتثاقل، توضّحت الصورة في ذهنه: صوت عسكري صادح، لطف يحاول إخفاءه بشدة، مضرب اسكواش محشور خلف خزنة في مكتبه في بركستون، تسبَّبَ ببكاء سكرتيرته الباردة المشاعر.

35

ربما كان الأمر الوحيد الذي أخطأ ستيف ماكيلفور بفعله في الأمسية نفسها، في ما يتعلق بخبرة المهنة، كان لوم نفسه على ترك باب الراكب في سيارته من دون أن يقفله. عندما دخل من باب السائق، ظنّ، بدافع من الإهمال، أن القفل الآخر كان مرفوعًا. البقاء، كما يحب جِمْ بريدو أن يقول، هو قدرة لا نهائية على الشك. وعبر هذا المعيار الصافي، كان على ماكيلفور أن يشك أنه، في وسط معمعة ساعة الذروة، في مساء مهم على نحو خاص، في أحد تلك الشوارع الجانبية التي تصب في الطرف الخلفي لقصر الإليزيه، كان ريكي تار سيفتح باب الراكب الأمامي مصوّبًا مسدّسًا نحوه. ولكن الحياة بالنسبة إلى العملاء المقيمين في باريس في هذه الأيام لم تكن لتساهم في إبقاء ذهن المرء حادًا ومتيقظًا، إذ إن معظم يوم العمل الخاص بماكليفور كان يقتصر على الاهتمام بتنظيم نفقاته الأسبوعية وإنهاء جداوله الأسبوعية المتعلقة بالكادر هناك، وإرسالها إلى مدبّري المنزل. وحده الغداء، وهو علاقة مديدة لأنغلوفونيّ متمسّك بعاداته وضائع في متاهة الأمن الفرنسيّ، كَسَرَ رتابة يوم الجمعة ذاك.

سيارته المركونة تحت شجرة ليمون تحتضر بسبب دخان عوادم السيارات، كان لها تسجيل عابر للمناطق، عدا عن ملصق لشركة على

الزجاج الخلفي، إذ كان هذا هو الغطاء الذي يتخفّى خلفه مقر العملاء المقيمين هناك بالرغم من أنّ أحدًا لا يصدق هذا. كان ماكيلفور من قدامى السيرك، قصير وضخم، أشيب الشعر من يوركشير مع سجلّ طويل من المناصب الاستشاريّة التي لم تمنحه أيّ قيمة في هذا العالم. كانت باريس آخر محطاته. لم يكترث كثيرًا لباريس، وعرف من حياة ميدانية طويلة في الشرق الأقصى أنه لا يميل إلى الفرنسيين. ولكن كتمهيد للتقاعد، لم يكن ثمة خيار أفضل. كانت الأجور جيدة، والأوضاع مستقرة، وأقصى ما كان يُطلَب منه خلال عشرة أشهر هو تأمين أمور العميل العابر بباريس، ورسم علامة بالطبشور هنا أو هناك، والعمل كساعي بريد لحساب محطة لندن، أو تهيئة الأمور للعملاء الزائرين.

هذا ما كان عليه الأمر حتى الآن، وهو يجلس في سيارته ومسدس تار مصوّب نحو قفصه الصدري، ويد تار تستند برقة على كتفه اليمنى، مستعدًّا لانتزاع رأسه لو حاول التلاعب. على بعد عدة أقدام، كان ثمة فتيات مسرعات للحاق بالمترو، وعلى بعد ستةأقدام منهنّ كانت حركة المرور قد تجمّدت، وقد تبقى على هذا النحو ساعة كاملة. ولكن لم يكترث أحد لرؤية رجلين يدردشان في سيارة مركونة.

كان تار قد استلم دفة الحديث منذ جلس ماكيلفور. كان بحاجة إلى إيصال رسالة إلى أليلاين، كما قال. الرسالة شخصية، شفّرها بنفسك، وتار يريد من ستيف أن يشغّل الآلة بينما هو يصوّب المسدس نحوه.

تذمّر ماكيلفور، وهما يمشيان متجاورَين في طريقهما إلى المقر وقال: «ما الذي كنت تفعله بحق الجحيم يا ريكي؟، المؤسسة بأكملها تبحث عنك، تعرف ذلك صحيح؟ سيسلخون جلدك وأنت حي لو وجدوك. كان من المفترض أن ننفّذ بك أفعالًا شنيعة لو شاهدناك».

فكّر بالالتفات وتهشيم عنق تار، ولكنه يعرف عجزه عن السرعة اللازمة، عدا عن أنّ تار سيقتله حالًا.

سيتم إرسال الرسالة إلى مئتي مجموعة، قال تار، فيما كان ماكليفور يفتح الباب الأمامي ويشعل الأضواء. وبعد أن يقوم ماكليفور بإرسالها سيجلسان قرب الآلة بانتظار رد أليلاين. وعند الغد، لو كان حدس تار صحيحًا، سيأتي بيرسي إلى باريس بنفسه حالًا ليقابل ريكي. سيكون ذلك اللقاء في المقر أيضًا لأن تار خمّن أنّ من غير المرجح أن يُقْدِم الروس على قتله داخل شركة بريطانية.

«أنت مخبول يا ريكي. ليس الروس من يسعون إلى قتلك. بل نحن».

كانت الغرفة الأولى بمثابة غرفة استقبال، هذا كل ما تبقّى من التخفّي. كان فيها كاونتر خشب قديم وملاحظات للبريطانيين المقيمين انتهت صلاحيتها منذ زمن وبقيت معلقة على الجدار. هنا، بيده اليسرى، فتّش تار ماكليفور بحثًا عن سلاح، ولكنه لم يكن يحمل سلاحًا. كان منزلًا بفناء، وكانت معظم الأغراض الحساسة موزّعة في الفناء: غرفة الشفرة، الغرفة المحصّنة، المعدات.

حذّره ماكليفور برتابة بصوت رتيب، وهو يمشي بين مكتبين فارغين ويقرع جرس غرفة الشيفرة. « لقد فقدت عقلك يا ريكي، لطالما ظننتَ أنك نابوليون بونابرت ويبدو أنّ هذه الفكرة قد سيطرت عليك تمامًا. لقد اكتسبت الكثير من التديّن من والدك».

انفتح الباب الحديدي ليظهر عبر الكوّة وجه فتى مرتبك وأقرب إلى الغباء. فقال له ماكليفور: «بإمكانك الذهاب إلى المنزل يا بن. اذهب إلى زوجتك، ولكن ابقَ قريبًا من الهاتف في حال احتجت إليك، هناك زائر. اترك الكتب في مكانها، وضع المفاتيح في الآلات. سأراسل لندن بنفسي، وعلى مسؤوليتي».

اختفى الوجه وانتظرا إلى أن فتح الفتى الباب من الداخل: مفتاحان، وقفل كبير.

فسّر له ماكليفور وهما يعبران الباب: «هذا السيد من الشرق يا بن، إنه أحد أهم علاقاتنا».

كان بن فتى طويلًا يبدو أقرب إلى التوجّهات العلميّة بنظارته ونظرته الثابتة. ردّ: «مرحبًا يا سيدي».

«خذ راحتك يا بن. لن أخصم هذا الوقت من راتبك. ستأخذ أجور العطلة كاملة، ولن تدين لي بالوقت أيضًا. اذهب الآن».

قال تار: «بل يبقى بن هنا».

في سيرك كيمبردج كانت الإضاءة أقرب إلى اللون الأصفر، ومن حيث مكان وقوف مندل في الطابق الثالث من محل الألبسة، كان الأسفلت المبلّل يبرق كذهب رخيص. أوشك الوقت على منتصف الليل وكان واقفًا هناك منذ ثلاث ساعات. كان يقف بين ستارة شبكية وعلّاقة ملابس كبيرة. وقف كأي رجل شرطة موزّعًا ثقله على كلتا قدميه بالتساوي، الساقان منتصبتان، منحنيًا قليلًا نحو الخلف. كان قد خلع قبعته ورفع ياقته ليخفي وجهه عن الشارع، ولكن كانت عيناه اللتان تراقبان المدخل الأمامي في الأسفل تبرقان كعيني قطّ في الظلام. كان سينتظر ثلاث ساعات أخرى، أو ست ساعات حتى. كان مندل قد عاد إلى مضماره، وكانت رائحة الطريدة تعبق أنفه. وما زاد الأمر روعة هو أنه بقي، كما كان، طائرًا ليليًا؛ لذلك فإن ظلام غرفة القياس تلك قد أيقظه كليًا. وكان الضوء يصله من الشارع فيتشظى إلى بقع شاحبة على السقف. أما ما تبقّى، مقاعد قَصّ القماش، لفافات الأقمشة، الآلات المغطاة، المكواة البخارية، الصوَر الموقّعة من أمراء الساحة الغنائية، كلها كانت هناك على حالها كما رآها عند الظهيرة؛ لم يكن الضوء يصل إليها، بل إنه لا يستطيع تمييزها بوضوح.

من نافذته كان يغطّي معظم الزوايا: ثماني أو تسع طرق وأزقة كانت، من دون سبب محدّد، قد اختارت سيرك كيمبردج مصبًّا لها. بينها كانت الأبنية مبهرَجة، تحاول تغطية جميع جوانب الإمبراطورية: بنك روماني، مسرح ضخم يبدو كمسجد مهجور. وخلفهما، كانت الأبنية العالية تنتصب كجيش من الروبوتات. أما فوق، فكانت السماء ورديّة تمتلئ تدريجيًا بالضباب.

لِمَ كان الجو شديد الهدوء؟ تساءل. كان المسرح قد خلا منذ ساعات، ولكن لم لا تصله أصداء تجارة اللذة في سوهو، التي على مرمى حجر فحسب من نافذته، لتملأ المشهد بسيارات الأجرة والمتسكّعين؟ لم تعبر جادة شافتزبري أيّ شاحنة فاكهة في طريقها نحو كوفنت غاردن.

عبر منظاره، كان مندل قد تفحّص المبنى عبر الطريق. بدا غافيًا أكثر من جيرانه. كان البابان المزدوجان مغلقَيْن، وما من ضوء ظاهر في نوافذ الطابق الأرضي. فقط في الطابق الرابع، من النافذة الثانية من اليسار، كان ثمة ضوء شحيح، عرف مندل أنه من غرفة المناوبة؛ كان سمايلي قد أخبره بهذا. رفع المنظار نحو السقف للحظات، حيث كانت غابة من الهوائيات ترسم أشكالًا متوحّشة في السماء؛ ثم أنزله إلى أسفل ليراقب النوافذ المعتمة الأربع لمحطة الراديو.

كان غويلام قد أخبره: «ليلًا، الجميع يستخدمون الباب الأمامي. هذا إجراء اقتصادي لتخفيض عدد الحراس».

في تلك الساعات الثلاث، ثلاثة حوادث فقط استرعت انتباه مندل: حادثة كل ساعة، ليس كثيرًا. في الساعة التاسعة والنصف، أنزلت فورد زرقاء رجلَين يحملان ما بدا صندوق ذخيرة. فتحا الباب ثم أغلقاه بسرعة ما إن أصبحا في الداخل، فيما كان مندل ينقل الخبر عبر الهاتف. في الساعة العاشرة وصلت سيارة النقل: كان غويلام قد نبّهه إلى هذا أيضًا. كانت سيارة النقل تجمع المستندات من المحطات الخارجية وتخزّنها في السيرك خلال العطلة. كانت تمر ببركستون، آكتون، سارات، بهذا الترتيب،

قال غويلام، لتصل أخيرًا إلى الأميراليّة، ثم تصل إلى السيرك قرابة الساعة العاشرة. كانت قد وصلت في تمام الساعة العاشرة، حيث خرج رجلان من الداخل ليساعدا في تفريغ الحمولة؛ نقل مندل هذا الخبر أيضًا، فشكره سمايلي بهدوء.

هل كان سمايلي جالسًا؟ هل كان في الظلام مثل مندل؟ كان مندل يحدس أنه كذلك. من بين جميع الرجال الذين عرفهم، كان سمايلي هو الأقدم. قد تظن، حين تنظر إليه، أنه يعجز عن عبور الطريق لوحده، ولكنك ستبدو حينها كمن يعرض حمايةً على قنفذ. يا للغرابة، قال مندل. بعد حياة كاملة من مطاردة الأشرار، ما الذي انتهيت إليه؟ كسر وخلع، وانتظار في الظلام للتجسس على غرباء الأطوار. لم يكن قد تناغم مع أحد منهم قبل سمايلي. كان يعتبرهم مجموعة متنوّعة من الأغرار وطلاب الجامعة الذين لا يحترمون الأصول؛ ويعتبر أن أفضل ما بإمكان أحدهم فعله هو ترديد «نعم سيدي، لا سيدي». وعند التدقيق، بعد استثناء سمايلي وغويلام، هذا ما كان يفكر به الليلة بالضبط.

بعد الساعة الحادية عشرة بقليل، أي منذ ساعة، وصلت تاكسي. كانت لوحتها لندنية، واتجهت إلى المسرح. حتى هذا كان أمرًا نبّهه إليه سمايلي: كانت العادة المنتشرة بين رجال الخدمة هي أن لا يوقفوا التاكسي أمام وجهتهم مباشرة. كان البعض يقف عند فويلس، وبعضهم في شارع أولد كومبتون أو عند أحد المتاجر؛ كان لمعظم الناس وجهة تخفٍّ مفضلة، وكانت المفضلة عند أليلاين هي المسرح. لم يكن مندل قد رأى أليلاين من قبل، ولكن كان يحفظ توصيفهم له، وحين كان يراقبه عبر النافذة ميّزه مباشرة بلا شك، رجل ضخم يتحرك بتثاقل بمعطف غامق، كما انتبه إلى أن سائق التاكسي كان يتذمر من بقشيشه وصاح بكلمة وراءه حين كان أليلاين يبحث عن مفاتيحه.

لم يكن الباب الأمامي مؤمّنًا، كان غويلام قد شرح له، إنه مقفول فحسب. تبدأ إجراءات الأمن في الداخل حين تنعطف يسارًا عند نهاية

الممر. يعيش أليلاين في الطابق الخامس. لن ترى أضواء نافذته ولكن ضوء السماء والبريق سيتمكّن من التقاط طرف المدخنة. بكل تأكيد، كما لاحظ، ظهرت بقعة من الأصفر على قرميد المدخنة: دخل أليلاين إلى غرفته إذًا.

الفتى غويلام بحاجة إلى استراحة، فكر مندل. كان قد شهد هذا من قبل، أيضًا: الرجال الشديدون الذين يتصدّعون عند بلوغهم سن الأربعين. يتجاهلون الأمر، ويتظاهرون أنه لم يحدث، ويميلون إلى الناضجين الذين يتبيّن أنهم ليسوا ناضجين حقًا، ثم يومًا ما سيغمرهم هذا الإحساس، حين يسقط أبطالهم، فيجلسون إلى مكاتبهم لتسقط الدموع على السطح الزجاجي.

كان قد وضع السمّاعة على الأرض. رفعها وقال: «يبدو أن السمكري قد جاء».

أعطى رقم التاكسي، ثم عاد إلى انتظاره. تمتم سمايلي: «كيف بدا؟».

قال مندل: «بدا مشغولًا».

«ينبغي أن يكون كذلك».

هذا الرجل لن يتصدّع. برغم هذا، قرر مندل بيقين؛ إحدى أشجار السنديان الرخوة، هذا هو سمايلي. تظنّ أنك تستطيع تطييره بنفخة، ولكن حين تحل العاصفة سيكون هو الوحيد المتبقّي واقفًا بعد انتهائها. عند هذه اللحظة من تفكيره، جاءت تاكسي ثانية، إلى الباب الأمامي مباشرة، ليصعد رجل طويل بطيء الدرج بحذر، درجةً إثر أخرى، كرجلٍ يهتم بصحة قلبه.

تمتم مندل عبر الهاتف: «ها هو خيّاطك، انتظر، وها هو الجنديّ أيضًا. تجمّع ملائم لعصابة كما يبدو. رأيي أن تهدأ قليلًا».

مرسيدس 190 قديمة اندفعت من شارع إيرلهام، تحت نافذته مباشرة، وانعطفت بصعوبة عند الزاوية الشمالية من طريق تشارنغ كروس، حيث

توقفت. شاب قوي البنية ذو شعر بنّي نزل منها، صفق الباب وهرع عبر الشارع نحو المدخل من دون أن يسحب مفاتيحه من السيارة. وبعد لحظات، كان ثمة ضوء آخر في الطابق الرابع عندما انضمّ روي بلاند إلى الحفلة.

كل ما نريد أن نعرفه الآن هو مَنْ سيخرج، فكَّرَ مندل.

36

كانت لوك غاردنز، التي ربما أخذت اسمها من كامدن آند هامستد رود لوكس المجاور لها، مكوَّنةً من أربعة منازل من طراز القرن التاسع عشر بواجهة من أربع شقق مبنية في مركز شارع متعرج، يضم كل منها ثلاثة طوابق وقبو وقطعة أرض بمثابة حديقة تنحدر باتجاه قناة ريجنت. الأرقام من اثنين إلى خمسة: ربما كان رقم واحد قد انهار أو لم يُبنَ أساسًا. كان رقم خمسة يشكل النهاية الشمالية، وربما لم يكن ليكون خيارًا أفضل كمنزل آمن إذا إن هناك ثلاث طرق تؤدي إليه في مساحة ثلاثين ياردة، كما أن طرفَيْ القناة يشكّلان طريقَين آخرَين. إلى الشمال سنجد شارع كامدن هاي المزدحم؛ وجنوبًا وغربًا الحدائق وطريق بريمروز هِلْ. وكي تزيد روعة الموقع، لم يكن للحي هوية اجتماعية مميزة كما لم يكن يتطلب وجود هوية كهذه. إذ تحوَّلت بعض المنازل لتصبح شققًا من غرفة واحدة، بحيث كان هناك عشرة أجراس مصفوفة كأزرار آلة كاتبة. وبعضها كان يملك ما يكفي ليكون المنزل له بمفرده. كان رقم خمسة من شقتين: واحد لميلي ماك كريغ والأخرى للمستأجر السيد جيفرسون.

كانت السيدة ماك كريغ من مرتادي الكنيسة، كما كانت تلتقط كل التفاصيل المحيطة، ما جعلها - بالمصادفة -ممتازة لمراقبة السكان المحليين بالرغم من أنهم لم يكونوا يبادلونها هذا الاهتمام. جيفرسون،

المستأجر لديها، معروف على نحو طفيف بكونه أجنبيًا يعمل في مجال النفط وغالبًا ما يكون خارج المنزل. كانت لوك غاردنز مسكنه الثاني على ما يبدو. اعتبره الجيران، عندما كانوا يكلّفون أنفسهم لينظروا إليه، خجولًا ومحترَمًا. كانوا سيمتلكون الانطباع ذاته عن جورج سمايلي لو تصادَف ورأوه في الضوء الشحيح للشرفة عند الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم حيث كانت ميلي ماك كريغ قد سمحت له بالدخول، وأسدلت الستائر.

كانت ميلي أرملة اسكتلندية نحيلة مشدودة الجسد، بجوارب بنية وشعر معقوص والبشرة المتغضنة لعجوز. في ما يتعلق بالرب والسيرك، كانت قد أدارت مدارس إنجيلية في موازمبيق، وأشرفت على مهمة بخصوص بحّارة في هامبورغ، وبالرغم من كونها متنصّتة ممتازة محترفة لأكثر من عشرين عامًا، كانت لا تزال تتعامل مع جميع الرجال بوصفهم منتهكين للحرمات. كان سمايلي عاجزًا عن اكتشاف ما تفكر به، فقد كانت تميل، منذ لحظة وصوله، إلى الصمت المطبق؛ أرته غرف المنزل مثل آمر قلعة توفّي كل مَنْ فيها منذ زمن طويل.

أولًا، نصف القبو حيث كانت تعيش، المليء بالنباتات وعلب البطاقات البريدية القديمة، وطاولات بسطوح نحاسية، وأثاث أسود مغطًى بدا أنه يفضّل أن يكون بصحبة سيدات بريطانيات من عمر وطبقة محدَّدَتين. نعم، لو طلب منها السيرك ليلًا، سيتصلون بها على هاتف القبو. نعم، هناك خط منفصل في الطابق العلوي، ولكنه للمكالمات الخارجية فقط. أما وصلة هاتف القبو فموجودة في غرفة السفرة في الطابق العلوي. صعودًا إلى الطابق الأرضي، ستجد أنه يشبه ضريحًا حقيقيًا بسبب الذوق المترَف السيىء لمدبّري المنزل: أقمشة ريجنسي صارخة الألوان، كراسٍ مطليّة بلون ذهبيّ رخيص، صوفايات فاخرة مربوطة الزوايا. كان المطبخ قذرًا ويبدو أن أحدًا لم يدخله منذ زمن. وخلفه حمّام خارجيّ، نصفه للاستحمام، والنصف الآخر لحفظ الصحون، يطل على الحديقة والقناة. وعلى الأرض غسالة قديمة، وخزانان نحاسيان للمياه المعدنية.

كان سمايلي قد عاد إلى صالة الاستقبال، وسأل: «أين الميكروفونات يا ميلي؟».

إنها موجودة ضمن أزواج، تمتمت ميلي، مخفاة خلف ورق الجدران، زوجان في كل غرفة في الطابق الأرضي، وزوج في كل غرفة في الطابق العلوي. كل زوج موصول بمسجّل منفصل. تبعها وهي تصعد الدرج. كان الطابق العلويّ خاليًا من الأثاث، حيث كان بمثابة غرفة نوم في العلّية تضم إطارًا معدنيًا رماديًا مع ثماني آلات للأشرطة، أربع في الأعلى وأربع في الأسفل.

«وجيفرسون يعرف كل هذه التفاصيل؟».

قالت ميلي وهي تزمّ شفتيها: « السيد جيفرسون موجود هنا لأنه ثقة». كان هذا أقرب ما يمكن أن تقوله لتعبّر عن عدم رضاها بشأن سمايلي، وإخلاصها للأخلاق المسيحية.

في الأسفل مجددًا، أرته المقابس التي تتحكم بالمنظومة. والمقبس الإضافي داخل كل لوحة. إذا أراد جيفرسون أو أحد الفتيان، كما قالت، تشغيل التسجيل، كل ما عليه هو أن ينهض ويُنزل مقبس الضوء على اليسار. ومنذ تلك اللحظة سيعمل النظام على الصوت؛ أي، لن تتحرك إبرة الشريط ما لم يتحدث أحد.

«وأين تكونين خلال هذا يا ميلي؟».

كانت تبقى في الأسفل، كما قالت، كما لو أن هذا مكان مخصص للنساء.

كان سمايلي يفتح الخُزَن، والأدراج، ويتجوّل بين الغرف. ثم عاد إلى الحمام مرة أخرى وإطلالته على القناة. أخرج مصباحًا يدويًا من جيبه وأضاءه مرة واحدة باتجاه ظلمة الحديقة.

«ما هي إجراءات السلامة؟» سألها سمايلي، وأنزل مقبس الضوء اليساريّ في صالة الاستقبال.

أتت إجابتها برتاية كنَسية: «زجاجتا حليب ممتلئتان على عتبة الباب، بإمكانك الدخول فكل شيء على ما يرام. لا زجاجات، لا يمكنك الدخول».

من ناحية الباب جاء صوت قرع خافت. عاد سمايلي من الحمّام وفتح الباب المزجَّج، وبعد محادثة هامسة جاء برفقة غويلام.

«تعرفين بيتر، صحيح يا ميلي؟».

ربما كانت تعرفه ميلي، وربما لا. بكل الأحوال، اكتفت بتثبيت عينيها باشمئزاز عليه. كان يتفحَّص لوحة المقابس، وهو يبحث في جيبه.

«ما الذي يفعله؟ ليس مسموحًا فعل هذا. أوقفه».

لو كانت تشعر بالقلق، قال سمايلي، بإمكانها الاتصال بليكون من هاتف القبو. لم تتحرك ميلي ماك كريغ من مكانها، ولكنَّ بقعَتَين حمراوين غطتا وجنتيها، فيما كانت تفرقع أصابعها بغضب. بمفك صغير فك غويلام البراغي بحذر من جانبَيْ اللوحة البلاستيكية، ونظر إلى الأسلاك خلفها. والآن، وبكل حرص، قلب موضعَي السلكين في المقبس على اليسار، ثم أعاد تثبيت اللوحة في مكانها، تاركًا باقي المقابس على حالها.

«سنجربه»، قال غويلام، وعندما صعد سمايلي إلى الأعلى لتفقد شريط التسجيل، بدأ غويلام الغناء بنبرة خفيضة كصوت بول روبسون.

قال سمايلي وهو يرتجف نازلًا على الدرج: «شكرًا، هذا أكثر من كافٍ».

كانت ميلي قد ذهبت إلى القبو لتتصل بليكون. بهدوء، أعدَّ سمايلي المسرح. وضع الهاتف بجانب كنبة في صالة الاستقبال، ثم أفرغ خط تراجعه نحو الحمام. أحضر زجاجتَيْ حليب من البرّاد الصغير في المطبخ ووضعهما على عتبة الباب كإشارة، بحسب لغة ميلي ماك كريغ الكنَسيّة، إلى أن بإمكانك الدخول فكل شيء على ما يرام. خلع حذاءه وتركه في الحمام، وبعد أن أطفأ الأضواء، أخذ موقعه على الكنبة عندما اتّصل مندل.

عند القناة، في هذه الأثناء، كان غويلام قد تابع مراقبة المنزل. الحوض يُغلَق أمام العامة قبل ساعة من حلول الظلام: بعدها سيتحول إلى أي شيء آخر، من عشّ للعشاق إلى ملجأ للمتشرّدين؛ إذ إنّ كلًا منهم ينجذب إلى ظلام الجسر لأسباب مختلفة. في تلك الليلة الباردة، لم يكن هناك أحد. أحيانًا، كان يعبر قطار فارغ، تاركًا خواءً أكبر بعد مروره. كانت أعصابه مشدودة، وتوقّعاته متنوِّعة، إذ للحظة رأى كافة أحداث تلك الليلة بأشكال نبوئية: الإشارات على جسر سكة الحديد تحولت إلى مشانق، المخازن الفيكتورية تحوّلت إلى سجون ضخمة، وتقوّست نوافذها لتواجه السماء الغارقة في الضباب. وقريبًا منه، صوت الجرذان والرائحة المقرفة للمياه الآسنة. ثم انطفأت أضواء صالة الاستقبال؛ غرق المنزل في الظلام ما عدا البقع الصفراء على جانبَيْ قبو ميلي. ومن الحمّام لمَعَ ضوء صغير باتجاه الحديقة. أخرج مصباحًا صغيرًا من جيبه، جال بنظراته في الظلام باتجاه البقعة التي خرج منها الضوء، وأضاء مصباحه مرة واحدة ثم أطفأه. ابتداءً من هذه اللحظة، لم يعُد أمامهم سوى الانتظار.

قذف تار بالتلغراف الذي وصل إلى بن، مع ورقة الشفرة من الخزنة.

قال: «هيا فلتكن مستحقًا لراتبك. فك الشِفرة».

اعترض بن: «إنها رسالة شخصية لك انظر. «شخصي من أليلاين فك الشفرة بنفسك». ليس مخولًا لي لمسها. هذه هي الأوامر».

«افعل ما يقوله لك يا بن»، قال ماكليفور، وهو ينظر إلى تار.

لعشر دقائق لم يتبادل الرجال الثلاثة أي كلمة. كان تار يقف بعيدًا عنهما في الغرفة، شديد التوتر من الانتظار. وقد وضع المسدس على خصره. جاكيتته مرمية على الكرسي. والعرق قد أغرق قميصه وظهره تمامًا. وكان بن يستخدم مسطرة لتفكيك الأرقام، ثم يكتب الكلمات بحرص على ورقة أمامه. وكي يركز على نحو أكبر، وضع لسانه خلف

أسنانه، وقد أصدر فرقعة الآن حين سحبه. وضع قلمه جانبًا، ومد يده بالورقة باتجاه تار.

قال تار: «اقرأها بصوتٍ عالٍ».

كان صوت بل رقيقًا مع شيء من الحماسة: «شخصي إلى تار من أليلاين فكّ الشفرة بنفسك. أصرّ على طلب التوضيح و/أو نماذج من الوثائق قبل تلبية طلبك. المعلومات المهمة لحماية المؤسسة لا تناسب هذا. دعني أذكّرك بوضعك السيىء هنا قبل اختفائك المهين. أحثّك على نقل السر لماكليفور حالًا. أكرر حالًا. الزعيم».

لم يكن قد انتهى بن عندما بدأ تار الضحك بطريقة غريبة ومتحمسة. ثم صاح:

«هكذا تسير الأمور يا بيرسي! أجل كرر لا! هل تعلم لَم يماطل يا عزيزي بن؟ إنه يخطط لقتلي برصاصة من الخلف! هكذا تمكّن من فتاتي الروسية. إنه يعزف النغمة نفسها، هذا الوغد». كان يداعب شعر بن، ويصيح به، ويضحك. «أحذّرك يا بن: هناك أناس لعينون سيئون في هذه المهنة، لذا لا تثق بأيٍّ منهم، لقد نبّهتك، وإلا لن تكون قويًا!».

* * *

وحيدًا في ظلمة صالة الاستقبال كان سمايلي ينتظر أيضًا، جالسًا على أحد كراسي مدبّري المنزل غير المريحة، ورأسه ملتصقة على نحو غريب بسمّاعة الهاتف. أحيانًا كان يتمتم شيئًا فيرد مندل متمتمًا، بينما كانا يتشاركان الصمت معظم الوقت. كانت مشاعره مكبوتةً، بل أقرب إلى الكآبة. وكممثّل، كان يغمره إحساس باقتراب خيبة قبل رفع الستار، إحساس بانحدار أمور كبيرة إلى نهاية صغيرة تافهة؛ كما بدا الموت نفسه صغيرًا وتافهًا بالنسبة له بعد صراعات حياته. لم يكن يحسّ بالانتصار الذي عُرف به. كانت أفكاره، وغالبًا ما شعر بالخوف، تتعلق بالآخرين. لم يكن لديه نظريات أو أحكام محدَّدة. كان يتساءل ببساطة كيف يمكن لأي

شخص أن يتأثر؛ وشعر بالمسؤولية. فكَّر في جِمْ وسام وماكس وكوني وجيري ووسترباي، وتشظّت كل الولاءات الشخصية؛ وعلى نحو منفصل فكر في آن والاضطراب اليائس لحديثهما على الكورنيش؛ وتساءل ما إذا كان ثمة حب بين البشر لا يستند إلى نوع ما من خداع الذات؛ تمنى لو كان بإمكانه النهوض والانسحاب قبل أن يحدث ما حدث، ولكنه لم يستطع. كان قلقًا بشأن غويلام، مع شيءٍ من المشاعر الأبوية، وتساءل عن الكيفية التي سيستقبل بها الخيوط الأخيرة للرّشد. فكر مجددًا باليوم الذي دفن فيه كونترول. فكر بالخيانة وتساءل ما إذا كانت توجد خيانة غبيّة على نحو ما يكون هناك عنف غبيّ مثلًا. أقلقه إحساسه بكونه مفلسًا؛ وأنّ كل المبادئ الفكريّة والفلسفية التي التزم بها قد انهارت الآن كليًا بعد أن واجه الوضع البشري.

«أي شيء؟» سأل مندل عبر الهاتف.

قال مندل: «يشربون كأسًا، ويغنون «انظر إلى الغابة حين تبتل بالمطر».

«لم أسمع بهذه الأغنية من قبل».

ناقلًا الهاتف إلى أذنه اليسرى، أخرج المسدس من جيب معطفه الخلفيّ، حيث كان قد أفسد البطانة الحريريّة الممتازة. لقد اكتشف مكان مسمار الأمان، وللحظة قلّب فكرة أنه لم يعد يعرف كيف كان يعمل المسدس وكيف يتعطل. أخرج المخزن ثم أعاده، وتذكر فعل هذا مئات المرات في حياته على صهوة حصان، في المرعى الليلي في سارات أيام الحرب؛ تذكر الآن كيف أن عليك أن تطلق الرصاص دومًا بكلتا يديك، حيث إحداها لإمساك المسدس والأخرى لإمساك المخزن؛ وكيف كان هناك فولكلور في السيرك يتطلب وضع إصبع على طول البكرة فيما تطلق بالإصبع الأخرى. ولكن حين جرّب هذا شعر بالسخف، فتجاهل الأمر.

«سأتمشى قليلًا»، تمتم. وأجابه مندل «أوكي».

مبقيًا المسدس في يده عاد إلى الحمّام، منصتًا إلى أي صرير في ألواح

الأرض قد تخيفه، ولكن لا بد أن الأرض كانت إسمنتية تحت السجادة؛ كان يمكن أن يقفز من دون أن يُحدث اهتزازًا واحدًا. بمصباحه أرسل إشارتين، صمت، ثم إشارتين إضافيتين. مباشرةً، رد عليه غويلام بثلاث إشارات قصيرة.

«عدت مجددًا».

«حسنًا».

جلس يفكر بآن على نحو كئيب. يحلم بالحلم المستحيل. وضع المسدس في جيبه. ومن جانب القناة، سمع هدير محرِّك. تساءل: ليلًا؟ قوارب تبحر في الليل؟ لا بد أنها سيارة. ماذا لو كان لدى جيرالد إجراء طوارئ لا نعرف عنه شيئًا؟ اتصال من كابينة هاتف عموميّ إلى كابينة أخرى ثم توصيلة بسيارة؟ ماذا لو كان لدى بولياكوف مخبِر، أو مساعد لا تعرف كوني عنه شيئًا؟ كان يفكر بهذا أساسًا. صُمّم هذا النظام ليكون منيعًا، بحيث تتم فيه اللقاءات في جميع الظروف. بخصوص هذه المهنة، كارلا متحذلق.

وماذا عن إحساسه بأنه ملاحَق؟ ماذا عن هذا؟ ماذا عن الظل الذي لم يره، ولكنه أحس به فحسب، إلى أن أحسّ بأن ظهره سيحترق بسبب تحديقة مطارِدِه؛ لم ير شيئًا، ولم يسمع شيئًا، أحسّ فحسب. كان قد كبُرَ على عدم الاكتراث بالتحذير. صرير درج لم يصدر صريرًا من قبل؛ قرقعة نافذة عندما لا تكون ثمة رياح؛ السيارة بلوحة مختلفة الأرقام ولكن بالخدش ذاته على مصدّها؛ الوجه في المترو الذي تعلم بأنك رأيته من قبل: لسنوات كانت تلك إشارات عايشها كلها؛ أيّ واحدة منها كانت سببًا كافيًا للتحرك، تغيير المدينة، تبديل بطاقات الهوية. إذ في هذه المهنة لا مصادفات.

«أحدهم خرج»، قال مندل فجأة. «ألو؟».

«أنا هنا».

أحدهم خرج من السيرك، قال مندل. من الباب الأمامي ولكنه لم يستطع تمييزه. معطف مطر وقبعة. ضخم ويمشي بسرعة. لا بد أنه طلب تاكسي لتنتظره عند الباب، ثم ركبها مباشرة.

«إنه يتجه شمالًا، في طريقك».

نظر سمايلي إلى ساعته. أعطه عشر دقائق، فكّر. أعطه اثنتي عشرة دقيقة، إذ سيضطر للتوقف كي يتصل ببولياكوف. ثم فكر: لا تكن سخيفًا، لقد اتصل به من السيرك.

قال سمايلي: «سأغلق السماعة».

قال مندل: «بصحتك».

من مكانه، رأى غويلام ثلاث إشارات طويلة. الجاسوس في طريقه.

* * *

في الحمّام، تفقد سمايلي طريقه مجددًا، أزاح بعض الكراسي وربط خيطًا على الغسالة ليرشده لأنه لا يرى جيدًا في الظلام. كان الخيط يقود إلى باب المطبخ المفتوح، والمطبخ يُفضي إلى صالة الاستقبال وغرفة السفرة في آن، إذ كان البابان متجاورين. كان المطبخ عبارة عن غرفة طويلة، بل عمليًا كان ملحقًا بالمنزل قبل إضافة الحمام. كان قد فكّر باستخدام غرفة السفرة ولكنها كانت مجازفة كبيرة، عدا عن أنه لن يتمكن من إرسال إشارات لغويلام منها. لذا انتظر في الحمام، وهو يشعر بالغرابة لأنه حافي القدمين، منظّفًا نظارته لأن حرارة وجهه تتسبّب بتشكّل ضباب عليها. كان الجو أبرد في الحمام. كانت الصالة قريبة ودافئة أما الحمام ففيه تلك الجدران الخارجية، عدا عن الزجاج والأرضية الإسمنتية تحت السجاد، ما جعل قدميه رطبتين. سيصل الجاسوس أولًا، فكر، إذ هو المضيف: هذا هو البروتوكول، وهو جزء من التظاهر بأن بولياكوف هو عميل جيرالد.

التاكسي اللندنية قنبلة طائرة.

تشكّل المشهد في ذهنه ببطء، من أعماق ذاكرته اللاواعية. القرقعة وهي تقترب من الشارع المتعرّج، تكتكة العَدّاد مع انطفاء الصوت. القطع: أين توقفت، عند أي منزل، نحن جميعًا في الشارع ننتظر في الظلام، نزحف تحت الطاولات أو نتشبّث بقطع من الخيط، أي منزل؟ ثم انصفاق الباب، الاضطراب الأخير: لو كان بإمكانك سماعها، إذًا هي ليست موجَّهة نحوك.

ولكن سمايلي سمعها، وكانت موجّهة نحوه.

سمع وقع قدمَيْن على الحصى. رشيقًا وقويًا. توقفتا. إنه الباب الخاطئ، فكر سمايلي عبثًا، ارحل. كان المسدس في يده، وقد أنزل مسمار الأمان. كان لا يزال ينصت، من دون أن يسمع شيئًا. أنت شكّاك يا جيرالد، فَكّر. أنت جاسوس قديم، وبإمكانك الإحساس أن ثمة مشكلة ما. ميلي، فكر: ميلي أعادت زجاجتَيْ الحليب، لتحذّره، وتبعده. ثم سمع صوت القفل يدور، مرة، مرتين، إنه قفل من نوع بانهام، تذكر، يا إلهي، لا بد أن نبقي عمل بانهام مستمرًا. بالطبع: الجاسوس كان يبحث في جيوبه؛ باحثًا عن مفتاحه. أي شخص مرتبك كان سيُبقيه في يده، يداعبه، ويقلبه في جيبه طوال الطريق في التاكسي؛ ولكن ليس الجاسوس. قد يكون الجاسوس قلقًا، ولكن ليس مرتبكًا. في اللحظة ذاتها، مع دوران القفل، رن الجرس: ذوق مدبّري المنزل مرة أخرى، نغمة عالية، نغمة منخفضة، نغمة عالية. هذا يعني أنه واحد منا، كما قالت ميلي؛ أحد الفتيان، فتيانها، فتيان ميلي، فتيان كارلا. فُتح الباب الأمامي، دخل شخص إلى المنزل، سمع الحفيف على السجادة، سمع انغلاق الباب، سمع صوت مقابس الضوء ورأى خطًا شاحبًا من الضوء تحت باب المطبخ. وضع المسدس في جيبه، مسح راحة يده بمعطفه، ثم أخرجه مجددًا، وفي اللحظة نفسها سمع صوت قنبلة طائرة ثانية، تاكسي ثانية تتوقف، وخطوات سريعة: لم يكن المفتاح جاهزًا فحسب بانتظار بولياكوف، بل كانت أجرة التاكسي جاهزة أيضًا: هل يدفع الروس بقشيشًا، تساءل، أم أن البقشيش غير ديمقراطي؟

رن الجرس مجددًا، فُتح الباب الأمامي ثم أغلق، وسمع سمايلي الرنين المزدوج عندما وُضعت الزجاجتان على طاولة الصالة بدافع من حسن التنظيم وضوابط المهنة.

فليساعدني الرب، فكر سمايلي برعب عندما حدّق إلى البراد القديم بجانبه، لم يخطر في بالي أبدًا: ماذا لو أراد إرجاعهما إلى البراد؟

تزايد لمعان خط الضوء تحت باب المطبخ فجأة عندما أُشعلت مصابيح صالة الاستقبال. صمت غريب خيّم على المنزل. ممسكًا الخيط، اقترب سمايلي قليلًا على الأرض الباردة. ثم سمع أصواتًا. في البداية كانت غير واضحة. لا بد أنهما لا يزالان عند الطرف الأبعد من الصالة، فكر. أو ربما هما يبدآن الكلام دومًا بنبرة خفيضة. الآن اقترب بولياكوف: كان عند عربة المشروبات. كان يصب كأسًا.

«ما هي القصة الغطاء التي لدينا في حال حدوث مشكلة؟» سأل بإنكليزية جيدة.

صوت جميل، تذكر سمايلي، رخيم كصوتك، غالبًا ما اعتدتُ تشغيل الأشرطة مرتين لمجرد سماعه وهو يتحدث. كوني، يجب أن تسمعيه الآن.

من الطرف البعيد للغرفة، تصدر تمتمة تجيب عن كل سؤال. كان سمايلي عاجزًا عن فهمها. «أين نقطة التجمّع؟»، «ما هو الموقع الاحتياطي؟»، «هل ثمة مشكلة لديك تريد مني نقلها أثناء حديثنا، من دون أن تنسى أنني أتمتع بحصانة دبلوماسية؟»

لا بد أنها خلاصة أسئلة، فكر سمايلي، جزء من روتين مدرسة كارلا.

«هل المقبس إلى الأسفل؟ هل لك أن تتأكد لو سمحت؟ شكرًا. ماذا تَوَدّ أن تشرب؟».

قال هايدن: «ويسكي، كأس كبيرة جدًا».

بإحساس من عدم التصديق، أنصت سمايلي إلى صوت مألوف يقرأ بصوتٍ عالٍ التلغراف نفسه الذي كان سمايلي قد أملاه على تار قبل ثمانٍ وأربعين ساعة.

ثم للحظة، قسم من سمايلي تمرّد على القسم الآخر. موجة الشك الغاضب التي اجتاحته في حديقة ليكون، والتي كانت منذئذ تكبح تقدمه كأمواج مدٍّ هائلة، قذفته الآن إلى صخور اليأس، ثم إلى التمرّد: أنا أرفض. لا شيء يساوي تدمير إنسان آخر. في مكان ما، على درب الألم والخيانة أن ينتهي. وإلى أن يحدث هذا، ليس ثمة مستقبل: ليس هناك سوى انحدار مستمر نحو نسخ من الحاضر مرعبة على نحو أكبر بكثير. كان هذا الرجل صديقي وعشيق آن، وصديق جم، وعلى حد علمي هو عشيق جِمْ كذلك؛ إنها الخيانة، لا الإنسان، من تنتمي إلى المجال العام.

هايدن خان. كعاشق، كزميل، كصديق؛ كرجل وطني، كعضو من الجماعة النفيسة التي كانت تدعوها آن المجموعة: في كل المجالات، كان هايدن قد سعى إلى هدف واحد على نحو واضح، ليحقق عكسه على نحو سرّي. كان سمايلي يعرف جيدًا أنه حتى الآن لم يستوعب مدى تلك الازدواجيّة المرعبة؛ ومع ذلك، كان ثمة جزء منه قد برز مباشرة ليدافع عن هايدن. ألم تتم خيانة هايدن أيضًا؟ كانت لوعة كوني ترنّ في أذنيه: «يا للعشّاق المساكين. دُرّبوا من أجل الإمبراطوريّة، دُرّبوا ليتسيّدوا الأمواج ... أنت الأخير يا جورج، أنت وبِلْ». رأى بوضوح مؤلم رجلًا طموحًا وُلد لرسم اللوحة الكبيرة، نشأ ليتسيّد، فرّق تَسُد، حيث كانت جميع رؤاه وافتخاراته مكرَّسةً، كما بيرسي، على لعبة العالم؛ من كانت الحقيقة بالنسبة إليه جزيرة بائسة مع صوت خافت بالكاد يعبر الأمواج. ولذا، لم يشعر سمايلي بالقرف فحسب؛ بل، برغم كل ما كانت تعنيه تلك اللحظة له، بموجة من البغض تجاه جميع المؤسسات التي من المفترَض به حمايتها: «العقد الاجتماعيّ يعني الأمرَين معًا، كما تعلم»، قال ليكون.

كذب الوزير الصارخ، الرضا الأخلاقي الصامت عند ليكون، جشع بيرسي أليلاين البغيض: مثل هؤلاء الرجال أوْهنوا كل عقد: لِمَ على أيّ شخص أن يكون مخلصًا لهم؟

كان يعرف بالطبع. كان يعرف دومًا أنه بِلْ. كما كونترول كان قد عرف، وليكون في منزل مندل. كما كوني وجم كانا قد عرفا، وأليلاين وإيسترهيز، جميعهم تشاركوا ضمنيًا نصف الحقيقة غير المصرَّح بها. تلك الحقيقة التي، كأي مرض، كانوا يتمنون رحيلها إن لم تصب أحدًا، وإن لم يتم تشخيصها.

وآن؟ هل كانت آن تعرف؟ هل كان هذا هو الظل الذي خيّم عليهما ذلك اليوم على الكورنيش؟

لبرهة، هكذا كان يقف سمايلي: جاسوس حافٍ بَدين، كما كانت آن ستقول، مخدوع في الحب عاجز عن الكراهية، يمسك مسدسًا في يد، وقطعة خيط في الأخرى، أثناء انتظاره في الظلام. ثم تراجع على رؤوس أصابعه، مبقيًا المسدس في يده. تراجع إلى النافذة حيث أضاء المصباح بخمس إشارات قصيرة بتتابع سريع. وبعد أن انتظر ما يكفي كي تصل الإشارة، عاد إلى موقعه للإنصات.

اندفع غويلام عبر الدرب المفضي إلى القناة، قابضًا على المصباح بشدة، إلى أن بلغ جسرًا واطئًا ودرجًا حديديًا يصعد بخطٍّ متعرج إلى جادة غلوسيستر. كانت البوابة مغلقة لذا كان عليه تسلّقها وقد شمّر كمّه إلى مرفقه. كان ليكون واقفًا عند زاوية طريق برنسس، يرتدي معطفًا ريفيًا قديمًا ويحمل حقيبة.

همس غويلام: «إنه هناك. لقد وصل، جيرالد في قبضته».

حذَّرَه ليكون: «لا أريد مجزرة. أريد هدوءً تامًا».

لم يكلف غويلام نفسه عناء الرد. على بعد ثلاثين ياردة من الطريق كان مندل ينتظر في تاكسي. قادا لدقيقتين من دون أن يبتعدا، وأوقفا التاكسي بالقرب من الشارع المتعرج. كان غويلام يحمل مفتاح إيسترهيز. عندما وصلا المنزل رقم خمسة، قفز مندل وغويلام عن البوابة كيلا يخاطرا بإحداث صرير، والتزما خط العشب. عندما تحرَّكا، التفت غويلام إلى الخلف وظنّ للحظة أنه لمح شخصًا يراقبهما، بفعل ظل رسمه مدخل عند الطريق. لم يكن واثقًا ما إذا كان رجلًا أو امرأة؛ ولكن حين لفت انتباه مندل إلى البقعة، كان قد اختفى، فأمره مندل بقسوة أن يهدأ. كان ضوء المدخل مطفأً. مشى غويلام في المقدمة، وانتظر مندل تحت شجرة تفاح. أدخل غويلام المفتاح، وشعر بسلاسة القفل عندما أداره. أيها الأحمق اللعين، فكر بانتصار، لِمَ لم تُنزِل المزلاج؟ دفع الباب بمقدار بوصة وتردد. كان يتنفس ببطء، مالئًا رئتيه للمواجهة. تقدّم مندل مسافة أخرى. في الشارع، مرّ صبيّان وهما يضحكان بصوت عالٍ لأنهما كانا مضطربين من العتمة. مرة أخرى، التفت غويلام إلى الخلف ولكن الشارع كان خاليًا. خطا داخل البهو. كان يرتدي حذاء جلديًا أصدر صريرًا على الأرضية؛ لم تكن هناك سجادة. عند باب صالة الاستقبال أنصت بما يكفي كي يُدخله الغضب أخيرًا.

عميلاه المذبوحان في المغرب، ونفيه إلى بركستون، والانحدار اليومي لجهوده وهو يتقدم في السن، والفتوّة تنزلق من بين أصابعه؛ الكآبة التي كانت تطوّقه؛ تضاؤل قدرته على الحب، والمتعة، والضحك؛ التآكل المستمر للمعايير البطولية الواضحة التي كان يتمنى أن يعيش من أجلها؛ فترات التباطؤ والتوقف التي فرضها على نفسه باسم التصميم الخفيّ؛ كان بإمكانه قذفها جميعًا في وجه هايدن الهازئ. هايدن الذي كان يومًا كاهن اعترافاته؛ هايدن الرائع دومًا للضحك والدردشة واحتساء القهوة المحروقة؛ هايدن، القدوة التي بنى حياته عليها.

أكثر من ذلك، أكثر بكثير. الآن، حين رأى، حين عرف. هايدن كان أكثر من كونه قدوته، كان مصدر إلهامه، حامل المصباح في نمطٍ بعينه من الرومانتيكية المهجورة، نموذج النداء الإنكليزي الذي – للسبب ذاته الذي كان فيه غامضًا ومكبوتًا ومحيّرًا – كان قد أعطى مغزى لحياة غويلام حتى الآن. في تلك اللحظة، لم يشعر غويلام أنه قد تعرّض للخيانة فحسب؛ بل إنه تيتّم. شكوكه، كراهيته التي انعكست طويلًا على العالم الحقيقي – على نسائه، ومحاولات حبه – تحوّلت الآن إلى السيرك والسحر المُفلس الذي كان قد صاغ حياته. بأقصى قوته، فتح الباب واندفع إلى الداخل، والمسدس في يده. كان هايدن مع رجل ضخم بناصية شعر سوداء يجلسان متقابلَين إلى طاولة صغيرة. وكان بولياكوف – حيث عرفه غويلام من الصور – يدخّن غليونًا إنكليزيًا جدًا. ويرتدي سترة صوفية رمادية بسحّاب من الأمام، تبدو أشبه بالنصف العلويّ لبدلة رياضيّة. لم يكن قد أخرج الغليون من فمه عندما أمسك غويلام بهايدن من ياقته. بحركة واحدة رفعه من كرسيّه. كان قد رمى مسدسه وبدأ يحرّك هايدن من جانب إلى آخر، يهزّه ككلب، صارخًا. ثم فجأة بدا كل هذا بلا جدوى. إذ إنه بِل، في نهاية المطاف، وقد قاسيا الكثير معًا. كان غويلام قد تراجع أساسًا قبل أن يقبض مندل على ذراعه، وسمع سمايلي يقول بتهذيب كما لو كان يقدّم دعوة «بِل وكولونيل فكتوروف»، وهو يطلب منهما أن يرفعا أيديهما ويضعوهما على رأسيهما إلى حين وصول بيرسي أليلاين.

«لم تلاحظا أحدًا يتبعكما، أليس كذلك؟»، سأل سمايلي غويلام، أثناء انتظارهما.

«الجو هادئ كالقبر»، قال مندل، مجيبًا بالنيابة عنهما.

37

ثمة لحظات مكوَّنة من تفاصيل كثيرة جدًا بحيث يعجزون عن معايشتها كلها أثناء حدوثها. بالنسبة إلى غويلام وكل من كان حاضرًا، كانت تلك إحدى هذه اللحظات. إلهاء سمايلي المستمر ونظراته الحذرة المتكررة من النافذة؛ لا مبالاة هايدن، حالة السخط المتوقّعة لبولياكوف، ومطالبته بأن يُعامَل بوصفه عضوًا من البعثة الدبلوماسية - وهي مطالب كان يهدد غويلام من مكانه على الصوفا بتلبيتها بكل تهذيب - الوصول المرتبك لأليلاين وبلاند، الاحتجاجات الإضافية والرحلات المكوكية لسمايلي إلى الطابق العلوي لتشغيل التسجيلات، الصمت الطويل الكئيب الذي تلا عودتهم إلى صالة الاستقبال؛ وصول ليكون ثم فون وإيسترهيز أخيرًا، الخدمات الصامتة لميلي ماك كريغ في صب الشاي: جميع هذه الحوادث والأدوار التي جرت بعَبَث مسرحيّ، على نحو مشابه لرحلة آسكوت منذ قرن مضى، كُثِّفت بفعل عبث تلك الساعة من اليوم. وكان صحيحًا كذلك أنّ تلك الحوادث، التي تضمّنت مبكرًا تقييد بولياكوف، ومعاملته المسيئة تجاه فون متذرّعًا بأنه ضربه، يعلم الله أين، بالرغم من يقظة مندل، كانت مثل حبكة ثانوية تقابل غاية سمايلي الوحيدة في عقد الاجتماع: أن يُقْنع أليلاين بأن هايدن عرض على سمايلي فرصة للتعامل مع كارلا، لإنقاذ ما تبقّى من الشبكات التي خانها هايدن، على الأقل لإنقاذ أرواح من تبقّى لو تعذّرَ إبقاء عمل الشبكات على ما كان عليه. لم يكن

سمايلي مفوَّضًا لإجراء هذه الخطوات، كما لم يبدُ بأنه راغب بهذا؛ لعله خمّن بأنّ إيسترهيز وبلاند وأليلاين هم الأفضل، من بينهم جميعًا، لمعرفة العملاء الذين لا يزالون فعّالين نظريًا. كلما حدث أيّ شيء، كان يصعد إلى الأعلى، حيث سمعه غويلام في إحدى المرات وهو يذرع الغرف من دون توقف ليتابع مراقبته من النوافذ.

إذًا، فيما انسحب أليلاين ورجاله مع بولياكوف إلى غرفة السفرة للاتفاق على عملهم لوحدهم، ظلّ البقيّة جالسين بصمت في صالة الاستقبال، مكتفين إما بالنظر إلى هايدن، أو بإبعاد نظراتهم عنه عمدًا. بدا غير منتبه إلى وجودهم هناك. يده تحتضن ذقنه، جلس بعيدًا عنهم في زاوية، يراقبه فون، وقد بدا سئمًا. انتهى الاجتماع، فخرجوا جميعًا من غرفة السفرة وأعلن أليلاين لليكون الذي أصرّ على عدم تواجده في النقاشات، الاتفاق على موعد بعد ثلاثة أيام في هذا المنزل، ليتسنّى خلال هذا الوقت «للكولونيل أن يتشاور مع رؤسائه». أومأ ليكون موافقًا. بدا الأمر وكأنه اجتماع مجلس إدارة.

كانت المغادرات أكثر غرابة من الوصول. بين إيسترهيز وبولياكوف بالذات، كان ثمة وداع مؤثر على نحو غامض. بدا إيسترهيز، الذي كان يبدو دومًا وكأنه يصلح لأن يكون جنتلمانًا أكثر من كونه جاسوسًا، مصمّمًا على جعلها مناسبة راقية، فمدّ يده، ولكنّ بولياكوف أبعدها بفظاظة. تلفّت إيسترهيز حوله باحثًا عن سمايلي، ربما على أمل تملّقه على نحو أكبر، ثم رفع كتفيه ووضع ذراعه على كتف بلاند العريضة. بعدها بقليل، غادرا معًا. لم يودّعا أحدًا، ولكن بدا بلاند مصدومًا بشدة فيما إيسترهيز يواسيه، بالرغم من أن مستقبله – في تلك اللحظة – لا يبدو ورديًا. وبعدها بقليل، وصلت تاكسي لتوصيل بولياكوف الذي غادر أيضًا من دون أن يومئ برأسه لأحد. الآن، كان الحديث قد مات كليًا؛ فمن دون حضور الروسيّ، بدا المشهد مخنوقًا على نحو بائس. بقي هايدن على وضعيته السيئة، يراقبه كل من فون ومندل، فيما كان ليكون وأليلاين يحدّقان به بحَرَج صامت.

أجريت اتصالات أخرى، معظمها من أجل حجز سيارات. في لحظة ما، عاد سمايلي من الطابق العلويّ وذكر تار. اتصل أليلاين بالسيرك وأملى تلغرافًا إلى باريس يقول فيه إن بإمكانه العودة إلى إنكلترا معزّزًا مكرّمًا، أيًا يكن معنى هذا؛ ثم اتصل بماكليفور ليُعلمه بأن تار شخص مرحّب به، وهي عبارة بدت لغويلام وكأنها حمّالة أوجه.

أخيرًا، عَمّ الارتياح الجميع عندما وصلت سيارة فان من دون نوافذ من الحضانة، وخرج رجلان لم يرهما غويلام من قبل، الأول طويل أعرج، والآخر ممتلئ الجسم فاتح الشعر. بارتعاشة، أدرك أنهما محققان. أحضر فون معطف هايدن من البهو، وفتّش الجيوب، ثم ساعده على ارتدائه باحترام. هنا، تدخّل سمايلي بلطف وأصرّ على أن إخراج هايدن من الباب الأمامي إلى الفان يجب أن يتم بعد إطفاء ضوء البهو، وأن يكون عدد مرافقيه كبيرًا. غويلام، وفون، بل وحتى أليلاين وُضعوا في الخدمة، وأخيرًا، مع هايدن في الوسط، تحركت المجموعة المختلطة بأسرها عبر الحديقة باتجاه الفان.

«هذا مجرد إجراء احتياطيّ»، قال سمايلي. ولم يكن أحد ميالًا لمناقشته. صعد هايدن، ثم تبعه المحققان، وأغلقا الباب من الداخل. وبعد قفل الأبواب، رفع هايدن يده بإيماءة لطيفة بدت أشبه بحركة طرد موجّهة إلى أليلاين.

إذًا، بعد انتهاء كل هذا، بدأت التفاصيل المنفردة تعود إلى غويلام، والأشخاص المنفردون يقفزون إلى ذاكرته؛ الكراهية الشديدة، مثلًا، الموجّهة من بولياكوف إلى كل من كان حاضرًا من المسكينة ميلي ماك كريغ وصعودًا، وقد أزعجته تلك الحركة كثيرًا: كان فمه قد تكوّر بحركة دنيئة، ثم شحب لونه وبدأ بالارتعاش، لا بسبب الخوف أو الغضب. كانت كراهية صافية، من النمط الذي كان غويلام عاجزًا عن توجيهه إلى هايدن، ولكن – في نهاية المطاف – كان هايدن منهم وفيهم.

بما يخص أليلاين، في لحظة هزيمته، اكتشف غويلام شعورًا متسلّلاً

من الاحترام: كان أليلاين قد أظهر شيئًا من قدرة الاحتمال على الأقل. ولكن لاحقًا لم يعد غويلام واثقًا ما إذا كان بيرسي قد أدرك، عند عرض الوقائع للمرة الأولى، ماهيّة الوقائع فعلًا: في نهاية الأمر، لا يزال هو الرئيس، ولا يزال هايدن بمثابة إياغو [في مسرحيّة عُطيل].

ولكن الأمر الأغرب بالنسبة إلى غويلام، الفكرة التي احتفظ بها وقلّبها كثيرًا وتأملها بعمق أكبر مما اعتاد عليه كانت أنه، بالرغم من الغضب الشديد الذي انتابه لحظة اقتحامه الغرفة، كان الأمر يتطلب فعلَ إرادةٍ من جانبه، بل فعلٌ عنيفٌ، للتعامل مع بل هايدن بشعور أكبر بكثير من مجرد العاطفة. ربما، كما كان بِل سيقول، كان قد نضج أخيرًا. ولكي يكتمل الأمر، في المساء ذاته، صعد الدرج المفضي إلى شقته وسمع النغمات المألوفة لفلوت كاميلا تصدح في بهو المبنى. ولو كانت كاميلا قد فقدت شيئًا من غموضها تلك الليلة، فقد نجح هو، على الأقل، صباحًا في تحريرها من أعباء الخيانة التي أسبغها عليها من قبل.

وبطرق أخرى كذلك، خلال الأيام القليلة التالية، أصبحت حياته أكثر إشراقًا. صُرف بيرسي أليلاين من العمل في إجازة مفتوحة؛ طُلب من سمايلي العودة لبعض الوقت كي يساعد في تنظيم ما تبقّى من أمور. أما بخصوص غويلام، فقد كان ثمة أقاويل بشأن إعادته من بركستون. ولم يُعرف إلا بعد ذلك بوقت طويل، طويل جدًا، بوجود مشهد أخير؛ فقد حُدِّد اسم وهدفٌ لذلك الظل المألوف الذي كان يلاحق سمايلي في شوارع كنغستون ليلًا.

38

في اليومين التاليين عاش جورج سمايلي في حالة من اللايقين. بالنسبة إلى جيرانه، عندما كانوا ينتبهون إليه، بدا وكأنه غرق في كآبة مضنية. كان يستيقظ متأخرًا ويتجوَّل في المنزل بثياب النوم، ينظّف الأشياء، ويمسح الغبار، ويطبخ لنفسه من دون أن يأكل. في الظهيرة، مخالفًا القانون الداخلي المتعارف عليه، كان يُشعل فحمًا ويجلس قربه يقرأ شعراءه الألمان المفضلين أو يكتب رسائل لأن نادرًا ما يكملها. ولا يرسلها أبدًا. عندما كان يرن الهاتف، كان يهرع راكضًا، ليخيب أمله مجددًا. خارج النافذة، كان الجو لا يزال سيئًا، وكان العابرون – الذين يتفحَّصهم سمايلي باستمرار – يمشون بسرعة وقد بدا عليهم البؤس. اتصل ليكون به مرة بطلب من الوزير كي يكون سمايلي «على استعداد للمساعدة في تنظيف فوضى سيرك كيمبردج، حيث سيتم إرساله إلى هناك» – أي عمليًا، أن يعمل مراقبًا موقتًا ريثما يجدون بديلًا لبيرسي أليلاين. مجيبًا بغموض، عمل سمايلي على إقناع ليكون بصعوبة كي يبذلوا رعاية كاملة للتأكد من سلامة هايدن في سارات.

قال ليكون: «ألا تتصرف بشيء من الدراما؟ المكان الوحيد الذي يمكن له التوجه إليه هو روسيا، وسنرسله إلى هناك بكل الأحوال».

«متى؟ هل قريبًا؟».

ستأخذ التفاصيل عدّة أيام كي يتم ترتيبها. كان سمايلي، وهو في حاله البائسة تلك، يشمئزّ من الاستفسار عن عملية الاستجواب في هذه الأثناء، ولكن نبرة ليكون كانت تشير إلى أن الإجابة هي «على نحو سيىء». أحضر له مندل طعامًا أفضل.

قال: «محطة قطار إمنغهام مغلقة، عليك أن تنزل عند غرمبسي ثم تقطعها، أو تستقل الحافلة».

أكثر الأحيان كان مندل يكتفي بالجلوس ومراقبته، كما يفعل المرء مع المريض.

«الانتظار لن يرغمها على المجيء، كما تعلم»، قال مرة. «مضى الزمن الذي كان فيه الجبل يتحرك نحو النبيّ. لم يفز القلب الضعيف بامرأة أبدًا، لو كان لي أن أقول هذا».

في صباح اليوم الثالث، رن جرس الباب فاندفع سمايلي لفتحه على أمل أن تكون آن، وقد نسيت مفتاحها كالمعتاد. لكنه ليكون. «سمايلي مطلوب في سارات»، قال؛ أصرّ هايدن على مقابلته. لم يصل المحققون إلى نتيجة وكان الوقت ينفد. وقد كان التفاهم ينصّ على أن سمايلي سيكون بمثابة كاهن اعتراف، وسيبوح هايدن ببعض التفاصيل عن نفسه.

«لقد أكّدوا لي أن هذا تم من دون ضغط»، قال ليكون.

كانت سارات مكانًا بائسًا مقارنةً بالجلال الذي يتذكره سمايلي. معظم أشجار الدردار ماتت بفعل مرَضٍ ما؛ تكاثرت أبراج الحراسة على ملعب الكريكت. المنزل نفسه، الذي كان قصرًا رائعًا من القرميد، تشوّه كثيرًا في أوج الحرب الباردة في أوروبا، وبدا أنّ معظم الأثاث الفاخر قد اختفى، وافترض بأنه رُحّل إلى أحد بيوت أليلاين. وجد هايدن في كوخ من الصفيح مخفيّ بين الأشجار.

في الداخل، كانت الرائحة تشبه الرائحة الشنيعة للمحرس العسكري، حيث كانت الجدران مطلية بالأسود، مع نوافذ عالية بقضبان سميكة. كان

الحرّاس قد حصّنوا الغرف على الجانبين، واستقبلوا سمايلي باحترام، فكانوا ينادونه «سيدي». يبدو أن تلك الكلمة كانت منتشرة هناك. كان هايدن يرتدي ملابس قطنية، وكان يرتعش ويشتكي من الدوار. وقد اضطر عدة مرات للاستلقاء في سريره ليوقف رعاف أنفه: كانت لحيته قد نمت قليلًا: من الواضح أن نزاعًا قد اندلع بشأن ما إذا كان يُسمَح له باستخدام شفرة الحلاقة.

قال سمايلي: «ابتهِج، ستخرج من هنا قريبًا».

كان قد حاول، طوال الطريق، تذكر بريدو، وإيرينا، والشبكتين التشيكيتين، بل دخل غرفة هايدن بدافع بدا على نحو غامض أشبه بواجب رسمي على نحو ما، فكّر، كان عليه أن يقرّعه بالنيابة عن جميع المخلصين. ولكنه شعر بالخجل بدلًا من ذلك؛ أحسّ بأنه لم يعرف هايدن على الإطلاق، وقد فات الأوان الآن. كما كان غاضبًا بسبب هيئة هايدن البائسة، ولكن حين سأل الحرّاس أظهروا ارتباكًا وحيرة. بل ازداد غضبه حين عرف أنّ إجراءات الأمن الإضافية التي أصرّ عليها اختفت مع نهاية اليوم الأول. وعندما طلب رؤية كرادوكس، مدير الحضانة، لم يكن كرادوكس موجودًا، ولم ينطق نائبه بأيّ كلمة.

كانت محادثتهما الأولى متلعثمة وجافة.

هل يتفضل سمايلي بإيصال الرسالة إلى جماعته، ويخبر أليلاين أن يسرّع عملية التبادل مع كارلا؟ كان هايدن بحاجة إلى مناديل، مناديل ورقية لأنفه. وعادة البكاء التي تنتابه، كما فسَّر ، ليست بفعل الندم أو الألم، بل إنها رد فعل جسديّ لما سمّاه تفاهة المحققين الذين كانوا يظنّون أن هايدن كان يعرف أسماء مجنّدي كارلا الآخرين، وكانوا مصمّمين على معرفتها قبل مغادرته. كما كان ثمة اعتقاد سائد أنّ فانشاو، وهو من متعصّبي الكنيسة اليسوعية كان يعمل ملتقط مواهب لمركز موسكو علاوة على عمله المماثل للسيرك. قال هايدن: «حقيقةً، ما الذي بوسع المرء فعله مع حمير كهؤلاء؟» وتمكّن، برغم ضعفه، من الإشارة إلى أنه وحده الذكي هنا.

مشيا في أراضي الحضانة، وتأكد سمايلي - بشعور أقرب إلى اليأس - أن المحيط لم يعد محروسًا كما ينبغي، ليلًا أو نهارًا على حد سواء. بعد دورة واحدة، طلب هايدن العودة إلى الكوخ، حيث نبش لوحًا صغيرًا وأخرج عدة أوراق مليئة بكتابة هيروغليفية. تلك الأوراق ذكّرت سمايلي - رغمًا عنه - بمفكّرة إيرينا. جلس على السرير وبدأ يتأملها، وفي تلك الوضعية، في هذا الضوء الشحيح، مع ناصية شعره المنسدلة على الأوراق، ربما كان يحنّ إلى غرفة كونترول، أيام الستينات، مقترحًا بعض الحِيَل المعقولة على نحو رائع، ولكن غير القابلة للتنفيذ، من أجل مجد إنكلترا العظيم. لم يكلّف سمايلي نفسه عبء كتابة أي شيء، إذ بدا من الواضح أن محادثتهما مسجّلة بجميع الأحوال. بدأت التصريح بدفاع طويل، استعاد منه عدة جمل في ما بعد:

«نعيش في عصر حيث المسائل الجوهريّة هي المهمة فحسب ...».

«لم تعد الولايات المتحدة قادرة على المضيّ في ثورتها ...».

«لم يعد الوضع السياسي للمملكة المتحدة في موقع مؤثّر أو يتمتّع بحيوية أخلاقيّة في المسائل الدوليّة ...».

كان سمايلي سيتفق - في ظروف مختلفة - مع كثير من النقاط المذكورة: كانت النبرة هي ما نفّره ، أكثر من الإيقاع.

«في أميركا الرأسمالية يُمارَس الاضطهاد الاقتصاديّ على الجماهير بشكل مؤسساتيّ إلى درجةٍ لم يكن حتى لينين ليتوقّعها.

«بدأت الحرب الباردة عام 1917 ولكن الصراعات الأقسى أمامنا، حيث بارانويا أميركا المحتضرة تدفعها إلى ممارسة أفعال متطرّفة شنيعة في الخارج ...».

لم يكن يتحدث عن أفول الغرب، بل عن موته بفعل الجشع والهيمنة. كان يكره أميركا من أعماقه، كما قال، وكان سمايلي يتوقع هذا. كما سلّم هايدن بأنّ الاستخبارات هي المعيار الحقيقيّ الوحيد على الحيوية السياسية لأمّة ما، التعبير الحقيقيّ الوحيد عن وعيها الباطن.

أخيرًا، وصل إلى قضيته. في أوكسفورد، كان متيّمًا باليمين، وفي الحرب، لم تكن مواقف المرء ذات أهمية كبرى طالما أنّه يحارب الألمان. لفترة، بعد عام خمسة وأربعين، كما قال، بقي راضيًا بدور بريطانيا في العالم، إلى أن اكتشف تدريجيًا ضآلة هذا الدور. كيف ومتى، هذا كان لغزًا. في التشوّه التاريخيّ لحياته كان عاجزًا عن الإشارة إلى مناسبة بعينها: كان يعلم – ببساطة – أنّه لو خرجت إنكلترا من اللعبة، فإنّ الفوز لن يتم دفعه بعملة الفارذنغ البريطانية. وغالبًا ما كان يتساءل عن الجانب الذي سيناصره في حال جاء يوم الاختبار؛ وبعد تفكير متروٍّ قرر الاعتراف أخيرًا بأنه في حال كان يجب على طرفٍ ما أن ينتصر، سيفضّل أن يكون هذا الطرف هو الشرق.

فسّر بعد أن رفع رأسه: « إنه حُكم جماليّ كأي شيء آخر، جزءٌ منه أخلاقيّ طبعًا».

«بالطبع»، قال سمايلي بتهذيب.

منذ تلك اللحظة، كما قال، كانت مسألة وقت قبل أن يضع جهوده حيث تكون قناعاته.

كان هذا هو اليوم الأول للصيد. تشكّلت ترسّبات بيضاء على شفتَيْ هايدن، كما عاود البكاء مجددًا. واتفقا على اللقاء في الموعد نفسه من اليوم التالي.

قال سمايلي قبل أن يغادر: «سيكون من الأفضل الدخول في التفاصيل قليلًا لو استطعنا يا بل».

كان مسلتقيًا على السرير، يُريح أنفه مجددًا. فقال: «أوه اسمع، أخبر جان لو سمحت، لا يهم قولك، ما دمت لم تجعله قولًا فصلًا». ثم نهض وحرّر شيكًا ووضعه في مغلّف بني. «أعطها هذا من أجل فاتورة الحليب».

ولعله أدرك أن سمايلي لم يفهم هذه العبارة، أضاف: «حسنًا، لا يمكنني أن آخذها معي، صحيح؟ حتى لو سمحوا لها بالقدوم، ستكون عبئًا ثقيلًا».

في المساء ذاته، متتبعًا إرشادات هايدن، استقل سمايلي المترو إلى كنتش تاون، وبحث عن بيت صغير في شارع خلفي. فتحت فتاة شقراء ترتدي الجينز الباب له؛ كان ثمة رائحة ألوان زيتية وطفل. لم يعد يتذكر ما إذا كان قد التقى بها في بايووتر، لذا بدأ حديثه: «أنا من طرف بِلْ هايدن. إنه بخير ولكن أحمل عدة رسائل منه».

قالت الفتاة بنعومة: «يا إلهي! في الوقت المحدد».

كانت غرفة الجلوس وسخة. ورأى عبر باب المطبخ كومة من الأواني الفخارية فأدرك بأنها كانت تستخدم جميع الأواني إلى أن تنتهي، ثم تغسلها دفعة واحدة. كانت ألواح الأرضية خالية ما عدا رسومات طويلة لأفاعٍ وأزهار وحشرات.

بدأت الحديث: «هذا مثل سقف ميكيل أنجلو، الفارق الوحيد هو أنه لن يحصل على ظهر ميكيل أنجلو العليل». ثم وهي تشعل سيجارة، سألته: «هل أنت من الحكومة؟ فهو يعمل لحساب الحكومة، كما أخبرني». كانت يدها ترتعش، وكانت ثمة لطخات صفراء تحت عينيها.

«أوه اسمعي، بدايةً لا بد أن أعطيك هذا»، قال سمايلي وهو يمدّ يده إلى جيب داخلي. ثم أعطاها المغلّف مع الشيك.

قالت الفتاة: «خبز». ثم وضعت المغلّف إلى جانبها.

«خبز»، قال سمايلي، وهو يردّ بابتسامة، ولعل شيئًا ما في ملامح وجهه، أو النبرة التي نطق بها هذه الكلمة الوحيدة، جعلها تأخذ المغلّف وتفتحه. لم تكن فيه رسالة، بل الشيك فقط، ولكن كان الشيك يكفي: حتى من مكان جلوس سمايلي كان بوسعه رؤية الخانات الأربع للرقم المكتوب.

من دون أن تعلم ما تفعله تمامًا، مشت عبر الغرفة إلى المدفأة، ووضعت الشيك مع فواتير الخضار في علبة صفيح قديمة على رفّ المدفأة. ثم ذهبت إلى المطبخ وحضّرت كوبَيْ نسكافيه، ولكنها أحضرت واحدًا فقط.

«أين هو؟» قالت. ووقفت تواجهه. «لعله يطارد ذلك الفتى البحّار الشرير مجددًا. صحيح؟ وهذه هي المكافأة، صحيح؟ هل لك أن تنقل على لساني ...».

كان سمايلي قد شهد مواقف مماثلة من قبل، والآن ها هو يردّد الكلمات القديمة مجددًا.

«بل ينفّذ مهمة للبلاد. وأخشى أنني لا أستطيع الإفصاح عنها، وهذا ما يتوجّب عليكِ أنت أيضًا. منذ عدة أيام سافر إلى الخارج في مهمة سرّية. وسيبقى هناك لفترة. ربما سنوات. لم يُسمَح له بإخبار أحد عن رحيله. يريد منك أن تنسيه. أنا شديد الأسف حقًا».

كان قد وصل إلى هذا الحد قبل أن تنفجر. لم يسمع كل ما قالته، لأنها كانت تنشج وتصرخ، وحين سمعها الطفل في الطابق العلويّ بدأ الصراخ أيضًا. كانت تشتم، لم تكن الشتائم موجّهة له، ولا حتى لبِلْ تحديدًا، كانت تشتم فحسب متسائلة مَنْ بحق الجحيم اللعين لا يزال يؤمن بالحكومة؟ ثم هدأت فجأة. على الجدران، انتبه سمايلي إلى لوحات بل الأخرى التي كانت مرسومة في معظمها: قليل منها كانت مكتملة، ولكنها كانت خانقة ويائسة مقارنةً بأعماله الأولى.

قالت: «أنت لا تحبه، أليس كذلك؟ لاحظت هذا. إذًا لِمَ تقوم بعمله القذر بالنيابة عنه؟».

لكن بالنسبة إلى هذا السؤال، لم يبدُ أنّ هناك إجابة مباشرة. في طريق عودته إلى بايووتر، شعر مجددًا أنّ ثمة من يلاحقه، فحاول الاتصال بمندل ليسأله عن رقم تاكسي رآه مرتين، ويبدأ اتصالاته مباشرة. للمرة الأولى، كان مندل خارج المنزل إلى ما بعد منتصف الليل: كان نوم سمايلي متقطعًا واستيقظ منذ الساعة الخامسة. وعند الثامنة كان قد عاد إلى سارات، ليجد هايدن في مزاج مَرِح. لم يزعجه المحققون، كما أخبره كرادوكس أنّ صفقة التبادل قد تمت الموافقة عليها وأنه سيسافر غدًا أو بعد غد. كانت طلباته

ذات طابع وداعيّ؛ رصيد راتبه وعائدات أي صفقات بيع غريبة تتم باسمه يجب أن تُحوَّل إليه عن طريق بنك موسكو نارودني، والذي سيتكفّل بمسائل بريده أيضًا. لدى غاليري أرنولفيني عدة لوحات له، بما فيها أعمال قديمة بالألوان المائية لدمشق كان يحنّ إليها. هل بإمكان سمايلي ترتيب الأمور؟ ثم، بشأن القصة الغطاء بخصوص اختفائه.

نصحَه: «العبها حتى الرمق الأخير. قل إنني نُقلت، وابق غامضًا، انتظر عدة سنوات ثم أعلن موتي ...».

ردّ سمايلي: «أوه أظن أننا سنجد حلًا ما، شكرًا».

وللمرة الأولى منذ عرفه، كان هايدن قلقًا بشأن ملابسه. كان يريد أن يصل بحيث يبدو شخصًا ذا قيمة، كما قال: الانطباعات الأولى شديدة الأهمية. «خياطو موسكو مريعون. يُلبسونك بحيث تبدو أشبه بشمّاس لعين».

«صحيح»، قال سمايلي الذي لم يكن رأيه عن خيّاطي لندن أفضل.

أوه، كما أن هناك فتى، أضاف بلا مبالاة، صديق بحار يعيش في نوتنغ هل. «من الأفضل أن تعطوه مئتي جنيه أو أكثر قليلًا لتخرِسوه. هل يمكن أن تفعل هذا من صندوق الزواحف؟».

«هذا مؤكّد».

دوّن عنوانًا. وبالروح ذاتها من الصداقة، دخل هايدن إلى ما سمّاها سمايلي التفاصيل.

رفض مناقشة أيّ جزء من عملية تجنيده أو علاقته المديدة بكارلا. «مديدة؟» كرر سمايلي بسرعة. «متى التقيتما؟». حديث البارحة بدا فجأة هراءً، ولكن هايدن لم يوضح أكثر.

منذ عام ألف وتسعمائة وخمسين فصاعدًا، لو تم تصديقه، كان هايدن يمنح كارلا هدايا منتقاة من المعلومات الاستخباراتية. كانت الجهود

الأولى تلك مكرَّسةً لما تمنّاه بشأن تقدّم القضيّة الروسيّة على الأميركية؛ كان «شديد الحرص على أن لا يعطيهم أيّ شيء قد يضرّنا» كما قال، أو يسبّب ضررًا لعملائنا الميدانيين.

وأقنعته مغامرة السويس عام ستة وخمسين أخيرًا بتفاهة الوضع البريطاني، وإصرار الأمبراطورية البريطانية على التربّع على قمّة التاريخ فيما هي ليست قادرة على منح أي شيء. وقد كان مشهد الأميركيين وهم يخرّبون العمل البريطانيّ في مصر، محفزًّا آخر. يمكن له القول إنه منذ عام ستة وخمسين أصبح جاسوسًا ملتزمًا للسوفيات على نحو كامل. عام واحد وستين أصبح مواطنًا سوفياتيًا بشكل رسمي، ومُنح خلال السنوات العشر التالية وسامَيْن سوفياتيين – لم يحددهما، ولكه قال إنهما كانا من «الدرجة العالية». لسوء الحظ، تسبّبت تنقلاته في الخارج خلال تلك الفترة في إضعاف حرية دخوله إلى الوثائق؛ وبما أنه أصرّ على وجوب التصرف وفقًا لمعلوماته كلما كان هذا ممكنًا – «بدلًا من أن يتم تحويلها إلى أرشيف سوفياتي مهترئ» – كان عمله خطيرًا علاوة على كونه متقطّعًا. ومع عودته إلى لندن، قام كارلا بإرسال بولي إليه (من الواضح أن هذا هو الاسم المتعارف عليه لبولياكوف) ليكون مساعدًا له، ولكن هايدن أدرك صعوبة الحفاظ على الضغط المستمر للقاءات السرية، بخاصة ما يتعلق بكمية الوثائق التي كان يصوّرها.

رفض مناقشة التفاصيل بشأن الكاميرات، والمعدات، والدفع، والتواصل، خلال هذه الفترة ما قبل–ميرلين في لندن، وكان سمايلي واعيًا طوال هذا الوقت بأن ما يقوله هايدن منتقى بعناية فائقة من حقيقة أكبر، وربما مختلفة على نحو ما.

في هذه الأثناء كان كل من هايدن وكارلا يتلقّيان إشارات بأنّ كونترول بدأ يشك. كان كونترول مريضًا، بالطبع، ولكن بدا من الواضح أنّه لن يترك منصبه طالما أنّ هناك فرصة يمكن له فيها جعل كارلا بمثابة مكافأة نهاية الخدمة. كان سباقًا بين أبحاث كونترول وصحّته.

كان قد اقترب من كشف الأمور مرتين - مجددًا رفض هايدن الإفصاح عن التفاصيل - ولو لم يكن كارلا سريعًا، كان سيقع الجاسوس جيرالد في الفخ. كنتيجة لهذا الوضع المقلق، ولد ميرلين، وعملية تستيفاي أخيرًا. كان الهدف الأساسي من وتشكرافت هو تنظيم الأمور: أولًا، تنصيب أليلاين على العرش، وتعجيل سقوط كونترول. ثانيًا، بالطبع، منحت وتشكرافت المركز سيطرة مطلقة على النتاج المتدفق إلى مكاتب الحكومة. ثالثًا - والأهم على المدى البعيد، كما أكّد هايدن - جعلت السيرك بمثابة سلاح أساسي ضد الأهداف الأميركية.

«كم نسبة البضاعة الأصيلة؟»، سأله سمايلي.

من الواضح أنّ الجودة تنوّعت بحسب ما كان المرء يسعى إلى تحقيقه، قال هايدن. نظريًا، كان الابتكار سهلًا: كل ما كان على هايدن فعله هو إرشاد كارلا إلى مواطن جهل الحكومة، ثم يملأونها هم. مرة أو اثنتين، قال هايدن، كتب التقرير بنفسه. كانت تجربة ممتعة أن يستقبل المرء ويقيّم ويوزّع عمله الخاص. كانت فوائد وتشكرافت في ما يتعلق بأمور المهنة لا تُقدّر بثمنٍ طبعًا. وضعت هايدن بعيدًا عن متناول كونترول فعليًا، ومنحته قصة تخفٍّ ممتازة للقاء بولي متى شاء. كان يمكن لهايدن تصوير وثائق السيرك داخل مكتبه - بحجّة تجهيز المعلومات السطحية لبولي - ثم يعطيها لإيسترهيز مغلّفة بكثير من المعلومات التافهة، ويجعله ينقلها إلى المنزل الآمن في لوك غاردنز.

«كان عملًا كلاسيكيًا»، قال هايدن ببساطة. «كان بيرسي يدير الأمور، وأقوم أنا بتمرير ما يلزم، فيما كان روي وتوبي مسؤولَين عن التسليم».

هنا سأل سمايلي بهدوء ما إذا كان كارلا قد فكر بجعل هايدن مديرًا للسيرك فعليًا: لم يتعب نفسه بإيجاد قناع أساسًا؟ ماطل هايدن في الإجابة، فخطر لسمايلي أن كارلا، مثل كونترول، رأى أنّ هايدن سيعمل على نحو أفضل كرجلٍ ثانٍ لا أوّل.

عملية تستيفاي، قال هايدن، كانت رمية يائسة. كان هايدن واثقًا أن كونترول قد اقترب كثيرًا من اكتشاف كل شيء. كان تحليل الملفات التي نبشها كونترول قد أفضى إلى إدراك تام على نحو مزعج للعمليات التي كان هايدن قد كشفها، أو ساهم في إلغائها. كما نجح في تضييق مجال البحث إلى موظّفين برتبة وعمر محددين ...

«بالمناسبة، هل كان عرض ستيفستش حقيقيًا؟»، سأله سمايلي.

قال هايدن، وقد بدا مصدومًا: «يا للسموات، لا، بالطبع لا. كانت حيلة منذ البداية. ستيفستش موجود طبعًا. كان جنرالًا تشيكيًا بارزًا. ولكنه لم يقدّم عرضًا لأحد على الإطلاق».

هنا، أحسّ سمايلي بتلعثم هايدن. للمرة الأولى، بدا فعليًا غير مبالٍ بأخلاقية سلوكه. أصبحت تصرفاته دفاعية على نحو ملحوظ.

«من الواضح أننا كنا نريد التأكد من أن السيرك سيهتم للأمر، وكيف سيهتم ... ومن سيرسل. لم نكن نريد أن يختار فنّان أرصفة شبه غبي: كان ينبغي أن يكون عميلًا ذا شأن كي تسير الأمور كما هو مخطّط لها. كنا نعلم أنه سيعهد بالمهمة إلى شخص من خارج الإدارة الأساسية، وليس مخوّلًا له بمعرفة تفاصيل وتشكرافت. ولو اخترنا تشيكيًا، كان سيختار عميلًا يتحدث التشيكية، وهذا طبيعي».

«هذا طبيعي».

«أردنا عميلًا من قدامى السيرك: شخصًا يمكن له أن يهزّ جدران الهيكل».

«نعم»، قال سمايلي وقد تذكّر الشخص المتعرّق المرهق على قمة التل: «نعم، أدرك منطق الأمر».

«حسنًا، اللعنة، لقد أعدته إلى هنا»، صاح هايدن.

«أجل، هذا من لطفك. قل لي، هل جاء جِمْ لرؤيتك قبل أن يغادر من أجل مهمة تستيفاي؟».

«أجل، فعل هذا في الحقيقة».

«وماذا قال لك؟».

لبرهة طويلة، طويلة، تردد هايدن، ثم لم يُجِب. ولكن الإجابة كانت موجودة في جميع الأحوال، في الخواء المفاجئ لعينيه، في ذلك الظل من الندم الذي خيّم على وجهه. أتى ليحذّرك، فكر سمايلي؛ لأنه كان يحبك. أراد أن يحذّرك؛ كما جاء ليخبرني بأن كونترول جُنّ، ولكنه لم يجدني لأنني كنت في برلين. كان جِمْ يحميك حتى النهاية.

وكذلك، تابع هايدن، كان ينبغي أن يكون بلدًا ذا تاريخ قريب من الثورة المضادة: تشيكو كانت المكان الوحيد بصراحة.

لم يبدُ أنّ سمايلي مستعد للإنصات. فسأل:

«لمَ أعدتَ جم؟ من أجل الصداقة. أم لأنه لم يعد مؤذيًا إذ بتّ تحمل كل الأوراق في يدك؟».

لم يكن هذا فحسب، شرح هايدن. طالما أن جِمْ كان في سجن تشيكي (لم يقل إنه سجن روسي) فإن الناس ستتساءل عن مصيره، وتراه كمفتاح لحل اللغز على نحو ما. ولكن ما إن يعود، سيتآمر كل من في الحكومة لإبقائه هادئًا: كانت تلك هي الطريقة، في عملية تبادل أسرى.

«أنا متفاجئ لأن كارلا لم يقتله. أم أنه تراجع إكرامًا لك؟».

ولكن هايدن انجرف مجددًا إلى أطروحات سياسية فارغة.

ثم بدأ التحدث عن نفسه، وبدا، في عيني سمايلي، وكأنه بدأ يتقلص إلى شيء صغير وحقير. كان قد تأثر عندما علم أن يونسكو قد وعدنا قريبًا بمسرحية يبقى فيها البطل صامتًا فيما الجميع حوله يتحدثون باستمرار. عندما سيُقدم علماء النفس والمؤرخون البارزون على تدبيج دفاعهم عنه، كان يتمنى أن يتذكروا أنّ هذا ما كان يرى نفسه عليه. كفنان، كان قد قال كل ما يريد قوله في سن السابعة عشرة، وعلى المرء فعل شيء ما في سنواته

اللاحقة. كان شديد الأسف لأنه لن يستطيع أخذ بعض أصدقائه برفقته. وتمنّى أن يتذكره سمايلي بحب.

أراد سمايلي حينئذ أن يخبره أنه لن يتذكّره على هذا النحو على الإطلاق، وأمورًا أخرى إضافية، ولكن لم يعد هناك معنى، كما أن هايدن بدأ يعاني رعاف أنف مجددًا.

«أوه بالمناسبة، عليّ أن أطلب منك تجنّب الظهور على العلن. إذ إنّ مايلز سيركومب تسبّب بضجة كبيرة بشأن هذا».

هنا تمكّن هايدن من الضحك. بما أنّه ساهم في إرباك السيرك في السر، قال، ليست لديه أدنى رغبة بتكرار العملية في العلن.

قبل أن يغادر، طرح عليه سمايلي السؤال الوحيد الذي يهمه. وسأل:

«عليّ أن أنقل الخبر إلى آن. هل هناك شيء محدد تودّ أن أنقله لها؟».

تطلّب الأمر نقاشًا بشأن معنى سؤال سمايلي كي يفهمه. بدايةً، اعتقد بأنّ سمايلي قال «جان»، ولم يفهم لمَ لمْ يذهب إليها بعد.

«أوه آنك»، قال، كما لو كانت هناك الكثير من الآنات في الجوار. كانت تلك فكرة كارلا، شرح. كان كارلا قد علم منذ وقت طويل أنّ سمايلي يمثّل التهديد الأكبر للجاسوس جيرالد. «قال إنك بارع حقًا».

«شكرًا».

«ولكن لديك هذا الثمن الوحيد: آن. الوهم الأخير للرجل الخالي من الأوهام. خمّن أنه لو انتشر الخبر بأنني عشيق آن، فإنك لن تتعامل معي مباشرة في ما يتعلق بالأمور الأخرى». أصبحت عيناه، كما لاحظ سمايلي، شديدتي التركيز. قصديريتان، كما كانت آن تصفهما. «من دون أن أبالغ في هذه العلاقة، بل مجرد أن أنضمّ إلى الطابور. أوكي؟».

«أوكي»، قال سمايلي.

على سبيل المثال، في ليلة تستيفاي، كان كارلا صارمًا بشأن وجوب أن يكون هايدن مع آن. نوع من الأمان.

«ولكن ألم يكن هناك عثرة صغيرة تلك الليلة؟»، سأله سمايلي، متذكرًا سام كولنز، ومسألة ما إذا كان إليس قد أصيب. وافقه هايدن بشأن وجود هذه العثرة. لو تمّ كل شيء بحسب ما كان مخططًا له، كان ينبغي أن يصدر البلاغ الأول في تمام الساعة العاشرة والنصف. كان سيكون لدى هايدن فرصة لقراءة التلغراف في ناديه بعد أن اتصل سام كولنز بآن، وقبل أن يصل إلى السيرك ليتولّى الأمور. ولكن بسبب إصابة جم، حصل ارتباك لدى الجانب التشيكي، ولم يصدر البلاغ إلا بعد أن كان النادي قد أُغلق.

ثم قال، وهو يمدّ يده ليأخذ سيجارة أخرى من علبة سمايلي: « لحسن الحظ لم ينتبه أحد إلى الأمر. بالمناسبة، من كنتُ أنا؟»، سأله ليغير الموضوع. «لقد نسيت».

«الخياط. أنا كنت المتسوّل».

عندئذ كان سمايلي قد اكتفى، لذا انسحب إلى الخارج، من دون أن يودّعه. دخل إلى سيارته وقاد مسافة ساعة من دون وجهة واضحة، إلى أن وجد نفسه عند طريق جانبي يُفضي إلى أوكسفورد. توقف لتناول الغداء ثم عاد إلى لندن. لا يزال عاجزًا عن رؤية منزله في بايووتر، لذا ذهب إلى السينما، ثم تناول العشاء في الخارج، ليعود إلى المنزل عند منتصف الليل مخمورًا قليلًا ليجد ليكون ومايلز سيركومب على عتبة الدرج، فيما سيارة الرولز مركونة على بعد خمسين قدمًا، وقد قطعت الطريق على الجميع.

توجّهوا إلى سارات بسرعة جنونية، وهناك، تحت السماء الصافية ليلًا، وقد صُوّبت إليه أضواء عدة مصابيح يدوية، ينظر إليه عدد من نزلاء الحضانة شاحبي الوجوه، كان بل هايدن جالسًا على مقعد في الحديقة ونظراته موجّهة نحو حقل الكريكت المضاء بنور القمر. كان

يرتدي بيجاما مقلَّمة تحت معطفه؛ بدت أشبه بثياب سجين. كانت عيناه جاحظتين ورأسه مائل إلى جانب على نحو غير طبيعي، مثل رأس طائر كُسرت عنقه.

لم يكن ثمة جدل كبير بشأن ما حدث. في العاشرة والنصف تذمّر هايدن أمام حراسه بشأن الأرق والغثيان: قرر تنشق بعض الهواء المنعش. وبما أن قضيته اعتُبرت مغلقة، لم يفكّر أحد بمرافقته، لذا اتجه نحو الظلام لوحده. تذكّر أحد الحراس أنه ألقى نكتة عن «تفحّص حالة عصا الكريكت». أما الآخر فقد كان مشغولاً بمشاهدة التلفاز ولا يتذكر شيئًا. وبعد نصف ساعة شعروا بالقلق، لذا ذهب الحارس الأكبر رتبة لإلقاء نظرة، فيما بقي مساعده في حال عاد هايدن. وجد هايدن حيث يجلس الآن؛ اعتقد الحارس أنه نائم. وحين وقف بجانبه، شمّ رائحة كحول – يعتقد بأنه جنّ أو فودكا – ثم ظنّ أنّ هايدن سكران، الأمر الذي فاجأه لأن الخمور ممنوعة في الحضانة رسميًا. وعندما حاول رفعه، ارتخى رأسه ومال، فيما سقط جسده بلا حراك. وبعد أن تقيّأ (كانت الآثار هناك قرب الشجرة)، أعاده الحارس إلى المقعد وشغّل أجهزة الإنذار.

سألهما سمايلي: «هل تلقّى هايدن أي رسالة خلال اليوم؟».

«لا». ولكن كانت بدلته قد وصلت من المغسلة، ولعل رسالة أُخفيت فيها – دعوته إلى موعد مثلًا.

قال الوزير برضا موجّهًا كلامه إلى جسد هايدن الميت: « إذًا فعلها الروس لكبحه عن الوشاية، كما أعتقد. يا للعصابة اللعينة».

قال سمايلي. «لا، إنهم يتباهون بإعادة رجالهم إلى الوطن».

«إذًا من فعلها بحق الجحيم؟».

انتظر الجميع رَدّ سمايلي، ولكن لا إجابة. انطفأت المصابيح، وتحركت المجموعة بتثاقل نحو السيارة.

سأل الوزير: «هل يمكن أن نفقده بهذه السهولة؟».

«لقد كان مواطنًا سوفياتيًا. لندعهم يأخذونه»، قال ليكون، وهو لا يزال يراقب سمايلي في الظلام.

اتفقوا على أنّ هذا أمر مؤسف بشأن الشبكات. من الأفضل أن يروا ما إذا كان كارلا سينفّذ الصفقة بكل الأحوال.

«لن يفعل»، قال سمايلي.

* * *

مستعيدًا كل هذا في معتزله في مقصورته في الدرجة الأولى، كان ثمة إحساس غامض يخامر سمايلي بانه كان يراقب هايدن من الطرف الخاطئ للتلسكوب. بالكاد تناول طعامًا منذ الليلة الماضية، ولكن البار كان مفتوحًا معظم الرحلة.

مغادرًا محطة كنغز كروس كان قد أحس بأنه قد أحب هايدن، واحترمه: في نهاية المطاف، كان بِل رجلًا لديه شيء يقوله، وقد قاله. ولكن منظومته الأخلاقية رفضت هذا التبسيط. إذ كلما تاه في التوصيف الفوضوي لهايدن عن نفسه، زاد وعيه للتناقضات. حاول بدايةً أن يرى هايدن عبر السمات الرومانتيكية لمثقّف الثلاثينات الذي كانت موسكو هي قِبلته. «كانت موسكو عقوبة هايدن»، قال لنفسه. «كان بحاجة إلى تناغم حَلٍّ تاريخي واقتصاديّ». بدا هذا سببًا نافلًا، لذا أضاف المزيد إلى الرجل الذي يحاول أن يحبه: «كان بِلْ رومانتيكيًا ومتكبرًا. وكان يريد الانضمام إلى الطليعة النخبوية ليقود الجماهير ويخرجهم من الظلام». ثم تذكر اللوحات نصف المكتملة في صالة الفتاة في كنتش تاون: كئيبة، وضيّقة، ومبالَغ بها. كما تذكّر طيف والد هايدن المتسلط - كانت آن تدعوه الوحش ببساطة - وتخيّل ماركسية بِلْ وهي تعوّض نقصه كفنان، وطفولته القاسية. لاحقًا، بالطبع، لم يعد يهم ما إذا كانت العقيدة هزيلة. كان بل قد انطلق وكان كارلا سيعرف كيف يبقيه هناك. الخيانة مسألة عادة على نحو كبير، قرر سمايلي، وهو يتذكر بِلْ مرة أخرى وهو مستلقٍ

على الأرض في منزل بايووتر، فيما كانت آن تشغّل له الموسيقا على الغراموفون.

كان بِلْ يعشق الموسيقا أيضًا. ولم يشك سمايلي بهذا ولو للحظة. الوقوف في منتصف خشبة مسرح سرّية، ووضع العوالم في مواجهة، حيث يكون هو البطل والكاتب في آن؛ أوه، كان بِلْ يعشق هذا كليًا.

نفض سمايلي كل هذه الأفكار، مشكّكًا أكثر من أي وقت مضى بالأنماط النموذجية للدوافع البشريّة، مستبدلًا إياها بصورة تلك الدمية الروسية التي حين تفتحها تجد دمية داخلها، ثم دمية أخرى داخل الثانية.. من بين كل البشر، كان كارلا وحده القادر على رؤية الدمية الصغيرة الأخيرة داخل بل هايدن. متى جُنّد بل، وكيف؟ هل كان ميله إلى اليمين في أوكسفورد زائفًا، أم أنه - للمفارقة - حالة الخطيئة التي أخرجه منها كارلا نحو الغفران؟

اسأل كارلا: لم أفعل للأسف.

اسأل جم: لن أفعل أبدًا.

عند الأفق الشرقيّ الذي ينطفئ ببطء، كان الوجه العنيد لكارلا يحل محل قناع الموت المتصلّب لبِلْ هايدن. «ولكن لديك هذا الثمن الوحيد: آن. الوهم الأخير للرجل الخالي من الأوهام. خمَّنَ بأنه لو انتشر الخبر بأنني عشيق آن، فإنك لن تتعامل معي مباشرة في ما يتعلق بالأمور الأخرى».

وهم؟ هل كان هذا توصيف الحب عند كارلا حقًا؟ وعند بِلْ؟

«هيه»، صاح الحارس، وربما كان هذا للمرة الثانية. «هيا، تريد النزول عند غرمبسي، صحيح؟».

«لا، لا: إمنغهام». ثم تذكّر إرشادات مندل، وقفز باتجاه رصيف المحطة.

لم يجد تاكسي، لذا استفسر من مكتب التذاكر، ثم شق طريقه عبر الساحة الفارغة، ووقف عند إشارة خضراء تقول «طابور». كان يأمل أن تكون بانتظاره، ولكن لعلها لم تستلم رسالته. آه حسنًا؛ البريد في الكريسماس: من بوسعه لومهم؟ تساءل كيف ستتلقى أنباء بِلْ؛ ولكن، حين تذكر وجهها الخائف على الكورنيش، أدرك أنّ بِلْ كان قد مات أساسًا بالنسبة إليها آنذاك. كانت قد أحسّت ببرودة لمسته، وخمّنت ما يكمن وراءها على نحو ما.

وهم؟ كرر لنفسه. خالٍ من الأوهام.

كان الجو قارس البرودة؛ كان يتمنى حقًا أن يكون عشيقها البائس قد أمّن لها مكانًا دافئًا لتعيش فيه.

تمنّى لو أحضر حذاءها الفرو من الخزانة تحت الدرج.

تذكّر نسخة غريملشاوزن، التي لم يستعِدها بعد من نادي مارتنديل.

ثم رآها: سيارتها المتهالكة تقترب عبر الطريق التي كُتب عليها «للحافلات فقط» وآن تقود السيارة محدّقة بالاتجاه الخاطئ. رآها تخرج، تشغّل الأضواء المتقطّعة لمصابيح السيارة، وتمشي باتجاه المحطة لتستعلم: طويلة وماكرة، جميلة على نحو استثنائيّ، وهي – على نحو كليّ – امرأة لرجل آخر.

طوال ما تبقّى من ذلك الفصل الدراسي، كان جِمْ بريدو يتصرّف، بحسب ما رآه روتش، كما كانت أمه تتصرف بعد رحيل والده. كان يقضي وقتًا طويلًا بالانشغال في أمور صغيرة، كتصليح إنارة ملعب المدرسة، أو رتق شبكتَيْ كرة القدم، وفي دروس اللغة الفرنسيّة كان يفرض عقوبات قاسية على أخطاء صغيرة. ولكن الأمور الكبيرة، مثل نزهاته ولعبه الغولف منفردًا، فتلك تخلّى عنها تمامًا، ليعزل نفسه في المساء محاذرًا الاقتراب من القرية. أما أسوأ شيء فقد كانت نظرته الثابتة الخاوية عندما كان روتش

يراه في حالات شروده، والكيفية التي ينسى فيها الأشياء في الصف، حتى علامات التصحيح الحمراء كان روتش يذكّره كي يسلّمها كل أسبوع.

وبهدف دعمه، أخذ روتش دور حامل المصباح الصغير في الإنارة. وبذا، أثناء البروفات، كان جِمْ قد عهد إليه بإشارة خاصة، لبل دون أحد سواه. كان عليه رفع ذراعه ثم يُنزلها إلى جانبه، عندما كان يريد إطفاء الأضواء الأمامية للخشبة.

ومع الوقت، بدا أن جِمْ يتجاوب مع العلاج، بكل الأحوال. أصبحت عيناه أصفى، وعاد هو إلى يقظته من جديد، عندما تلاشى ظل وفاة أمه. في ليلة المسرحية، كان مرحًا على نحو لم يره عليه بل روتش من قبل. «هيه جايمو أيها الولد السخيف، أين معطفك، ألا ترى بأنها تمطر؟»، صاح، وهم يعودون مغمورين بالإرهاق، ولكن منتصرون، إلى البناء الرئيسي بعد أن أنهوا عرضهم. «اسمه الحقيقي بل»، سمعه يفسّر لأحد الآباء الزائرين. «كنا وافدَيْن جديدَيْن معًا».

أما المسدس، كما أقنع بل روتش نفسه أخيرًا، فلم يكن إلا حلمًا.